دراسات في

علوم القرآن الكريم

تأليف

أ . د / فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية

كلية المعلمين بالرياض

دراسات في
علوم القرآن الكريم

تأليف

أ. د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي
أستاذ الدراسات القرآنية
كلية المعلمين بالرياض

طبعة كاملة
تشمل مقررات وتوصيف مقررات علوم القرآن الكريم
في كليات الجامعات
وفي كليات المعلمين والمعلمات وكليات البنات في المملكة

ⓒ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرومي ، فهد بن عبدالرحمن بن سليمان
دراسات في علوم القرآن الكريم. / فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي - ط١٤ - الرياض ، ١٤٢٦هـ
٦٦٦ص ؛ ١٧× ٢٤سم

ردمك: ١-٢٦٢-٤٩-٩٩٦٠

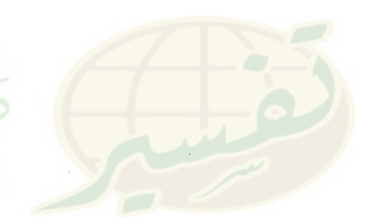
١- علوم القرآن أ.العنوان

ديوي ٢٢٠ ١٤٢٦/٤٥٧٢

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٤٥٧٢
ردمك: ١-٢٦٢-٤٩-٩٩٦٠

الطبعة الرابعة عشرة
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

عنوان المؤلف : المملكة العربية السعودية - الرياض
ص .ب ١٥١٧٦ الرياض ١١٤٤٤
هاتف : ٤٩٦٤٤١١ - ١ - ٠٠٩٦٦
جوال : ٠٥٠٠٦٥٥٤١١









بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهْده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

أما بعد:

فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدى هدى محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها وكلُّ محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار.

وإن القرآن كلام الله سبحانه، أودع فيه الهدى والنور، وأبان فيه العلم والحكمة، فأقبل العلماء ينهَلون من معينه، ويَعبّون من نُقَاخه، فاستنبط الفقهاء من أحكامه، واهتدى أهل البيان بنظامه، وتفكر المتفكرون في قصصه وأخباره، وتأملت طائفة في حججه وبراهينه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠-٧١.

وأقبلت طائفة على تاريخ نزوله، ومكيه ومدنيه، وأول ما نزل وآخر ما نزل، وأسباب النزول، وجمعه وتدوينه وترتيبه، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومبينه، وأمثاله وقصصه، وأقسامه، وجدله، وتفسيره، حتى أصبحت هذه المباحث علوماً واسعةً غاص في بحورها العلماء، وإستخرجوا منها الدُّرر، واتسعت هذه الأبحاث حتى احتاج الناس إلى من يجمعها بإيجاز، ويتحدث عنها باختصار.

وقد ألف العلماء في كل عصر مؤلفات تناسب معاصريهم في الأسلوب والتنظيم والترتيب والتبويب وما زالوا يؤلفون، وكل منهم يبذل جهده ويتحرى ما وسعه التحري أن يبسط هذه العلوم بأسلوب ميسر يدني فيه البعيد، ويوضح فيه المستغلق، ويجلو به المبهم.

ثم رأيت أن أشارك بالتأليف في هذه العلوم بجهدي المقل وإن لم أكن من أربابها بأسلوب حرصت على أن يكون ميسراً، وبطريقة حَرَصت على أن تناسب الراغبين في التحصيل.

وقد تتابعت طبعات هذا الكتاب وفي بعضها تصحيحات وإضافات يسيرة لا تتجاوز الصفحات المعدودة، وفي بعضها إضافة عدة أبواب، وقد اكتملت مباحثه في هذه الطبعة حتى شملت ـ كما أحسب ـ مقررات علوم القرآن الكريم في الجامعات وكليات المعلمين والمعلمات وكليات البنات في المملكة، ولا يفوتني أن أشكر الأخوة والأخوات الذين اقترحوا عليّ الكتابة في بعض مباحث علوم القرآن لتغطية المقررات التي يُدَرِّسونها لطلابهم وطالباتهم شاكراً ثقتهم بأخيهم، وأسأل الله لنا ولهم وللجميع العون والتوفيق إنه سميع مجيب.

المؤلف

الرياض ٢٢/ ٦/ ١٤٢٥هـ



تمهيد[1]

المعجزة الكبرى:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، قال جل جلاله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2] وركّب خلقَه من جسد وروح، وجعل للجسد غذاءَه وللروح غذاءَها.

أما الجسد فجسم مادي يتغذى بالماديات، وهي طعامه وشرابه، وعلى الجسد أن يسعى لتحصيلها بالزراعة أو الصيد أو غيرها. وقد أعان الله الأجساد بتقريب غذائها إليها، فليس عليها إلا أن تبذر البذرة أو تغرس الغرسة وترعاها فتنبت بإذن ربها، ولو سلب الله من النبات هذه الخاصية لما كان لهذه الأبدان من قوة للإنبات ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[3] وأدنىٰ إليها الماء ليسهل إخراجه ولو بَعُدَ غورُه لما استطاعت إخراجَه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[4].

أما الروح وما أدراك ما الروح فقد أعانها الله تعالى على تحصيل غذائها وأدناه إليها، وأرسل الرسل تهدي إليه، ووهب العقول تؤمن به.

---

(١) قد أتوسع في بعض المباحث بذكر مقدمة، أو تمهيد، أوزيادة أمثلة، أو تقسيمات، وللمعلم أو المعلمة الاقتصار على ما يراه مناسباً، وحذف ما يرى عدم ضرورته أو عدم الحاجة إليه في المقرر الذي يدرسه.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٢.

(٤) سورة الملك: الآية ٣٠.

فإذا انحرفت أمة من الأمم عن سمت الصراط المستقيم أرسل الله إليهم رسولاً منهم يعيدهم إليه، ويظهر الله على يديه من المعجزات ما يَظهر بها صدقُه، وتقوم بها حجتُه.

وقد كانت سنة الله تعالى في المعجزات أن تكون المعجزة التي يظهرها الله على يد كل نبي من أنبيائه من جنس ما برع فيه قومه وتفوقوا، حتى تكون أقوى حجةً، وأظهر برهاناً، وأصدق دليلاً.

والتحدي أقوى ما يكون إذا تحديت إنساناً فيما ظهر فيه وتفوق، فإذا تحدى شاب في سباق طويل رجلاً عجوزاً لا يكاد يقوم من مقعده إلا بعصا تسنده، ولا يكاد يمشي إلا دبيباً، فإن تحديه هذا يكون موضع سخرية وهزء لا محل احترام وتقدير، ولكن التحدي يلقى التقدير إن تحدى شاباً اشتهر بسرعة عَدوِه وتفوق فيه.

وهكذا كانت المعجزات التي يظهرها الله على يد أنبيائه تكون في نطاق ما يعرفون، بل فيما فاقوا فيه معاصريهم.

وتدبر - مثلاً - معجزة موسى عليه السلام. أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قوم قد نالوا في السحر درجة وشأواً بعيداً حتى امتلأت البلاد منهم، والسحر له حدّ ينتهي إليه لا يتجاوزه، فالساحر لا يستطيع أن يحول قطعة ورق إلى فئة نقدية (حقيقة) بل (يخيل) لك ذلك، فإذا غاب عنك عادت إلى الحقيقة فإذا بها قطعة ورق.

والسحرة يلقون حبالهم وعصيهم أمام موسى (فيخيل) إليه أنها تسعى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[1] وذلك لأنها لم تتحول حقيقة وإنما تحولت خيالاً.

---

(١) سورة طه: الآية ٦٦.

وحين ألقى موسى عليه السلام عصاه لم يقل الله: يخيل إليه أنها تسعى، وإنما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[1].

ذلكم أنها تحولت إلى ثعبان حقاً، وهذا لا يمكن حدوثه في عالم السحر[2].

إذاً فمعجزة موسى عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه فكلاهما تحويل من حال إلى حال، إلا أن السحر من حقيقة إلى خيال، وأما معجزة موسى فمن حقيقة إلى حقيقة، وإذا عجز عنه أولئك فهم عن غيره مما لم يبرعوا فيه أعجز.

ولهذا كان أول من أدرك إعجاز موسى عليه السلام هم السحرة أنفسهم، أدركوا من فورهم أن معجزة موسى عليه السلام ليست بسحر، وأن السحر لا يصل إلى درجتها، وأنها لا يمكن أن تكون من موسى، بل هي من رب موسى[3]، وإذا كانت من ربه فإنما أظهرها على يديه لتكون حجة على صدقه، فأذعنوا من فورهم، واستولى الإيمان على قلوبهم، ولم يستأذنوا أحداً؛ لأن ما أدركوا أقوى من أن يترك لهم فرصة للتردد والتشاور.

وانظر معجزة عيسى عليه السلام، نما وازدهر الطب في عهده، وبرع فيه قومه، والطب له حَدُّه الذي ينتهي عنده في علاج الأبدان، فهو يعالجها ما دامت الروح فيها لم تخرج، أما إذا خرجت فقد عجز الطب والأطباء،

---

(١) سورة طه: الآية ٢٠.

(٢) ينبغي أن نفرق هنا بين حقيقة السحر، وتأثير السحر، فتأثيره حقيقي، فقد يؤثر في العين فترى ما لا حقيقة له، وقد يؤثر في القلوب فيكره الزوج زوجته، وتكره الزوجة زوجها ونحو ذلك.

(٣) لذلك لم يقل السحرة: آمنا بموسى، وإنّما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[طه: ٧٠].

ومن هنا بدأت معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1].

فمعجزته عليه السلام من جنس الطب الذي برع فيه قومه، وإذا عجزوا عن الإتيان بمثل ما برعوا فيه فهم عن سواه أعجز، وبهذا تكون حجته على قومه أقوى وأظهر.

أما صالح عليه السلام فقد أرسله الله تعالى إلى قوم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ولا تزال آثارهم باقية بزخارفها ونقوشها. والنحات مهما بلغ في فنه يقف عند حدّ التصوير، لا يستطيع أبداً أن يبعث الحياة فيما نحت. وجاءت معجزة صالح بأن أخرج لهم بإذن الله من الصخر[2] ـ الذي ينحتون منه ـ ناقة ذات روح تأكل وتشرب وتدر الحليب. والنحات يستطيع أن ينحت من الصخر شكل ناقة لكنه لا يستطيع أن يبعث فيها الحياة، فكانت المعجزة من جنس ما تفوقوا فيه وإن لم تكن مثله.

أما العرب وقت بعثة الرسول ﷺ فإن نظرة فاحصة إلى مجتمعهم تظهر جلياً أن المجتمع كان مجتمعاً جاهلياً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

أما السياسة فكانت الحكومات تحيط بهم: الأكاسرة في فارس، والقياصرة في الروم، والمقوقس في مصر، والنجاشي في الحبشة، أما الحجاز فلم يكن ثَمَّ ملك أو رئيس أو أمير، وإنما زعماء وصناديد لكل قبيلة تُفَرِّقُ أكثر مما تجمع، وتُشَتِّتُ أكثر مما تُوَحِّدُ، ولذا كان العرب أمة مستضعفة هانت على الآخرين. يذهب زعماؤها إلى الشام مثلاً ويدخلونها

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري، جـ١٢، ص٥٢٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير، جـ٢، ص٢٤٥.

كما يدخلها أي إنسان لا مزية له ولا مقام، ولو سافر زعيم فارس إلى الروم لاستقبل بالحفاوة، وضربت له السُّرادِق، واستقبل استقبالاً مميزاً، أما زعماء العرب فكانوا يدخلون الأسواق، ويبيعون ويشترون لم يعرف أحد بدخولهم ولم يبال أحد بخروجهم، فأنَّى لمثل هذه الزعامة أن يكون لها جانب مهاب.

وأما الاقتصاد فقوامه الصناعة والزراعة والتجارة. أما الصناعة فلم يكن ثَمَّ صناعة، وإن وجد صناع فنجار فارسي، أو حداد رومي، أو صناعات لا تكاد تذكر.

أما الزراعة فأرضهم غير ذات زرع، وإن وجد فالمياه شحيحة، والخبرة نادرة، إلا النخيل على قِلَّته فهو النوع الذي يمكن تخزينه والتجارة به من بلد إلى بلد، وما سواه فإما أنه لا ينبت في أرضهم، أو لا يمكن الاحتفاظ به والاتجار لسرعة تلفه في مثل أجوائهم، فالزراعة ليست ذات جدوى اقتصادية في بلادهم.

أما التجارة فكانت تقوم على رحلتين: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. وما ظنكم بتجارة تلكم وسائلها وإمكاناتها، وما تجدي بضاعة تحملها النوق من الشام أو من اليمن إلى مكة بعد مُضِيّ فترة طويلة بين رحلة وأخرى.

وإذا كانت الصناعة والزراعة والتجارة على هذا الحال، فكيف سيكون اقتصاد البلاد؟! وإذا كان هذا اقتصادهم فكيف ستكون حالتهم المعيشية؟!

وفي الناحية الاجتماعية كانوا قبائل شتى، تقع الحرب بين القبيلتين لأتفه سبب وأهونه، وتشعل الحرب في أيام ولا تنطفئ إلا بعد سنوات.

حتى الأسرة يبدو التفكك فيها ظاهراً، وكيف ترجو الترابط الأسري في مجتمع يمتهن المرأة ويعاملها كالسلعة، تباع وتشترى، وتوهب وتكترى، وتورث كما يورث متاع الدار، ومن ثم فلا تعجب إن خمدت عاطفة الأبوة فيُقْدِم الأب على قتل أولاده لا لشيء إلا خشية الإملاق، ويدفن ابنته وهي حية لا لشيء إلا خشية العار.

تأمل في هذا المجتمع حيث لا سياسة توحد صفوفهم، ولا اقتصاد يجمع كلمتهم ويوحد مصالحهم، ولا سلام يسود بينهم، ديدنهم توارث العداوات والأحقاد، ودأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأصنام والأوثان[1].

وإذا كان الأمر كذلك لا سياسة تشغلهم في بحث شؤون الدولة وإصدار الأنظمة والقوانين، وبحث العلاقات السياسية مع الدول المجاورة، ولا اقتصاد يجمعهم للتداول في أمره والتماس السبل الاقتصادية والمعاملات التجارية، أو صناعة تشغل وقتهم، أو زراعة تملأ فراغهم، إذا كان الأمر كذلك فإن الفراغ عندهم كبير لم يجدوا ما يملؤوه به إلا الاجتماع في الأسواق والدور، وأهون ما تملأ به هذه المجالس هي المحادثة، فلا عجب أن برع هؤلاء في أساليبها، وتذوقوا بليغها، وطربوا لبيانها وبديعها.

ولا عجب أن عقدوا للكلمة أسواقاً[2] يعرضون فيها قصائدهم وخطبهم، وأن ترسل كل قبيلة وفدها، يلتف حول شاعرها، يمدح قبيلته ويمجد مآثرها، ويعلن محاسن قومه، والناس يصدقون الشاعر وإن كانوا يعلمون كذبه، ويرددون أبياته وإن كانوا يعرفون مبالغتها أو افتراءها.

---

(١) هذا لا يعني تجردهم من الأخلاق السامية، فقد كانوا أهل حميّة وأَنَفَة، وعِزَّة وكرامة، ووفاء بالعهود، وإكرام للضيف.

(٢) مثل سوق المُشَعَّر بالبحرين، وسوق الشِّحْر بين عمان وعدن، وسوق ذي المجاز في عرفة بمكة، وسوق مجنة، وسوق عكاظ بالطائف، وسوق حباشة بمكة.

ولا عجب ما دامت هذه مكانة الكلمة أن تهون قبيلة إذا هُجيت بقصيدة وإن كانت كاذبة، وأن يرفع أتباع القبيلة رؤوسهم فخراً إن مُدِحوا بقصيدة، وما ذاك إلا لسلطة الكلمة بينهم فالكلمة في تلك الفترة لها سلطتها ترفع فيهم وتضع.

وحين أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة خيراً، واقتضت حكمته أن يبعث إليهم رسولاً يخرجهم من الظلمات إلى النور، جاءت المعجزة وفق سنة الله في إظهار المعجزات التي جاءت على أيدي الأنبياء من قبله. فكانت معجزته ﷺ من جنس ما تفوقوا فيه، وملك ألبابهم، وسيطر على عقولهم. جاءت معجزته قرآناً يُقرأ ويُسمع، ويمسك البلاغة من أطرافها، ويملك الإعجاز من مجامعه.

وحين ناوءوه وحاربوه وطاردوه هو وأهله وعشيرته وأصحابه، وبذلوا كل ما يستطيعون للقضاء على دعوته، أظهر لهم سبيلاً واحداً لذلك إن استطاعوا بأن يأتوا بمثل هذه القرآن، أو بمثل عشر سور، أو بمثل سورة، أو بمثل حديث منه، وكان هذا العرض أشد عليهم مما هم عليه من حربه، لأنهم في حربه يؤملون القضاء على دعوته، أما فيما تحداهم فيه فإنهم يعرفون سلفاً عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، ومن ثَمَّ لم يحاول أحد منهم ـ مجرد محاولة ـ أن يأتي بمثل هذا لأنه يعرف ـ سلفاً ـ أن لا سبيل إلى ذلك، وأن مجرد المحاولة سيجعله مثار هزء وسخرية أمام مجتمعه، تماماً كمثل محاولة ذاك الذي يحاول أن يقفز بقدميه ناطحة من ناطحات السحاب. إن مجرد محاولته مثار هزء وسخرية، فاختاروا سبيل الحرب مع شدته على الإتيان بمثل هذا القرآن.

فإن قلتَ: إذا كان القوم يدركون إعجاز القرآن فلِمَ لم يؤثر في قلوبهم ويذعنون له؟

قلتُ: إن القوم أدركوا هذا التأثير ولم يقفوا منه موقف المتفرج، وإنما سعوا بكل ما في وسعهم لمحاصرته.

فكانوا يحذرون من مجالسة الرسول ﷺ، وكانوا يستقبلون القوافل القادمة إلى مكة، ويحذرونهم أول ما يحذرونهم من مجالسة محمد ﷺ أو الاستماع إليه. فإن صدع ﷺ في مجتمع بالقرآن وجهر به ضجوا بأصواتهم حتى لا يصل صوته إلى الآذان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1] لأنهم يعرفون أن مجرد السماع له تأثيره القوي.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[2].

لكن هذا التأثير عند سماع القرآن لا يجدي إذا كان هناك عناد واستكبار؛ لأن العناد لا تجدي معه حجة، ولا ينفع معه البرهان.

وكان العناد هو المانع لكثير من أهل مكة عن الإسلام، وحين لا يكون ثَمَّ عناد نرى التأثير القرآني، فأهل المدينة مثلاً أرسل إليهم الرسول ﷺ رجلين هما مصعب بن عمير وعبد الله ابن أم مكتوم[3] ـ رضي الله عنهما ـ فجلسا هناك يقرآن القرآن والناس يستمعون، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى دخلت المدينة في الإسلام وفتحت أبوابها لرسول الله ﷺ، ولهذا قيل: «فتحت البلاد بالسيف وفتحت المدينة بالقرآن»[4].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام، جـ٢، ص٧٧-٧٩، والكامل في التاريخ: ابن الأثير، جـ٢، ص٦٧-٦٨.

(٤) تهذيب الكمال: المزي، جـ٢٥، ص٦٥، ومجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٣، ص٢٩٨.

فإن قلتَ: ما الدليل على أن العناد هو المانع من التأثر بالقرآن؟

قلتُ: الأدلة كثيرة يكفي منها اعتراف صريح لزعيم من زعماء قريش هو أبو جهل، فقد روى ابن هشام أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شَرِيق خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا... وحصل في الليلة الثانية ما حصل في الأولى.. وحين التقوا في الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. وسأل الأخنس بن شَرِيق أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من محمد، فقال: ماذا سمعتُ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الرُّكَب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا!! والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه[1].

والتقى الأخنس بن شَرِيق، وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هٰهنا أحد يسمع كلامك غيري. فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسِّقاية والحِجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟[2].

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ١، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٢١٨ في الآية: ٣٣ الأنعام.

حتى أبو طالب عمّ الرسول ﷺ أدرك صدق الرسول ﷺ ولم يمنعه من الإسلام إلا خشية الملامة من قومه والمسبة فهو يقول:

فوالله لولا أن أجيء بسُبَّةٍ ... تُجَرّ على أشياخنا في المحافلِ

لكنّا اتبعناه على كل حالةٍ ... من الدّهر جِدّاً غيرَ قَولِ التهازلِ

لقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لدينا ولا يُعنَىٰ بقول الأباطلِ

إلى أن قال:

فأَيَّدَه ربُّ العباد بنَصْرِه ... وأظهر ديناً حقُّه غيرُ باطلِ[1]

وقال أيضاً:

ولقد علمتُ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مَسَبَّةٍ ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

كما حكى القرآن الكريم اعتراف الكفار بسلامة القرآن وإعجازه، واعترافهم أن المانع لإسلامهم واقتناعهم ليس الضعف في حجج القرآن وبراهينه، وإنما هو الحسد أن ينزل هذا القرآن على محمد ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2].

ويظهر هذا في قول الوليد بن المغيرة حين قال: «أينزل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها!»[3].

وبلغ عنادهم أقصاه حين أعلنوا رفضهم لقبوله حتى وإن كان حقاً حين

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ١، ص٢٩٩.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ١، ص٣٨٧.

قالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

ولعل في هذا دليلاً ظاهراً على أن المانع من إيمان أولئك كان العناد.

أما طالبوا الحق فقد ملك القرآن أفئدتهم، وهيمن على قلوبهم، وزادهم خشوعاً، فأذعنوا وأسلموا وأقبلوا على رسول الله ﷺ يتلو عليهم الآيات ويزكيهم.

وقد كان أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ عرباً خلصاً، يفهمون القرآن الكريم بمقتضى اللغة والسليقة العربية، فإن اشتبه عليهم لفظ أو غمض عليهم معنى سأل بعضهم بعضاً وإلا سألوا الرسول ﷺ فبينه لهم.

وما زالوا يقرؤون القرآن ويتدبرون معانيه ويتدارسون أحكامه حتى حفظه كثير منهم، واشتهر آخرون بدقة تفسيره، واشتهرت طائفة بإحكام تلاوته، وبهذا نشأت علوم القرآن الكريم في وقت مبكر.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

تفسير

تعريف علوم القرآن الكريم

علوم القرآن مركب إضافي يتكون من كلمتين (علوم) و(القرآن)، والمقام يقتضي أن نُعَرِّفَ كل كلمة وحدها لغةً واصطلاحاً، ثم نعقب على ذلك بتعريفهما معاً مركبتين تركيباً إضافياً، ثم التعريف الاصطلاحي لهما.

تعريف العلوم:

العلوم جمع علم، والعلم نقيض الجهل، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة، ويراد به إدراك الشيء بحقيقته أو اليقين، أو هو نور يقذفه الله في القلب.

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، مثل علم النحو، وعلم الطب، وعلم الكيمياء.

ويجمع على (علوم)، وقد تسمى به المباحث التي تتناول موضوعاً واحداً مثل: علوم العربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية.

تعريف القرآن لغة:

اختلف العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فليس بفعل ولا حرف. وهذا الاسم شأنه شأن الأسماء في العربية إما أن يكون جامداً أو مشتقاً.

فذهب جماعة من العلماء إلى أنه اسم جامد غير مهموز قال الشافعي: «وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القران اسم وليس بمهموز،

ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآناً، ولكنه اسم للقران مثل التوراة والإنجيل، يَهْمِزُ قرأت ولا يَهْمِزُ القران ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يَهْمِزُ قرأت، ولا يَهْمِزُ القرآن»[1] وبه قرأ ابن كثير.

وذهبت طائفة إلى أن هذا الاسم مشتق ثم افترقوا إلى فرقتين:

فقالت فرقة منهم: إن النون أصلية وعلى هذا يكون الاسم مشتقاً من مادة (ق ر ن) ثم اختلفوا:

١ ـ فقالت طائفة منهم الأشعري[2]: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما، ومنه سُمِّي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.

٢ ـ وقالت طائفة منهم الفَرَّاء[3]: إنه مشتق من القرائن جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعضاً.

وقالت فرقة منهم: إن الهمزة أصلية ثم افترقوا أيضاً إلى فرقتين:

١ ـ فقالت طائفة منهم اللحياني[4]: إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[5] أي: قراءته.

٢ ـ وقالت طائفة منهم الزجاج[6]: إنه وصف على وزن فُعلان مشتق من القَرْء بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماءَ في الحوض إذا جمعه.

---

(١) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، جـ٢، ص٦٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٧٨.

(٣) الإتقان، جـ١، ص٨٧.

(٤) المرجع السابق: نفس الموضع.

(٥) سورة القيامة: الآيتان ١٧-١٨.

(٦) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٧٨.

قال ابن الأثير: «وسمي القرآن قرآناً؛ لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران»[1].

ولعل الراجح هو ما ذهب إليه اللحياني والزجاج أن الهمزة أصلية وأن لفظ القرآن مهموز وصف أو مصدر، وأما ترك الهمز فيه في بعض القراءات فهو من باب التخفيف ونقل حركتها إلى ما قبلها، وهو كثير شائع، ثم نقل من المصدرية أو الوصفية وجعل علماً كما ذهب إليه محققو الأصوليين[2].

تلكم خلاصة الأقوال في تعريف القرآن لغةً، ولعل الرسم التوضيحي يزيدها بياناً، ونستطيع أن نصور هذه الأقوال بطريقتين:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، جـ٤، ص٣٠.

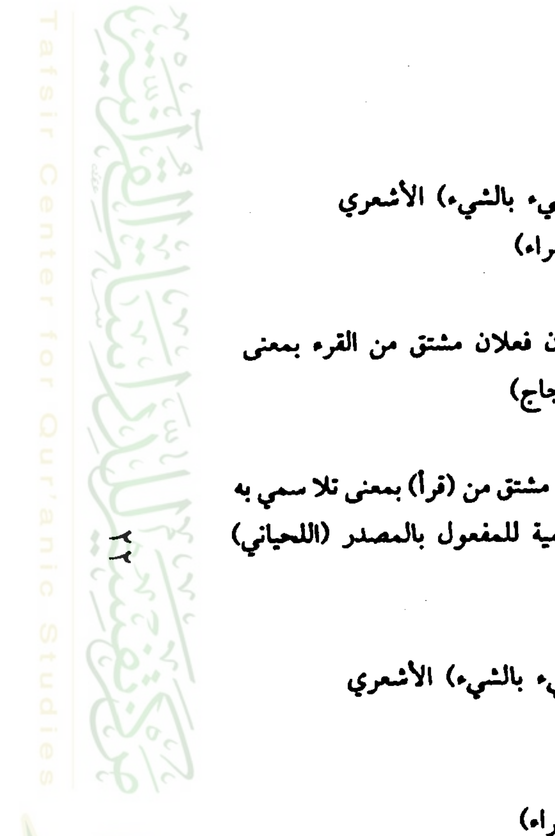
(٢) منهج الفرقان في علوم القرآن: محمد علي سلامة، ص١٦.

الطريقة الأولى:

- القرآن لغة ←
  - اسم جامد (الشافعي)
  - اسم مشتق ←
    - الهمزة زائدة وأصله (ق ر ن) ←
      - من (قرنت الشيء بالشيء) الأشعري
      - من القرائن (الفراء)
    - النون زائدة ←
      - وصف على وزن فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع (الزجاج)
      - مصدر كالغفران مشتق من (قرأ) بمعنى تلا سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر (اللحياني)

الطريقة الثانية:

- القرآن لغة ←
  - غير مهموز ←
    - اسم جامد (الشافعي)
    - مشتق والهمزة زائدة مأخوذ من (قرن) ←
      - من (قرنت الشيء بالشيء) الأشعري
      - من القرائن (الفراء)
  - مهموز ←
    - مشتق وصف على وزن (فعلان) مشتق من القرء بمعنى الجمع (الزجاج)
    - مشتق مصدر من (قرأ) بمعنى تلا سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر (اللحياني)



تعريف القرآن اصطلاحاً:

اختص القرآن الكريم بخصائص كثيرة، ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرفه بها لا يذكرها الآخر، ولهذا تعددت التعريفات.

فإذا كان هناك رجل طويل ويلبس ثوباً أبيض ورداءً أحمر، وحوله أشخاص أقصر منه قامة ويلبسون ثياباً ملونة وأردية بيضاء، فإن قلتَ: فلان هو الطويل فقد عرفته، وإن قلت: إنه الذي يلبس الثوب الأبيض فقد عرفته، وإن قلت: الذي يلبس الرداء الأحمر فقد عرفته. والمقصود في الكل واحد وإن اختلفت التعريفات.

وللعلماء في تعريف القرآن الكريم صيغ متعددة بعضها طويل، ولعل أقربها تعريفهم للقرآن بأنه:

«كلام الله تعالى المُنَزَّلُ على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته».

شرح التعريف:

فقولنا: **كلام الله**: خرج به كلام الإنس والجن والملائكة.

وقولنا: **المنزل**: خرج به ما استأثر الله بعلمه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر. ذلكم أن من كلام الله ما ينزله إلى الناس، ومنه ما يستأثر بعلمه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[2].

---

(1) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(2) سورة لقمان: الآية ٢٧.

وقولنا: **على محمد** ﷺ، خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والزبور المنزل على داود عليه السلام، والصحف المنزلة على إبراهيم عليه السلام.

وقولنا: **المتعبد بتلاوته**، خرجت به الأحاديث القدسية. ونريد بالمتعبد بتلاوته أمرين:

الأول: أنه المقروء في الصلاة، والذي لا تصح الصلاة إلا به، لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1].

الثاني: أن الثواب على تلاوته لا يعادله ثواب، أي تلاوة لغيره، فقد ورد في فضل تلاوة القرآن من النصوص ما يميزها عن غيرها، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الٓمٓ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[2].

وليس هذا الثواب لغير التعبد بتلاوة القرآن الكريم.

الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية:

لعل من المناسب أن نذكر بعض الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية، حتى لا يتوهم أحد أن الفرق بينهما مقصور على التعبد بتلاوة القرآن دون الحديث القدسي.

---

(١) صحيح البخاري، جـ١، ص١٨٤، وصحيح مسلم، جـ١، ص٢٩٥.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، جـ٥، ص١٧٥، والدارمي، جـ٢، ص٤٢٩.

إذ إن هناك فروقاً كثيرة ذكر العلماء منها:

١ ـ أن القرآن الكريم تحدى الله الناس أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، أو بحديث مثله، فعجزوا، أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والإعجاز.

٢ ـ أن القرآن الكريم منقول بطريق التواتر، ويكفر من جحد شيئاً منه، فهو قطعي الثبوت كله، سوره وآياته وجمله ومفرداته وحروفه وحركاته وسكناته، أما الحديث القدسي فأغلبه أحاديث آحاد ظني الثبوت، ولا يكفر من جحد غير المتواتر منه.

٣ ـ أن القرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله باتفاق العلماء، أما لفظه فاختلف فيه.

٤ ـ أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، أما الحديث القدسي فينسب إلى الله تعالى نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، ويروى مضافاً إلى الرسول ﷺ نسبة إخبار فيقال: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه.

٥ ـ أن القرآن الكريم لا يمسه إلا المطهرون، أما الحديث القدسي فيمسه الطاهر وغيره.

٦ ـ أن القرآن الكريم تحرم روايته بالمعنى، أما الحديث القدسي فلا تحرم روايته بالمعنى.

٧ ـ أن القرآن الكريم تسمى الجملة منه آية، والجملة من الآيات سورة، والأحاديث القدسية لا يسمى بعضها آية ولا سورة باتفاق.

٨ ـ أن القرآن الكريم يشرع الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند تلاوته دون الحديث القدسي.

٩ ـ القرآن الكريم يكتب برسم خاص هو رسم المصحف دون الحديث القدسي[١].

أسماء القرآن الكريم وصفاته:

للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة وردت في بعض الآيات والأحاديث النبوية.

ولكثرة هذه الأسماء والصفات فقد أفردها بعض العلماء بمؤلفات مستقلة منهم:

١ ـ علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرّالي المتوفي سنة (٦٤٧هـ).

٢ ـ ابن قيم الجوزية المتوفي سنة (٧٥١هـ) واسم كتابه «شرح أسماء الكتاب العزيز».

٣ ـ صالح بن إبراهيم البليهي (معاصر) واسم كتابه «الهدى والبيان في أسماء القرآن» وهو مطبوع.

٤ ـ محمد جميل أحمد غازي (معاصر) واسم كتابه «أسماء القرآن في القرآن». مطبوع.

٥ ـ د. خمساوي أحمد الخمساوي (معاصر) واسم كتابه «أسماء القرآن الكريم في القرآن». مطبوع.

---

(١) لعله من المناسب أن نذكر هنا تعريف الحديث القدسي في الاصطلاح وهو ـ كما قال العلماء ـ: ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله تعالى، ولروايته صيغتان: الأولى أن يقول الراوي: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل، والثانية: أن يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى.

عدد أسماء القرآن الكريم:

وقد وقع الاختلاف بين العلماء رحمهم الله تعالى في عدد أسماء القرآن الكريم، فذكر الزركشي أن الحرّالي أنهى أساميه إلى نيف وتسعين اسماً[1].

لكن الزركشي نفسه لا يورد إلا خمسة وخمسين اسماً نقلها عن أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذله[2].

أما الفيروزآبادي فقد قال في كتابه «بصائر ذوي التمييز»: «ذكر الله تعالى للقرآن مئة اسم نسوقها على نسق واحد»[3] لكنه ـ رحمه الله تعالى ـ لم يذكر إلا تسعة وثمانين اسماً وزادها أربعة أسماء فتكون جملتها ثلاثة وتسعين اسماً في القرآن للقرآن.

وذكر الدكتور خمساوي تسعة وتسعين اسماً مشتقة كما يقول من اثنين وسبعين مادة لغوية[4].

ولم يورد الشيخ صالح البليهي ـ رحمه الله تعالى ـ إلا ستة وأربعين اسماً لاعتقاده أن بعض هذا العدد ـ إن لم يكن أكثره ـ أوصاف للقرآن وليست بأسماء[5].

ومن أسماء القرآن الكريم:

١ ـ القرآن: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[6].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٧٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، جـ١، ص٨٨.

(٤) أسماء القرآن الكريم في القرآن: د. خمساوي الخمساوي، ص٥.

(٥) الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح البليهي، ص٤٤.

(٦) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

٢ ـ الكتاب: في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[١].

٣ ـ الذكر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢].

٤ ـ الفرقان: في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾[٣].

٥ ـ النور: في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾[٤].

ومن صفات القرآن الكريم:

١ ـ المبارك: في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾[٥].

٢ ـ هدى، ورحمة: في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٦].

٣ ـ الكريم: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[٧].

٤ ـ الحكيم: في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[٨].

٥ ـ الفصل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾[٩].

حكمة تعدد أسماء القرآن الكريم:

وقد بين العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ حكمة تعدد الأسماء للقرآن الكريم فقال الفيروزآبادي ـ رحمه الله تعالى ـ: «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١-٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١.

(٤) سورة التغابن: الآية ٨.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٦) سورة لقمان: الآية ٣.

(٧) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

(٨) سورة يونس: الآية ١.

(٩) سورة الطارق: الآية ١٣.

شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته، وسمو درجته. وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته»[1].

الاشتراك والامتياز بين أسماء القرآن الكريم:

وبين أسماء القرآن الكريم الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه، ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالته على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلاً بالهدى يدل على الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدل على أن فيه ذكرى، وهكذا[2].

كما قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ عن لفظ السيف والصارم والمهند.. فإنها تشترك في دلالتها على الذات، فهي من هذا الوجه كالمتواطئة، ويمتاز كل منها بدلالته على معنى خاص فتشبه المتباينة. وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب[3].

مصدر أسماء القرآن الكريم:

وأسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفية، لا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، جـ١، ص٨٨.

(٢) خصائص القرآن الكريم: فهد الرومي، ص١٢٣.

(٣) مجموع فتاوي ابن تيمية، جـ٢٠، ص٤٩٤.

الفرق بين المصحف والقرآن الكريم:

فإن قلتَ: أرأيت تسميته بالمصحف هل وردت في الكتاب أو السنة؟

قلتُ: إن المصحف ليس اسماً للقرآن ذاته، وإنما هو اسم للصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه (المصحف) إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في صحف ضم بعضها إلى بعض فسميت مصحفاً.

ولهذا نرى العلماء يتحدثون عن حكم بيع المصحف، ولم يقل أحد منهم: بيع القرآن، فالقرآن كلام الله تعالى، أما المصحف فهو من عمل البشر وصناعتهم التي يبتغون بها الرزق والكسب الحلال[1].

ولهذا أيضاً لا يصح أن يجمع لفظ القرآن؛ لأن القرآن واحد لا يختلف في كل المصاحف، أما المصحف فيصح جمعه فيقال: «مصاحف»؛ لأن كل واحد منها أو مجموعة تختلف عن الأخرى.

ولهذا ـ أيضاً ـ لا يقال: قرآن عثمان، أو قرآن عليّ، أو قرآن أُبيّ، وأما المصحف فيصح أن يقال: مصحف عثمان، ومصحف عليّ، ومصحف أبيّ ابن كعب، ومصحف ابن مسعود رضي الله عنهم؛ لأن هذه المصاحف من عملهم دون القرآن.

فائدة في تسميته بالقرآن والكتاب:

وهناك إشارة دقيقة استنبطها بعض العلماء من تسميته بالقرآن والكتاب فقال: روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

---

(١) خصائص القرآن الكريم: فهد الرومي، ص١٢٤.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور، والسطور جميعاً. أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز[١].

وفيه إشارة ـ أيضاً ـ إلى أن يظل القرآن مقروءاً بالعين من (الكتاب)، ومسموعاً بالأُذن من (القرآن)، وفي ذلك قوة حجة على العباد بشهادة السمع والبصر.

تعريف علوم القرآن:

لعلوم القرآن معنيان: معنى إضافي، ومعنى عَلَمٌ على الفن المدون. وإليك بيان ذلك:

المعنى الإضافي:

اعلم أن الإضافة بين «علوم» و«القرآن» تشير إلى أنواع العلوم والمعارف المتصلة بالقرآن الكريم، سواء كانت خادمة للقرآن بمسائلها أو أحكامها أو مفرداتها، أو أن القرآن دلّ على مسائلها أو أرشد إلى أحكامها. فيشمل كل علم خدم القرآن أو استند إليه، كعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلم الفرائض، وعلم اللغة، وغير ذلك.

---

(١) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص١٢-١٣.

بل توسع بعض العلماء فعد منها علم الهيئة والفلك والجبر والهندسة والطب وغيرها[1]، والحق أنه وإن كان القرآن الكريم يدعو إلى تعلمها إلا أنه لا يَجْمُلُ عَدُّها من علوم القرآن؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عمومياته أو خصوصياته، وبين العلم يدل القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه[2].

وبهذا يظهر لك أن علوم القرآن بالمعنى الإضافي تشمل كل العلوم الدينية والعربية.

معناه كَفَنٍّ مُدَوَّن:

ثم نُقِلَ المعنى الإضافي وجعل علماً على الفن المدون، وأصبح مدلوله كَفَنٍّ مدون أخص من مدلوله بالمعنى الإضافي.

ويُعَرَّفُ علوم القرآن كفن مدون بأنه: مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وجمعه، وقراءاته، وتفسيره، وناسخه ومنسوخه، وأسباب نزوله، ومكيه ومدنيه ونحو ذلك.

ويسمى هذا العلم بـ«أصول التفسير» لأنه يتناول العلوم التي يشترط على المُفسِّر معرفتها والعلم بها.

موضوع علوم القرآن الكريم:

هو القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف[3].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٢٧.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٧.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص٢٠.

فضله وشرفه ومكانته:

علوم القرآن الكريم من أفضل العلوم وأشرفها وأسماها، كما قال ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفَى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»[1].

ثمرة علوم القرآن الكريم:

١ ـ تيسير تفسير القرآن الكريم، فهي مفتاح باب التفسير، ولا يصح لأحد أن يفسر القرآن الكريم قبل أن يتعلم علوم القرآن[2].

٢ ـ معرفة الجهود العظيمة التي بذلها السلف لدراسة القرآن الكريم، وعنايتهم الكبرى به وبعلومه التي كان لها الأثر في حفظه من التغيير والتبديل.

٣ ـ التسلح بمجموعة من المعارف القيمة التي تمكِّن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، ويبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه وتعاليمه.

٤ ـ الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم.

* * *

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، جـ١، ص٣.

(٢) مناهل العرفان، جـ١، ص٢٠-٢١.

نشأة علوم القرآن وتطورها

في عهد الرسول ﷺ:

حين نزل جبريل على الرسول ﷺ في غار حراء بصدر سورة اقرأ، نزل عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى زوجته خديجة - رضي الله عنها -، وأخبرها بما حدث في الغار، وتلا عليها الآيات من حفظه.

وحين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن الدعوة إلى الإسلام، امتثل الرسول ﷺ الأمر، فدعا الناس إلى الإسلام، وأقبل من أسلم منهم على القرآن الكريم يتلونه حق التلاوة، ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم لحفظه وتدبر آياته، وكانوا عرباً خلصاً يفهمون القرآن بمقتضى السليقة العربية، فإن أشكل عليهم معنى أو غمض عليهم مرمى سأل بعضهم بعضاً، فقد يكون أحدهم أعلم من الآخر، فإن أشكل عليهم سألوا الرسول ﷺ فبينه لهم.

وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الإسلام، بل منذ أشرقت شمس الإسلام. ذلكم أن حفظ القرآن، وتلاوته، وتدبره، وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم.

في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

وإذا نظرنا إلى حال الصحابة رضوان الله عليهم وجدناهم يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ولم يعرف عندهم تدوين لعلوم القرآن لعدة أسباب أهمها:

١ ـ أن أغلب الصحابة كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

٢ ـ أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة عندهم.

٣ ـ أن الرسول ﷺ نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»[١].

ويعتقد بعض الناس أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما نهى الصحابة عن كتابة شيء غير القرآن خشية أن يلتبس بغيره. ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أن هذا ليس بصحيح، ذلكم أن القوم كانوا ذوي ذكاء في القريحة، وتذوق للبيان، وتقدير للأساليب، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير، ويدركون إعجاز القرآن الكريم ـ بمجرد سماعه ـ إدراكاً تاماً، يأخذ منهم بالألباب، ويسيطر منهم على الأفئدة، فأنَّى لهم أن يختلط عندهم بغيره من كلام البشر، بل العلة في ذلك أنه ﷺ أراد توزيع مسؤولية التبليغ عنه على جميع الصحابة، ولو أذن للكُتّاب بالكتابة لاعتقد الأميون أن مسؤولية التبليغ مقصورة على الكُتَّاب الذين يحتفظون عندهم بالنصوص الشرعية، وأن ذمتهم هم بريئة، فلما نهى الرسول ﷺ من يكتب عن كتابة غير القرآن، أصبح الصحابة كلهم سواسية في التلقي عن الرسول ﷺ، لا يتميز من يكتب عمن لا يكتب، وأصبحت الدعوة إلى الله يشترك فيها الجميع، وخير للدعوة أن ينشرها كل الصحابة من أن يقتصر أمرها على عدد من الكتاب.

فإن قلتَ: إن كان الأمر كذلك فَلِمَ أذن لهم الرسول ﷺ بكتابة القرآن؟

قلتُ: إن تبليغ القرآن لا يَرِدُ عليه ما يَرِدُ على تبليغ غيره، فلن يعتقد الأميون منهم أن تبليغه واجب على الكُتّاب فحسب، فهم يقرؤونه سراً وجهراً في بيوتهم وفي مساجدهم في خلواتهم وفي مجتمعهم وفي صلواتهم،

---

(١) رواه مسلم، جـ٥، ص٢٢٩٨-٢٢٩٩.

فلتبليغه وسائل كثيرة لا تتحقق لغيره، ولا تقتصر على الكُتّاب دون الأميين، فالجميع يتلوه ويقوم به آناء الليل وأطراف النهار، فلن يَتَّكِلَ الأميون في تبليغه على الكُتّاب؛ لإدراكهم أن الجميع مكلف بتلاوته في السطور وحفظه في الصدور.

ولهذا تغلب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الأسباب السابقة المانعة من تدوين علوم القرآن بما حققوه للقرآن، وذلك بالاعتماد على قوة الحافظة، فحفظوا علوم القرآن كما يحفظون الآيات.

أخرج الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن(١).

وروى أبو عبد الرحمٰن السُّلَمي، قال: «حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»(٢).

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إلـٰه غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيمَ أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل، لركبت إليه»(٣).

ويقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو على المنبر: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»(٤)،

---

(١) تفسير الطبري، جـ١، ص٨٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، جـ٦، ص١٠٢.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص١٨٧.

والنصوص في ذلك كثيرة كلها تثبت أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكتفوا بحفظ نصوص القرآن الكريم فحسب، بل حفظوا معها علومه ومعارفه.

واشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن، منهم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وعائشة[1] رضي الله عنهم.

وكثرت الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب رضي الله عنهم.

ولم يتكلف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ التفسير، ولم يخوضوا فيما لا فائدة كبيرة في تحصيله، ولم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كلَّه، فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا تحتاج إلى بيان؛ لمعرفتهم للغة، وأحوال المجتمع، وأسباب النزول وغير ذلك، وقد كانوا يهتمون بنشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين.

في عهد التابعين رحمهم الله تعالى:

وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضوان الله عليهم في البلدان المفتوحة، يعلمون أهلها القرآن، ويفسرون لهم معانيه، وينشرون لهم علومه ومعارفه، فبذله لهم الصحابة، وفتحوا لهم صدورهم، وأفسحوا لهم مجالسهم، فنشأت ما يصح أن نطلق عليها بالمعنى الحديث (مدارس التفسير) وهي كثيرة، وأشهرها ثلاث مدارس:

---

(١) يقصر كثير من الباحثين مشاهير المفسرين من الصحابة على هؤلاء العشرة، وأحسب أن عائشة رضي الله عنها لا تقل مكانتها في التفسير عنهم فأضفتها إليهم.

مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة:

وهو حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، وهو الذي دعا له الرسول ﷺ بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١).

ومن أشهر تلاميذه سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح.

مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة:

وقد كان ـ رضي الله عنه ـ أحد كتاب الوحي، وإمام القُرّاء، شهد له الرسول ﷺ بقوله: «أقرؤهم أبي بن كعب»(٢).

ومن أشهر تلاميذه زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي.

مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة:

وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد الرسول ﷺ، قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»(٣) يعني ابنَ مسعود. وأخبر هو عن نفسه فقال: «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة»(٤).

ومن أشهر تلاميذه علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمٰن السُّلَمي.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ١، ص٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥.

(٢) رواه الترمذي، جـ٥، ص٦٦٤-٦٦٥ كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، جـ١، ص٦٨.

(٣) سنن ابن ماجه، جـ١، ص٦٣.

(٤) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٢، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.

وأهل مكة، وأهل المدينة، وأهل الكوفة هم أعلم الناس بالتفسير، كما يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد ابن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد ابن أسلم»[1].

ولم يكن تفسير هؤلاء وغيرهم من الصحابة والتابعين مقتصراً على علم التفسير بمعناه الخاص، بل كان يشمل مع هذا علم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، ونحو ذلك.

كما لم يكن شاملاً للقرآن الكريم، ولا مدوناً، وإنما كان بالرواية والتلقين.

عهد التدوين:

وفي هذا العهد دونت بعض علوم القرآن الكريم كالقراءات وغريب القرآن والناسخ والمنسوخ، وأما التفسير فكان تدوينه حين بدأ تدوين الحديث النبوي، ومر بمراحل قبل أن يكون على ما هو عليه الآن.

فبدأ تدوينه أول ما بدأ على أنه باب من أبواب الحديث، وممن دَوَّنه في هذه المرحلة: يزيد بن هارون السُّلَمي (ت ١١٧هـ)، وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ)، وسفيان بن عيينه (ت ١٩٨هـ)، وغيرهم، وكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث، ولم يكن

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور، ص٦١.

جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقلوه كان بالإسناد، ولم يصل إلينا شيء منها[1].

ثم دُوِّنَ التفسير مستقلاً وأصبح علماً قائماً بنفسه، وأشهر من دَوَّنه على هذا النحو يحيى بن سلّام البصري[2] (ت ٢٠٠هـ)، وابن ماجه (ت ٢٧٣هـ)، وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨هـ)، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، وابن مردويه (ت ٤١٠هـ) وغيرهم وكل ما في هذه التفاسير كان بالإسناد.

ويُعَدُّ تفسير ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ أقدم تفسير شامل وصل إلينا كاملاً، عرض فيه صاحبه للأقوال والروايات المختلفة في التفسير، وتوجيهها والترجيح بينها، كما عرض للإعراب والاستنباط واللغة، وله في ذلك السبق[3].

والتفسير ـ كما نعلم ـ أحد علوم القرآن الكريم، بل هو نواة علوم القرآن الكريم، وبهذا يكون التفسير أول علم من علوم القرآن بدأت الكتابة فيه.

وقد ألَّف العلماء في العلوم الأخرى كتباً مستقلة منها ما وصل إلينا ومنها ما هو مفقود.

---

(١) التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، جـ١، ص١٤١ (بتصرف). قلت: والأمر يحتاج إلى تحقيق ودراسة.

(٢) قامت بتحقيق هذا التفسير الأخت الفاضلة الدكتورة هند شلبي في تونس وهو في طريقه للطبع، وقام بتحقيقه أيضاً ثلاثة من الباحثين في رسائل علمية، والموجود من التفسير فيه سقط نحو الثلث في مواضع مختلفة ولهذا التفسير ثلاثة مختصرات «تفسير هود بن محكم» و«تفسير أبي المطرف» و«تفسير ابن أبي زمنين».

(٣) فتفسير يحيى بن سلّام غير كامل، وتفسير هود بن مُحكِّم غير مسند، وتفسير مجاهد ابن جبر وتفسير مقاتل بن سليمان لا تعرض للأقوال والترجيحات كابن جرير ولذا لم أعتبر أسبقيتها.

ففي القرن الثاني الهجري:

ألف الحسن البصري (ت ١١٠هـ) في (القراءة)، وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) في (غريب القرآن)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ) في (الناسخ والمنسوخ).

وفي القرن الثالث الهجري:

ألَّف أبو عبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٢٤هـ) في (الناسخ والمنسوخ)، وعلي بن المديني (ت ٢٣٤هـ) في (أسباب النزول)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، «تأويل مُشْكِل القرآن» و«تفسير غريب القرآن».

وفي القرن الرابع الهجري:

ألَّف أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) «إعراب القرآن»، وألَّف ابن درستويه (ت ٣٣٠هـ) في «إعجاز القرآن»، وألَّف أبو بكر السِّجستاني (ت ٣٣٠هـ) «تفسير غريب القرآن»، وألَّف أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) «إعجاز القرآن».

وفي القرن الخامس الهجري:

ألَّف علي بن إبراهيم الحوفي (ت ٤٣٠هـ) في (إعراب القرآن)، وألَّف الماوردي (ت ٤٥٠هـ) «أمثال القرآن»، وألَّف أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ) كتابه «أسباب النزول» وألَّف ابن ناقيا (ت ٤٨٥هـ) كتابه «الجمان في تشبيهات القرآن».

وفي القرن السادس الهجري:

ألَّف الكرماني (ت بعد ٥٠٠هـ) «البرهان في متشابه القرآن»، وألَّف الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) «المفردات في غريب القرآن»، وألَّف ابن

الباذش (ت ٥٤٠هـ) «الإقناع في القراءات السبع»، وألَّف السهيلي (ت ٥٨١هـ) «مبهمات القرآن».

وفي القرن السابع الهجري:

ألَّف علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) «جمال القراء وكمال الإقراء»، والعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) «مجاز القرآن»، وألَّف ابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤هـ) كتابه «بديع القرآن»، وألَّف محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٠هـ) «أسئلة القرآن وأجوبتها».

وفي القرن الثامن الهجري:

ألَّف ابن القيم (ت ٧٥١هـ) «التبيان في أقسام القرآن»، وألَّف الخراز (ت ٧١١هـ تقريباً) «مورد الظمآن في رسم وضبط القرآن»، وألَّف الطوفي (ت ٧٠٦هـ) «الإكسير في علم التفسير»، وألَّف أبو حيان النحوي (ت ٧٤٥هـ) «لغات القرآن، وألَّف ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) كتابه «فضائل القرآن».

وفي القرن التاسع الهجري:

ألَّف ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) «العجاب في بيان الأسباب»، وألَّف الكافيجي (ت ٨٧٩هـ) «التيسير في قواعد علم التفسير»، وألَّف السيوطي (ت ٩١١هـ) كتابه «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» وكتابه «لباب النقول في أسباب النزول».

وفي القرن العاشر الهجري:

ألَّف القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) «لطائف الإشارات في علم القراءات»، وألَّف أبو يحيى زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) كتابه «فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن»، وألَّف ابن الشِّحْنَه (ت ٩٢١هـ) «غريب القرآن».

وفي القرن الحادي عشر الهجري:

أَلَّف الشيخ مرعي الكرمي (ت ١٠٣٣هـ) «قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن»، وألَّف أحمد بن محمد المَقَّري (ت ١٠٤١هـ) كتابه «إعراب القرآن»، وألَّف البناء (ت ١١١٧هـ) «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر».

وفي القرن الثاني عشر الهجري:

أَلَّف عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ) «كفاية المستفيد في علم التجويد»، وألَّف الجمزوري (ت ١١٩٨هـ) «تحفة الأطفال والغلمان في تجويد القرآن»، وألَّف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ) «فضائل القرآن».

وفي القرن الثالث عشر الهجري:

أَلَّف الدمياطي (ت ١٢٨٧هـ) «رسالة في مبادئ التفسير»، وألَّف الهوريني (كان حياً ١٢٨٦هـ) «الجوهر الفريد في رسم القرآن المجيد»، وألَّف ابن حميد العامري (ت ١٢٩٥هـ) «الناسخ والمنسوخ».

وفي القرن الرابع عشر الهجري:

أَلَّف الشيخ عبد الرحمٰن السعدي (ت ١٣٧٦هـ) كتابه «القواعد الحسان لتفسير القرآن»، وألَّف د. محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ) كتابه «النبأ العظيم»، وألَّف سيد قطب (١٣٨٧هـ) «التصوير الفني في القرآن»، وكتاب «مشاهد القيامة في القرآن»، وألَّف محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٧هـ) «التفسير والمفسرون».

وفي القرن الخامس عشر الهجري:

أَلَّف د. غانم قدوري الحمد كتابه «رسم المصحف»، وألَّف د. فهد بن

عبد الرحمٰن الرومي كتابه «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر»، وألَّف د. خالد بن عثمان السبت كتابه «قواعد التفسير».

هذه أمثلة للمؤلفات في علوم القرآن الكريم في القرون السابقة وهي مؤلفات كثيرة، بل لا تكاد تحصى كثرة.

وحين تنظر فيما ذكرت من المؤلفات تجد كل واحد منها يتناول علماً واحداً من علوم القرآن الكثيرة. وقد اتجهت أنظار العلماء إلى تأليف كتب تتحدث عن هذه العلوم جميعاً، فتعرّف كل علم تعريفاً موجزاً، وتتناوله تناولاً ميسراً، فكان هذا العلم الذي سموه (علوم القرآن) بالمعنى المدون.

ظهور اصطلاح علوم القرآن:

لم تكن علوم القرآن بخافية على العلماء المبرزين قبل التدوين، بل كانت مجموعة في صدورهم، إلا أن اصطلاح (علوم القرآن) لم يظهر في عناوين مؤلفاتهم إلا في فترة متأخرة. حيث ظهر هذا الاصطلاح أول ما ظهر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، حين ألف محمد بن خلف بن المرزبان (ت ٣٠٩هـ) كتابه «الحاوي في علوم القرآن»[١].

واعتقد بعض الباحثين أن أول عهد لظهور اصطلاح (علوم القرآن) هو بداية القرن الخامس حين ألف علي بن إبراهيم الحوفي (ت ٤٣٠هـ) كتابه «البرهان في علوم القرآن» وهذا غير صحيح لأن اسم كتاب الحوفي «البرهان في تفسير القرآن»[٢]، ولأنه ظهرت كتب في القرن الذي قبله تناولت علوم القرآن بمعناها المدون، وأسبقها ما ذكرت لابن المرزبان وغيره.

---

(١) الفهرست ابن النديم، ص٢١٤، وطبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١٤١.

(٢) مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده، جـ٢، ص١٠٧، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي جـ١٢، ص٢٢٢، وكشف الظنون: حاجي خليفة، جـ١، ص٢٤١.

أهم المؤلفات في علوم القرآن (كَفَنٍّ مُدوَّن) قديماً:

وقد ظهرت مؤلفات كثيرة بعد ذلك في علوم القرآن كفن مدون، ففي القرن الرابع الهجري[١] ألَّف أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) كتابه «المختزن في علوم القرآن»[٢]، وألَّف عبيد الله بن جرو الأسدي (ت ٣٨٧هـ) كتابه «الأمد في علوم القرآن»[٣]، وألَّف محمد بن علي الأدفوي (ت ٣٨٨هـ) كتابه «الاستغناء في علوم القرآن»[٤].

وفي القرن السادس الهجري ألَّف ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) كتابه «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن»[٥]، و«المجتبى في علوم القرآن»[٦]، و«المجتنَى من المجتبى»[٧].

---

(١) ينسب كثير من الباحثين كتاب «عجائب علوم القرآن» لأبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ) مستندين في ذلك إلى ما ذكره الزرقاني في «مناهل العرفان» وقد ظهر لي يقيناً أن الكتاب المذكور ليس لأبي بكر الأنباري، بل هو كتاب «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» لابن الجوزي، وسبب وقوع هذا الوهم نسخة مخطوطة في مكتبة البلدية بالإسكندرية أخطأ مفهرسو المكتبة في معرفة المؤلف فنسبوها لأبي بكر الأنباري.

(٢) طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٣٩١، وتاريخ التراث العربي: جـ٢، ص٣٧٧، ومعجم المفسرين: عجاج نويهض، جـ١، ص٣٥٤.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٣٧٢، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، جـ١٢، ص٦٦، ومعجم المفسرين: عادل نهويض، جـ١، ص٣٤١.

(٤) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١٩٤، ومعجم المفسرين، جـ٢، ص٥٧٨.

(٥) طبع بتحقيق الدكتور عبد الفتاح عاشور على نسختين مخطوطتين بعنوان «عجائب علوم القرآن»، وطبع مرة أخرى بتحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر على ست نسخ مخطوطة.

(٦) الذيل على طبقات الحنابلة: جـ١، ص٤١٧.

(٧) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي تحقيق د.حسن ضياء الدين عتر، ص٤٠.

وفي القرن السابع الهجري ألَّف القزويني (ت ٦٢٥هـ) كتابه «الجامع الحريز الحاوي لعلوم كتاب الله العزيز»[١]، وألَّف أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) كتابه «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»[٢].

وفي القرن الثامن الهجري ألَّف بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) كتابه «البرهان في علوم القرآن» وطبع في أربعة مجلدات بتحقيق الأستاد محمد أبو الفضل إبراهيم، وهو من أفضل المؤلفات في علوم القرآن الكريم ومن أحسنها تنظيماً وتبويباً وأسلوباً، وألَّف ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) كتابه «مقدمة في أصول التفسير» وهي مع إيجازها قيمة جداً وطبعت مراراً.

وفي القرن التاسع الهجري ألَّف أبو علي الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي كتابه «الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة» طبع في جزء بتحقيق إدريس عزوزي.

وفي القرن العاشر الهجري ألَّف جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) كتابه «التحبير في علوم التفسير»[٣] ذكر فيه ١٠٢ نوعاً من علوم القرآن ثم ألَّف كتابه القيم «الإتقان في علوم القرآن» ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والدمج، ثم قال بعد سردها: «ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاث مئة»[٤] وقد طبع الكتاب عدة مرات[٥]،

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية: أبو محمد بن أبي الوفاء، جـ١، ص١٣٣، طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٣٣.

(٢) طبع سنة ١٣٩٥هـ بتحقيق طيار آلتي قولاج.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ١، ص٣.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص٧.

(٥) كما قام بتحقيقه عدد من الباحثين في عدة رسائل للدكتوراه في كلية أصول الدين في القاهرة ـ جامعة الأزهر.

ويعد هذا الكتاب أصل من الأصول المؤلفة في هذا العلم، ولئن قيل: إن المفسرين عيال على تفسير الطبري، فإن علماء علوم القرآن عيال على «الإتقان» وقد استفاد السيوطي كثيراً من كتاب «البرهان» للزركشي.

وفترت همة التأليف بعد ذلك، بل قال بعض العلماء: إن التأليف في تلك الفترة توقف أو كاد[1]، وظهرت مؤلفات معدودة مثل «الفوز الكبير في أصول التفسير» تأليف ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ)[2]، وألَّف ابن عَقيلَة (ت ١١٥٠هـ) كتابه «الزيادة والإحسان في علوم القرآن»[3].

المؤلفات في علوم القرآن بمعناه المدون في العصر الحديث:

وقد نشط التأليف في العصر الحديث فصدرت مؤلفات كثيرة وأبحاث عديدة ليس المقام مقام إيرادها ولا حصرها ولعل من أشهرها:

١ ـ «مناهل العرفان في علوم القرآن»: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني وطبع في مجلدين، وهو بحق من أفضل المؤلفات في هذا العلم، فهو إضافة إلى اشتماله على كثير من علوم القرآن، فقد اعتنى صاحبه بالرد على الشبهات الواردة في كل علم قديماً أو حديثاً، وهو حين يوردها يسوق حججها وبراهينها ثم يكر عليها فلا يُبقي لها أثراً، وإضافة إلى هذا فإنه يقدم هذه العلوم بأسلوب أدبي يشدك إليه شداً حتى لتحسب نفسك ـ وأنت تخوض عويص القضايا ـ تقرأ قطعة أدبية، ولست أعني بهذا سلامته من كل

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد أبو شهبة، ص٤١.

(٢) طبع عدة مرات.

(٣) مخطوط قام بتحقيقه بعض طلبة الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وهو في سبيله إلى النشر.

عيب ففيه أخطاء علمية وانحرافات عقدية تتبعها أحد الباحثين[1] في رسالة علمية إضافة إلى تقريره المذهب الأشعري.

٢ ـ «المدخل لدراسة القرآن الكريم»: للدكتور محمد محمد أبو شهبة ألَّفه لطلبة الدراسات العليا في الجامعة الأزهرية، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته نحو خمس مئة صفحة.

٣ ـ «مباحث في علوم القرآن»: للدكتور صبحي الصالح، ألَّفه لطلبة كلية الآداب بجامعة دمشق ويقع في نحو ثلاث مئة صفحة.

٤ ـ «مباحث في علوم القرآن»: للشيخ مناع القطان، ويقع في نحو ثلاث مئة صفحة، وقال في مقدمته: «كانت طبعته الأولى استجابة لرغبة بعض إخواننا في تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن، يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسر له التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤنة البحث في مراجع هذا العلم، ويجنبه عناء فهم أساليبها[2]. وقد أصاب وفقه الله، فقد سدّ كتابه هذا ثغرة في حاجة طلبة العلم.

٥ ـ «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان»: تأليف الشيخ طاهر الجزائري، وهي مباحث انتخبها الجزائري انتخاب العالم الذواقة والمحقق المتقن، اعتنى بنشرها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

٦ ـ «منهج الفرقان في علوم القرآن»: تأليف الشيخ محمد علي سلامة لطلابه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر. وطبع في جزءين صغيرين بتحقيق د. محمد سيد أحمد المسير تبلغ صفحاتهما نحو ٣٦٠ صفحة.

---

(١) هو الدكتور خالد بن عثمان السبت، وعنوان رسالته «كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم» وطبعت في مجلدين.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٥.

٧ ـ «علوم القرآن» للدكتور عدنان زرزور وهو محاضرات ألقاها على طلابه، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته ٤٦٠ صفحة.

هذه بعض المؤلفات في العصر الحديث في علوم القرآن كَفَنٍّ مُدوَّن والمؤلفات غيرها كثيرة، ولعلك تلاحظ أن أغلبها قد ألفها أصحابها لطلابهم، وأحسب أن هذا يؤدي إلى الإجمال في الحديث، وتيسير المادة، وعدم الخوض في دقائق المسائل ووعر المسالك، واختيار السبيل الأسهل والأيسر، وهذا المنهج يحرم الباحثين المتخصصين من نيل مرادهم، والحصول على بغيتهم، كما يحرم المؤلفين من الإبداع في القول ومن إعمال الذهن والتجديد في الآراء، بل أدى بهم إلى التسليم في كثير من المسائل والقضايا، ونقلها كما هي من غير تمحيص خشية من الدخول في تفاصيل تخرج به عن هدفه من التأليف.

والحق أن كثيراً من المباحث في علوم القرآن لا تزال بحاجة إلى النظر في مسائلها، وإعادة الكتابة فيها، وعدم الاكتفاء والتسليم بما قاله فلان وفلان من غير دليل. وعلوم القرآن أوسع من أن يحيط بها أبناء جيل أو أجيال من البشر.

ومما لا شك فيه أن التاريخ كلَّه لا يعرف كتاباً درسه الدارسون، وألف في علومه المؤلفون، وصنف فيه المصنفون مثل القرآن الكريم، ولا تزال المؤلفات تُدوَّن، ولا يزال العلماء يبحثون ويتدبرون، ولا يزال القرآن نقياً لم تكدره الدلاء، وفائضاً لم تنقصه كثرة الواردين، وسيظل نوراً يستضيء به طلاب الحقيقة، وهدى يهتدي به الناس إلى يوم القيامة.



فضائل القرآن الكريم

لا شك أن فضلَ القرآن الكريم فضلٌ كبير وعظيم، فهو كتاب أخرج الله به هذه الأمةَ من جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

وهو كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبيٍّ ختم به الأنبياء، وبدين ختم به الأديان. وهو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ونظامه القويم، ناط به كلَّ سعادة. هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة، نهل منه العلماء، وشرب من مشربه الأدباء، وخشعت لهيمنته الأبصار، وذلت له القلوب، وقام بتلاوته العابدون والراكعون والساجدون، وهو «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»[1].

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه، وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهدايته، ودلالته، وهو أساس رسالة التوحيد، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقد ورد بيان فضل القرآن في آيات كثيرة وأحاديث عديدة.

---

(١) الموافقات: الشاطبي، جـ٣، ص٣٤٦.



فضائله العامة:

ـ فضل القرآن في القرآن:

في أول جملة بعد الفاتحة ورد وصف القرآن بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] ولك أن تتدبر في استنباط المعاني العديدة في ذلك.

ومن فضل القرآن في القرآن أن عُدَّ إنزاله في شهر مزية لهذا الشهر ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[2]، وبركة لليلة التي أُنزل فيها ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[3].

ومن فضله في القرآن: نزول الرحمة عند سماعه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

ووصفه بالعظمة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[5] وبالهداية ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[6]، وأقسم الله به ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[7]، وأمر بتلاوته ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾[8]، وبتدبره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[9]، وشهد له بالسلامة من العوج ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[10].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٣) سورة الدخان: الآية ٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٥) سورة الحجر: الآية ٨٧.

(٦) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٧) سورة يسٓ: الآيتان ٢-٣.

(٨) سورة النمل: الآيتان ٩١-٩٢.

(٩) سورة محمد: الآية ٢٤.

(١٠) سورة الزمر: الآية ٢٨.

ولكثرة فضائله تعددت أسماؤه وصفاته، وقد وردت في القرآن أسماء وصفات للقرآن كثيرة تنبئ كثرتُها وتعددها عن مكانة القرآن العظيمة، ومنزلتِه السامية.

ـ فضل القرآن في السنة النبوية:

وقد وردت في السنة النبوية أحاديثُ كثيرة في بيان فضل القرآن الكريم، ومن أجمعها حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلَكُم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْمُ ما بينكُم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدَى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعَتْه حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[1] من قال به صَدَق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدَى إلى صراط مستقيم»[2].

وفي حديث آخر رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ هذا القرآن مأدُبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين، والشفاء النافع. عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه،

---

(١) سورة الجن: الآيتان ١-٢.

(٢) رواه الترمذي، جـ٥، ص١٧٢، وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول وفي الحارث مقال» وتعقبه ابن كثير في فضائل القرآن: ص١١ فقال: «. . بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور. . ثم قال. . وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود».

لا يزيغ فيُستعتَب ولا يعوَجُّ فيُقوَّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق عن كثرة الرَدِّ. فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: الٓمٓ ولكن بألف ولام وميم»[1] ويكفي في بيان فضله قول الرسول ﷺ: «خيركم من تَعَلَّم القرآن وعَلَّمه»[2].

فضائل بعض سوره وآياته:

وردت أحاديث في فضل بعض سور القرآن الكريم، وقد اختلق بعض الوضّاعين أحاديث في فضائل سور القرآن سورةً سورة[3]. وفي بعض سور القرآن وقع ورتع بعض أصحاب الطرق المبتدعة في مثل هذه الأحاديث، ولنا فيما صح عن الرسول ﷺ غنى عن ذلك، ونذكر مما صح في فضائل بعض السور والآيات ما يلي:

ـ سورة الفاتحة:

ما رواه أبو سعيد بن المُعَلَّى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن

---

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص٥٠، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٧٤١-٧٤٢ (٢٠٤٠) ورواه الدارمي، جـ٢، ص٤٣١ وأورده ابن كثير في «فضائل القرآن» بعد حديث علي السابق وقال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود». العلل المتناهية، جـ١، ص١٠٢.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٨.

(٣) وأشهرها الحديث المكذوب على أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن الرسول ﷺ في فضل سور القرآن سورة سورة وقد فرق هذا الحديث الثعلبي والواحدي والزمخشري في تفاسيرهم على السور. وقال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «إنه حديث محال» وروى عن ابن المبارك قوله: «أظن الزنادقة وضعته» الموضوعات: ابن الجوزي، جـ١، ص٢٣٩.

نخرج، قلت: يا رسول الله، إنك قلت: ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن، قال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»[1].

ـ سورة البقرة:

ورد في فضلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنَّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»[2].

ـ سورة قل هو الله أحد:

ورد في فضلها أحاديث كثيرة بأنها تعدل ثلث القرآن، ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن»، قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»[3].

ـ فضل المعوذتين:

ورد في فضلهما حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل أو أُنزلت عليَّ آيات لم يُر مثلهن قط: المعوذتين»[4].

ـ فضل آية الكرسي:

ورد في فضلها حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت:

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٣.

(٢) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٣٩.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

(٤) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٨.

الله لا إلـه إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «والله ليهنِكَ العلمُ أبا المنذر»[1].

ـ **فضل الآيتين في آخر سورة البقرة:**

ورد في فضلهما حديث أبي مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه»[2] أي: دفعتا عنه الشر والمكروه.

ـ **فضل عشر آيات من أول الكهف أو آخرها:**

روى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قـال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»[3]. وفي رواية قال شعبة: «من آخر الكهف»[4].

فضل تلاوته:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[5].

وردت في السنة أحاديث كثيرة في ثواب التلاوة، منها حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» رواه البخاري ومسلم[6].

---

(١) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

(٢) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٣) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٤) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

(٥) سورة فاطر: الآيتان ٢٩-٣٠.

(٦) صحيح البخاري، جـ٦، ص٨٠، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٤٩-٥٥٠.

وبينت السنة أن القرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة. عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» رواه البخاري ومسلم[2].

ولو لم يرد في فضل تلاوة القرآن إلا حديث ابن مسعود رضي الله عنه لكفى به داعياً للتنافس بين المسلمين في تلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الٓمٓ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[3].

تالله لولا ما ران على قلوبنا ما انفك أحدنا عن تلاوة هذا القرآن، وما فرطنا في تلاوته هذا التفريط، ساعات تلو الساعات تنقضي من أعمارنا لا نحسب لها حساباً. أرأيتم لو أخذ أحدنا المصحف في ساعة من ساعاته الضائعة، وتلا فيها آيات من القرآن الكريم، فكم سيقرأ فيها من حرف؟ وإذا كان بكل حرف عشر حسنات، فكم سيثاب في هذه الساعة من حسنة؟ إنه لثواب كبير وأجر عظيم لا ينبغي لذي لب أن يفرط فيه.

---

(١) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري، جـ٩، ص٦٥، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٨.

(٣) سنن الترمذي، جـ٥، ص١٧٥، وسنن الدارمي، جـ٢، ص٤٢٩. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، غريب إسناداً» وقال الألباني في المشكاة جـ١، ص٦٥٩ (وهو صحيح).

فضل استماعه:

وكما ورد الوعد بالثواب على تلاوة القرآن فقد ورد أيضاً الوعد بالثواب لمستمع التلاوة بخشوع وتدبر وإنصات. قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1] و«لعل» من الله واجبة[2].

ومما جاء في السنة في ثواب استماع القرآن الكريم حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»[3].

فضل الاجتماع لدرسه:

من أجمع الأحاديث التي وردت في بيان ثواب الاجتماع لتلاوة القرآن الكريم وتدارسه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[4] فجمع هذا الحديث أربعة أنواع من ثواب تلاوة القرآن ومدارسته.

١ ـ تنزل عليهم السكينة.

٢ ـ تغشاهم الرحمة.

٣ ـ تحفهم الملائكة.

٤ ـ يذكرهم الله فيمن عنده.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص٧٩.

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ٢، ص٣٤١.

(٤) صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٠٧٤.

ومن منا لا يحرص على كل واحدة منها فضلاً عنها كلها، كيف وقد اجتمعت كلُّها في عمل واحد ميسر، وفي هذا ندب لتعلم القرآن الكريم ومعرفة علومه وأحكامه ومعانيه.

آداب التلاوة والاستماع:

لا ريب أن لتلاوة هذا الكتاب آداباً ينبغي العمل بها ففي ذلك أيضاً زيادة لثواب التلاوة.

وآداب التلاوة كثيرة لعل أهمها:

١ ـ الطهارة وتشمل طهارة البدن، وطهارة المكان، وطهارة اللباس، وطهارة الفم، وفوق هذا كله طهارة القلب ونقاؤه من الشرك والشك والرياء.

أما طهارة البدن فقد اتفق العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ على أن الجنب لا يجوز له مس المصحف أو قراءة القرآن حتى يغتسل، أما الطهارة من الحدث الأصغر فقد اشترطها بعض العلماء لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[١].

ولم يشترطها آخرون، ومما لا شك فيه أن الأفضل والأولى هو الطهارة من الحدث الأصغر أيضاً.

وأما طهارة المكان فلا يجوز أن يقرأ القرآن في الأماكن النجسة، سواء كانت نجاسة حسية كالحمامات ونحوها، أو نجاسة معنوية كالملاهي وحانات الخمور والفسق والفجور.

وطهارة اللباس والتطيب عند التلاوة من الآداب المحمودة، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام بالليل يتهجد اغتلف بالغالية[٢]، وهي أخلاط من

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص١٠٨.

الطيب كالمسك والعنبر. وكان ابن مسعود رضي الله عنه تعجبه الثياب الحسنة النظيفة والريح الطيب إذا قام إلى الصلاة، وكان رضي الله عنه إذا قرأ اعتمّ ولبس ثيابه وارتدى، واستقبل القبلة[1].

حتى طهارة الفم حرص الإسلام عليها عند تلاوة القرآن. روى علي رضي الله عنه حديثاً عن رسول الله ﷺ وفيه: «فطهروا أفواهكم للقرآن»[2]، وعنه رضي الله عنه، قال: «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك»[3] وكان رسول الله ﷺ إذا قام في الليل يشوص فاه بالسواك[4].

٢ ـ ومن آداب التلاوة أن يستوي قاعداً في غير صلاة تأدباً مع القرآن.

٣ ـ ومنها أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتداء قراءة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[5].

٤ ـ ومنها أن يقرأ البسملة بعد الاستعاذة بأن يقول: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وقد أجمع العلماء على مشروعية البسملة عند تلاوة كل سورة من سور القرآن الكريم سوى براءة.

٥ ـ يستحب إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة؛ لأنه مُخاطِب ربَّه ومناج له.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، جـ١، ص٢٤٢. وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٢١٣.

(٣) سنن ابن ماجه، جـ١، ص١٢٥. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٦) ولعله تبين له ضعفه بعد ذلك. فقد ضعفه جداً في ضعيف الجامع (١٤٠١). والصواب أنه ضعيف.

(٤) صحيح البخاري، جـ١، ص٦٦، وصحيح مسلم، جـ١، ص٢٢١.

(٥) سورة النحل: الآية ٩٨.

٦ ـ وإذا شرع في القراءة فينبغي أن لا يشتغل عنها، ولا يقطعها، ولا يخللها بكلام الآدميين إلا لضرورة.

٧ ـ أن يقرأ على تؤدة، وأن يرتل القرآن ترتيلاً، ولا يَهُذّه هَذّاً.

٨ ـ أن يقف عند آية الوعد فيسأل الله من فضله، وعند آية الوعيد فيستجير بالله من عقابه.

٩ ـ أن يرفع المصحف بيده أو على شيء مرتفع أمامه، ولا يضعه على الأرض لما في ذلك من الامتهان.

١٠ـ أن يقرأ بتدبر وتمعن وفهم لما يتلوه، ولا يكون كلُّ همه كم قرأ؟! فقد قال أبو جمرة: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كله[٢].

١١ـ ومن آداب استماع القرآن الإنصات والإصغاء للتلاوة، وترك الكلام والضحك.

١٢ـ ومنها أن لا يعبث ولا يكثر من الحركة لغير حاجة.

١٣ـ ومنها الخشوع عند سماع القرآن، واستحضار القلب، والتفكر والتدبر فيما يسمع من الآيات.

* * *

---

(١) أخلاق أهل القرآن: الآجري، تحقيق محمد عمرو بن عبد اللطيف، ص١٦٩.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، تحقيق عبده الكوشك، ص١١٩.

خصائص القرآن الكريم

أنزل الله تعالى هذا القرآن على الرسول ﷺ ليخرج به هذه الأمة من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام حتى أصبحت خير أمة أخرجت للناس.

وتميزت هذه الأمة بخصائص كثيرة ليست في الأمم كلِّها، واختص أيضاً نبيها ﷺ بخصائص كثيرة، وتميز دينها الدين الإسلامي بخصائص عديدة ليست في الأديان الأخرى، وتميز الكتاب الذي أنزل عليها بخصائص دون سائر الكتب المنزلة.

وقد كتب كثير من العلماء في خصائص الإسلام[١]، وفي خصائص الأمة الإسلامية[٢] وفي خصائص الرسول ﷺ[٣]. فلا عجب أن يهتم العلماء أيضاً بخصائص القرآن الكريم[٤]، وقد أورد العلماء هذه الخصائص في بطون مؤلفاتهم عن علوم القرآن، وأفردها بعضهم، وفي هذا الموضوع مجال خصب يمرح فيه بعض المشعوذين والدجالين فيوردون فيه بعض الخرافات والشعوذة. وبالتحقيق والتدقيق يذهب زغل المبطلين.

وسأذكر هنا بعض هٰذه الخصائص:

---

(١) مثلاً الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي.

(٢) ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه «فنون الأفنان» ثلاثين نوعاً منها.

(٣) مثلاً: الخصائص الكبرى: السيوطي.

(٤) جمعت كثيراً من هذه الخصائص في كتابي: «خصائص القرآن الكريم».

أولاً: خصائص تتعلق بفضله وشرفه ومكانته:

وهي خصائص كثيرة منها:

١ ـ فضله:

لا يخفى فضل القرآن عمن لديه أدنى علم شرعي. ذلكم أن القرآن الكريم «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»[١].

هو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناط به كلَّ سعادة. هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

هو حجة الرسول ﷺ الدامغة، وآيته الكبرى، شاهدة برسالته، وناطقة بنبوته.

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحِكَمِه وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهدايته، ودلالته.

هو أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمَحَجَّة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

فضله لا يدانيه فضل، ولا تسمو إليه مكانة، وسبق الحديث عن فضله في القرآن، وفضله في السنة، بما يغني عن إعادته.

---

(١) الموافقات: الشاطبي، جـ٣، ص٣٤٦.

٢ ـ شفاعته لأهله:

ومن خصائص القرآن الكريم أنه يشفع لأهله يوم القيامة، ومن الأدلة على ذلك حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(١).

٣ ـ أنه شفاء:

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾(٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

وتدبر وَصْفَ الله للقرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرةُ الدواء والهدفُ منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر، فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأيّ تأكيد لثمرة التداوي به.

وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل بنفسه بالتداوي بالقرآن، فقد روت عائشة رضي الله عنها، قالت: «إن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثَقُلَ كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها»(٥).

---

(١) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٤) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٥) صحيح البخاري، جـ٧، ص٢٢.

وأقرّ أصحابه رضي الله عنهم على الاستشفاء به، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يَقْرُوهم، فبينما هم كذلك، إذ لُدِغَ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقالوا: إنكم لم تَقْرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأمّ القرآن، ويجمع بُزاقه ويَتفِل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه فضحك وقال: «وما أدراك أنها رُقْية، خذوها واضربوا لي بسهم»[1].

والقرآن شفاء للأمراض النفسية. وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة إلى التداوي بالقرآن؛ لهذا الداء الوبيل في عالم تتنازعه الأهواء المادية، والشهوات الجسدية، والملذات الدنيوية، وإنما تحدث الأمراض النفسية حين يعرض الإنسان عن القرآن وعن ذكر الله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[3]، أما العلاج والشفاء فهو قرين الذكر ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[4].

ولكن ينبغي أن نعلم أن الاستشفاء بالقرآن يستدعي كمال اليقين، وقوة الاعتقاد وسلامته، ولذا قال الزركشي ـ رحمه الله تعالى ـ عن الاستشفاء بالقرآن: «لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله

---

(١) صحيح البخاري، جـ٧، ص٢٣.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

وسمعه، وعمر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميرَه في ليله ونهاره، وتمسك به وتدبَّره»[1].

ومن خصائصه التي تتعلق بفضله وشرفه ومكانته: التعبد بتلاوته، وتعدد أسمائه وصفاته، والثواب لقارئه ومستمعه، وأن له نزولين، ونزوله مُنَجَّماً دون سائر الكتب السابقة وغير ذلك.

ثانياً: خصائص تتعلق بأسلوبه ولغته:

١ ـ أنه لا يعلو عن أفهام العامة، ولا يَقصُرُ عن مطالب الخاصة.

وهذان مطلبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجؤوا إلى قاعدة يعتذرون بها فقالوا: «لكل مقام مقال» أما أن يأتي كلام واحد يُخاطَبُ به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكياء ومَن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كلٌّ منهم مطلبَه، ويدرك من معانيه ما يكفيه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكمله إلا في القرآن الكريم وحدَه.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله، ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنته، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايته، فيخشع قلبه، وتدمع عيناه، فينقاد له، ويذعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحته، وتهيمن عليه بلاغته، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتدهشه أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زمام فكره، وقيادة عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعة شأنه[2] فيذعن ﴿رَبَّنَا

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٣، ص٤٣٦.

(٢) قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[1] ثم يرفع يديه: ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[2] فتدركه الخشية[3]، ويذعن لربه، ويؤمن بشرعه.

والآيات هي هي هنا وهناك لم تتغير ولم تتبدل.

٢ ـ ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم: تصوير المعاني:

ويراد بها إظهار المعاني بكلمات تكاد أن تجعلها بصورة المحسوس، حتى تهم بلمسها بيديك، وحتى تلج إلى ذهنك مترابطة متكاملة، لا تكلف ذهنك مشقة تركيبها، ولا تثقله بمهمة تجميعها، فتقسره قسراً على الفهم والإدراك، بل تفجؤه بانطباعها فيه بمجرد توجهه إليها.

وتفسير سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ له عناية خاصة بهذا المعنى، وتميز فيه بين سائر المفسرين.

وتصوير المعاني يكون أحياناً بطريقة التجسيم، أي: بجعلها في صورة مجسمة قابلة للوزن والكثافة، فقد وصف الله سبحانه العذاب بأنه غليظ في قوله سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾[4] واليوم بأنه ثقيل ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾[5] فنقل العذاب من كونه معنى مجرداً إلى شيء ذي غلظ وسُمك، كما نقل اليوم من زمن لا يُمسك إلى شيء ذي كثافة ووزن[6].

---

(١) سورة غافر: الآية ٧.

(٢) سورة طه: الآية ١١٤.

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٧.

(٥) سورة الإنسان: الآية ٢٧.

(٦) لمزيد بيان عن إسهام المفردة القرآنية في التجسيم انظر كتاب الأستاذ أحمد ياسوف «جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير».

وهناك خصائص أخرى كثيرة لأسلوب القرآن منها: نظمه، ووقعه وجودة السبك، وإحكام السرد، وتعدد الأساليب، واتحاد المعنى، والجمع بين الإجمال والبيان، وإيجاز اللفظ مع وفاء المعنى وغير ذلك.

ثالثاً: خصائص عامة:

وهي كذلك خصائص كثيرة عديدة منها:

١ ـ حفظه في الصدور:

من أشرف خصائص القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى كلَّفَ الأمة بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أثمت الأمة كلُّها، وليس هذا لكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل ترك لأهلهما أمر الحفظ فاكتفوا بالقراءة دون الحفظ، إلا قلة لا تكاد تذكر، ولم تتوافر الدواعي لحفظهما كما توافرت لحفظ القرآن الكريم، فلم يكن لهما ثبوت قطعي كما هو للقرآن، فسهل تحريفُهما وتبديلهما.

ولم يترك الرسول ﷺ سبيلاً فيه حث على حفظ القرآن إلا وأرشد إليه وحث عليه، فحفظه عدد كبير من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وما زالت المسيرة مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم، ونجد إقبالاً لا يخطر ببالٍ، ولا يحلم بمثله أهل كتاب. انظروا ـ إن شئتم ـ مدارس تحفيظ القرآن العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا ثم التفتوا يسرة، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة فلن تجدوا منها شيئاً، بل ستجدون قلة القلة تحفظ هذا أو ذاك مما لا يذكر ـ أبداً ـ في مقابل مدارس تحفيظ القرآن.

تقول المستشرقة لورا فاغليري: «إن في مصر وحدَها عدداً من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها»[1]

---

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري، ص٥٩.

ويقول جيمي متشيز: «لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تُقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظاً»[1].

٢ ـ اتصال السند:

من المعلوم أن أغلب الذين يتعلمون تلاوة القرآن إنما يتعلمونها عن طريق السماع، ولا يكتفون بتعلمه من المصاحف وحدَها، ونعلم أن أساتذتهم تلقوه أيضاً بالسماع عن طريق مشايخهم، وهكذا لا تنقطع هذه الطريقة إلى أن تصل طبقة التابعين ثم الصحابة ثم الرسول ﷺ.

وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلاً برسول الله ﷺ، وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شَرَّف الله هذه الأمة باتصال سندها برسولها ﷺ.

قال محمد بن حاتم المظفر: «إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة، وشَرَّفها وفضَّلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، مما جاءهم به أنبياؤهم وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات»[2].

٣ ـ أنه لا يمسه إلا المطهرون:

أنزل الله القرآن بواسطة أفضل الملائكة على أفضل الأنبياء لخير أمة أخرجت للناس، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور، ومن رجس الجاهلية إلى طهارة الإسلام، فحُقَّ لهذا الكتاب أن يتهيأ المسلمون لتلاوته، وأن

---

(١) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٨.

(٢) توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، جـ٢، ص٣٩٩، فتح المغيث: للسخاوي، جـ٣، ص٤.

يستعدوا لها بالطهارة، ليست الطهارة الصغرى كما يفهمها بعض الناس، ولكنها الطهارة الكبرى بكل معانيها.

طهارة القلب من الكفر والشرك، فلا يمس القرآن كافر ولا يُمَكَّنُ من ذلك، ولا يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفر، وطهارة القلب أيضاً من الرياء والنفاق، أو أن يريد بالتلاوة غير وجه الله، كمن يقرؤه للرياء والسمعة أو ليقال هو قارئ، أو كمن يقرؤه للتكسب أو لينال به شيئاً من حطام الدنيا.

وطهارة البدن من الحدثين: الأكبر والأصغر، فيجب الاغتسال من الجنابة ونحوها بلا خلاف، ويسن الوضوء من الحدث الأصغر، بل أوجبه بعض العلماء.

وطهارة اللباس فينبغي أن تكون ثيابه طاهرة نظيفة نقية، وأن يتطيب، وأن يلبس من الثياب أحسنها، وأن يستعد لها كما يستعد لملاقاة الملوك فإنه مناج ملك الملوك.

وطهارة الفم فينبغي أن ينظف فاه، ويستاك، ويخلل أسنانه اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه من بعده.

وهذه الطهارة خاصة بتلاوة القرآن لا يشترك معه فيها كتاب آخر.

٤ ـ إن الله تعهد بحفظه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١] وقد مرت بالقرآن أحداث عظيمة، وأهوال جسيمة، وعوامل خطيرة، وتكالب عليه الأعداء، وتداعت عليه الأمم، ولو مر بعض ذلك على غير القرآن لأصابه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتغيير والتبديل. أما القرآن فقد مر بهذه

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

الأحوال المتماوجة، والدواعي المتكالبة، ولم تنل منه بغيتها، بل وصل إلينا كما أنزله الله لم يتبدل ولم يتغير. ما طالته الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية؛ ليتم الله نوره ولو كره الكافرون.

وقد كانت هذه الآية بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم خبراً، ولكنها الآن خبر ومعجزة، معجزة أن مر خمسة عشر قرناً ولم يقع ما يخالفها؛ وخبر بأن الحفظ مستمر إلى يوم القيامة.

أما الكتب السابقة فلم يتعهد الله بحفظها، بل أوكل أمر حفظها إلى أهلها فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[1].

وخصائص القرآن العامة كثيرة، ومنها إجمالاً: معارفه، إعجازه، أنه لا ينسب إلا إلى الله، والجمع بين البسملة والاستعاذة عند تلاوته، وحرمة تفسيره بمجرد الرأي، وتيسير حفظه وتلاوته، وأن قارئه لا يمله، وتحريم روايته بالمعنى، وأنه يتفلت من حافظه، ورسمه، وهيمنته على الكتب السابقة، والأحرف المقطعة في أوائل السور وغير ذلك[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) اقتبست هذا المبحث من كتابي «خصائص القرآن الكريم».

جمع القرآن الكريم

المراد بجمع القرآن:

يطلق جمع القرآن الكريم ويراد به أحد ثلاثة أنواع:

الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره.

الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه كله حروفاً وكلمات وآيات وسوراً.

الثالث: جمعه بمعنى تسجيله تسجيلاً صوتياً.

ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة تاريخ وخصائص ومزايا، ولذا فسنتناول كلَّ نوع على حدة.

النوع الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره:

١ ـ الدليل:

ويشهد لهذا النوع قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[1].

فالمراد بالجمع هنا الحفظ في الصدور، ويفسره حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، كان يحرك شفتيه.. فأنزل الله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ قال: جَمْعَهُ في صدرك ثم تَقْرَأْهُ. ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ قال: فاستمع وأنصت. ثم إنَّ علينا أن تقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه[2].

---

(١) سورة القيامة: الآيات ١٦-١٩.

(٢) رواه البخاري، جـ١، ص٤، ورواه مسلم، جـ١، ص٣٣٠-٣٣١.

٢ ـ حكمه:

حفظ القرآن كلِّه واجب على الأمة، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أثمت الأمة كلُّها، وليس هذا لكتاب غير القرآن، وأما الأفراد فيجب على كل فرد أن يحفظ من القرآن ما تقوم به صلاته.

٣ ـ فضله:

لم يترك الرسول ﷺ أمراً فيه حث على حفظ القرآن إلا وسلكه وأمر به، فكان يفاضل بين أصحابه بحفظ القرآن، ويعقد الراية لأكثرهم حفظاً للقرآن، وإذا بعث بعثاً جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم قراءة للقرآن، ويُقدِّمُ لِلَّحْدِ في القبر أكثرهم أخذاً للقرآن، ويزوج الرجل المرأة ويمهرها ما مع الرجل من القرآن، فضلاً عن الأحاديث الكثيرة الداعية لحفظ القرآن وتعلمه وتعليمه.

٤ ـ حفظ الرسول ﷺ القرآن:

إدراكاً من الرسول ﷺ للأمانة الكبرى التي كُلِّف بها، وهي أن يبلغ الناسَ القرآن ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[1].

وإدراكاً منه عليه الصلاة والسلام أن تبليغ القرآن يجب أن يكون كما سمعه بلا زيادة ولا نقصان، ولا استبدال لحرف بحرف، أو حركة بحركة، لذا فقد كان عليه الصلاة والسلام يشعر بحرج شديد، وخوف عظيم أن ينسى شيئاً من القرآن، مما جعله يحرك لسانَه بالقرآن لحظةَ نزول الوحي مع شدة وطأة الوحي، وما يعانيه من الجهد والكرب عند نزوله، وما زال ﷺ كذلك حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٩.

﴿وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[2]. فكان ﷺ بعد هذا إذا أتاه الوحي أطرق، فإذا ذهب جبريل وجد الرسول ﷺ القرآنَ مجموعاً في صدره كما وعده الله.

وقد حفظ الرسول ﷺ القرآن كلَّه، وحفظه أصحابه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، في شهر رمضان، وعارضه إياه في العام الذي توفي فيه مرتين، كما في حديث عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»[3] وكان ﷺ يقوم بالقرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار حتى كادت أن تتشقق قدماه.

٥ ـ حفظ الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم:

اشتد التنافس بين الصحابة رضي الله عنهم في حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتدبره، وتسابقوا إلى مدارسته وتفسيره والعمل به، وكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وكانوا يهجرون لذيذ المنام ودفء الفراش، ويؤثرون قيام الليل والتهجد بالقرآن، حتى كان يُسمَع لبيوتهم دَوِيٌّ كدوي النحل لتلاوتهم القرآن.

وكان رسول الله ﷺ يحثهم على ذلك، ويحرص على سماع تلاوتهم، فقد قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[4].

---

(١) سورة القيامة: الآيات ١٦-١٩.

(٢) سورة طه: الآية ١١٤.

(٣) رواه البخاري، جـ٤، ص١٨٣.

(٤) رواه مسلم، جـ١، ص٥٤٦.

واستمع لتلاوة سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فقال له: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك»[1].

وقال لابن مسعود رضي الله عنه: «اقرأ عليَّ القرآن» فقال ابن مسعود: يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «إنِّي أحبُّ أن أسمعه من غيري» فقرأ عليه سورة النساء حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[2] قال: «حسبك الآن» قال ابن مسعود: فالتفت فإذا عيناه تذرفان[3].

وقال ﷺ: «إنِّي لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار»[4].

والأخبار الكثيرة تشهد على عناية الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم وتلاوته، وحفظه، وعلى حث الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه على ذلك.

فلا عجب أن يكثر عدد حفاظ القرآن من الصحابة، إذ حفظه في حياة الرسول ﷺ الجم الغفير من الصحابة رضي الله عنهم.

فمن المهاجرين الذين حفظوا القرآن كله أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٦، ص١٦٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٤١.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص١١٣.

(٤) رواه مسلم، جـ٤، ص١٩٤٤.

عبدالله، ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة[1] رضي الله عنهم أجمعين.

ومن الأنصار عبادة بن الصامت، وأُبَيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد ابن ثابت، وفَضَالة بن عُبَيْد، ومَسْلَمة بن مَخْلَد، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، وأبو زيد بن السَّكَن رضي الله عنهم أجمعين.

(إشكال)

روى البخاري في صحيحه ثلاثة أحاديث:

الأول: عن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: مَن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أُبَيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[2].

الثاني: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد، قال: ونحن ورثناه[3].

الثالث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب»[4].

وقد يستدل بهذه الأحاديث على أن الذين يحفظون القرآن هم: عبد الله ابن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٢.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٢-١٠٣.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٣.

(٤) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٢.

وهذا يخالف ما هو معلوم أن الذين يحفظون القرآن من الصحابة جمٌّ غفير وليس محصوراً بهذا العدد.

والجواب عن هذا الإشكال من وجوه:

الأول: أنَّه لا يراد بهذه الأحاديث الحصر وإنما يراد به ضرب المثل، ويشهد لهذا أنَّ أنساً نفسه ذكر في حديثٍ «أبي بن كعب» وفي حديثٍ آخر «أبا الدرداء» فلو كان المراد الحصر لاتفقت الأسماء في الحديثين.

الثاني: أنَّ المراد بالجمع الكتابة لا الحفظ.

الثالث: أنَّ المراد بالجمع حفظه بوجوه القراءات كلها.

الرابع: أنَّ المراد بالجمع تلقيه كله من فم الرسول ﷺ.

الخامس: أنَّ المراد أنهم هم الذين عرضوه على النبي ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم، وأمَّا من حفظه ولم يتصل بنا سنده فكثير[1].

قال المازري رحمه الله تعالى: «وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسَّك لهم فيه، فإنا لا نسلم حملَه على ظاهره، سلمناه، ولكن من أين لهم أنَّ الواقع في نفس الأمر كذلك؟ سلمناه، لكن لا يلزم من كون كلٍّ من الجَمِّ الغفير لم يحفظه كلَّه ألاَّ يكون حَفِظَ مجموعَه الجَمُّ الغفيرُ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كلُّ فردٍ جميعَه، بل إذا حفظ الكلُّ الكُلَّ ولو على التوزيع كفى»[2].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٤٢.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٢، وفتح الباري، جـ٩، ص٥٣، والمرشد الوجيز، ص٤٠ عن المعلم شرح صحيح مسلم للمازري (مخطوط).

٦ ـ حفظ التابعين ومن بعدهم ـ رحمهم الله تعالى ـ للقرآن الكريم:

مر بنا أنَّ الصحابة رضي الله عنهم انتشروا في الآفاق الإسلامية والبلدان المفتوحة يعلمون الناس أمور دينهم، ويعقدون حِلَقَ التعليم والتدريس في مساجد تلك البلدان، وأقبل عليهم كثير من الناس يتحلقون حولهم، ويتلقون العلم منهم، وصار لبعض هذه المدارس شهرة كبيرة حملت كثيراً من التابعين على الرحلة إليها، وتلقِّي العلم من أهلها، كمدرسة ابن مسعود رضي الله عنه في الكوفة، ومدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه في المدينة، ومدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة وغيرها من مدارس الصحابة رضي الله عنهم.

وكان الصحابة يعلِّمونهم القرآن الكريم ويُحفِّظونهم إياه، ويفسرون لهم معانيه، ويبينون لهم أحكامه، وقد أقبل التابعون على هذه المدارس، فكثر حفاظ القرآن الكريم، ولم يقتصروا على تلاوته، بل حفظوا أوجه قراءته، واشتهر عدد كبير من الحفاظ بالقراءة والرواية.

وتجرد بعض التابعين رحمهم الله تعالى للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول حتى صاروا أئمة يُقتدَى بهم.

٧ ـ حفظ القرآن الكريم في العصر الحديث:

أما في العصور الحديثة فما زالت المسيرة ـ والحمد لله ـ مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم مع تكالب الأحوال على المسلمين، واضطراب المعيشة، ومغريات الحضارة، وتوافر الموانع، وانحسار الدوافع، وما زلنا نرى كثرة حفاظ القرآن الكريم، ونجد إقبالاً لا يخطر ببال، ولا يَحْلُم بمثله أهل كتاب.

فقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم العديدة وأنشئت معاهد للقراءات وكليات القرآن في العديد من الدول الإسلامية، والحمد لله.

٨ ـ خصائص جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور:

ولهذا النوع من الجمع مزايا وخصائص منها:

١ ـ أنَّ جمع القرآن بمعنى حفظه هو أول علم نشأ من علوم القرآن الكريم، وذلك أنه حين نزل الوحي على الرسول ﷺ في غار حراء، وجرى ما جرى، تلا عليه الصلاة والسلام ما نزل عليه من القرآن على خديجة، وذلك من حفظه، فهو أول علم نشأ من علوم القرآن.

٢ ـ أنه دائم لا ينقطع إن شاء الله تعالى، فقد حفظ الرسول ﷺ القرآن، وحفظه أصحابه والتابعون ومَن بعدهم، وما زال المسلمون يحفظونه إلى أن يأذن الله برفعه بخلاف جمعه بمعنى كتابته، فقد مَرَّ بثلاث مراحل، آخرُها في عهد عثمان رضي الله عنه.

٣ ـ أن الحفظ في الصدور خاصٌّ بالقرآن، وليس هناك كتاب يحفظه أهله غير القرآن.

٤ ـ أنه يجب على كل مسلم أن يحفظ من القرآن ما يؤدي به الصلوات بخلاف جمعه بمعنى كتابته وتدوينه، فلا يجب على كل مسلم.

٥ ـ الوعيد لمن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه.

النوع الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه:

جُمِعَ القرآن الكريم بهذا المعنى ثلاث مرات:

ـ الجمع الأول: في عهد الرسول ﷺ.

ـ الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ـ الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المراد بالجموع الثلاثة:

وقد يُشْكِل على الذهن كيف يُجمع الشيء الواحد ثلاث مرات، فإذا كان جُمِعَ في عهد الرسول ﷺ فكيف يجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يُجمع ثالثة.

والجواب: أنَّه لا يُراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل. فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول ﷺ (كتابته وتدوينه)، والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه (جمعه في مصحف واحد)، والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه (نسخه) في مصاحف متعددة.

ويظهر بهذا أنَّ الجمع بمعناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وسنتحدث عن كل مرحلة من مراحل هذا الجمع:

أولاً: جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد الرسول ﷺ:

كُتَّابُ الوحي:

اتخذ الرسول ﷺ عدداً من الصحابة وكان إذا نزل عليه شيء من القرآن أمر أحدهم بكتابته وتدوينه، ويعرف هؤلاء الصحابة بـ«كُتَّاب الوحي» ومنهم:

الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد بن العاصي، وحنظلة بن الربيع، والزبير بن العوام، وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وعبد الله

ابن الأرقم، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس وغيرهم[١].

صفة هذا الجمع:

وصف هذا الجمع صحابيان جليلان، فقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرِّقاع»[٢] أي: نجمعه لترتيب آياته من الرقاع.

وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». الحديث[٣].

أدوات الكتابة:

لم تكن أدوات الكتابة ميسرة للصحابة في ذلك الوقت فكانوا يكتبونه على كل ما تناله أيديهم من العُسُب (وهي جريد النخل).

واللِّخَاف: (وهي الحجارة الرقيقة).

والرِّقاع: (وهي القطعة من الجلد أو الورق).

والكرانيف: (وهي أطراف العُسُب العريضة).

والأقْتَاب: (جمع قتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه).

---

(١) انظر جوامع السيرة لابن حزم، ص٢٦-٣٧، وزاد المعاد لابن القيم، جـ١، ص٢٩، وكُتَّابُ الوحي للدكتور: أحمد عبد الرحمٰن عيسى، وكُتَّابُ النبي ﷺ: للدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، جـ٢، ص٢٢٩.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، جـ٢، ص٢٢١.

والأكتاف: (جمع كتف وهي عظم عريض للإبل والغنم).

وكان كُتَّابُ الوحي ـ رضي الله عنهم ـ يضعون كُلَّ ما يكتبون في بيت رسول الله ﷺ وينسخون لأنفسهم منه نسخة.

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

١ ـ كتب القرآن في عهد الرسول ﷺ على الأحرف السبعة، فقد ثبت في السنة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، ومما ورد في ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»(١).

٢ ـ أجمع العلماء على أنَّ جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ كان مرتب الآيات، أما ترتيب السور ففيه خلاف.

٣ ـ بعض ما كتب في عهد الرسول ﷺ نُسِخت تلاوتُه وظلَّ مكتوباً حتى توفى رسول الله ﷺ. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يُحرِّمْن» ثم نسخن «بخمس معلومات» فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ من القرآن(٢).

٤ ـ لم يكن القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ مجموعاً في مصحف واحد، بل كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف واللخاف وغيرها، ولهذا قال زيد

---

(١) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٠، وورواه مسلم، جـ١، ص٥٦٠.

(٢) رواه مسلم، جـ٢، ص١٠٧٥. قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ ومعناه «أن النسخ بخمس رضعات، تأخر إنزاله جداً حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات، ويجعلها قرآناً متلواً؛ لكونه لم يبلغه النسخ؛ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى» صحيح مسلم بشرح النووي جـ٥ ص٢٨٥.

ابن ثابت رضي الله عنه: «قُبِضَ النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء»[(١)] وقال أيضاً لما أُمِر بجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه: «فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال»[(٢)].

ولعلك تسأل بعد هذا لماذا لم يُجمَع القرآنُ في عهد الرسول ﷺ في مصحف واحد؟

وقد أجاب العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ على ذلك، وذكروا أسباباً منها:

١ ـ أن الله تعالى قد أمَّنَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)]، أي: ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ، فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته ﷺ فإن النسيان قد يقع، فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد[(٤)].

٢ ـ قال الخطابي: «إنَّما لم يَجْمَعْ ﷺ القرآنَ في المصحف لِمَا كان يترقَّبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزولُه بوفاته ألهَمَ الله الخلفاءَ الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة[(٥)].

وقال الزركشي: «وإنما ترك جمعه في مصحف واحد لأن النسخ كان يَرِدُ على بعضٍ، فلو جمعه ثم رُفِعَت تلاوةُ بعضٍ لأدَّى إلى الاختلاف

---

(١) فتح الباري، لابن حجر، جـ٩، ص٩، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جـ١، ص٥٧.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٨ باب جمع القرآن الكريم.

(٣) سورة الأعلى: الآيتان ٦-٧.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٨.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٧، وانظر شرح السنة: للبغوي، جـ٤، ص٥١٩.

واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين»[1].

٣ ـ أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة.

٤ ـ أن ترتيب آيات القرآن وسوره ليس على حسب ترتيب نزوله، ولو جُمِع القرآنُ في مصحف واحد حينذاك لكان عرضة للتغيير كلما نزل شيء من القرآن[2].

ولم يكن الصحابة رضي الله تعالى عنهم إذا اختلفوا في شيء من القرآن يرجعون إلى ما هو مكتوب، بل كانوا يرجعون إلى الرسول ﷺ فيعرضون عليه قراءتهم ويسألونه عنها.

وبعد وفاة الرسول ﷺ ومقتل بعض القراء من الصحابة دعت الحاجة إلى جمع القرآن في مصحف واحد، فكان ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

سببه:

بعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت بعض قبائل العرب، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه خليفةُ رسول الله ﷺ الجيوشَ لقتال المرتدين، وكان قوام هذه الجيوش هم الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم حُفَّاظ القرآن، وكانت حروب الردة شديدة، قُتِل فيها عدد من القراء الذين يحفظون القرآن الكريم، فخشي

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٢٤١-٢٤٢.

بعض الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته[1]، فأراد أن يجمع القرآنَ في مصحف واحد بمحضر من الصحابة.

وقصة ذلك رواها البخاري في «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر ـ مَقتلَ أهل اليمامة ـ فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحر[2] يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهبَ كثير من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآنَ فاجمعْه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآنَ أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخرَ سورة التوبة مع أبي خُزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيرَه ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[3] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمرَ حياتَه، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه»[4].

---

(١) شرح السنة: البغوي، جـ٤، ص٥٢١.

(٢) يعني: اشتد وكثر.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٤) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٨-٩٩.

تاريخ هذا الجمع:

هو كما جاء في الحديث بعد معركة اليمامة، وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة.

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع:

ترجع أسباب اختيار زيد بن ثابت لأمور منها:

١ ـ أنَّه كان من حُفَّاظ القرآن الكريم.

٢ ـ أنَّه شهد العَرْضة الأخيرة للقرآن الكريم، وقد روى البَغَويُّ عن أبي عبد الرحمٰن السُّلَمِي أنَّه قال: قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، إلى أن قال عن زيد ثابت: إنه «شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرىء الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاّه عثمان كَتْبَةَ المصاحف رضي الله عنهم أجمعين»[1].

٣ ـ أنَّه من كُتَّاب الوحي للرسول ﷺ.

٤ ـ خصوبة عقله، وشدة ورعه، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعظم أمانته، ويشهد لذلك قول أبي بكر رضي الله عنه له: «إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ» وقوله نفسه رضي الله عنه: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن».

منهج زيد في هذا الجمع:

من المعلوم أنَّ زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ القرآن كلَّه في صدره، وكان القرآن مكتوباً عنده، ومع هذا فلم يعتمد على ما حفظه، ولا

---

(١) شرح السنة: البغوي، جـ٤، ص٥٢٥-٥٢٦، والبرهان للزركشي، جـ١، ص٢٣٧، والإتقان للسيوطي، جـ١، ص٥٠.

على ما كتب بيده، وذلك أنَّ عملَه ليس جمعَ القرآن فحسب، وإنَّما التوثيق والتثبت فيما يكتب، ولهذا يقول الزركشي ـ رحمه الله تعالى ـ عن زيد: «وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم»[1] وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار، والوقوف عند ما كُتِب بين يدي النبي ﷺ»[2]. ويظهر لي أن من حِكَمِ ذلك أن زيد بن ثابت لا يكتب القرآن هنا لنفسه، وإنما يكتبه للأمة، وما دام كذلك فلا بد أن يكتبه بمشهد من الأمة وحضورها، بل ومن صدورها مما تلقته عن نبيها عليه الصلاة والسلام. وثبت في العرضة الأخيرة للقرآن على الرسول ﷺ. والله أعلم.

وقد رسم أبو بكر رضي الله عنه لزيد المنهج لهذا الجمع فقال له ولعمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»[3][4].

وقد امتثلا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: «من كان تلَقَّى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به»[5].

وقد بيَّن زيدٌ نفسه المنهج الذي سلكه بقوله رضي الله عنه: «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال»[6].

---

(١) البرهان، الزركشي، جـ١، ص٢٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، جـ٩، ص١٥.

(٣) المصاحف، ابن أبي داود، ص١٢. وجمال القراء، جـ١، ص٨٦.

(٤) قال ابن حجر: «ورجاله ثقات مع انقطاعه» فتح الباري، جـ٩، ص١٤.

(٥) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٧.

(٦) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٨-٩٩.

وعلى هذا فإنَّ منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقوم على أسس أربعة:

الأول: ما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة.

الثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

الثالث: أن لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كُتب بين يدي الرسول ﷺ، قال السخاوي معناه: «من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ»[١].

وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ»[٢]. وكذا مما ثبت في العرضة الأخيرة.

الرابع: أن لا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقَّوْه من فم الرسول ﷺ، فإن عمر رضي الله عنه ينادي: «من كان تلَقَّى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به» ولم يقل من حفظ شيئاً من القرآن فليأتنا به.

مميزات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

١ ـ جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدقِّ وجوه البحث والتحرِّي والإتقان، وظفر هذا الجمع بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه.

٢ ـ أُهْمِلَ في هذا الجمع ما نُسِخت تلاوته من الآيات.

٣ ـ أن هذا الجمع كان على ما ثبت في العرضة الأخيرة من الأحرف السبعة.

---

(١) جمال القراء: السخاوي، جـ١، ص٨٦.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٥، وانظر المرشد الوجيز: لأبي شامة، ص٥٧.

٤ ـ أنَّ هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق، واختلف العلماء في السور، هل كانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان رضي الله عنه؟

٥ ـ اتفق العلماء على أنه كُتِبَ نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر لأنه إمام المسلمين.

٦ ـ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لم يلزم الناس باتباع المصحف الذي كتبه، ولم يكن هذا من مقاصده لما أمر بكتابة المصحف، لذا بقي الصحابة يُقرِئون بما سمعوه من الرسول ﷺ، وكان في ذلك بعض المنسوخ في العرضة الأخيرة.

مكانة هذا الجمع:

ظفر هذا الجمع باتفاق الصحابة رضي الله عنهم على صحته ودقته، وأجمعوا على سلامته من الزيادة أو النقصان، وتَلَقَّوه بالقبول والعناية التي يستحقها، حتى قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، فإنه أول مَن جمع ما بين اللوحين»[(١)].

ومع هذا التصريح من علي ـ رضي الله عنه ـ فقد زعم قوم أن أول من جمع القرآن هو علي ـ رضي الله عنه ـ وقد رد عليهم الألوسي فقال: وما شاع أن علياً ـ كرم الله وجهه ـ لما توفي رسول الله ﷺ تخلف لجمعه. فبعض طرقه ضعيفة، وبعضها موضوع، وما صح فمحمول كما قيل على الجمع في الصدر، وقيل: كان جمعاً بصورة أخرى لغرض آخر، ويؤيده أنه قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ فهو ككتاب علم[(٢)].

---

(١) المصاحف: أبو داود السجستاني، ص١١.

(٢) روح المعاني: الألوسي، جـ١، ص٢٢.

ولهذا روي أن أول من جمعه عمر رضي الله عنه، كما روي أن أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة، أقسم أن لا يرتدي برداء حتى يجمعه، وكل ذلك محمول على ما حمل عليه جمع علي رضي الله عنه، بل ذكر ابن حجر وغيره أن جمع علي ـ رضي الله عنه ـ كان حسب ترتيب النزول. وذكر النهاوندي ـ أحد مفسري الشيعة ـ «أن الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه بيان شأن نزول الآيات، وأسماء الذين نزلت فيهم، وأوقات نزولها، وتأويل متشابهاتها، وتعيين ناسخها ومنسوخها، وذكر عامها وخاصها، وبيان العلوم المرتبطة بها، وكيفية قراءتها»[(١)].

وإن صح هذا ـ مع استحالته ـ فليس هو بجمع للقرآن وإنما هو كتاب في علوم القرآن. وإنما قلت: مع استحالته، فلأن جمعه حسب ترتيب النزول غير ممكن، فقد سأل محمد بن سيرين عكرمة مولى ابن عباس فقال: «قلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا»[(٢)].

تسميته بالمصحف:

لم يكن (المصحف) يُطلق على القرآن قَبْلَ جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإنَّما عُرِفَ هذا الاسم بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن، فقد روى السيوطي عن ابن أشته في كتابه «المصاحف» أنَّه قال: «لما جمعوا القرآن فكتبوه في الوَرَق قال أبو بكر: التمسوا له اسماً فقال بعضهم السِّفْر، وقال بعضهم المصحف، فإنَّ الحبشة يسمونه المصحف. وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف»[(٣)].

---

(١) نفحات الرحمٰن، جـ١، ص٨-١٢. عن كتاب «علوم القرآن عند المفسرين». إصدار مركز الثقافة والمعارف القرآنية في إيران، جـ١، ص٣٦٧.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٧.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥١.

خبر هذا المصحف:

بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن في المصحف سَلَّمَه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فحفظه عنده حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد وفاته انتقل المصحف إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، لأن عمر رضي الله عنه جعل أمْرَ الخلافة من بعده شورى، فبقي عند حفصة إلى أن طَلَبه منها عثمان ـ رضي الله عنه ـ لنسخه بعد ذلك، ثم أعاده إليها ـ لما سيأتي ـ ولما توفِّيت حفصة رضي الله عنها أرسل مروان ابن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ساعة رجعوا من جنازة حفصة بعزيمة ليُرْسِلَنَّ بها، فأرسل بها ابنُ عمر إلى مروان فمزقها مخافة أن يكون في شيء من ذلك خلاف ما نسخ عثمان رضي الله عنه[1].

ثالثاً: جمع القرآن بمعنى نسخه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

سببه:

عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضي الله عنهم في البلاد المفتوحة يعلمون أهلها القرآن وأمور الدين، وكان كلُّ صحابي يقرئ بما سمعه من الرسول ﷺ وفي بعضه مالم يثبت في العرضة الأخيرة، وكان أهل الشام يقرؤون بقراءة أبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، فيأتون بما لم يَسمع أهلُ العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهلُ الشام، فيُكَفِّر بعضهم بعضاً[2]. وعندما اتجه جيش المسلمين لفتح «أرمينيه» و«أذربيجان» كان الجنود من أهل العراق وأهل الشام، فكان الشِّقاق والنزاع يقع بينهم، ورأى حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٥٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص١٨.

اختلافهم في القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل منهم لقراءته، واعتياده عليها، واعتقاده أنها الصواب، وما عداها تحريف وضلال، حتى كَفَّرَ بعضهم بعضاً، فأفزع هذا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ فقال: والله لأركبَنَّ إلى أمير المؤمنين ـ يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ وكان عثمان قد رأى نحو هذا في المدينة، فقد كان المُعَلِّم يُعَلِّم بقراءة، والمعلم الآخر يعلم بقراءة، فجعل الصبيان يلتقون فينكر بعضُهم قراءةَ الآخر، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه، فقام خطيباً وقال: «أنتم عندي تختلفون فيه فتَلْحَنُون، فمن نأى عني من الأمصار أشدّ فيه اختلافاً، وأشدّ لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إماماً»[1].

فلمَّا جاء حذيفة إلى عثمان رضي الله عنهما وأخبره بما جرى، تحقَّق عند عثمان ما توقعه، وقد روى البخاري في «صحيحه» قصة ذلك الجمع في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «إنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح «أرمينيه» و«أذربيجان» مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان[2].

تاريخ هذا الجمع:

كان ذلك في أواخر سنة ٢٤ وأوائل سنة ٢٥ كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى[3].

---

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص٢٩.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٩.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٧.

فكرة الجمع:

لما سَمِع عثمان رضي الله عنه ما سمع، وأخبره حذيفة رضي الله عنه بما رأى، استشار الصحابة فيما يفعل، فقد روى ابن أبي داود بإسناد صحيح - كما يقول ابن حجر[1] - من طريق سويد بن غفلة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا أيها الناس لا تغلُوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف.. فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلاّ عن ملأ منّا جميعاً، قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أنَّ بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناسَ على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.. قال علي: والله لو وُلِّيت لفعلت مثل الذي فعل[2].

اللجنة المختارة:

اختار عثمان رضي الله عنه أربعة لنسخ المصاحف هم:

زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن ابن الحارث بن هشام[3]، وهؤلاء الثلاثة من قريش.

فقد سأل عثمان رضي الله عنه الصحابة: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت قال: فأي الناس أعرب؟ وفي رواية أفصح. قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليُملِ سعيد، وليكتب زيد»[4].

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٨.

(٢) المصاحف: ابن أبي داود، ص٣٠.

(٣) الإبانة: مكي بن أبي طالب، ص٦٤.

(٤) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٩.

المنهج في هذا الجمع:

بعد أن اتفق عثمان مع الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ على جمع القرآن على حرف، سلك منهجاً فريداً، وطريقاً سليماً، أجمعت الأمة على سلامته ودقته.

١ ـ فبدأ عثمان رضي الله عنه بأن خطب في الناس فقال: «أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن وتقولون: «قراءة أُبيّ» و«قراءة عبد الله»، يقول الرجل: «والله ما تقيم قراءتك!! فأعزمُ على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لمَّا جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآنُ، حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم، لسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم»[١].

٢ ـ وأرسل عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه. ومن المعلوم أن هذه الصحف هي التي جُمِعَت في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ على أدق وجوه البحث والتحري.

٣ ـ ثم دفع ذلك إلى زيد بن ثابت والقرشيين الثلاثة، وأمرهم بنسخ مصاحف منها، وقال عثمان للقرشيين: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم»[٢].

---

(١) المصاحف ابن أبي داود، ص٣١. وانظر جمال القراء، جـ١، ص٨٩.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٩.

٤ ـ إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أيّة علامة تَقصِرُ النطقَ بها على قراءة واحدة فتكتب برسم واحد يحتملُ القراءتين أو القراءات فيها جميعاً مثل:

أ ـ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1] التي قُرِأت أيضاً ﴿فتثبتوا﴾[2].

ب ـ ﴿نُنشِزُهَا﴾[3] قُرأت أيضاً ﴿نُنشِرُهَا﴾[4].

أما إذا لم يمكن رسمها بحيث تحتمل القراءات فيها فتكتب في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدل على القراءة الأخرى مثل:

أ ـ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾[5] هكذا كُتبت في بعض المصاحف وفي بعضها ﴿وأوصى﴾[6].

ب ـ ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[7] بواو قبل السين في بعض المصاحف وفي بعضها بحذف الواو[8].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف (النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، جـ٢، ص٢٥١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٤) الأولى قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالزاي والباقون بالراء المهملة (اتحاف فضلاء البشر: البناء، ص١٦٢).

(٥) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

(٦) وهي قراءة نافع وابن عامر (اتحاف فضلاء البشر، ص١٤٨).

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٨) هي قراءة نافع وابن عامر (اتحاف فضلاء البشر، ص١٧٩).

وبعد الفراغ من نسخ المصاحف بعث عثمان بنسخ منها إلى الأمصار الإسلامية، حيث نشط المسلمون في نسخ مصاحف منها للأفراد، وكان زُبَيْد ابن الحارث في المدينة يتفرغ في رمضان من كلِّ سنة لعرض المصاحف فيعرضون مصاحفهم عليه وبين يديه مصحف أهل المدينة[1].

مزايا جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

تميَّز هذا الجمع بمزايا عديدة منها:

١ ـ كتب القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة هو حرف قريش، وقد كتب مجرداً حتى يحتمل أحرفاً أخرى[2] فإن لم يحتمل إلا حرفاً واحداً كتب بلسان قريش. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي أطلق لهم رسول الله ﷺ القراءة بها لمَّا كان ذلك مصلحة»[3].

٢ ـ إهمال ما نسخت تلاوته.

فقد كان قصد عثمان رضي الله عنه جمع الناس على مصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثْبِتَ مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كُتِبَ مع مُثْبَتٍ رسمه، ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد[4].

---

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٧٥. وقال المحقق: «في الأصل ربيد، ولعل الصواب زيد» يعني زيد بن ثابت وهو خطأ والصواب ما أثبته وهو زبيد بن الحارث بن عبد الكريم اليامي. انظر تهذيب الكمال ١١/ ١٥٧ و٩/ ٢٩١.

(٢) انظر ما كتبناه عن القول الراجح فيما بقي من الأحرف السبعة ص٣٩٦-٣٩٧.

(٣) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم، ص١٦.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

٣ ـ الاقتصار على ما ثبت في العرضة الأخيرة وإهمال ما عداه.

فقد روى ابن أبي داود في «المصاحف» عن محمد بن سيرين، عن كثير ابن أفلح، قال: لمَّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أُبيٌّ بن كعب، وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الرَّبْعة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخَّروه، قال محمد: فقلت لكثير ـ وكان فيهم فيمن يكتب ـ: هل تدرون لم كانوا يؤخِّرونه؟ قال: لا، قال محمد: فظننتُ ظناً أنما كانوا يؤخِّرونها لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة، فيكتبونها على قوله[1].

٤ ـ الاقتصار على القراءات الثابتة المعروفة عن الرسول ﷺ وإلغاء ما لم يثبت[2]. وقد كان الهدف من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ تجريده مما لم يثبت من القراءات في العرضة الأخيرة للقرآن على الرسول ﷺ، وقد كان بعض الصحابة يقرأ بقراءة كان قد سمعها من الرسول ﷺ ولم تثبت في العرضة الأخيرة[3].

٥ ـ كان مرتب الآيات والسور على الوجه المعروف الآن.

قال الحاكم في «المستدرك»: «إن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جُمِعَ بعضه بحضرة الرسول ﷺ، ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، والجمع الثالث هو في ترتيب السور وكان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين»[4].

---

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص٣٣.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥.

(٣) يحسن النظر إلى ما كتبناه عن الأحرف السبعة والراجح فيما بقي منها ص٣٧٨-٣٧٩.

(٤) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٩.

الفروق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

كان معنى (الجمع) ظاهراً في جمع القرآن في عهد أبي بكر، فقد كان القرآن مفرقاً فأمر بجمعه، كما قال المحاسبي: «كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»[١].

إذاً فمعنى الجمع فيه ظاهر لا يحتاج إلى تفريق بينه وبين الجمع في عهد الرسول ﷺ، لكن الإشكال واللبس هو في الجمعين الثاني والثالث، إذ كيف يأمر عثمان بجمع القرآن وهو مجموع في عهد أبي بكر رضي الله عنهما؟! ولذا فإنَّ العلماء يُوْلُون التفريق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان عنايتهم لإزالة هذا اللبس، ويذكرون فروقاً.

قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك»[٢].

وقال ابن التين وغيره: «الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أنَّ جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرَتِّباً لآيات سُوَرِه على ما وقَّفَهم عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لمَّا كَثُر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدَّى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مُرتِّباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم»[٣].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٨.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٩-٦٠.

ونستطيع أن نستخلص أهم الفروق وهي:

١ ـ أنَّ الباعث لجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، وذلك حين استحرَّ القتل بالقراء في حروب الرِّدَّة، أمَّا جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فلكثرة الاختلاف في وجوه القراءة.

٢ ـ أنَّ جمع أبي بكر رضي الله عنه يشمل ما بقي من الأحرف السبعة في العرضة الأخيرة، أما جمعه في عهد عثمان فقد كان على حرف واحد هو حرف قريش مع تجريده حتى يحتمل أحرفاً أخرى.

٣ ـ أن أبا بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس باتباع المصحف الذي كتبه، أما عثمان رضي الله عنه فألزمهم باتباعه بمشورة الصحابة وإجماعهم، لذا منعت القراءة بما نسخ من الأحرف السبعة ولم يثبت في العرضة الأخيرة، وظهر بذلك ما يُعرف بالقراءة الشاذة، ولو صَحّ سندها وثبت قراءة النبي ﷺ بها، وبهذا يظهر أن ضابط القراءة الشاذة التي صح سندها ولم يقرأ بها الأئمة كونها نسخت في العرضة الأخيرة[1].

٤ ـ أنَّ جمع أبي بكر رضي الله عنه كان مرتب الآيات وفي ترتيب السور خلاف، أمَّا جمع عثمان فقد كان مرتب الآيات والسور باتفاق.

٥ ـ أنَّ الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه بمعنى الجمع في مصحف واحد، وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فبمعنى نسخه في مصاحف متعددة.

---

(١) انظر في هذا ما كتبه د. مساعد الطيار في ملتقى أهل التفسير في الانترنت عن الأحرف السبعة ص٧ من ١٧، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٩٣-٣٩٤.

إنفاذ المصاحف:

بعد أن أتمَّت اللجنة نسخ المصاحف أنفذ عثمان إلى آفاق الإسلام بنسخ منها، وأرسل مع كل مصحف مَن يوافق قراءته، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن أبي شهاب[1] مع الشامي، وأبا عبد الرحمٰن السُّلَمي مع الكوفي، وعامر بن عبدالقيس مع البصري، وتلقى التابعون في كل قطر قراءة إمامهم، وتفرغ قوم منهم لضبط القراءات حتى صاروا أئمة يُرحل إليهم[2].

موقف الصحابة من هذا الجمع:

وبعد أن أنفذ عثمان المصاحف أمر بما سوى مصحفه أن يُحرق، وبعث «إلى أهل الأمصار أني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم»[3].

وقد رضي الصحابة رضي الله عنهم ما صنع عثمان، وأجمعوا على سلامته وصحته. وقال زيد بن ثابت: «فرأيت أصحاب محمد يقولون: أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان»[4].

وروى ابن أبي داود عن مصعب بن سعد، قال: «أدركت الناس متوافرين حين حرَّق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، وقال: لم يُنكر ذلك منهم أحد»[5].

---

(١) انظر غاية النهاية: جـ٢، ص٣٠٥ حيث قال: «الصواب ابن أبي شهاب» وهو عند بعضهم المغيرة بن شهاب.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص٢١.

(٤) غرائب القرآن: النيسابوري، جـ١، ص٢٧.

(٥) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٩.

وروى سويد بن غفلة، قال: قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا»[١] وعند ابن أبي داود قال: قال علي في المصاحف: «لو لم يصنعه عثمان لصنعته»[٢].

ولم يُنقل عن أحد من الصحابة خلاف أو معارضة لما فعل عثمان رضي الله عنه، إلا ما روي من معارضة عبد الله بن مسعود، وينبغي أن نعلم أنَّ معارضته ـ رضي الله عنه ـ لم تكن بسبب حصول تقصير في الجمع، أو نقص أو زيادة، وإنما جاءت معارضته لعدم تعيينه مع أعضاء لجنة النسخ للمصاحف، ولهذا قال «أُعْزَلُ عن نسخِ المصاحف وتَوَلاَّها رجل، والله لقد أسلمت وإنَّه لفي صُلب رجلٍ كافرٍ»[٣].

وروى الترمذي عن ابن شهاب، قال: «فبلغني أن ذلك كَرِهَه مِن مقالة ابن مسعود رجالٌ مِن أفاضل أصحاب النبي ﷺ»[٤].

وقد دافع أبو بكر الأنباري عن اختيار زيد بقوله: «ولم يكن الاختيار لزيد.. إلا أن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وعاه كله ورسول الله ﷺ حيٌّ، ولا ينبغي أن يظنَّ جاهل أنَّ في هذا طعناً على عبد الله بن مسعود، لأن زيداً إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجباً لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل، والمناقب، وما بدا عن عبد الله بن مسعود من نكير فشيء نَتَجَه الغضبُ، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يُشك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، جـ٩، ص١٨.

(٢) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤-٢٥، وتفسير القرطبي، جـ١، ص٥٢-٥٣.

(٤) جامع الترمذي، جـ٥، ص٢٨٥.

في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حُسْنَ اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم»[1].

وأكَّد ذلك الذهبي فقال: «وقد ورد أنَّ ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد»[2] وقال ابن كثير: «وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من الغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف. إلى أن قال.. ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق»[3].

فإن قيل كيف جاز للصحابة ترك ما لا يحتمله الرسم من الأحرف التي أمر الرسول ﷺ بقراءة القرآن بها؟

قيل: إنَّ أمره إياهم بالأحرف السبعة لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة.. وإذا كان ذلك كذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف تاركين ما عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما يؤدون به الواجب، وهو أحد هذه الأحرف، فإذا حفظوه ونقلوه فقد فعلوا ما كلفوا به[4].

وقد علَّل ابن القيم رحمه الله تعالى جمع الناس على حرف واحد، وهو أيضاً تعليل حسن للاقتصار على ما يحتمله الرسم منها حيث قال: «فلما خاف الصحابة رضي الله عنهم على الأمة أن يختلفوا في القرآن، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف، فعلوا ذلك، ومنعوا الناس من القراءة بغيره، وهذا كما لو كان للناس عدَّة طرق إلى

---

(١) تفسير القرطبي، جـ١، ص٥٣.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، جـ١، ص٤٨٨.

(٣) فضائل القرآن: ابن كثير، ص٢٠.

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري، جـ١، ص٦٤، وما بعدها.

البيت، وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرُّق والتشتيت، ويطمع فيهم العدو، فرأى الإمامُ جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود، وإن كان فيه نهي عن سلوكه لمصلحة الأمة»[1].

عدد المصاحف التي أمر عثمان رضي الله عنه بنسخها:

اختلف في عدد النسخ التي كتبها عثمان إلى خمسة أقوال:

١ ـ قيل: إنها أربع نسخ:

قال أبو عمرو الداني: «أكثر العلماء على أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه لمَّا كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كلِّ ناحية من النواحي بواحدة منهن، فوجه إلى الكوفة إحداهن، وإلى البصرة أخرى، وإلى الشام الثالثة، وأمسك عند نفسه واحدة[2].

٢ ـ قيل: إنها خمس نسخ:

قال السيوطي: «المشهور أنها خمسة»[3].

٣ ـ قيل: إنها سبع نسخ:

فقد روى ابن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني، قال: لمَّا كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف، فبعث واحداً إلى مكة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وآخر إلى البصرة،

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن القيم، ص١٦.

(٢) المقنع: لأبي عمرو الداني، ص٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

وآخر إلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً»[1]. ونقل ذلك أبو شامة[2] والمهدوي[3] وقال مكي: «ورواته أكثر»[4].

وقيل: إنها ثمانية، وهو قول ابن الجزري[5]، وقيل: إنها ستة وعلى هذا القول بنى ابن عاشر منظومته في اختلاف الحروف»[6].

خبر هذه المصاحف:

ذكر بعض المؤرخين القدامى رؤيتهم لبعض هذه المصاحف، وممن ذكر رؤيته لبعضها ابن جبير (ت٦١٤هـ) حين زار جامع دمشق رأى في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام كما قال[7]. وقد زار المسجد أيضاً ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ) فقال: «وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية، وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام»[8] ورأى النسخة نفسها ابن كثير (٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى حيث قال: «وأمَّا المصاحف العثمانية

---

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص٤٣.
(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٧٣.
(٣) السبب الموجب لاختلاف القراءات: المهدوي، ص١٤٧.
(٤) الإبانة: مكي بن أبي طالب، ص٦٥.
(٥) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٧.
(٦) الإعلان بتكميل مورد الظمآن: ابن عاشر، ص٤٣٦ بذيل كتاب دليل الحيران شرح مورد الظمآن: إبراهيم المارغني.
(٧) رحلة ابن جبير: ص٢١٧.
(٨) رحلة ابن بطوطة: جـ١، ص٥٤.

الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً في طبريَّة، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثماني عشرة وخمس مئة، وقد رأيته كتاباً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم، في رِقٍّ أظنه من جلود الإبل، والله أعلم[١]. كما ذكر ابن بطوطة أنه رأى في مسجد علي رضي الله عنه في البصرة المصحف الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قُتِلَ، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٢][٣]. ويبدو كذلك أن ابن الجزري وابن فضل الله العمري قد رأيا كلاهما هذا المصحف الشامي نفسه[٤]. ورأى ابن الجزري مصحفاً في مصر[٥].

ويبدو ـ كذلك ـ أنَّ المصحف الشامي ظلَّ محفوظاً في الجامع الأموي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري حيث قيل: إنه احترق، فقد قال الأستاذ محمد كرد علي في حديثه عن الجامع الأموي: حتى إذا كانت سنة ١٣١٠هـ. سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره ورياشه، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بُصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني[٦]. وقيل: إن هذا المصحف أمسى زمناً في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد ثم نقل إلى إنجلترا[٧].

---

(١) فضائل القرآن: ابن كثير، ص٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٧.

(٣) رحلة ابن بطوطة: جـ١، ص١١٦.

(٤) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص٨٨-٨٩.

(٥) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٩٧.

(٦) خطط الشام، محمد كرد علي، جـ٥، ص٢٦٢.

(٧) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص٨٩.

كما أن هناك مصاحف أثرية تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر، ومنها المصحف المحفوظ في خزائن الآثار بالمسجد الحسيني، ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية، وقد شَكَّك كثيراً الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بهذا معللاً بأن فيها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور ولبيان أعشار القرآن، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا[1].

وفقد هذه المصاحف لا يقلل من ثقتنا اليقينية بما تواتر واستفاض نقله من المصاحف ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام، وسواء وجدت هذه المصاحف أو فقدت فإنَّا على يقين تام لا يزاوله شك ولا يعتريه ريب بسلامة هذه المصاحف من الزيادة أو النقصان، وقد اعترف بذلك غير المسلمين من العلماء المحققين يقول المستشرق موير: «إنَّ المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يُذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يُعدّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا[2].

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٩٧. وانظر ما كتبته الدكتورة سعاد ماهر عن المصاحف الأثرية في مصر والمنسوبة إلى عثمان رضي الله عنه، وذلك في كتابها (مخلفات الرسول في المسجد الحسيني)، ص١٠٩-١٣٤.

(٢) مدخل إلى القرآن: د. محمد عبد الله دراز، ص٤٠.

النوع الثالث: جمعه بمعنى تسجيله صوتياً:

من المعلوم أنَّ للتلاوة أحكاماً ينبغي أن يأخذ بها تالي القرآن الكريم كالقلقلة، والرَّوْمِ، والإشْمَامِ، والإخفَاء، والإدْغَامِ، والإقْلَابِ، والإظْهارِ، ونحو ذلك. وليس من السهل بل قد تتعذر كتابة مثل هذا.

ولهذا قرر العلماء - رحمهم الله تعالى - أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بُدَّ من التلقِّي عن حافظٍ متقنٍ، وكانوا يقولون: «من أعظم البَلِيَّة تشييخ الصحيفة»[١]. ويقولون: «لا تأخذوا القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفيّ»[٢] وهو الذي يُعَلِّمُ الناس وينظر إلى رسم المصحف. وكان الشافعي - رحمه الله تعالى - يقول: «من تفقه من بطون الكتب ضَيَّعَ الأحكام»[٣].

بل إنَّ أعلام حُفَّاظ القرآن يَميزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «والله لقد أخذت مِنْ في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة»[٤] ويبين عمَّن أخذ باقيه فيقول في رواية أخرى: «وأخذتُ بقية القرآن عن أصحابه»[٥] ولإدراكه - رضي الله عنه - مكانة التلقي بالمشافهة كان إذا سُئل عن سورة لم يكن تلقاها عن رسول الله ﷺ صرح لهم بذلك،

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧. الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص٩٧.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، العسكري، ص١٠.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧، وشرح المهذب: النووي، جـ١، ص٦٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ جـ٦، ص١٠٢، واللفظ له، ورواه مسلم بلفظ آخر كتاب فضائل الصحابة، جـ٤، ص١٩١٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، جـ٩، ص٤٨.

ودَلَّهم على مَن تلقاها بالمشافهة عن الرسول ﷺ، فعن مَعْدِ يَكْرِبَ قال: أتينا عبد الله، فسألناه أن يقرأ (طسم) المئتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم مَنْ أخذها مِن رسول الله ﷺ خبَّاب بن الأرت، قال: فأتينا خباب بن الأرت، فقرأها علينا[1].

وما قاله ابن مسعود وغيره من أعلام الحفاظ في وجوب التلقي للقرآن مشافهة لم يبتدعوه من عند أنفسهم، وإنما أخذوه من سنة رسول الله ﷺ، فقد كان النبي ﷺ نفسه يتعلم القرآن من جبريل عليه السلام ويُشافهه به مشافهة، ويُعارضه القرآن في كل عام في شهر رمضان، وعارضه عام وفاته بالقرآن مرتين، والصلوات الخمس يُجْهَرُ في ثلاث منها، وكذا في صلاة الجمعة، والاستسقاء، والخسوف، والكسوف، والتراويح، والعيدين، وفي هذا إشارة إلى تعلم الناس للتلاوة الصحيحة في الصلاة الجهرية ثم تطبيقها في الصلاة السرية.

وكان الرسول ﷺ يبعث القراء إلى مَن يدخل في الإسلام لتعليمهم التلاوة، وكان بإمكانه ﷺ أن يكتب لهم، واقتدى بسنته من بعده الخلفاء الراشدون، فأرسلوا إلى أهل البلدان المفتوحة قُرّاءً يعلمونهم القرآن، ولما نسخ عثمان المصاحف أرسل مع كل مصحف قارئاً يُعَلِّم الناس عليه.

ولا شك أنَّ هذا دليل قاطع على أن من أحكام القراءة ما لا يمكن إتقانه إلا بالتلقي الشفهي.

ولم يكن من وسيلة لتحقيق ذلك إلا عن طريق القرّاء وقد جَدَّت في العصر الحديث وسائل وآلات تسجل الصوت، ثم تعيده.

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٦، ص٣٤، بتحقيق أحمد شاكر، رقم (٣٩٨٠)، وقال: إسناده صحيح. وطسم المئتين: هي سورة الشعراء، آياتها ٢٢٧.

ولا شك أنَّ هذه الآلات، والاستفادة منها في نشر القرآن الكريم وبثه في العالم الإسلامي خاصة في البلدان التي تفتقد المُعَلِّم الضابط، من خير الوسائل لحفظه وتعليمه.

وقد أدرك هذا الأمر بعضُ الغيورين على الإسلام والحريصين على نشره، فتداعوا لجمع القرآن في أشرطة صوتية كما جُمِعَ على الورق في الصحف.

وتبنَّت الجمعَ الجمعيةُ العامة للمحافظة على القرآن الكريم بمصر، وكان ذلك سنة ١٣٧٩هـ باقتراح من رئيسها الأستاذ لبيب السعيد[1]، وقد اتفقوا على تسمية المشروع بـ«المصحف المرتل» أو «الجمع الصوتي».

تعريف المصحف المرتل:

أمّا المصحف: فمثلثة الميم، والأصلُ والأشهر الضمُّ، وهو مأخوذ من «أُصْحِفَ» أي: جعلت فيه الصحف[2].

واصطلاحاً: هو مجموعة صحائف القرآن مرتبة الآيات والسور على الوجه الذي تلقته الأمة الإسلامية من النبي ﷺ.

والفرق بين المصحف والقرآن أنَّ المصحف اسم لمجموع الصحائف المدوَّن فيها القرآن، أمّا القرآن الكريم فهو الألفاظ ذاتها.

وأما المرَتَّل لغة: فمأخوذ من رَتِل الثَّغْر، إذا استوى نباته، وحسن تنضيده، وكان مُفلِجاً.

---

(١) اعتمدت فيما أوردت عن قصة هذا الجمع على ما كتبه الأستاذ لبيب السعيد في كتابه «الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل».

(٢) القاموس المحيط، ص١٠٦٨، ولسان العرب، جـ٩، ص١٨٦.

واصطلاحاً: القراءة بتؤدة واطمئنان، وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه ومع تدبر المعاني، وقيل: هو رعاية مخارج الحروف، وحفظ الوقوف.

والترتيلُ أفضل مراتب القراءة الأربع وهي:

١ ـ التحقيق: وهو أكثرها اطمئناناً، وأكثر ما يُستعمل في التعليم لرياضة الألسن.

٢ ـ الترتيل: القراءة بتؤدة واطمئنان.

٣ ـ التدوير: وهي مرتبة بين الترتيل والحدر.

٤ ـ الحدر: وهو الإسراع بالقراءة مع مراعاة الأحكام. قيل لابن مجاهد: من أقرأ الناس؟ قال: من حقق في حدر[١].

المراد به: المصحف المرتل هو التسجيل المسموع للقرآن الكريم.

أدواته: أجهزة التسجيل الحديثة وأشرطته وأسطواناته ونحوها.

سببه: أمّا بواعث التفكير في الجمع الصوتي للقرآن الكريم فكثيرة منها:

١ ـ اقتضاء المحافظة على القرآن الكريم وذلك عن طريق:

أ ـ تعليم النطق الصحيح الذي لا محيص عنه لطالب القرآن، والذي بغيره لا يُؤمن التصحيف.

ب ـ المحافظة على القراءات التي نزل بها القرآن، وأجمع عليها المسلمون، وثبت تواترها.

جـ ـ المنع من القراءة بالشواذ التي تعلق بها أفراد من القراء.

---

(١) التمهيد في معرفة التجويد: أبو العلاء الهمداني، ص١٨٩.

٢ ـ تيسير تحفيظ القرآن الكريم وتعليمه.

أ ـ لأنَّ المصاحف المُرتَّلة نماذج صوتية ممتازة للترتيل الصحيح.

ب ـ لأنها تُيسِّر القرآن للحفظ والتعليم خاصة في البلدان التي تفتقد المعلم الضابط.

جـ ـ لأنها طِبُّ اختلاف الرسم العثماني عن الرسم الإملائي المعروف.

٣ ـ ضرورة الذود عن القرآن الكريم ضد الطاعنين عليه وضد كل محاولة لتحريفه، وكل عقبة تُوضع أمام وحدة أتباعه أو أمام نشره وتوزيعه بين المسلمين، وذلك بأن يُبَثّ في الإذاعات ونحوها.

٤ ـ معاضدة المصحف العثماني الذي أجمع المسلمون عليه.

٥ ـ درء أيّ تحريف عن القرآن الكريم.

٦ ـ نشر لغة القرآن الكريم وتوطيد الوحدة بين المسلمين.

تاريخ المصحف المرتل:

عُقِدَ أولُ اجتماع في الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم برئاسة الأستاذ لبيب السعيد لدراسة الموضوع في مساء ١٤/ رمضان/ ١٣٧٨هـ في القاهرة وتمت الموافقة عليه ووضعت الشروط والمواصفات.

بدء الطبع:

لاقى المشروع في بدايته عقبات كثيرة مادية وعلمية وغيرها، وقد تجاوز بحمد الله كل هذا، وبدأ الطبعُ لأول مرة سنة ١٣٧٩هـ في ذي القعدة، وانتهت الطبعة الأولى في المحرم من عام ١٣٨١هـ وذلك بقراءة الشيخ محمود خليل الحصري برواية حفص عن عاصم، وأعقب هذا سنة ١٣٨٢هـ تسجيلُ قراءة أبي عمرو برواية الدوري.

كيفية التسجيل:

لم يكن التسجيل شيئاً هيناً فمع امتياز القارئ وكونه قد أصبح آنئذ شيخ المقارئ المصرية فقد كانت اللجنة تستوقفه كثيراً ليعيد التسجيل على النحو النموذجي المطلوب.

القراء وهم:

١ ـ محمود خليل الحصري ويقرأ برواية حفص عن عاصم.

٢ ـ مصطفى المَلَّواني ويقرأ برواية خلف عن حمزة.

٣ ـ عبد الفتاح القاضي ويقرأ برواية ابن وردان عن أبي جعفر.

٤ ـ فؤاد العروسي، ومحمد صديق المنشاوي، وكامل البهتيمي برواية الدوري عن أبي عمرو.

ولم يتم تسجيل شيء من هذا كله لغير الحصري وتوقف المشروع.

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

وقد أدركت حكومة المملكة العربية السعودية ـ وفقها الله تعالى إلى كل خير ـ الحاجة الماسة للعناية بطباعة المصحف وتسجيله، فأنشأت (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) وتم افتتاحه في السادس من شهر صفر عام ١٤٠٥. ومن أهداف هذا المجمع:

١ ـ طباعة المصحف الشريف:

طباعة تنأى به عن الأخطاء المطبعية، حيث أنشأت مطبعة تعد من أضخم المطابع في العالم وأحدثها. ويسمى المصحف الذي تصدره (مصحف المدينة النبوية) وتبلغ طاقة المطبعة ثلاثين مليون نسخة سنوياً، أي: بمعدل مصحف كامل كل (ثانية) بدون توقف.

٢ ـ **ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة:**

وقد أصدر المجمَّع حتى نهاية عام ١٤٢٤هـ (٤٤) ترجمة لمعاني القرآن الكريم. وهناك ترجمات أخرى ستصدر قريباً بإذن الله تعالى.

٣ ـ **تسجيل القرآن الكريم:**

يضم المجمَّع استديو للتسجيلات الصوتية، مجهز بأحدث الآلات والمعدات ذات التقنية العالية، حيث يتم تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات كبار القُرَّاء بالمملكة والعالم الإسلامي تحت إشراف لجنة من كبار العلماء تراقب أعمال التسجيل.

ويسعى المجمع في خطته المستقبلية إلى إنتاج إصدارات صوتية لترجمة معاني القرآن الكريم باللغات المختلفة.

وتبلغ الطاقة الإنتاجية من أشرطة الكاسيت في المجمع أكثر من مليونين وأربع مئة ألف شريط سنوياً.

وحتى نهاية رجب عام ١٤٢٣هـ تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً برواية حفص عن عاصم بأصوات كل من:

١ ـ الشيخ علي بن عبد الرحمٰن الحذيفي إمام المسجد النبوي الشريف.

٢ ـ الشيخ الدكتور محمد أيوب محمد يوسف.

٣ ـ الشيخ الدكتور عبد الله بن علي بصفر.

٤ ـ الشيخ إبراهيم الأخضر علي القَيِّم.

٥ ـ الدكتور عماد بن زهير حافظ، برواية حفص عن عاصم بقصر المنفصل وتوسط المتصل.

كما تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً بصوت الشيخ علي الحذيفي برواية قالون عن نافع. وتسجيل (المصحف المعلم) بصوته أيضاً.

ويجري حالياً التسجيل لفضيلة الدكتور، إبراهيم بن سعيد الدوسري، برواية ورش من طريق الشاطبية والشيخ خالد بن سليمان المهنا، برواية حفص بقصر المد المنفصل وتوسط المتصل.

وتم تسجيل معاني القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الأورمية وهناك خطة لتسجيل معاني القرآن الكريم بلغات أخرى.

٤ ـ الوفاء باحتياجات الحرمين الشريفين والمساجد والعالم الإسلامي من الإصدارات الخاصة بالقرآن الكريم.

٥ ـ خدمة السنة والسيرة النبوية الشريفة.

وذلك بجمع وحفظ الكتب والمخطوطات والوثائق والمعلومات المتعلقة بالسنة والسيرة، وإعداد موسوعة في الحديث النبوي إلى جانب ترجمة بعض أمهات كتب السنة والسيرة.

٦ ـ إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة[1].

---

(١) رجعت فيما كتبت عن المجمَّع إلى:

١ ـ التقرير السنوي للمجمع لعام ١٤٢١-١٤٢٢هـ.

٢ ـ كتيّب تعريف بالمجمَّع ١٤١٨هـ.

٣ ـ مطوية أصدرتها إدارة العلاقات العامة بالمجمَّع عام ١٤٢٥هـ.

٤ ـ اتصال هاتفي بأمين عام المجمَّع. وانظر ص٥٠٥-٥٠٦ من هذا الكتاب.

٥ ـ كتابة المصحف الشريف وطباعته تاريخها وأطوارها وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه، ونشره، وترجمة معانيه، إعداد، أ. د. محمد سالم بن شديد العوفي الأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، بالمدينة المنورة. من مطبوعات المجمع ١٤٢٤هـ.

ترتيب سور القرآن الكريم وآياته

وهذا مبحث مهم من المباحث الجليلة، أولاه العلماء اهتمامهم وعنايتهم، وزادت قيمته ومكانته حين ظهر الاتجاه الحديث في الدراسات القرآنية بتناول السور القرآنية مستقلة بناء على الوحدة الموضوعية، وأنَّ كلَّ سورةٍ ذاتُ هدفٍ مُعيَّنٍ وغرض أساس أُنزِلت لأجله، وأكَّدُوا على هذا المعنى باعتباره مدخلاً لفهم معانيها وكشف أسرارها وحِكَمِها، ثم بنوا على ذلك الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وبيان المناسبات بين الآيات والسور.

وتقسيمُ القرآن إلى سور وآيات من خصائصه التي لا يشاركه فيها كتاب آخر. قال الجاحظ: «سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمَّى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل. سمى جُملته قرآناً، كما سمَّوْا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية»[1].

أولاً: سور القرآن الكريم:

السور: جمع سورة، وفي نطق (السورة) لغتان:

أولاهما: (السؤرة) بالهمزة مشتقة من (أسأر) أي: أبقَى (والسُؤر): البقية التي تبقى من شرب الشارب في الإناء، وسُمِّيت سُؤرة كأن السؤرة بقية جملة القرآن وقطعة منه.

ثانيهما: (السورة) بدون همز ومعناها في اللغة المنزلة والشرف وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وسُميت السورةُ سورة لارتفاعها وشرفها

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٠.

وكونها علامة على صدق من جاء بها، ودليلاً على أنَّ هذا القرآن من عند الله، وهي تشبه السُّوْرَ من وجهين:

الأول: أنَّ السُّور له عُلُّو حسِّيٌّ، والسورة لها علو معنوي.

الثاني: أنَّ السور يقوم بناؤه على لَبِنَات بعضها فوق بعض، والسورة يقوم بناؤها على آيات يتبع بعضها بعضاً.

أمّا في الاصطلاح: فهي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.

طريق معرفة السورة:

معرفة سور القرآن الكريم من حيث بداية كل سورة ونهايتها توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه.

عدد سور القرآن:

قال الزركشي رحمه الله تعالى: «اعلم أنَّ عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحلِّ والعقد مئة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني، أولها الفاتحة وآخرها الناس، وقال مجاهد: وثلاث عشرة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لاشتباه الطرفين وعدم البسملة، ويرُدُّه تسميةُ النبي ﷺ كلاً منهما»[1].

أسماء السور:

تنقسم سور القرآن من حيث تعدد الاسم وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما له اسم واحد: وهو أكثر سور القرآن، مثل: النساء، الأعراف، الأنعام، مريم، وغيرها.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥١.

الثاني: ما له أكثر من اسم: ويشمل هذا النوع سوراً لها اسمان كسورة (محمد) ﷺ حيث تسمى (القتال)، وسورة (الجاثية) تسمى (الشريعة)، وسورة (النحل) تسمى (النِّعم) لما عدد الله فيها من النِّعم على عباده[1].

ويشمل سوراً لها ثلاثة أسماء مثل (المائدة) وتسمى (العقود) و(المنقذة)[2] ومثل سورة غافر وتسمى (الطَّوْل) و(المؤمن)[3].

ويشمل سوراً لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل سورة التوبة، ومن أسمائها (براءة) و(الفاضحة) و(الحافرة) وقال حذيفة: هي سورة (العذاب) وقال ابن عمر: كنا ندعوها (المُشَقْشِقَة) وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى (المُبَعْثِرة) ويقال لها: (المُسَوّرة) ويقال لها: (البَحُوث)[4].

وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسماً منها (أمُّ الكتاب) و(أمُّ القرآن) و(السبع المثاني) و(الصلاة) و(الحمد) و(الوافية) و(الكنز) و(الشافية) و(الشفاء) و(الكافية) و(الأساس)[5].

الثالث: أن تُسمَّى عدة سورٍ باسم واحدٍ: ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ(الزهراوين) وتسمية سورتي الفلق والناس بـ(المعوذتين) وتسمية السور المبدوءة بـ(حم) بـ(الحواميم).

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٦٩.

(٢) روى أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب، تفسير القرطبي، جـ٦، ص٣٠.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٢-٥٣، وانظر البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٦٩-٢٧٠.

مصدر التسمية:

اختلف العلماء في مصدر أسماء سور القرآن الكريم.

١ ـ قيل: إنها اجتهادية، واستبعد الزركشي ذلك[١].

٢ ـ قيل: إنها توقيفية، وهو الراجح، قال السيوطي: «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»[٢].

أقسام السور:

روى واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»[٣]. وعلى هذا فإن سور القرآن تنقسم إلى أربعة أقسام:

ـ الأول: الطوال وهي سبع:

البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، واختلف في السابعة فقيل: (الأنفال والتوبة) معاً لأنهم كانوا يعدونهما سورة واحدة لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل: إنَّ السابعة هي سورة يونس. والصواب أن سورة التوبة وحدها أول من سورة يونس.

ـ الثاني: المئون:

وهي ما يلي السبع الطوال، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية أو تقاربها.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٧٠.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٢.

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ٤، ص١٤٩ قال الألباني: «الحديث بمجموع طرقه صحيح، والله أعلم» الصحيحة، جـ٣، ص٤٦٩.

ـ الثالث: المثاني:

وهي ما يلي المئين، وسميت بذلك لأنها تُثَنَّى في الصلاة وتُكَرَّر أكثر من الطوال والمئين.

ـ الرابع: المُفصَّل:

وهو ما يلي المثاني من قصار السور إلى آخر القرآن، وسُمّي بالمُفصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقلَّة المنسوخ منه، ولهذا يُسمى بالمُحْكَم أيضاً، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: «إن الذي تدعونه المُفصَّل هو المُحْكَم»[١].

وقد اختلف العلماء في أوله فقيل: من أول سورة (قَ)، وقيل: من أول (الحجرات)، وقيل: من أول (القتال). وذكر الزركشي والسيوطي اثني عشر قولاً في ذلك[٢].

وينقسم المفصل إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ الطوال: من أوله إلى سورة (البروج).

ب ـ وأوساطه: من سورة (الطارق) إلى سورة (البينة).

جـ ـ وقصاره: من (الزلزلة) إلى آخر القرآن.

وفي سورة الفاتحة خلاف فقيل: من أوله، وقيل: من المفصل[٣].

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٢٥٣، وقال الأستاذ أحمد شاكر: إسناده صحيح جـ٤، ص٧٧.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٤٥-٢٤٦، والإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٦٣.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٥٩.

ترتيب السور:

للعلماء في ترتيب السور في القرآن الكريم ثلاثة أقوال:

الأول: أنَّ ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن توقيفي، وأنَّه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر من الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز شأنه كترتيب الآيات سواء بسواء.

قال أبو بكر الأنباري: «اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كلُّه عن النبي ﷺ، فمن قدَّم سورةً أو أخَّرَها فقد أفسد نَظْمَ القرآن»[1].

وقال الكرماني في «البرهان»: «ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب»[2].

وقال الطيبي: «أُنزِلَ القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح، ثم أُثبت في المصاحف على التأليف والنظم المُثبت في اللوح المحفوظ»[3].

وقال أبو جعفر النحاس: «إنَّ تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ»[4].

وقال ابن الحَصَّار: «ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنَّما كان بالوحي»[5].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٩، والإتقان للسيوطي، جـ١، ص٦٢.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص٦٢.

(٥) المرجع السابق، جـ١، ص٦٣.

وغير هؤلاء من العلماء ومن أدلَّتهم:

١ ـ إجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على ترتيب السور في مصحف عثمان رضي الله عنه، ولو كان ترتيبه بالاجتهاد لتمَسَّكَ أصحابُ المصاحف المُخالفة في الترتيب بمصاحفهم.

٢ ـ قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «ومما يدل على أنَّ ترتيب المصحف كان توقيفياً ما أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أوس ابن أبي أوس حذيفة الثقفي، قال: كنتُ في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.. وفيه.. فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ، قلنا: كيف تُحزِّبُون القرآن؟ قالوا: نُحَزِّبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (قٓ) حتى تختم». ثم قال ابن حجر: «فهذا يدل على أنَّ ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ»[١].

وإذا جمعت أعداد السور المذكورة هكذا ٣ + ٥ + ٧ + ٩ + ١١ + ١٣ كان المجموع ٤٨ سورة قال الزركشي: «وحينئذٍ فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة كانت التي بعدهن سورة (قٓ)»[٢]. وهذا يدل على أنَّ السور كانت مرتبة في عهد الرسول ﷺ.

٣ ـ قال السيوطي رحمه الله تعالى: «ومما يدل على أنَّه توقيفي كونُ الحواميم رُتِّبت وَلاءً (يعني متوالية) وكذا الطواسين، ولم تُرتَّب المُسَبِّحات

(١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص٤٢-٤٣.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٤٧. قلت: هذا إذا لم نعد الفاتحة، أما إذا عددناها فإن التي بعدهن سورة (الحجرات) ولهذا وقع الاختلاف في أول المفصل، ومن لم يعد الفاتحة من الطوال فقد عدها من المفصل.

ولاءً، بل فُصِلَ بين سورها وفُصلَ بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ(طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذُكرت المُسبحات ولاءً، وأخِّرت (طس) عن القصص»[١].

القول الثاني: أنَّ ترتيب السور اجتهادي من فعل الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا قول جمهور العلماء، قال ابن فارس: جَمْعُ القرآن على ضربين: أحدهما: تأليفُ السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولَّته الصحابة، وأمَّا الجمعُ الآخر وهو جمع الآيات في السور، فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه[٢]. ومما استدلوا به على ذلك:

١ ـ اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة قبل أن يجمع القرآن، فلو كان توقيفياً لاتفقت مصاحفهم كما اتفقت في ترتيب الآيات، فقد كان مصحف عليٍّ مُرتَّباً على النزول، وأول مصحف ابن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ومصحف أبيّ الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

٢ ـ ما رواه مسلم في «صحيحه» عن حذيفة رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ صلَّى بالبقرة، ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة[٣]. قال عياض: هو دليل لكون ترتيب السور وقعَ باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف[٤].

القول الثالث: أنَّ ترتيب بعض السور كان توقيفياً وبعضها كان باجتهاد الصحابة.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٣. والمقصود بـ (طسّ) سورة النمل.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.

(٣) صحيح مسلم: جـ١، ص٥٣٦-٥٣٧.

(٤) إجمال البيان: عبد الله بن أحمد، ص١٢٨.

قال الزركشي: مالَ ابنُ عطية إلى أنَّ كثيراً من السور كان قد عُلِمَ ترتيبُها في حياته ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأنَّ ما سوى ذلك يمكن أنْ يكون قد فوَّض الأمر فيه إلى الأمة بعده، وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مما نصَّ عليه ابن عطية، ويبقى منها قليل يُمكن أنْ يجري فيه الخلاف[1].

مناقشة الأدلة:

١ ـ استدل القائلون بالتوقيف في ترتيب السور بإجماع الصحابة على ترتيب عثمان رضي الله عنه، وهذا لا يدلّ على ما ذهبوا إليه؛ لأن إجماعهم على ترتيب عثمان لا يشترط له أنْ يستند إلى التوقيف عن الرسول ﷺ، فقد وافقوا عثمان على هذا الترتيب توحيداً لكلمة الأمة، وقطعاً لأسباب الاختلاف، كما وافقوا على الاقتصار على حرف واحد.

أما استدلالهم بحديث حذيفة فإنَّ ذكر العدد لا يلزم منه ترتيب السور، بل قال ابن حجر نفسه الذي استدل بهذا الحديث: «ويحتمل أنَّ الذي كان مرتباً حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه»[2].

وأما استدلال السيوطي فإنَّ ما أورده لا يلزم منه أنَّ ترتيب السور توقيفي، فعدم ترتيب المُسبِّحات ولاء قد يكون لمراعاة مناسبات أخرى أهم من مناسبة فواتح السور، ولهذا مال السيوطي نفسه إلى رأي آخر.

٢ ـ وأما القائلون بأن الترتيب كان كله بطريق الاجتهاد، فإنَّ من أدلتهم اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة، ولا يصلح هذا دليلاً على ما

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٧-٢٥٨، وانظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.
(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٣.

ذهبوا إليه، فقد يكون ترتيب الصحابة قبل أن يعلموا بالتوقيف، فلما بلغهم ذلك رجعوا عن ترتيب مصاحفهم.

وأما استدلالهم بأن الرسول ﷺ قد صَلَّى بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلا يدل على ما ذهبوا إليه كما قال السيوطي، وعَلَّلَ ذلك بقوله: «لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز»(١).

٣ ـ وأما الرأي الثالث فإنه يستند إلى أدلة الرأي الأول، وهو أنَّ ترتيب السور توقيفي، أمّا القسم الاجتهادي فإنَّ أدلته ضعيفة لا تستند إلى دليل قوي.

الرأي الراجح:

إنَّ استعراض الأدلة يوقفنا على ثبوت التوقيف في ترتيب أكثر سور القرآن الكريم، وما لَم يَرِدْ دليل على ترتيبه لا يعني أنَّه رُتِّبَ بطريق الاجتهاد، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا.

وعلى هذا فإنَّ الرأي الراجح أنَّ ترتيب سور القرآن الكريم كترتيب آياته بالتوقيف عن الرسول ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن ربه سبحانه وتعالى مع ما في أدِلَّة هذا الرأي من الاحتمال كما ذُكِرَ، إلا أنه أقوى الآراء.

الموقف من هذا الترتيب:

وعلى كل حال، ومهما يكن من أمر، سواء أكان هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف بطريق التوقيف أم بطريق الاجتهاد، ثم أجمع الصحابة عليه، ومضت الأمة على قبوله، فيجب التمسك به، والإعراض عن الدعوات الزائفة لإعادة ترتيب المصاحف حسب النزول أو الموضوع أو غير ذلك؛ لأنَّ في ترتيب سوره معاني لا تقل عن معاني الترتيب في آياته، جَدَّ

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٣.

كثير من العلماء في استنباطها وتحصيلها. فضلاً عن مخالفة الإجماع وما في ذلك من مفاسد عظيمة.

أمَّا ترتيب السور في التلاوة فليس بواجب وإنما هو مندوب، إلا في تعليم الصبيان، فالأولى أن يبدأ بهم من آخر المصحف إلى أوله، والله أعلم.

حكمة تسوير القرآن:

لتقسيم القرآن الكريم إلى سورٍ حِكَمٌ عديدة منها:

١ ـ التيسير والتشويق لمدارسة القرآن الكريم وحفظه، إذ لو كان سبيكة واحدة لشقَّ حفظه، وصعبت مدارسته.

٢ ـ الدِّلالة على موضوع السورة وأهدافها، إذ إن لكل سورة موضوعاً خاصاً، وأهدافاً معينة، فسورة يوسف تُترجم لقصته، وسورة التوبة تتحدث عن المنافقين وتكشف أسرارهم.. وهكذا.

٣ ـ التنبيه إلى أن الطول ليس شرطاً من شروط الإعجاز والتحدِّي، فسورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.

٤ ـ التدرج في تعليم الأطفال من السور القصار إلى السور الطِّوال تيسيراً من الله لعباده لحفظ كتابه.

٥ ـ أنَّ الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف وأبواب وفصولٌ كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً.

٦ ـ أنَّ القارئ إذا ختم سورة أو جزءاً كان أنشط له وأبعث على التحصيل والاستمرار في التلاوة منه لو استمر على الكتاب بطوله، كالمسافر إذا قطع ميلاً نفَّسَ ذلك عنه وتجدد نشاطه، ولذا جُزِّئَ القرآن أجزاءً وأحزاباً وأرباعاً وأخماساً وأعشاراً.

٧ ـ أنَّ الحافظ إذا حذق سورة اعتقد أنَّه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه، ويحرص على معاهدته وتكرار تلاوته، ومنه حديث أنس رضي الله عنه «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا»(١).

٨ ـ أنَّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم(٢).

ثانياً: آيات القرآن الكريم:

تعريف الآية:

الآية في اللغة تطلق على عدة معان منها:

١ ـ المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾(٣).

٢ ـ العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٤).

٣ ـ العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥).

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٣، ص١٢٠-١٢١، وشرح السنة، البغوي جـ١٣، ص٣٠٦.

(٢) تفسير الكشاف: الزمخشري، جـ١، ص٢٤١، وقال الجرجاني في حاشيته على الكشاف: «وكون التفصيل سبب تلاحق الأشكال من حيث إنه يورد في كل منها الأمور المتلائمة، فتتلاحظ حينئذ المعاني، ويتجاوب أطراف النظم وجوانبه» الكشاف جـ١، ص٢٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.

٤ ـ البرهان والدليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

٥ ـ الأمر العجب، تقول العرب: «فلان آية في العلم وفي الجمال».

٦ ـ الجماعة، تقول العرب: «خرج القوم بآيتهم» أي، بجماعتهم[(٢)].

والآية في الاصطلاح:

طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر، وهي دليل وبرهان على أنَّ هذا القرآن من الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها، وهي جماعة من الحروف، فمعانيها في اللغة موجودة في معناها الاصطلاحي[(٣)].

إطلاق الآية:

تطلق الآية ويراد بها:

١ ـ الآية، ومثاله قول ابن مسعود رضي الله عنه: أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.

(٢) البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٦٦.

(٣) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣١-٣٣٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٢ ـ وقد يطلق لفظ الآية على ما هو أكثر منها، كقول ابن مسعود رضي الله عنه أخوف آية في القرآن: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1][2] فإنهما آيتان باتفاق[3].

عدد آيات القرآن الكريم:

أجمع العلماء على أنَّ عدد آيات القرآن لا يقل عن ستة آلاف آية ومئتي آية ثم اختلفوا في الزيادة[4]:

- فمنهم من لم يزد على ذلك.
- ومنهم من قال: ومئتا آية وأربع آيات. (٦٢٠٤) آية.
- ومنهم من قال: وأربع عشرة آية. (٦٢١٤) آية.
- ومنهم من قال: وسبع عشرة آية. (٦٢١٧) آية.
- ومنهم من قال: وتسع عشرة آية. (٦٢١٩) آية.
- ومنهم من قال: وخمس وعشرون آية. (٦٢٢٥) آية.
- ومنهم من قال: وست وثلاثون آية. (٦٢٣٦) آية.

وغير ذلك.

سبب الاختلاف وأثره:

سببه أنَّ النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف؛ ليعلم أصحابه أنّها رأس آية، حتى إذا علموا ذلك صار يصل الآية بما بعدها لتمام المعنى، فيحسب من لم يسمعه أولاً أنها ليست فاصلة فيَعُدّ الآيتين آية واحدة، ولذا يختلف العدد.

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨.

(٢) الدر المنثور: السيوطي، جـ١، ص٣٢٣.

(٣) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦١.

وليس لهذا أثر يُذكر ما دام القرآن الكريم سالماً من الزيادة أو النقصان، فالقطعة من القماش إذا قاسها إنسان بذراعه الطويلة، ثم قاسها إنسان آخر بذراعه القصيرة، فسيكون هناك اختلاف في العدد سببه اختلاف المقياس مع سلامة القطعة من الزيادة أو النقصان في الحالين.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم:

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: «الإجماع والنصوص المترادفة على أنّ ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك. أمّا الإجماع فنَقَلَه غير واحد منهم الزركشي في «البرهان»، وأبو جعفر بن الزبير في «مناسباته» وعبارته: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[1]، ثم ذكر عدداً من النصوص والآثار الشاهدة على ذلك.

فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويُخبره بموضعها من السورة، ثم يقرؤها الرسول عليه الصلاة والسلام على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها بعد أن يبين لهم موضعها من السورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يتلو آيات القرآن الكريم مرتبة في الصلوات المفروضة والنافلة، وفي مواعظه فيسمعها أصحابه ويحفظونها كما سمعوها، وكانوا يَعْرِضُون على الرسول ﷺ ما كتبوه على الترتيب المعروف، وشاع ذلك وملأ البقاع، والأمة يتدارسونه فيما بينهم ويقرؤونه في صلواتهم، ويأخذه بعضهم عن بعض بالترتيب القائم، فليس لأحد من الصحابة يَدٌ في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم[2].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

(٢) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣٩-٣٤٠.

وقد نقل السيوطي عدداً من نصوص العلماء في ذلك منها قول مَكيّ وغيره ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي ﷺ، وقال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقال ابن الحصار: «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنَّما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»[1].

طريق معرفة بداية الآية ونهايتها:

للعلماء في طريق معرفة بداية الآية ونهايتها قولان:

القول الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة بدايات الآيات ونهاياتها إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيه، وإنَّما هو محض تعليم وإرشاد من الرسول ﷺ، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١ ـ النصوص الواردة عن الرسول ﷺ بتحديد عدد الآيات في بعض السور أو تحديد مواضعها، كقوله عليه الصلاة والسلام عن الفاتحة: «هي السبع المثاني»[2]، وقوله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[3]، وقوله ﷺ: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»[4]. وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة، مما يدلّ على أنه لولا أنَّ الرسول ﷺ هو الذي بيَّن الآيات من حيث بداياتها ونهاياتها لما عرفنا بداية الآيتين في آخر سورة البقرة مثلاً، ولا آية الصيف ولا الآيات السبع في الفاتحة.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦١-٦٢.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٣.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٤، ومسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٢٦.

٢ ـ أن العلماء[1] عدوا (الٓمٓ) آية ولم يعدوا نظيرها (الٓر) آية، وعدوا (الٓمٓصٓ) آية ولم يعدوا نظيرها وهو (الٓمٓر) آية، وعدوا (يسٓ) آية ولم يعدوا نظيرها (طسٓ) آية، وعدوا (حمٓ عٓسٓقٓ) آيتين، ولم يعدوا نظيرها (كٓهيعٓصٓ) آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنياً على القياس لم يفرقوا بين المثلين.

القول الثاني: وقيل: إنَّ معرفة بداية الآيات ونهاياتها منه ما هو سماعي، ومنه ما هو قياسي، ومرجع ذلك إلى الفاصلة للآية.

فما ثبت أنَّ الرسول ﷺ وقف عليه دائماً تحققنا أنّه رأس آية، وما وصله دائماً علمنا أنه ليس بآية، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الأمرين، وهذا مجال للقياس ولا محظور فيه؛ لأنه لا يُؤدِّي إلى زيادة ولا نقصان في آيات القرآن، وإنَّما غايته تعيين محلِّ الفصل أو الوصل[2].

والرأي الراجح:

أنَّ معرفة بداية الآيات ونهاياتها توقيفي لا مجال للقياس فيه، قال الزركشي: «قال بعضهم: الصحيح أنَّها إنما تُعلَمُ بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة»[3] وقال الزمخشري: «علم الآيات توقيفي لا مجال للقياس فيه»[4].

---

(١) وهم الكوفيون فقد عَدّوا كلَّ الفواتح بالأحرف المقطعة في أوائل السور آيات إلا (حم عسق) فقد عدُّوها آيتين، و(طس) و(الر) و(المر) وما كان مفرداً وهي (ق) و(ن) و(ص) فلم يعدو شيئاً من ذلك آية.

(٢) انظر البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٦٧-٢٦٨، وانظر مناهل العرفان: للزرقاني، جـ١، ص٣٣٣-٣٣٥.

(٣) البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٦٧.

(٤) الكشاف: الزمخشري، جـ١، ص١٨.

فوائد معرفة الآيات:

ذكر العلماء لتقسيم السورة إلى آيات حِكَماً كثيرة منها:

١ ـ العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ وفي حُكمها الآية الطويلة، وبيان ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى تحدَّى الناس أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، فدلَّ على أنَّ كل ثلاث آيات قصار معجزة.

٢ ـ يرى بعض العلماء أنَّ الوقف على رأس الآية سُنة، وتحديد رأس الآية مُعِين على اتباع السُّنة.

٣ ـ هناك بعض الأحكام الفقهية المترتبة على معرفة الآي، ذكرها السيوطي[١] ـ رحمه الله تعالى ـ ومنها:

أ ـ اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات عند الشافعي.

ب ـ اعتبارها في خطبة الجمعة، فإنَّه يجب فيها قراءة آية كاملة من القرآن، ولا يكفي شطرها إلا أن تكون طويلة.

جـ ـ اعتبارها في طول الصلاة فقد ورد أنَّه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المئة آية، وكذا اتخاذها مقياساً زمنياً للفارق بين الأذان والإقامة.

د ـ اعتبارها في قراءة قيام الليل وعدد الآيات للقيام.

فوائد:

اعلم أنَّ العلماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم، وعدد كلماته وعدد حروفه، وسبب ذلك أنَّ النبي ﷺ كان يقف

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٩، وانظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣٧-٣٣٩.

على رؤوس الآي للتوقيف، فإذا عُلِمَ محلُّها وصَلَ للتمام فيحسب السامع أنَّها ليست فاصلة.

وسببُ الاختلاف في عدد الحروف أنَّ بعضَ العلماء يعدُّ البسملة آية في أوّل كل سورة، وبعضهم لا يعدها، وأحرف المَدِّ ونحوها، منهم من يعدها ومنهم من لا يعدها.

وسبب الاختلاف في عدد كلمات القرآن أنَّ الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كلٍّ منها جائز، وكلٌّ من العلماء اعتبر أحدَ الجوائز[(١)].

وأطول سورة في القرآن الكريم هي البقرة، وأقصر سورة هي الكوثر، وهي ثلاث آيات.

وأطول آية: آية الدَّين، وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، وأقصر آية ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿وَٱلْفَجْرِ﴾.

وأطولُ كلمة فيه لفظاً وكتابة ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾[(٢)].

أمّا أنصافُ القرآن فثمانية:

ـ فنصفه بالحروف (النون) من قوله: ﴿نُّكْرًا﴾ [٧٤] في سورة الكهف، والكاف من نصفه الثاني، وقيل عين ﴿تَسْتَطِيعَ﴾[(٣)] وقيل: اللام الثانية من ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[(٤)].

ـ ونصفه بالكلمات الدال من قوله: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ [٢٠] في سورة الحج، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [٢١] من نصفه الثاني.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٢.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦٧.

(٤) سورة الكهف: الآية ١٩.

ـ ونصفه بالآيات ﴿يَأْفِكُونَ﴾ [٤٥] من سورة الشعراء، وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [٤٦] من نصفه الثاني.

ـ ونصفه على عدد السور، فالأولُ (الحديد) والثاني من (المجادلة)[١].

أكثر ما اجتمع في القرآن من الحروف المتحركة متوالية ثمانية أحرف في سورة يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الآية الرابعة.

وفي القرآن آيتان تجمع كل واحدة منهما حُروف المُعجَم وهما قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية ٢٩ من سورة الفتح، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

وفي القرآن سورة في كل آية منها اسم الله تعالى هي سورة المجادلة.

وفي القرآن آية فيها ١٦ ميماً هي ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ...﴾ الآية ٤٨ من سورة هود، وفي آية الدَّين ٣٣ ميماً.

وليس في القرآن حاء بعدها حاء إلا في موضعين:

ـ الأول في البقرة (٢٣٥) ﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ﴾.

ـ الثاني في الكهف (٦٠) ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ﴾.

وعدد كلمات القرآن الكريم (٧٧٤٣٩) كلمة وقيل: (٧٧٤٣٧) وقيل: (٧٧٢٧٧) وقيل: غير ذلك.

وعدد حروفه ٣٢٣٠١٥ حرفاً وقيل: ٣٢١٠٠٠ وقيل: ٣٤٠٧٤٠ حرفاً.

قال السيوطي: والاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته[٢].

قلت: فيه رياضة للنفس وترويح للذهن في أطهر ميدان، والله أعلم.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٣.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٠، وقد نقلت أغلب هذه الفوائد من البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٤٩-٢٥٦.

المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول ﷺ قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية، وأقام فيها إلى وفاته ﷺ.

وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار، والقرى، والجبال، والوهاد، والأودية، والسفوح، والدور، والبراري، وفي أوقات مختلفة في الليل، والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب.

وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية، واستيفاء معانيها، واستقصاء مدلولاتها.

وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة، وللحديث مع الكفار أسلوبه، ولمخاطبة المسلمين طريقتها.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم، وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين، وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم، ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم، ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل، ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار، وظلَّ القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم، وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول ﷺ بهذه الجماعة، والتقى بجماعة أخرى من المُسلمين في المدينة، وآخى بين الجماعتين، ومزج بينهما مزجاً كان نتاجُه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة، والمؤهَّلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام، وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة يبسُط أحكامَ الدين، ويُرسي قواعده، ويبني المجتمع الإسلامي، ويؤسسُ صرحَ الدولة.

وبلا ريب أنَّ معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف ولتلك الأهداف والأغراض، ومعرفة ما نزل في المدينة كذلك، يُعطي منهجاً سليماً للدعوة الإسلامية، ودروساً للدعاة في مختلف العصور والأمكنة.

عناية العلماء بالمكي والمدني:

فلا عَجَبَ إذاً أن يعتني العلماء بذلك، وأن يولوه اهتمامهم، فهذا عليُّ ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيم أُنزِلت، وأين أُنزلت. إنَّ ربِّي وهبَ لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً»[1].

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «والله الذي لا إلـه غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلمُ منّي بكتِاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[2].

وقد اهتم العلماء مِنْ بعدهم بمعرفة المكي والمدني، وأفرده جماعة بالتأليف منهم ـ كما يقول السيوطي ـ مكيّ، والعزُّ الديريني[3]، وفي العصر

---

(١) حلية الأولياء: لأبي نعيم، جـ١، ص٦٧-٦٨.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٢، وصحيح مسلم: جـ٤، ص١٩١٣.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٨.

الحديث صدرت دراسات كثيرة عن خصائص السور المكية، وخصائص السور المدنية.

كما اعتنى به العلماء في مؤلفاتهم، فلا تكاد تجد كتاباً يتناول علوم القرآن إلا وكان المكي والمدني أحد أبوابه. وفَصَّلَ القولَ فيه السيوطي، وأشبع الكلام على أوجهه، وأفرد بعضها بمباحث خاصة في كتابه «الإتقان»[1].

أنواع المكي والمدني:

وهي كثيرة منها:

ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، وما اختلف فيه، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل صيفاً، وما نزل شتاءً، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل مشيعاً، وما نزل مفرداً، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة[2].

السور المكية والسور المدنية:

اختلف العلماء في عدد السور المدنية، وقد نقل السيوطي عن ابن الحَصّار أنّ المدنيَّ عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص١٩٢.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١١.

السور المدنية: عشرون هي:

١ ـ البقرة.	٢ ـ آل عمران.	٣ ـ النساء.	٤ ـ المائدة.
٥ ـ الأنفال.	٦ ـ التوبة.	٧ ـ النور.	٨ ـ الأحزاب.
٩ ـ محمد.	١٠ـ الفتح.	١١ـ الحجرات.	١٢ـ الحديد.
١٣ـ المجادلة.	١٤ـ الحشر.	١٥ـ الممتحنة.	١٦ـ الجمعة.
١٧ـ المنافقون.	١٨ـ الطلاق.	١٩ـ التحريم.	١٠ـ النصر.

واختلفوا في اثنتي عشرة سورة هي:

١ ـ الفاتحة.	٢ ـ الرعد.	٣ ـ الرحمٰن.	٤ ـ الصف.
٥ ـ التغابن.	٦ ـ المطففين.	٧ ـ القدر.	٨ ـ البينة.
٩ ـ الزلزلة.	١٠ـ الإخلاص.	١١ـ الفلق.	١٢ـ الناس.

السور المكية:

ما عدا السور المذكورة فهو مكي وعددها اثنتان وثمانون سورة.

طريق معرفة المكي والمدني:

يُعرفُ المكيّ والمدنيّ بأحد طريقين:

الطريق الأول: النقليّ السماعيّ:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي ﷺ فلم يَرِدْ عنه بيان للسور المكية والسور المدنية؛ لأنّ هذا مما يشاهده ويحضره الصحابةُ رضي الله عنهم، فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكي والمدني يُعرفُ بغير نصّ من الرسول ﷺ.

قال الباقلاني: «إنما يُرجعُ في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يَرِدْ عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يُؤمر به، ولم يَجعل الله عِلْمَ ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول»[1].

ومن أمثلة ما عرف أنه مكي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت لمَّا أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذاً مكية، وسورة الحج روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية[3].

ومنها ما رواه مسلم، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: أَلِمَن قَتَلَ مؤمناً متعمداً مِن توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلى آخر الآية[4]. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾[5][6].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٤.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٣.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٨.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٦) صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٣١٨.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: «لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[1] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[2].

الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول (السماعي النقلي) واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية، وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا: إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السور المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس، فسُمِّي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: «لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي قال علقمة: عن عبد الله: كل سورة فيها «يا أيها الناس» فقط، أو «كلا»، أو أولُها حرف تهَجّ سوى الزهراوين، والرعد في وجه، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الخالية، مكية، وكل سورة فيها فريضة، أو حد، فهي مدنية»[3].

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في المراد بالمكي والمدني، ومتى تُسمى السورة أو الآية مكية أو مدنية إلى ثلاثة أقوال:

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٦.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠١.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٨٩، وانظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

ويرجع اختلافهم إلى المعتبر في النزول، فمنهم من اعتبر مكان النزول، ومنهم من اعتبر زمن النزول، ومنهم من اعتبر المخاطبين بالآيات أو السورة، وعلى هذا:

القول الأول: لطائفة اعتبرت مكان النزول فقالت: ما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجرة، فهو مكي، وما نزل في المدينة وما حولها، فهو مدني.

وهذا القول غير ضابط ولا حاصر إذ إنه لا يشمل ما نزل من الآيات في غير مكة، والمدينة، وما حولهما، فقد نزلت آيات قرآنية في تبوك وفي بيت المقدس، وفي الطائف، فالتعريف غير ضابط.

والقول الثاني: لطائفة اعتبرت المُخاطَب بالآية أو السورة، وهذه الطائفة نظرت إلى أهل مكة وقت التنزيل، فوجدت أنَّ الغالب على أهلها الكفر، والمناسب لمخاطبتهم النداء بـ«يـأيها الناس» أو «يا بني آدم» وبما أن الغالب على أهل المدينة هو الإيمان، فإنَّ المناسب نداؤهم بـ«يـأيها الذين آمنوا» وعلى هذا فالمكي عندهم ما كان فيه «يـأيها الناس» أو «يا بني آدم» والمدني ما كان فيه «يـأيها الذين آمنوا».

نقل السيوطي عن أبي عبيد في «الفضائل» عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن «يـأيها الناس» أو «يا بني آدم» فإنّه مكي وما كان «يـأيها الذين آمنوا» فإنّه مدني.

وهذا القول أيضاً غير ضابط ولا حاصر من وجهين:

الأول: ضَعَّفَ هذا القول ابنُ الحصار فقال: «اتفق الناس على أنّ «النساء» مدنية وأولها «يـأيُّها الناسُ» وعلى أنّ «الحج» مكية وفيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾[1]، وقال غيره هذا القول إنْ أخذ على إطلاقه

(١) سورة الحج: الآية ٧٧.

فيه نظر. فإنَّ سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾[1]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾[2] وسورة النساء مدنية وأولها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾[3]. وبهذا يكون هذا القول غير ضابط وغير مُطَّرد.

الثاني: أنّ هناك آيات كثيرة وسور عديدة ليس فيها نداء بـ«يـٰأيها الناس» أو «يـٰأيها الذين آمنوا» وهذا القول لا يشملها فلا يكون ضابطاً ولا حاصراً.

القول الثالث: لطائفة اعتبرت الزمان، ورأت أنَّ الهجرة هي الحد الفاصل بين المكي والمدني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة، قالوا: «وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي»[4].

وهذا التعريف ضابط وحاصر لا تخرج عنه آية من آيات القرآن الكريم وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَـٰمَ دِينًاۚ ﴾[5]. مدنية مع أنها نزلت في عرفات بمكة، بل إنَّ قوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[6]. مدنية مع أنها نزلت في جوف الكعبة لأن هاتين الآيتين نزلتا بعد الهجرة عام الفتح.

ضوابط السور المكية:

نظر العلماء في السور المكية فوجدوا أنّ لها ضوابط، وأنّ لها مميزات، ونظروا في السور المدنية فوجدوا أيضاً أنّ لها ضوابط ومميزات.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٨.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٨٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ٣.

(٦) سورة النساء: الآية ٥٨.

ونعني بالضوابط خصائص الألفاظ، ونعني بالمميزات خصائص الأسلوب والمعاني والأغراض للسور المكية أو المدنية.

فمن ضوابط السور المكية:

١ ـ كل سورة فيها «كلا» فهي مكية.

وردت في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن قال الشيخ الديريني[1] رحمه الله تعالى:

وما نزلت كلا بيثربَ فاعلمنْ ... ولم تأتِ في القرآن في نصفه الأعلى

وحكمة ذلك أن «كلا» للردع والزجر، وهذا إنَّما يكون للمعاند المستكبر، فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة.

٢ ـ كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية[2]. وهي أربع عشرة سجدة، هي الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، واقرأ باسم ربك، وأما سورة صٓ فيستحب السجود، وليست من عزائم السجود، وزاد بعضهم آخر الحجر[3] وفي الرعد خلاف.

٣ ـ كل سورة مبدؤه بقسم وهي خمس عشرة سورة، هي الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.

٤ ـ كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي مثل (الٓمٓ) (حمٓ) وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

---

(١) البرهان: للزركشي، جـ١، ص٣٦٩.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١١٠.

٥ ـ كل سورة فيها «يـٰأيها الناس» وليس فيها «يـٰأيها الذين آمنوا» فهي مكية إلا سورة الحج فإنها مكية مع أنّ في آخرها «يـٰأيها الذين آمنوا».

٦ ـ كل سورة مفتتحة بـ(الحمد) فهي مكية، وهي خمس سور.

٧ ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

مميزات السور المكية:

من المعلوم أنَّ ما نزل من القرآن في مكة كان يُخاطب مجتمعاً وثنياً فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يُناوِئها العداء، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالباً يخاطب أتباعه المؤمنين، يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أنّ البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب، والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، فمن مميزات السور المكية:

١ ـ تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحدَه، والإيمان برسالة محمد ﷺ، وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية، وعبادة غير الله، وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

٢ ـ تشريع أصول العبادات والمعاملات والآداب والفضائل العامة، ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلاً، وحُرِّم أكلُ مال اليتيم ظُلماً، كما وحُرِّمَ الكِبرُ والخيلاء ونحوها.

٣ ـ الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم، وما نزل بالمكذبين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم، وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم، وإبطال

حججهم بما يُوحي إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء، وفي هذا بسطٌ أيضاً للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

٤ ـ قِصَرُ السور والآيات مع قوة جرسِ الألفاظ ووقعها، وإيجازُ العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول ﷺ في القراءة يتنادون ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1].

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.

ضوابط السور المدنية:

١ ـ كل سورة فيها «يأيها الذين آمنوا» وليس فيها «يأيها الناس» فهي مدنية، قال السيوطي عن علقمة عن عبد الله ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال: «ما كان «يأيها الذين آمنوا» أنزل بالمدينة، وما كان «يأيها الناس» فبمكة.. ثم قال: قال ابن عطية وابن الفرس وغيرهما: هو في «يأيها الذين آمنوا» صحيح، وأما «يأيها الناس» فقد يأتي في المدني»[2].

٢ ـ كل سورة فيها ذكر للمنافقين، قال مكي بنُ أبي طالب القيسي: «كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية، وزاد غيره: سوى العنكبوت»[3].

والصحيح أنَّ أول العنكبوت الذي ورد فيه ذكر المنافقين مدنيّ لِمَا أخرجه ابن جرير في سبب نزولها[4].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص١٦.

(٤) جامع البيان: الطبري، جـ٢٠، ص٨٦.

٣ ـ كل سورة ورد فيها حدٌّ أو بيان فريضة، قال عروة بن الزبير: «ما كان من حدّ أو فريضة فإنَّه أنزل بالمدينة»[١]. وقال محمد بن السائب الكلبي: «كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية»[٢].

مميزات السور المدنية:

١ ـ يخاطب القرآن في المدينة ـ غالباً ـ مجتمعاً إسلامياً، فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.

٢ ـ نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين، فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم، وهتك أستارهم، وبيَّن خطرهم على الإسلام والمسلمين، وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين، فكان الكفار يُحاربونهم جهاراً.

٣ ـ عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكراً سيئاً، ويكيدون للإسلام وأهله، فكشف القرآن في المدينة سرائرهم، وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبيَّن بُطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.

٤ ـ الغالب على الآيات والسور المدنية طولُ المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية، والأحكام التشريعية، فقد كان أهلُ المدينة مسلمين يُقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأنَّ على رؤوسهم الطير، فالمقام

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٨٨-١٨٩.

(٢) المرجع السابق.

ليس مقام مقارعة ولجاجٍ يُناسبه الإيجاز، بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يُناسبه الاسترسال والإطناب.

فوائد معرفة المكي والمدني:

١ ـ تمييز الناسخ من المنسوخ فإنَّ المتأخر ناسخ للمتقدم.

٢ ـ الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإنَّ معرفة مكان النزول يُعين على فهم المُراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها وما يَردُ فيها من إشارات أحياناً.

٣ ـ معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في التكليف، ويترتب على هذا الإيمان بأنَّ هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمٰن رحيم.

٤ ـ الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى، فهو أسلوب يشتد ويلين، ويُفصِّل ويُجمِل، ويَعِدُ ويتوَعَّدُ، ويُرغِّبُ ويُرَهِّبُ، ويُوجز ويُطنِبُ حسب أحوال المخاطَبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم[١].

٥ ـ استخراج سيرة الرسول ﷺ وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها، واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة.

وقد عنى بعض المؤرخين بهذا الجانب، فوضعوا المؤلفات في سيرة النبي ﷺ على ضوء القرآن الكريم[٢].

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص٢٣٣.

(٢) منهم الدكتور عبد الصبور مرزوق في كتابه «السيرة النبوية في القرآن الكريم»، ومنهم د. محمد علي الهاشمي في كتابه: «شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم»، والأستاذ حسن ضياء الدين عتر وكتابه «نبوة محمد ﷺ في القرآن»، والأستاذ حسن =

٦ ـ بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به، **حتى إنهم** لم يكتفوا بحفظ النص القرآني، بل تتبعوا مكان نزوله، ومعرفة ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها، وما نزل بالليل، وما نزل بالنهار، وما نزل في الصيف، وما نزل في الشتاء، ويَتبَعُ هذا الاقتداء بهم في دراسة القرآن وعلومه.

❊ ❊ ❊

= الملطاوي في كتابه: «رسول الله في القرآن الكريم»، والأستاذ محمد إبراهيم شقرة في كتابه «السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة»، والشيخ جلال الحنفي البغدادي في كتابه «شخصية الرسول الأعظم قرآنياً» وغيرهم.

أسباب النزول

من المعلوم أنَّ سبب نزول آيات القرآن الكريم كلها هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع. وعلى هذا فإنَّ آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

ـ **الأول**: قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنَّما هو مرتبط بالسبب العام، وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

ـ **الثاني**: قسم نزول مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة، يُسميه العلماء (سبب نزول الآية)، وآيات هذا القسم هي الأقل، ولأهميتها أفردها العلماء بالدراسة والبيان.

عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ عناية فائقة بدراسة أسباب النزول وأفردوها بمؤلفات مستقلة، وهي مؤلفات كثيرة، وأول من أفرده، بالتأليف علي بن المديني ت(٢٣٤هـ) وممن ألف فيه عبد الرحمٰن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي ت(٤٠٢هـ) فقد ألف كتابه «القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن». ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي

ت(٤٦٨هـ) واسم كتابه «أسباب النزول»، وطُبع مراراً[١]، وقد اختصر الجعبري هذا الكتاب بحذف أسانيده[٢]، ومنهم ابن الجوزي ت(٥٩٧هـ) واسم كتابه «أسباب نزول القرآن»، ومنهم ابن حجر العسقلاني ت(٨٥٢هـ) واسم كتابه «العُجَابُ في بيان الأسباب»، وقد ذكر السيوطي أنَّه اطلع على مسودة هذا الكتاب، وأنَّ ابن حجر مات قبل أن يبيضه[٣].

ومنهم السيوطي ت(٩١١هـ) الذي ألف كتاباً سماه «لباب النقول في أسباب النزول» وطبع في مجلد واحد.

وفي العصر الحديث:

ألف الأستاذ إبراهيم محمد العليّ كتابه «صحيح أسباب النزول» وألف د. أبو عمر نادي بن محمود الأزهري ثلاثة كتب:

«نهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول» و«المقبول من أسباب النزول» و«الدخيل من أسباب التنزيل» كما ألف الشيخ مقبل بن هادي الوادعي «الصحيح المسند من أسباب النزول».

تعريف سبب النزول:

هو «ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه» كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبيِّن الحُكمَ فيها، أو كسؤال يُوجَّه إلى الرسول ﷺ فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.

---

(١) حقق عدة مرات وممن حققه السيد أحمد صقر وأيمن صالح شعبان وكمال بسيوني زغلول وعصام الحميدان في أطروحته للماجستير في جامعة الإمام.

(٢) وهو مخطوط ويحتاج إلى من يقوم بتحقيقه في أطروحة علمية.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٢٨، وقد صدر كتاب (العجاب) بتحقيق أ. عبدالحكيم محمد الأنيس في مجلدين وهو إلى الآية ٧٨ من سورة النساء.

ويُفيد قولنا: «وقت وقوعه» أنَّه لا بدَّ أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة أو توجيه السؤال، فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمن طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السابقة، كالآيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة ابنيّ آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، فإن الحديث عن ذلك ليس من هذا الباب.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زمناً يسيراً، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]. قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة، وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنَّما نزلت بعد نحو شهر منها.

والحادثة: التي ينزل القرآن لأجلها قد تكون من الرسول ﷺ، كما حدث في سبب نزول سورة عبس حين جاء ابن أمِّ مكتوم إلى الرسول ﷺ، وهو يُناجي بعض زعماء قريش ويدعوهم إلى الإسلام، فجاءه ابن أمِّ مكتوم وقال: يا رسول الله علِّمني مما علَّمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء، والرسول ﷺ مشغول عنه، ومقبل على هؤلاء النفر، فنزلت سورة عبس. فكان الرسول ﷺ إذا رأى ابن أمِّ مكتوم بعد ذلك يقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»[2].

وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، كأولئك الصحابة الذين كانوا يُصَافون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود لِمَا

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ٢٣-٢٤.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٢٩٧.

كان بينهم من القرابة والصداقة والحِلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1][2].

وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كما أن السؤال قد يكون عن ماضٍ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾[3]، أو عن حاضر، كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾[4]. وقوله سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[5] أو عن مستقبل، كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾[6]، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾[7].

طريق معرفة سبب النزول:

سبب النزول حادثة من أحداث التاريخ الواقعة في عهد الرسول ﷺ، ولهذا فلا طريق لمعرفته إلا طريق الرواية الصحيحة عمن شاهده وحضره، ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز، لأنه من القول في القرآن بغير علم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[8].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٧٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٨٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٥.

(٧) سورة النازعات: الآية ٤٢.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

وقال ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي. وقال هذا حديث حسن[1].

وروى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عَبيدة عن آية من القرآن فقال: اتقِّ الله، وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أُنزل القرآن[2]. وقال الواحدي: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب»[3].

وإذا ورد سبب النزول عن صحابي فلا تَخْلُو عبارته: أن تكون جازمة وصريحة في السببية فلها حكم الحديث المرفوع. وإمَّا أن تكون العبارة غير صريحة كأن يقول: «نزلت هذه الآية في كذا» فإنَّها تحتمل أنَّ المراد بها سببُ النزول، وتحتمل أنَّ هذا داخلٌ في الآية وإن لم يكن السبب، بل يرادُ بيانُ حُكم من الأحكام الواردة في الآية.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقد تنازع العلماء في قول الصاحب: «نزلت هذه الآية في كذا» هل يجري مجرى المسند ـ كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله ـ أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يُدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، وبخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند»[4].

---

(١) جامع الترمذي، جـ٥، ص١٩٩.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٥.

(٣) أسباب النزول: الواحدي، ص٤.

(٤) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، ص٤٨، وانظر الإتقان للسيوطي، جـ١، ص٣١.

وإذا ورد سببُ النزول عن تابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط:

١ ـ أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول: «سبب نزول هذه الآية كذا» أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول: حدث كذا وكذا، أو سئل رسولُ الله ﷺ عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية.

٢ ـ أن يكون الإسناد صحيحاً.

٣ ـ أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.

٤ ـ أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط، وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قُبِلت وصار لها حُكمُ الحديث المرسل.

قال السيوطي رحمه الله تعالى عن سبب النزول إذا ورد عن تابعي: إنه «قد يُقبل إذا صَحَّ السند إليه، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك»(١).

وبهذا ندرك الحيطة الشديدة التي اتخذها العلماء رحمهم الله تعالى لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل.

فوائد معرفة سبب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

١ ـ معرفة حكمة التشريع. وأنَّه قام على رعاية مصلحة الأمة، ودفع الضرر عنها، وجلب الخير لها، والرحمة بها، وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها حين جاءت إلى الرسول ﷺ تشتكي زوجها، وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني،

---

(١) الإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٣١.

وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[1] وهو أوس بن الصامت[2]. فشرع الله تعالى الكفارة رحمة بها وبأمثالها، وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك، وحماية للأبناء من التشرد.

٢ ـ معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها التفسير الصحيح، ودفع اللبس والإشكال عن معناها. قال الواحدي عن أسباب النزول: «هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرَفُ العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[3]. وقال أبو الفتح القشيري: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز»[4]. وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومعرفة سبب النزول يُعينُ على فهم الآية، فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء، أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها»[5].

ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[6].

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا في حضر، ولا في فرض ولا في

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول: السيوطي، ص٢٠٦.

(٣) أسباب النزول: الواحدي، ص٤.

(٤) البرهان للزركشي، جـ١، ص٢٢.

(٥) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٤٧.

(٦) سورة البقرة: الآية ١١٥.

نافلة، وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية كما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي ها هنا قِبَل الشمال، فصلَّوْا وخطوا خطوطاً، وقال بعضنا: القبلة ها هنا قِبَل الجنوب، فصلَّوْا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ عن ذلك، فسكت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1][2].

وروى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[3].

وبهذا ندرك أنَّ هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبين له خطؤه، فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر لا يلزم التوجه إلى القبلة. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[4].

فظاهر هذه الآية نفي الجناح عمَّن طاف بالصفا والمروة مع أنَّ الطواف بهما فرض، والتعبير بنفي الإثم لا يدل على الفرضية، وإذا عرف سبب

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٢٣.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٤٨٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

النزول زال الإشكال، فقد كان للمشركين أصنام على الصفا والمروة، وكانوا يطوفون بهما، فلما جاء الإسلام تحرج هؤلاء عن الطواف بهما، فنزلت هذه الآية، وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سُئل: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعار الجاهلية حتى أنزل الله ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[1][2].

فدل سبب النزول على أنَّ المراد بالآية نفي ما وقر في أذهان بعض الصحابة من التحرج من السعي بين الصفا والمروة، والاعتقاد بتحريم ذلك لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت الآية نافية لهذا الإثم، ورافعة للتحرج.

٣ ـ ومن فوائد معرفة سبب النزول: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها؛ لأنَّ رَبْطَ الأسبابِ بالمسببات، والأحكامِ بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها، وذلك ما يُعرف في علم النفس بقانون «تداعي المعاني»[3].

٤ ـ معرفة من نزلت فيه الآية بعينه، حتى لا يُبرَّأ المُتَّهم أو يتهم البريء، وحتى لا يزعم أحد أنَّ المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية، والمراد بها غيره، وفي تفاسير الشيعة كثير من هذا النوع، فلا تكاد تجد آية فيها مدح وثناء على أحد

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

(٢) صحيح البخاري، جـ٢، ص١٧١.

(٣) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٠٦-١٠٧.

أياً كان إلا وألصقوها بأحد أئمتهم، ولا يدعون آية فيها ذم إلا وألصقوها بمخالفيهم، أو بأحد صحابة رسول الله ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم[1].

---

(١) والأمثلة على هذا كثيرة جداً، أقتصر على ذكر أمثلة من تفسير واحد من تفاسيرهم وهو المسمى: «تفسير نور الثقلين» تأليف عبد علي الحويزي فمنها تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢] قالوا: هي في أمير المؤمنين عليه السلام، كان أمير المؤمنين عليه السلام ـ يقصدون عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ يقول: «ما لله عز وجل آية هي أكبر مني. ولا لله من نبأ أعظم مني» «نور الثقلين» جـ٥، ص٤٩١، وفسَّروا التراب في قول الكافر يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] بقولهم: «أي: من شيعة علي» جـ٥، ص٤٩٧، وزعموا أنَّ قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] نزلت في عثمان، وأنه عبس في وجه ابن أم مكتوم حين رأى الرسول ﷺ يقدمه عليه جـ٥، ص٥٠٨.
وفسَّروا السماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] بأنَّها أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، والطارق هو الروح الذي مع الأئمة و﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] رسول الله ﷺ جـ٥، ص٥٥٠. أما الشفع والوتر في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] فالشفع: الحسن والحسين، والوتر: أمير المؤمنين عليه السلام جـ٥، ص٥٧١، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣] قالوا: أمير المؤمنين عليه السلام، وما ولد من الأئمة جـ٥، ص٥٧٨، وزعموا أنَّ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٥-٦] زعموا أنها في عثمان رضي الله عنه، والمال اللبد يعني الذي جهَّز به النبي ﷺ في جيش العسرة جـ٥، ص٥٨٠، وفي قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] قالوا: «ولاية أمير المؤمنين» جـ٥، ص٥٨١. وقالوا: عن أصحاب الميمنة: هم أصحاب أمير المؤمنين يعني علي بن أبي طالب. جـ٥، ص٥٨٤، وقالوا: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] الشمس: رسول الله، ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢] أمير المؤمنين، جـ٥، ص٥٨٥، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٧] الآيات معلوم أنها نزلت في عثمان حين اشترى بئر رومة للمسلمين لكنهم يقولون: المراد بها الحسين بن علي عليه السلام، جـ٥، ص٥٧٧. وكذا قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] التي نزلت في أبي بكر =

وقد روى البخاري - رحمه الله تعالى - أنَّ مروان بن الحكم كان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمٰن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنَّ هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾[1]. فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري[2].

٥ - ومن فوائد معرفة أسباب النزول: معرفة أنَّ سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.

وبيان ذلك أنَّ اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم دليل على تخصيصه، فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع، لأن دخول السبب قطعي. وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعيّ بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

= رضي الله عنه، قالوا: إنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام جـ٥، ص٥٩٣.
وحادثة الإفك المشهورة ونزوله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ .. ﴾ [النور: ١١] الآيات، زعموا أنها نزلت في مارية القبطية، وزادوا افتراء فزعموا أن عائشة هي التي رمت مارية بالزنا جـ٣، ص٥٨١.
والأمثلة كما قلت كثيرة جداً ومعرفة أسباب النزول تكشف تحريفهم وإلحادهم في القرآن الكريم.

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٧.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٤٢.

(٣) سورة النور: الآية ٢٣.

وسبب نزول هذه الآية حادثة الإفك المشهورة، ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب. لكن الآية الأخرى استثنت من تاب فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فلفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

وبهذا التخصيص نخصص عموم الآية الأولى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ الآية، لكن التخصيص للآية الأولى لا يشمل سبب نزولها، وهو قذف عائشة رضي الله عنها، فيبقى على عمومه بعدم قبول توبة من قذفها، لأنَّ دخوله في لفظ الآية الأولى العام قطعي، وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني، والقطعي لا يخرج بالظني.

وبهذا يبقى حكمُ عدم قبول توبة القاذف خاصاً بقذف عائشة وأمَّهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن، ولذا قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ نزلت في عائشة خاصة[2].

وفي حديث آخر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية: «هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

---

(١) سورة النور: الآيتان ٤-٥.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٤، ص١٠-١١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنين التوبة، ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي ﷺ توبة[1].

والخلاصة أنَّ الثانية خَصَّصَت عمومَ الآية الأولى، إلا سبب النزول فلا تخصِّصُه؛ لأنَّ دخوله قطعي، وتخصيصها ظني.

٦ ـ تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أنَّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثاله قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

فقد أشكل عموم هذه الآية على مروان بن الحكم، فقال لبوَّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أُوتي، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل مُعذَّباً، لنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ومالكم ولهذه إنَّما دعا النبيُّ ﷺ يهود فسألهم عن شيء، فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، فأَرَوْه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أَتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[3]. كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[4][5].

٧ ـ ومن فوائد معرفة سبب النزول: كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن

---

(١) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٧، ص٧٩-٨٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

(٥) صحيح البخاري، جـ٥، ص١٧٤، ومسلم، جـ٤، ص٢١٤٣.

الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.

الاستفادة من معرفة سبب النزول في مجال التربية والتعليم:

نقل المعلومات من ذهن إلى ذهن يحتاج إلى أمرين مهمين:

ـ أولهما: القدرة من المدرس.

ـ ثانيهما: الاستعداد من الطالب.

ولا نَجَاح للعملية التعليمية ما لم يكن عند مدرس المادة قدرة على التعبير الصحيح عما يُريد إيصاله إلى أذهان الطلاب.

ولا نَجَاح للعملية ما لم يكن ذهن الطالب مُهيئاً ومُشرعاً أبوابه لدخول المادة العلمية. وفتح ذهن الطالب عملية مشتركة بين الطالب والمدرس.

فالمدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يثير مشاعر الطلاب ويجذب انتباههم، ويُهيِّئ نفوسهم لتقبُّل المادة العلمية، وليست هذه المهمة بالمهمة السهلة، بل تحتاج إلى جهد كبير، وفطنة لمّاحة.

والتمهيدُ للدرس من أهمّ مراحله، وهي مرحلة تحتاج إلى خبرة ودراية:

١ ـ للربط بين المعلومات.

٢ ـ لتأسيس قاعدة يقف عليها ذهن الطالب للانطلاق من معلومة إلى معلومة، أو من الكُلِّ إلى الجزء، إلى أن يُدرك عناصر الدرس ويستوعبها.

٣ ـ لإثارة انتباه الطلاب وجذب مشاعرهم.

وعرضُ سبب النزول سبيل ناجح لتحقيق هذه الأمور في تدريس تلاوة القرآن الكريم، وتدريس تفسير القرآن الكريم، إذ إن سبب النزول ـ كما أشرنا في التعريف ـ لا يخلو من أن يكون حادثة أو سؤالاً، ومثل هذا كاف

لجذب انتباه الطلاب وربطهم بالمادة العلمية، وتزويدهم بمعلومة عامة ينطلقون منها إلى التفصيل، ومعرفة ما يتعلق بالآية من تفسير لمفرداتها. وبيان لأحكامها، وإدراك لأسرار التشريع فيها، وتوثيق صلتهم بالآية.

وإذا كان عرضُ سبب النزول طريقة ناجحة للتمهيد لدرس التلاوة ودرس التفسير مثلاً فإنه يُمكن الاستفادة من هذا الأسلوب في سائر المواد، بأن يبدأ المدرس بعرض قصة مناسبة تلائم المادة العلمية التي يُريد عرضها، أو يوجه سؤالاً يجذب به انتباه الطلاب، ثم ينطلق إلى درسه بعد أن يطمئن إلى إقبال الطلاب عليه، وتوجه أذهانهم إليه، فيسهل حينئذ تلقيهم للدرس، واستيعابهم له.

* * *

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

تعريف التفسير:

اختلف علماء اللغة في لفظ التفسير:

١ ـ فقيل: هو تفعيل من (الفَسْر) بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المُشكِل[١]. قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٢] أي: تفصيلاً[٣].

٢ ـ وقيل: هو مقلوب من «سَفَر» ومعناه أيضاً الكشف، يقال: سفرت المرأة سفوراً إذا ألقت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء. وإنَّما بنوا «فسر» على التفعيل فقالوا: «تفسير» للتكثير[٤].

وقال الراغب الأصفهاني: (الفَسْر) و(السَّفر) يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جُعِل الفَسر لإظهار المعنى المعقول... وجعل السَّفر لإبراز الأعيان للأبصار فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح[٥].

---

(١) تهذيب اللغة: الأزهري، جـ١٢، ص٤٠٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٤٨.

(٤) المرجع السابق، جـ٢، ص١٤٧.

(٥) مقدمة جامع التفاسير: الراغب الأصبهاني، ص٤٧، والبرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٤٨.

وفي الاصطلاح:

التفسير: علم يُفهَمُ به كتابُ الله تعالى المُنزَّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه[1].

مناهج التفسير:

لم يكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولا الناس من بعدهم أيضاً على درجة واحدة في فهم القرآن الكريم، بل كانوا يتفاوتون في ذلك، فقد كان يُشكِلُ على بعضهم ما لا يُشكِل على بعضهم الآخر.

ويرجع ذلك إلى تفاوتهم في معرفة اللغة ومعرفة ما يحيط بنزول الآية من أحداث وملابسات كأسباب النزول، زد على ذلك تفاوتهم في القدرة العقلية شأن البشر كلهم.

ولو تساوت الأذهان في إدراك معاني القرآن لبطل التنافس، وخمدت الهمم، لزوال ما يحملهما على القدح وإعمال الذهن والتفكير والتدبر، لكن الله جلت حكمته جعل ألفاظ القرآن تحتمل أحياناً معاني كثيرة، وأمر الناس بالتدبر والتفكر فيها، وحث على ذلك، فتنافس الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم في تفسيرها لينالوا الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

وسلك العلماء منهجين أساسين لتحصيل معاني القرآن هما:

١ ـ التفسير بالمأثور.

٢ ـ التفسير بالراي.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٣ وانظر الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٤.

التفسير بالمأثور وأهم المؤلفات فيه

تعريفه:

هو بيان معنى الآية بما ورد في الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

فهو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول، ولا يجتهد في بيان معنى من غير دليل، ويتوقف عما لا طائل تحته، ولا فائدة في معرفته.

مكانته:

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها؛ لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الله تعالى، فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الرسول ﷺ، فهو المُبيِّنُ لكلام الله تعالى. وإما أن يكون بأقوال الصحابة، فهم الذين شاهدوا التنزيل، وهم أهل اللسان، وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول.

لكن ينبغي أن يُعلمَ أنَّ هذا مشروط بصحة السند عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم.

وينبغي أن نتفطن إلى أن التفسير بالمأثور قد دخله الوضع، وسرى فيه الدس والخرافات، ويرجع ذلك إلى أمور منها:

١ ـ ما دسه أعداء الإسلام، مثل زنادقة اليهود الذين تظاهروا بالإسلام لدس الأخبار المحرفة التي يجدونها في كتبهم.

٢ ـ ما دسه أصحاب المذاهب الباطلة والنحل الزائفة، كالرافضة الذين افتروا الأحاديث، ونسبوها زوراً وبهتاناً إلى الرسول ﷺ، أو إلى أصحابه رضي الله عنهم.

٣ ـ نقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة بغير إسناده، مما أدى إلى اختلاط الصحيح بغير الصحيح، والتباس الحق بالباطل.

لذا فإنه ينبغي التثبت عند الرواية للتفسير بالمأثور، وعلى هذا فإن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب السابقة، وهذا يجب رده، ولا يجوز قبولُه، ولا الاشتغال به، إلا لتمحيصه، أو التنبيه إلى ضلاله، حتى لا يغتر به أحد[١].

مصادر التفسير بالمأثور:

وتسمى (طرق التفسير بالمأثور) وهي:

١ ـ القرآن:

تفسير القرآن بالقرآن أفضل طرق التفسير، ومن أمثلته تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[٢] بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣].

---

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٤٩٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

٢ ـ السنة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)]، وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «السنة تفسر القرآن وتبينه»[(٢)].

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة: تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. وتفسير الخيط الأبيض والخيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل.

٣ ـ أقوال الصحابة:

وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ولا في السنة فعليك بتفسير الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم أعلم بذلك لما اختصوا به من مجالسة الرسول ﷺ ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع.

٤ ـ أقوال التابعين:

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في الرجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، فمنهم من عدَّ أقوال التابعين مصدراً من مصادر التفسير بالمأثور، ومنهم من عدَّها كسائر أقوال العلماء.

أسباب الاختلاف في التفسير بالمأثور:

وقد وقع الاختلاف بين السلف في التفسير بالمأثور، لكنه اختلاف يسير، ومع قلته فإن أغلبه يرجع إلى اختلاف التنوع لا إلى اختلاف التضاد، وهو أيسر أنواع الاختلاف.

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٣٩.

ومن أسباب وقوع الاختلاف بين السلف في التفسير:

١ - أن يكون في الآية أكثر من قراءة فيفسر كل منهم الآية على قراءة مخصوصة. ومثاله اختلافهم في معنى «سكرت» من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[1]. فقد قال قتادة: من قرأ ﴿سُكِّرَتْ﴾ مشدَّدة يعني سُدَّت ومن قرأ ﴿سُكِرَتْ﴾ مخَّففة فإنه يعنى سُحرت[2].

٢ - ومنها الاختلاف في الإعراب، فإن للإعراب أثره في تفسير الآية: ومثاله اختلافهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]. فقد اختلفوا في ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ فقيل: عطف نسق على لفظ الجلالة، وقيل: مبتدأ، والخبر في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فعلى القول الأول أن الراسخين يعلمون تأويله، وعلى القول الثاني لا يعلمون. وسبب هذا الاختلاف الاختلاف في الإعراب.

٣ - ومن أسباب الاختلاف احتمال اللفظ أكثر من معنى كالاشتراك اللغوي، فإن بعض الكلمات لها أكثر من معنى في اللغة، كلفظ «قسورة» الذي يُطلق على الرامي وعلى الأسد، ولفظ «النكاح» الذي يُطلق على العقد وعلى الوطء، ولفظ «القرء» الذي يُطلق على الحيض وعلى الطهر، وهناك أسباب أخرى غير ذلك[4].

---

(١) سورة الحجر: الآيتان ١٤-١٥.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري، جـ١٤، ص١٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٤) انظر ما ذكرته من أسباب أخرى في كتابي «بحوث في أصول التفسير ومناهجه» وقد أفرد هذه الأسباب بالتأليف الدكتور سعود بن عبد الله الفنيسان بكتابه «اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره» والدكتور محمد بن عبد الرحمٰن الشايع في كتابه «أسباب اختلاف المفسرين».

حكم التفسير بالمأثور:

قلنا: إن التفسير بالمأثور ينقسم إلى قسمين:

١ ـ ما توافرت الأدلة على صحته. فهذا يجب قبوله، ولا يجوز العدول عنه.

٢ ـ ما لم يصح فيجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا للتحذير منه.

أهم المؤلفات فيه:

والمؤلفات في التفسير بالمأثور كثيرة ومن أهمها:

أولاً: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

مؤلفه:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في (آمُل) في طبرستان سنة ٢٢٤ وتوفي في بغداد سنة ٣١٠[١].

كان عالماً بالقراءات، وإماماً في التفسير، بارعاً في الحديث، وشيخاً للمؤرخين، انفرد في الفقه بمذهب مستقل وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون[٢]. وقال ابن خزيمة: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد ابن جرير»[٣]، وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب في القراءات و«تاريخ الرجال» في الصحابة والتابعين و«لطيف القول» جمع فيه مذهبه الذي اختاره، «وتهذيب الآثار» ومن أهم كتبه «تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم».

---

(١) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١١٤.

(٢) طبقات المفسرين: السيوطي، ص٩٦.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١١١.

تفسيره:

أما تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» فلم يُؤلَّف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسرون عالة على تفسيره في التفسير بالمأثور، ويتميز تفسيره بمزايا منها:

١ ـ اعتماده على التفسير بالمأثور عن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين.

٢ ـ التزامه بالإسناد في الرواية.

٣ ـ عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح.

٤ ـ ذكره لوجوه الإعراب.

٥ ـ دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات.

وكان هذا التفسير مفقوداً إلى وقت قريب، حيث عُثر على نسخة مخطوطة منه عند أحد أمراء حائل، وهو حمود بن عبيد الرشيد[١]. وقد تم طبعه على هذه النسخة في ثلاثين جزءاً سنة ١٣١٩.

ثم قام الشيخان الفاضلان محمود وأحمد شاكر بتحقيق الكتاب والتعليق عليه ومراجعته وتخريج أحاديثه، وصدر منه ستة عشر جزءاً إلى نهاية تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، ثم قام د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بتحقيقه وصدر في ستة وعشرين جزءاً عام ١٤٢٢هـ، ولا يزال بحاجة إلى مزيد عناية وتصحيح.

قال الخطيب: «وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله»[٢] وقال الذهبي:

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: جولد تسهر. ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص١٠٩ والتفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٠٧. واسمه عندهما (بن عبد الرشيد) والصحيح ما أثبته. وفي مكتبتي نسخة من هذه الطبعة النادرة.

(٢) تاريخ بغداد، جـ٢، ص١٦٣.

«وله كتاب في التفسير لم يصنف مثله»(١) وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري»(٢).

وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً»(٣).

وقال ابن تيمية: «وأمَّا التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة. وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي»(٤).

ثانياً: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير:

مؤلفه:

هو أبو الفِدَاء عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي، ولد في بُصْرى في الشام سنة ٧٠٠، طلب العلم في صغره ورحل في طلبه، وكانت له صلة وثيقة مميزة بابن تيمية ومناضلة عنه(٥) (ت٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى.

---

(١) سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص٢٧٠.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات، جـ١، ص٧٨.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١٠٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٨٥. أما مقاتل بن بكير فلم أجده في كتب الرجال ولعله (مقاتل بن سليمان بن بشير) وتصحف إلى بكير، ويؤيد هذا أن تفسيره وتفسير الكلبي متشابهان حتى قيل: «إنَّ مقاتلاً أخذ التفسير عن الكلبي» التهذيب جـ١٠، ص٢٨٠ وقال إبراهيم: «تفسير الكلبي مثل تفسير مقاتل سواء» التهذيب جـ١٠، ص٢٨١. وابن جرير لم يرو عن مقاتل هذا، أما الكلبي وهو محمد بن السائب فقد روى عنه نادراً مع وصفه له بأنه ممن لا يحتج بنقله. جـ١، ص٦٦ والله أعلم.

(٥) طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص١١١.

ومن مؤلفاته: «البداية والنهاية»، و«الاجتهاد في طلب الجهاد»، و«جامع المسانيد العشرة»، و«الكواكب الدراري» وغير ذلك.

تفسيره:

يُعَدُّ تفسير ابن كثير من أشهر ما دوِّن في التفسير بالمأثور، ويُعتبر في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري.

قال السيوطي في ترجمة ابن كثير: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله»[١].

وقال الشوكاني: «هو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها»[٢].

وطريقته في التفسير أن يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة، موجزة ويجمع الآيات المناسبة لها، ويقارن بينها، وتفسيره أكثر كتب التفسير المعروفة سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد[٣].

ثم يورد الأحاديث المرفوعة التي لها صلة بالآية، ثم يُردِف هذا بأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف.

وينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالاً أحياناً وبالتفصيل حيناً آخر[٤].

وبالجملة يُعدُّ تفسيره ـ رحمه الله تعالى ـ من أفضل المؤلفات في التفسير، وقد طبع مرات كثيرة مع تفاسير أخرى، ومستقلاً في أربعة مجلدات كبار، واختصره عدد كبير من العلماء، منهم الأستاذ أحمد شاكر، ومحمد نسيب الرفاعي وغيرهما.

---

(١) مقدمة تحقيق تفسير ابن كثير، جـ١، ص١٩ تحقيق سامي السلامة.

(٢) المرجع السابق.

(٣) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٤٤.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٤٥.

ثالثاً: الدر المنثور: السيوطي:

مؤلفه:

هو جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ولد سنة ٨٤٩، وتوفي سنة ٩١١، وبعد أن تلقى العلوم وحَصَّلَ منها حظّاً وافراً انصرف إلى التأليف في وقت مبكر من حياته، ثم تجرد للتأليف في أواخر عمره، فاعتزل الناس، وترك وظائفه من تدريس وإفتاء.

تفسيره:

ألف السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ كتابه «ترجمان القرآن» ثم أراد أن يختصره، وعلَّل هذا بقوله: رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصراً فيه على متن الأثر مُصدِّراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدُّر المنثور في التفسير بالمأثور[1].

وطبع هذا التفسير في ستة مجلدات وقام د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بتحقيقه وصدر عام ١٤٢٤هـ، في سبعة عشر جزءاً. ولا يزال بحاجة إلى مزيد عناية وتصحيح.

رابعاً: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي:

المؤلف:

محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي[2]. ولد رحمه الله تعالى في شنقيط، وهي دولة موريتانيا الإسلامية الآن، سنة ١٣٢٥.

---

(١) الدر المنثور: السيوطي، جـ١، ص٢.

(٢) ترجم له تلميذه الشيخ عطية سالم في آخر تفسير الشيخ الشنقيطي.

تلقى العلوم الشرعية واللغة العربية، وحين أدَّى الحج اتصل بعلماء المملكة، فأعجب بهم، وعزم على البقاء في هذه البلاد، فأذن له الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى بالتدريس في المسجد النبوي، وحين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة عُيِّن مُدرِّساً فيها، وعُيِّن عضواً في هيئة كبار العلماء، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٩٣ بمكة. وله مؤلفات كثيرة منها «منع جواز المجاز في المُنزَّل للتعبد والإعجاز» و«دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» وغير ذلك.

التفسير:

وصل المؤلف رحمه الله تعالى في تفسيره هذا إلى آخر سورة المجادلة، ثم أكمل التفسير من بعده تلميذه عطية محمد سالم وصدر التفسير في عشرة مجلدات.

تميز هذا التفسير بميزتين:

إحداهما: تفسير القرآن بالقرآن، وقد التزم أن لا يُبين القرآن إلا بقراءة سَبعيَّة ولم يعتمد البيان بالقراءات الشاذَّة.

والثانية: بيانُ الأحكام الفقهية ودقة الاستنباط، وحسنُ التفصيل وقوة الاستدلال.

كما تضمن هذا التفسير تحقيق بعض المسائل اللغوية وما يُحتاج إليه من صرف وإعراب، وتحقيق بعض المسائل الأصولية، والكلام على أسانيد الأحاديث.

يُعَدُّ هذا التفسير بحق من خير المؤلفات في التفسير قديماً وحديثاً، ومن أتبعها للسُّنَّة وأبعدها عن البدعة، والقارئ فيه يجد رائحة علماء السلف ونقاء سريرتهم، وصفاء عقيدتهم، ودقة استنباطهم، وسعة علمهم. رحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

التفسير بالرأي وأهم المؤلفات فيه

تعريفه: هو تفسير القرآن بالاجتهاد.

أقسامه: ينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود:

وهو التفسير المُستَمدُّ من القرآن ومن سنة الرسول ﷺ وكان صاحبه عالماً باللغة العربية، وأساليبها، وبقواعد الشريعة وأصولها.

حكمه:

أجاز العلماء رحمهم الله تعالى هذا النوع من التفسير، ولهم أدلة كثيرة على ذلك منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١] وغيرها من الآيات التي تدعو إلى التدبر في القرآن.

٢ ـ دعاء الرسول ﷺ لابن عباس بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ولو كان التفسير مقصوراً على النقل، ولا يجوز الاجتهاد فيه، لما كان لابن عباس مزية على غيره.

٣ ـ أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في التفسير على وجوه، فدلَّ على أنه من اجتهادهم.

وبهذا يظهر أن التفسير بالرأي المحمود جائز. والله أعلم.

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

هو التفسير بمجرد الرأي والهوى.

وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل الأهواء والبدع، الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند ولا دليل، ففسروا آيات القرآن بما يوافق آراءهم ومعتقداتهم الزائفة، وحملوها على ذلك بمجرد الرأي والهوى.

حكمه:

وهذا النوع من التفسير حرام لا يجوز، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»[1]. والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾[3].

٢ ـ حديث: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[4].

وحديث: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[5].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص١٠٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٩.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٢٣٣ سنن الترمذي، جـ٥، ص١٩٩ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٥) سنن الترمذي، جـ٥، ص٢٠٠، وأبو داود، جـ٣، ص٣٢٠.

أهم المؤلفات في التفسير بالرأي:

والمؤلفات في التفسير بالرأي كثيرة منها:

أولاً: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري.

المؤلف:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري[1] المعتزلي، الملقب بجار الله، ولد سنة ٤٦٧ في زمخشر من قرى خوارزم، بعد أن تلقى العلم رحل إلى مكة، وألَّف فيها تفسيره «الكشاف» ثم عاد إلى خوارزم، وتوفي فيها سنة ٥٣٨، وهو إمام من أئمة اللغة، لا يأنف من انتمائه إلى الاعتزال بل يجاهر به، ويدعو إليه، ومن مؤلفاته: «أساس البلاغة» و«الفائق في غريب الحديث» و«المُفصَّل» في النحو.. وغيرها.

تفسيره:

اعتنى الزمخشري في تفسيره هذا ببيان وجوه الإعجاز القرآني وإظهار جمال النظم وبلاغته، وخلا هذا التفسير من الحشو والتطويل، وإيراد الإسرائيليات إلا القليل.

والزمخشري قليل الاستشهاد بالحديث، ويورد أحياناً الأحاديث الموضوعة، خاصة في فضائل السور.

وملأ تفسيره بعقائد المعتزلة والاستدلال لها، وتأويل الآيات وَفْقَها، ويدس ذلك دسّاً لا يدركه إلا حاذق، حتى قال البلقيني: «استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش»[2].

---

(١) انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي، جـ٣، ص٣١٤-٣١٦، وطبقات المفسرين: للسيوطي، ص١٢٠-١٢١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص١٩٠.

وهو شديد على أهل السنة والجماعة، ويذكرهم بعبارات الاحتقار، ويرميهم بالأوصاف المقذعة، ويمزج حديثه عنهم بالسخرية والاستهزاء[1].

ولهذه الأمور وغيرها نبَّه كثير من العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره أو النقل منه، فقال الإمام الذهبي: «محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله. فكن حذراً من كشافه»[2].

وقال عليّ القاري: «وله دسائس خفيت على أكثر الناس، فلهذا حرَّم بعض فقهائنا مطالعة تفسيره لما فيه من سوء تعبيره في تأويله وتعبيره»[3].

وينبغي لمن أراد أن يقرأ فيه أن يرجع لكتاب «الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» لابن المنير، وهو مطبوع مع «الكشاف» وفيه كشف لاعتزالياته وضلالاته.

ثانياً: مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي:

المؤلف:

أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين[4]. ولد في الرَّي سنة ٥٤٤ وتوفي في هَرَاة سنة ٦٠٦ جمع كثيراً من العلوم، فكان إماماً في

---

(١) التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي، جـ١، ص٤٦٥.

(٢) ميزان الاعتدال: الإمام الذهبي، جـ٥، ص٢٠٣.

(٣) مناهج المفسرين: د. مساعد آل جعفر ومحيي هلال ص٢١٦ عن طبقات الفقهاء الحنفية: علي القاري ورقة ٤٩ ب (مخطوط).

(٤) انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٢١٣-٢١٧، وطبقات المفسرين: السيوطي، ص١١٥-١١٦.

التفسير، وعلوم الكلام. وكان طبيباً حاذقاً، وقد ندم على الاشتغال بعلم الكلام، وكان يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، ثم يبكي[(١)].

ومن مؤلفاته: «مفاتيح الغيب»، و«المحصول في علم الأصول»، و«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»، و«مسائل الطب» وغير ذلك.

التفسير:

يُعدُّ تفسير «مفاتيح الغيب» أوسع التفاسير في علم الكلام، فقد تأثر كثيراً بالعلوم العقلية، فتوسع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والمسائل الطبية، وملأ تفسيره بهذه العلوم، حتى قيل عنه: «فيه كل شيء إلا التفسير»[(٢)] ومما يعاب عليه أنه يبسط دلائل أهل البدع والفرق المخالفة لأهل السنة بسطاً لا مزيد عليه، ثم يرد عليها رداً غاية في الوهاء حتى قال بعض العلماء: إنه «يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة»[(٣)].

ولم يتم الرازي تفسيره هذا، بل قيل: إنه بلغ في التفسير إلى سورة الأنبياء، ثم جاء تلميذه الخُوَيِّي فشرع في تكملته ولم يتمه، وأتمه نجم الدين القَمُولي، وقيل: إن الخُوَيِّي أكمله، وكتب القَمُولي تكملة أخرى غيرها، ولا يكاد القارئ يلحظ تفاوتاً بين أساليبهم[(٤)].

وقد طبع هذا التفسير في ٣٢ جزءاً وتقع في ١٦ مجلداً كبيراً.

---

(١) طبقات المفسرين: الداودي جـ١، ص٢١٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص٢٩٠.

(٣) لسان الميزان: ابن حجر، جـ٤، ص٤٢٧-٤٢٨.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٩٣. وذكر بعض المعاصرين أن الرازي قد أكمل تفسيره بنفسه، وليس لأحد غيره إلا تعليقات لبعض تلاميذه وقد أضيفت إلى المتن. وتابعه على ذلك آخرون مخالفين ما قرره المؤرخون والعلماء من تلاميذ الرازي=

ثالثاً: تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنَّان: لابن سعدي:

المؤلف:

هو عبد الرحمٰن بن ناصر آل سعدي[1] ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧هـ، توفي والده وهو صبي فكفلته زوجة أبيه، وأدخلته مدرسة تحفيظ

= وغيرهم، فقد قال ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء» ٢/ ١٧١ في ترجمة الخويي: «إن له تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الري (يعني الرازي)». وابن أبي أصيبعة تلميذ الرازي والخويي. وقال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٤/ ٢٤٩ عن تفسير الرازي: «وهو كبير جداً لم يكمله». وقال السبكي في «الطبقات» ٥/ ١٧٩ في ترجمة القمولي: «وله تكملة على تفسير الإمام فخر الدين» وفي «شذرات الذهب» لابن العماد ٦/ ٧٥ في ترجمة القمولي: «قال الإسنوي: وكمل تفسير ابن الخطيب» يعني الرازي. وفي «الشذرات» كذلك ٥/ ٢١ قال ابن قاضي شهبة: «ومن تصانيفه تفسير كبير لم يتمه» وقال ابن حجر في ترجمة القمولي في «الدرر الكامنة» ١/ ٢٠٤: «وأكمل تفسير الإمام فخر الدين» وقال الخفاجي في «شرح الشفاء» ١/ ٢٦٧: «الثابت في كتب التأريخ أن التفسير الكبير وصل إلى سورة الأنبياء وكمله تلميذه الخويي»، وقد حقق هذه المسألة الشيخ عبد الرحمٰن المعلمي تحقيقاً علمياً قام على استقراء تفسير الرازي توصل فيه إلى أن ما فسره الرازي هو من أول الكتاب إلى آخر تفسير القصص، ومن أول تفسير الصافات إلى آخر تفسير الأحقاف ثم تفسير سورة الحديد والمجادلة والحشر، ثم من أول تفسير سورة الملك إلى آخر الكتاب. وما عدا ذلك فمن تفسير الخويي، وللخويي أيضاً تعليقات على الأصل. (سلسلة رسائل ١-٥ للعلامة عبد الرحمٰن المعلمي ١٠١-١٣٤) (قلت): وهذا هو الصواب، وأقوال المتقدمين في مثل هذا أقرب إلى الصواب من المتأخرين إذا فقد الدليل. قال ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» ٢/ ٧١: «وكل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين ولم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأ» كما قال الإمام أحمد بن حنبل: «إياك أن تتكلم في السؤال ليس لك فيه إمام» أقول هذا لمن قد يظن أن التجديد ليس إلا في مخالفة ما تقرر وساد عند الأقدمين.

(١) انظر ترجمته في كتاب مشاهير علماء نجد وغيرهم، تأليف عبد اللطيف آل الشيخ.

القرآن، فحفظه في الرابعة عشرة من عمره، واشتغل في طلب العلم، فقرأ الكتب، وحفظ المتون، ثم تصدَّى للتعليم ونشر العلم حتى ذاع صيته.

ومن مؤلفاته، «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» وهو خلاصة لهذا التفسير و«القواعد الحسان لتفسير القرآن» و«التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة» و«الفواكه الشهية في الخطب المنبرية».. وغير ذلك. توفي رحمه الله تعالى في عنيزة سنة ١٣٧٦.

التفسير:

يقع هذا التفسير في سبعة مجلدات ثم طبع في مجلد واحد، ومع هذا فهو تفسير يميل إلى الإيجاز مع وضوح المعنى، ويعتمد المعنى الإجمالي للآيات حيث يورد مجموعة من الآيات، ثم يفسرها آية آية، وقد يتحدث عنها إجمالاً ثم تفصيلاً موجزاً. ويعرض عن الإسرائيليات، ويستطرد أحياناً في ذكر فوائد الآيات وما تدل عليه من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

رابعاً: في ظلال القرآن: سيد قطب:

المؤلف:

هو سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم ولد سنة ١٩٠٦م تخرج في كلية دار العلوم سنة ١٩٣٣م فزاول مهنة التدريس سنوات، ثم موظفاً في وزارة المعارف، ثم أوفد إلى أمريكا للاطلاع على مناهج التعليم فيها لتطبيقها في مصر، وكان القصد من إيفاده التخلص من نشاطه في الدعوة، وعاد من أمريكا وقد زاد حماسه ونشاطه للدعوة، حيث انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان يُردِّد (لقد ولدت عام ١٩٥١م) وهو عام انضمامه إليهم.

وحين وقع الصدام بين الإخوان وقادة ثورة يوليو في مصر كان سيد في مقدمة المعتقلين، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، أَلَّف خلالها في السجن تفسيره «في ظلال القرآن»، وكان هذا التفسير من أسباب خروجه من السجن، حيث قرأه الرئيس العراقي عبد السلام عارف فتوسط عند جمال عبد الناصر لإخراجه بطلب من علماء العراق، وأفرج عنه سنة ١٩٦٤م فواصل مسيرة الدعوة فأعيد إلى السجن وصدر ضده حكم بالإعدام ونفِّذَ الحكم سنة ١٩٦٦م رغم نداءات العالم الإسلامي واحتجاجاتهم.

وله مؤلفات كثيرة منها: «معالم في الطريق» وهو من أهم كتبه ومن أسباب إعدامه، ومنها «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» و«المستقبل لهذا الدين». . وغير ذلك.

التفسير:

والكتاب وصف أدبي متميز للحياة كما يرسمها القرآن الكريم، وهو منهج لم يسبق إليه سيد من قبل، فمنهج التذوق الأدبي للقرآن الكريم، والتفاعل مع المجتمع الذي ترسمه الآيات، ومطابقته مع المجتمع الحاضر للخروج بمعالم التصحيح ورسم مسار الدعوة والعودة إلى الله، ثم دراسة الإيقاع الصوتي والجرس اللفظي للكلمات القرآنية، ودراسة التراكيب منهج لم يسبق له مثيل في علم التفسير.

أما طريقته في ذلك فخلاصتها أنه يُقدِّم لكل سورة بمقدمة يبين فيها موضوع السورة ومحورها، وأهم سِمَاتها، ثم يعرض لمقاطعها، ويربط بينها ببيان المناسبة وهكذا. . مع الإعراض عن المباحث اللغوية والنحوية وذكر الخلافات الفقهية، وتاركاً الخوض فيما أبهمه القرآن مهملاً للإسرائيليات.

وطبع التفسير مرات عديدة آخرها وأشهرها في ستة مجلدات كبار.

شروط المفسر وآدابه

ورد النهي عن القول في القرآن بغير علم والوعيد الشديد على من اجترأ على ذلك، ولذلك وضع العلماء شروطاً لمن أراد أن يفسر القرآن ليخرج من هذا الوعيد ويصبح من أهل التفسير والتأويل.

ولا عجب أن يكون للمفسر شروطاً، بل العجب أن يجترئ على كلام الله كلٌّ من هبَّ ودَبَّ.

وكم يحز في النفس حين نرى كثيراً من الناس يجترئون على تفسير القرآن بغير علم، ولا يحسبون لذلك حساباً فلا تتلكأ ألسنتهم، ولا تَوْجَفُ قُلوبُهم، وكأنهم قد أحاطوا بالقرآن علماً، وأصبح من مداركهم القريبة، ومن معارفهم الدانية.

وكم من رجلٍ منهم فسر آية لو عرضت على أبي بكر رضي الله عنه لقال: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم»، وإن أحدهم ليفسر الآية ولو سمعه عمر رضي الله عنه لقرعه بدرته.

وقد يقول قائل لِمَ وضع العلماء هذه الشروط؟ أليس القرآن للناس كافة، وتدبره واجب على الجميع؟ ونقول لهذا وأمثاله: نعم، إن تلاوة القرآن حق لكل مسلم، لكنَّ تفسيره للناس وبيانه لهم ليس حقاً لكل إنسان، كأي علم آخر فالطب مثلاً حق لكل إنسان أن يدرسه، لكن علاج الناس ليس حقاً لكل إنسان، إلا إذا درس علم الطب وحذقه، فما بالنا نصرخ في وجوه أدعياء الطب ونستعدي عليهم السلطة، ولا ننهر المجترئين على تفسير كلام الله، وهم ليسوا من أهل التفسير.

ومجمل الشروط التي وضعها العلماء للمفسر هي:

أولاً: سلامة العقيدة:

فإن من انحرفت عقيدته يعتقد رأياً ثم يحمل ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين[1]، فإذا فسر القرآن أوَّل الآياتِ التي تخالف مذهبه الباطل، وحرَّفها حتى توافق مذهبه، ومثل هذا لا يطلب الحقَّ فكيف يُطلبُ منه! ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والمعتزلة وغلاة الصوفية وغيرهم.

ثانياً: التجرد عن الهوى:

فإنَّ الهوى يحمل صاحبه على نصرة مذهبه ولو كان باطلاً، ويصرفه عن غيره ولو كان حقاً.

ثالثاً: أن يكون المفسر عالماً بأصول التفسير:

وذلك أن أصول التفسير بمثابة المفتاح لعلم التفسير، فلا بد للمفسر أن يكون عالماً بالقراءات والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ونحوها.

رابعاً: أن يكون عالماً بالحديث رواية ودراية:

إذ إنَّ أحاديث الرسول ﷺ هي المُبيِّنة للقرآن، بل قد قال الإمام الشافعيُّ رحمه الله تعالى: «كلُّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»[2]. وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «السنة تفسر القرآن وتبينه»[3].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٣٩.

خامساً: أن يكون عالماً بأصول الدين:

وهو «علم التوحيد» حتى لا يقع في آيات الأسماء والصفات في التشبيه أو التمثيل أو التعطيل.

سادساً: أن يكون عالماً بأصول الفقه:

إذ به يعرف كيف تستنبط الأحكام من الآيات، ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والمطلق والمقيد، ودلالة النص وإشارته، ودلالة الأمر والنهي.. وغير ذلك[1].

سابعاً: أن يكون عالماً باللغة وعلومها:

كالنحو والصرف والاشتقاق والبلاغة بأقسامها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع).

ذلكم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهذه العلوم مما يتوصل بها إلى معرفة المعنى وخواص التركيب ووجوه الإعجاز فيه.

وهذه الشروط ـ كما ترى ـ عزيزة المنال، ولهذا تحرَّج كثير من السلف من القول في القرآن بغير علم لتمكن الإيمان من قلوبهم، واستحضارهم الخوف من الله تعالى، وإذا رأيت من يجترئ على القول في القرآن بغير علم فاعلم أنَّه من نقص إيمانه، والله المستعان.

آداب المفسر:

وكما أن للمفسر شروطاً فإنَّ له آداباً ينبغي عليه الالتزام بها وهي كثيرة منها:

---

(١) أصول التفسير وقواعده: خالد العك، ص١٨٧.

١ ـ الإخلاص:

بأن يريد بعمله وجه الله، وأن يطلب رضاه، ولا يبتغي بذلك جاهاً ولا منصباً، فإن ابتغى غير ذلك ضلَّ وأضلَّ.

٢ ـ العمل:

فإنه إذا دعا إلى خير فعليه أن يكون أول المؤدين له حتى يلقى القبول من الناس، وإذا نهى عن أمر وجب أن يكون تاركاً له نابذاً إياه، فإنَّ الناس إذا رأوه يأمر ولا يفعل، وينهى ولا يمتثل، نفروا عنه وعن أقواله وإن كانت حقاً.

٣ ـ حسن الخلق:

في قوله وفي فعله وفي سمته، فإن هذا مما يجذب النفوس إليه، وإذا انجذبت إليه أقبل عليه السمع والبصر.

فعليه أن يلتزم حسن الخلق في قوله وعباراته، فيلزم الكلمة الطيبة، ويحذر الكلمات النابية التي ينفر منها السامع ويفزع. وأن يتحرى الصدق في سائر أقواله حتى يطمئن الناس إليها، فإنهم إذا جربوا عليه كذباً اضطرب عندهم سائر كلامه.

وعليه أن يلتزم حسن الخلق في فعله، فيتواضع لمن هم دونه مقاماً، ولا يتعالى فلا تطاله أيديهم، فلا يستفيدون من علمه، وأن تكون نفسه عزيزة، فيترفع عن سفاسف الأمور، والتذلل لأصحاب المال أو الجاه، فإن العامة إذا رأوا تهافته على ذلك سقط من أعينهم. وعليه أن يجهر بالحق ولا يكتمه، فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

ومن حسن الخلق أن يقدم من هو أولى منه، وأن يوقرهم حضوراً كانوا أو غائبين، فلا يغمط أقوالهم حقها، بل يظهرها ويعترف بفضلها ومزيتها، ولا يقدم قوله عليها، ولا يُنكر سبقهم له إلى رأي رآه، أو قول يقول به.

وعليه أن يلتزم حسن الخلق في سمته بأن يلبس لباس العلماء ويتزيا بزيهم، ويلتزم الوقار في جلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف، ولا يحضر مجالس اللهو، وأن يتأنى في حديثه حتى يفهم الناس عنه قوله فلا يضطرهم إلى كثرة الاستفسار، والجرأة على قطع حديثه. والله المستعان.

❊ ❊ ❊



الوحي

حاجة البشر إليه:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، وركبه أحسن تركيب، وجعله من:

١ ـ جسد.

٢ ـ روح.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(١).

وحين نتأمل في غذاء كل من هذين العنصرين: (الروح والجسد) نجد أن الجسد خلق من تراب، وأن غذاءه من التراب (نبات أو حيوان يتغذى بالنبات)، وأنه إذا مات يتحلل ويعود إلى التراب! ولذلك يتمنى الكافر يوم القيامة لو أنه بقي على أصله الترابي الأول فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾(٢).

أما الروح فمن الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾(٣).

وإن كانت النسبة إضافة تشريف فلا بد أن يكون غذاؤها من الله وليس من التراب، ولا ممن خُلِقَ من التراب، فإن التَزَمَتْ بالغذاء الرباني صعدَتْ بعد الموت إلى عليين وفُتحت لها أبواب السماء ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾

---

(١) سورة صٓ: الآيتان ٧١-٧٢.

(٢) سورة النبأ: الآية ٤٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٩، وسورة صٓ: ٧٢.

ﵟارۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗﵞ[1]، وإن حادت وأبت إلا الغذاء الترابي أُغلقت في وجهها أبواب السماء، قال تعالى: ﵟلَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚﵞ[2]، قال كعب: «أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت جند إبليس»[3].

وغذاء الجسد فيه النافع والضار، فإذا غَذَّى الإنسان جسده بالغذاء الجيد صَحَّ وقوي بناؤه، وظل حياً طرياً متماسكاً، وإذا غذّاه بالغذاء الرديء أو أهمل غذاءه ضعف وانحرف مزاجه، وساءت صحته، وخارت قواه، وهزل وذبل.

وكذا غذاء الروح فيه النافع والضار أيضاً، فإذا غذَّى الإنسان روحه بالغذاء السليم سمت وارتفعت، وصحت وسلمت من الأمراض. وغذاؤها صحة الاعتقاد، وسلامتها باتصالها بالله تعالى، قال تعالى: ﵟأَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُﵞ[4].

وإذا أهمل الإنسان غذاء روحه أو غذاها بالغذاء البشري بأن جعل صلتها بالمبادئ الوضعية، والمعتقدات الزائفة، أو انقادت لملذات الجسد الترابي فتغذت بغذائه، واستغنت به عن غذائها الرباني ضعفت وخارت وتاهت، وانحرف مزاجها، ولم يقر لها قرار، وضاقت عليها الأرض على سعتها.

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ٢٧-٢٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: علي بن أبي العز، جـ٢، ص٥٨٣. والروح: ابن القيم، ص٩١.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[2]. وقد تطلب الخروج من هذا الجسد الذي ضاقت به وضاق بها، فتؤدي بصاحبها إلى الانتحار...

إذن فإن على الإنسان أن يحرص على اختيار غذاء الروح كما يحرص على اختيار غذاء الجسد، وأن يسأل أطباء الأرواح عن غذائها النافع كما يحرص على سؤال أطباء الأبدان عن غذاء الجسد الفاني، وعليه أن يعرض روحه على أهل الذكر كما يعرض جسده على أهل الطب، وأن يعالج روحه كما يعالج بدنه، وأن يتفقدها كما يتفقد بدنه، وأن يحاسبها دورياً كما يجري الفحوص الدورية لجسده.

وإذا كان غذاء هذه الأجساد الترابية السفلية الفانية من أصلها الترابي يُستَمد، فإن غذاء هذه الأرواح السامية الباقية من الله العلي الباقي الدائم يستمد[3].

وقد هيأ الله ـ عز شأنه ـ الطعام المناسب لكل من هذين العنصرين، فجعل غذاء هذا الجسد من التراب الذي خلق منه، يحرث الأرض ويزرعها فينبت الطعام، أو يحفرها فيخرج الماء أو يجده أقرب من ذلك فوقها.

وهذه الروح من الله، فجعل غذاءها من عنده، ينزل به الروح الأمين على الرسل، فتنشره بين الناس، وتدعوا إليه، فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها.

فإذا كان الله سبحانه يهيئ الطعام لهذه الأجساد، فلا عجب أن يهيئ الطعام لهذه الأرواح. ومن الجهل كل الجهل، والضلال كل الضلال

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٣) من كتابي «قصة عقيدة» ص٤٦-٤٨.

الاعتقاد أن الإنسان بعقله أصبح يعرف الحق من الباطل، فليس هو بحاجة إلى من يخبره بذلك، لا يصح هذا؛ لأن الروح لا تزال بحاجة إلى غذائها العلوي ما بقيت في الجسد، كما أن الجسد لا يزال بحاجة إلى غذائه السفلي ما بقيت فيه روح.

وإن من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل جبريل عليه السلام بغذاء الأرواح إلى الأنبياء عليهم السلام، كما خلق لهذه الأجساد غذاءها، ولا ينكر هذه الحاجة إلا مكابر معاند أو جاهل أحمق.

فالوحي من الله رحمة بعباده لتتغذى به الأرواح، وخَلْقُ الطعام رحمة من الله بعباده لتتغذى به الأجساد، وببقاء العنصرين يبقى الإنسان، وبفقد أحدهما يهلك.

والقرآن وحي ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[(١)]، وسنة الرسول ﷺ وحي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[(٢)].

تعريف الوحي:

الوحي لغة: أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء[(٣)]، وقال الحرَّالي: هو إلقاء المعنى في النفس في خفاء[(٣)]. قال الأزهري: وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً، والكتابة تسمى وحياً[(٣)]. وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن

---

(١) سورة الشورى: الآية ٧.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٣) تاج العروس: الزبيدي، جـ١٠، ص٣٨٥ مادة (وحي).

التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[1] وقال الزبيدي: أوحى إليه: كلمه بكلام يخفيه[2]. وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام[3].

وبهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره[4].

وطرقه كما أشار إليها الراغب الأصفهاني آنفاً:

١ ـ الكلام على سبيل الرمز والتعريض.

٢ ـ الصوت المجرد عن التركيب.

٣ ـ الإشارة ببعض الجوارح.

٤ ـ الكتابة.

أنواعه بالمعنى اللغوي:

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي، وقد يشتركان في بعضها من حيث الكيفية لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام. وأنواعه بالمعنى اللغوي[5]:

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص٥٣٦ مادة (وحي).

(٢) تاج العروس: الزبيدي، جـ١٠، ص٣٨٥ مادة (وحي).

(٣) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، جـ١٢، ص٣٩٨.

(٤) الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص٣٧.

(٥) انظر الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص٣٧-٣٨، والقرآن الكريم تاريخه وعلومه: د. محمد البدري، ص٥٠، ومباحث في علوم القرآن: القطان، ص٣٢-٣٣.

١ ـ إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان، وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . ﴾ الآية[١].

ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[٢].

٢ ـ الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[٣].

٣ ـ الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾[٥].

٤ ـ ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[٧] فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ، والثاني من الله سبحانه وتعالى إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى الله إليه[٨].

---

(١) سورة القصص: الآية ٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١١.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٨.

(٤) سورة الزلزلة: الآيات ١-٥.

(٥) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٦) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٧) سورة النجم: الآية ١٠.

(٨) تفسير الطبري، جـ٢٧، ص٢٨.

٥ ـ الإشارة السريعة بجارحة من الجوارح، كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1].

٦ ـ وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3].

الوحي شرعاً:

اختلف العلماء في تعريف الوحي، فمنهم من يعرفه بمعنى (الموحى) فيقول هو: كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه، وقيل: هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع[4].

ومنهم من يعرفه بمعنى (الإيحاء) فيقول: هو إعلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه.

وقولنا: (إعلام) يشمل أنواع الوحي بمعناه الشرعي كما سيأتي بيانها. وقولنا: (الله) قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه. وقولنا: (لأحد أنبيائه) قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء. وقولنا: (بحكم شرعي) بيان للموحى به. وقولنا: (أو نحوه) يراد به القصص والأخبار ونحوها الواردة في القرآن أو السنة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضاً.

---

(١) سورة مريم: الآية ١١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: البدر العيني، جـ١، ص١٤.

وظاهر أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل (إعلام في خفاء)، والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده، فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء[1][2].

أنواع الوحي بالمعنى الشرعي:

١ ـ ما يكون مناماً: وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ـ وعند مسلم الصادقة ـ في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح الحديث»[3].

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي، بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الآية[4].

---

(١) الوحي والقرآن: محمد حسين الذهبي، ص٨، والمدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد أبو شهبة، ص٨٤.

(٢) ومما يؤسف له أن كثيراً من الكتب المؤلفة في علوم القرآن في العصر الحديث تنقل تعريف الوحي عن كتاب «رسالة التوحيد» للأستاذ محمد عبده من غير إدراك للأخطاء العلمية والعقدية فيه فهو يعرفه بأنه «عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت» وقد نقدت هذا التعريف في كتابي «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» جـ١، ص٤٨٦-٤٨٩.

(٣) رواه البخاري، جـ١، ص٣، ومسلم، جـ١، ص١٤٠.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٧.

ووقع الوحي بالمنام لإبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن عنه قوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامتثال وقول إسماعيل عليه السلام: ﴿ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ وقول الله تعالى: ﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ دليل قاطع على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي، وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام.

وفي ابتداء النبي ﷺ من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة واستعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة»[2].

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد ظن بعضهم أن سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلاً بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، قال: «أنزلت علي آنفاً سورة» فقرأ «بسم الله الرحمٰن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك. وانحر. إن شانئك هو الأبتر. . . الحديث»[3].

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم فقد حكى السيوطي عن الرافعي قوله: «وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٠٢-١٠٥.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص١٠، وقال: رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن عن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٣٠٠.

الوحي، ويقال لها: بُرَحاء الوحي. اهـ. قلت: ـ القائل هو السيوطي ـ: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه[(١)]. ونقل القسطلاني عن أمالي الرافعي قوله: «الأشبه أن القرآن نزل كله يقظة»[(٢)]. وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول ﷺ في المنام، والله أعلم.

٢ ـ ما كان مكالمة بين العبد وربه: قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ الآية[(٣)]. ومن هذا النوع تكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[(٤)].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[(٥)] ومنه تكليم الله لنبينا محمد ﷺ في المعراج حيث قال: «فأوحى الله إلي ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»[(٦)].

٣ ـ ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً ولا يجد فيه شكاً، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في رُوعي[(٧)] أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب»[(٨)].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٢٣.

(٢) شرح القسطلاني على صحيح البخاري، جـ١، ص٦١.

(٣) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٤) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٦) صحيح مسلم، جـ١، ص١٤٦ كتاب الإيمان.

(٧) الرُّوع بضم الراء القلب والخَلَد والخاطر وهو المراد هنا وبالفتح الخوف والفزع.

(٨) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ١١٥١-١١٥٢ والبغوي في شرح السنة، جـ١٤، ص٣٠٤. وابن عبد البر في «التمهيد» جـ١، ص٢٨٤، والخطيب التبريزي في مشكاة=

٤ ـ ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ(الوحي الجلي)، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول ﷺ بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢].

والوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقي إليه حق من عند الله، ليس من خطرات النفس، ولا وسوسة الشياطين، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش[٣].

وقد ذكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[٤]. وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في تفسيرها: «﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ يوحي إليه في المنام أو بالإلهام ﴿ أَوْ مِن وَرَآئِ

= المصابيح، جـ٣، ص١٤٥٨. قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ وحديث إن روح القدس نفث في روعي أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود (فتح الباري جـ١ ص٢٧) وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث مشكلة الفقر، ص١٩.

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢-١٩٥.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد محمد أبو شهبة، ص٨٧.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥١.

حِجَابٍ﴾ يسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبريل أو غيره من الملائكة»[1].

كيفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

ورد ذكر إيحاء الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3] وغير ذلك.

وقد ورد وصف وحي الله إلى الملائكة في السنة النبوية في أحاديث كثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير...» الحديث[4].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة ـ أو قال: رعدة ـ شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي

---

(١) معالم التنزيل: البغوي، جـ٤، ص١٣٢. وانظر تفسير الطبري، جـ٢٥، ص٤٥، وابن كثير، جـ٤، ص١٢٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٤) رواه البخاري في تفسير سورة سبأ، جـ٦، ص٢٨.

الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، قال: فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال: فينادون الحق الحق»[(٢)].

وعلى هذا فإن القرآن الكريم كلامُ الله، أَسْمَعَهُ جبريلَ، وبلَّغه جبريلُ - عليه السلام - كما سمعه إلى الرسول ﷺ، وليس لجبريل ولا للرسول إلا البلاغ كما دلت على ذلك النصوص القرآنية، مثل قوله تعالى: مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾[(٤)]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ

---

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص١٤٤، والطبري في تفسيره، جـ٢٢، ص٩١ والبيهقي في الأسماء والصفات، ص٢٠٣، ورواه ابن أبي حاتم، انظر تفسير ابن كثير، جـ٣، ص٥٩١ وقال الألباني (إسناده ضعيف) السنة: ابن أبي عاصم، جـ١، ص٢٢٧.

(٢) رواه أبو داود، جـ٢، ص٥٣٦-٥٣٧، ورواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص١٤٥، والبيهقي في الأسماء والصفات، ص٢٠١. وقال الألباني: (وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين) الصحيحة حديث ١٢٩٣، وأخرجه البخاري تعليقاً وموقوفاً على ابن مسعود، جـ٨، ص١٩٤.

(٣) سورة النمل: الآية ٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٣.

﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[3].

فالوحي من حيث التبليغ قسمان:

١ ـ قسم يبلغه جبريل كما سمعه بحروفه وحركاته من غير زيادة ولا نقصان، ويبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك، وهذا ما أجمع عليه العلماء.

٢ ـ وقسم بلغه جبريل ـ عليه السلام ـ أو الرسول ﷺ أو هما معاً بالمعنى على خلاف بين العلماء.

كيفية وحي الله ـ سبحانه ـ إلى الرسل عليهم السلام:

وحي الله سبحانه إلى رسله عليهم السلام، إما أن يكون بواسطة أو بدونها، وما يكون بدون واسطة فهو ثلاثة أنواع:

١ ـ ما يكون مناماً.

٢ ـ ما يكون كلاماً.

٣ ـ ما يكون إلهاماً. وسبق بيان هذه الأنواع.

وما يكون بواسطة هو النوع الرابع، وهو ما يكون بواسطة جبريل عليه السلام ويسمى الوحي الجلي.

---

(١) سورة يونس: الآية ١٥.

(٢) سورة الحاقة: الآيات ٤٤-٤٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦.

كيفية وحي الملك إلى الرسول:

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو (مَلَك) وبين الرسول ﷺ وهو (بَشَر)، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي ـ مثلاً ـ فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين (مَلَك) و(بشر) فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشرُ كلامَه أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على المَلَك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر رحمه الله تعالى حيث قال: «إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني»(١).

وقال الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الإتقان»: «وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه، والأول أصعب الحالين»(٢).

ووصف ابن خلدون الحالة الأولى بأنها انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية(٣).

وبهذا يتبين أن وحي الملك جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ يكون بإحدى حالتين:

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٢٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٢٩، والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٨.

(٣) بتلخيص من مقدمة ابن خلدون، ص٩٥-٩٩.

الحالة الأولى:

أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصلصلة في الأصل: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين[1]. ومن صفات هذه الحالة:

١ ـ أنها الأشد على الرسول ﷺ كما وصفها عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ أنها شديدة على الرسول ﷺ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «سألت النبي ﷺ هل تحس بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»[2] وفي مجمع الزوائد: «إلا ظننت أن نفسي تقبض»[3].

٣ ـ أنه ﷺ يعرق عرقاً شديداً في هذه الحالة من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[4]، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته بُرَحَاءُ[5] شديدة وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان[6] ثم سري عنه»[7].

---

(١) فتح الباري، جـ١، ص٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ٢، ص٢٢٢. وقال الأستاذ أحمد شاكر: إسناده صحيح، جـ١٢، ص٢٧. قال: والفيض: الموت.

(٣) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٨، ص٢٥٦.

(٤) صحيح البخاري، جـ١، ص٣، والفصد: قطع العِرْقِ لإسالة الدم، شبه جبينه بالعِرْقِ المفصود مبالغة في كثرة العرق. فتح الباري: جـ١، ص٢٩.

(٥) البرحاء، قال ابن الأثير في النهاية، جـ١، ص١١٢ «(البُرَحاء) أي: شدة الكرب من ثقل الوحي».

(٦) الجمان، قال ابن منظور في لسان العرب، جـ١٣: ص٩٣: «هو اللؤلؤ الصغار، وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ».

(٧) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٨، ص٢٥٧.

٤ ـ أن جسمه يثقل ثقلاً شديداً كما روى البيهقي في «الدلائل» في وصفه للوحي «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على ناقته فتضرب على جرانها من ثقل ما يوحى إلى رسول الله ﷺ، وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشاتي إذ أوحى الله إليه»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها»[(٢)] أي: تمد عنقها من التعب.

وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وهو متكئ على رِجْل زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال زيد: «حتى تكاد رِجْلي تنكسر من ثقل القرآن حتى أقول: لا أمشي على رجلي أبداً»[(٣)].

٥ ـ أن الرسول في هذه الحالة من الوحي يغط غطيط النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء وليست كذلك. وقد روى البخاري أن صفوان بن يعلى رضي الله عنه قد جاء إلى الرسول ﷺ وهو يوحى إليه (وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به، فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط»[(٤)] الحديث.

وأخرج ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه، ويتربد وجهه» أي يتغير لونه[(٥)].

---

(١) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص٥٣.

(٢) مجمع الزوائد، جـ٨، ص٢٥٧ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) مجمع الزوائد، جـ٨، ص٢٥٧ وقال: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٤) صحيح البخاري، جـ٢، ص١٤٤.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

٦ ـ أن للوحي صوتاً يسمعه الرسول ﷺ مثل الصلصلة ويسمعه الصحابة رضي الله عنهم مثل دوي النحل[١]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل»[٢].

الحكمة من صوت الصلصلة:

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: «والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره»[٣].

فائدتها:

قال القسطلاني: «وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى ورفع الدرجات»[٤].

قلت: ولعل هذه الشدة لأن الأجسام أوعية للأرواح، ولكل جسم روح تناسب كثافته وحجمه، فإذا غلبت الروحانية على الجسم فإن الجسم ينوء بها، فيعاني شدة، ويعرق نتيجة الجهد، ويثقل لأن أجسام البشر خلقت لأرواح البشر فإذا سمت الروح وعلت فإن هذا الجسد لا يكاد يحتملها، والله أعلم.

الحالة الثانية:

أن يأتي جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ في صورة رجل كدحية الكلبي أو أعرابي مثلاً فيكلمه كما يكلمه البشر.

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد: تحقيق أحمد شاكر، جـ١، ص٢٢٣-٢٢٤ ورواه البيهقي في الدلائل، جـ٧، ص٥٥، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٢٨.

(٤) إرشاد الساري: القسطلاني، جـ١، ص٥٨.

وقد ورد ذكر هاتين الحالتين في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1].

إمكانية وقوع الوحي:

من المعلوم أن العالم ينقسم إلى قسمين:

١ ـ عالم الغيب (أو ما وراء المادة).

٢ ـ عالم الشهادة.

وقد ضاقت عقول فئة من الناس فلم تؤمن إلا بعالم الشهادة وأنكرت عالم الغيب، وهذا بلا شك قصور في الإدراك وفي وسائله.

ولو تأمل هؤلاء لأدركوا أن فيما أنكروا ما لا يخفى على ذي لب، وأن في عالم الغيب ما هو أقوى ثبوتاً من بعض ما في عالم الشهادة.

أرأيتم ذلك العقل الذي يؤمنون به هل يستطيعون إثبات وجوده بوسائل الإدراك عندهم، وهل يجرؤ أحدهم على إنكار وجوده؟

وتلكم الروح التي تسري في أجسادهم هل يدعي أحدهم إنكارها ولو مجرد دعوى؟

هل يجرؤ أحدهم على التسوية بين الجسد الميت والجسد الذي تدب فيه الروح، وهل يستطيع بوسائل إدراكه إثبات وجودها؟

---

(١) صحيح البخاري، جـ١، ص٢-٣.

ألا فليراجع أولئك وسائل الإدراك عندهم، وليعلموا قصورها، وليبحثوا عن الخلل فيها. وليعلموا ـ أيضاً ـ أن هناك عالَماً آخر أوسع من العالم الذي يعيشون فيه. هو عالم الغيب.

وللمتأمل في عالم الشهادة علامات بارزة وأدلة ثابتة لذوي الألباب تدل دلالة قاطعة على عالم الغيب.

والوحي من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به ومن صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، ولمن طلب الأدلة العلمية ـ للطمأنينة القلبية ـ على إمكانية وقوع الوحي نذكر منها:

١ ـ الحالة الإنسانية نفسها: فالإنسان نفسه أول ما يولد لا يملك من أمر نفسه شيئاً، فلا يملك التحكم في تحريك يده، ولا رأسه، ولا رجله، ولا تحريك بصره يمنة أو يسرة، حتى برازه يخرج بغير إرادته، فلا حول له ولا قدرة ولا سلطان، إلا القدرة على تحريك شفتيه للرضاعة!! لأن هناك من كفاه الحاجة إلى كل حركة، وهي أمه التي تقوم بكل حاجته، إلا تلك الحركة فلا يمكن أن تقوم بها، ولا يمكن أن يستغني عنها، فمن الذي ألهمه هذه الحركة، ومن الذي علمه؟!! لا ريب أن قيوم السماوات والأرض هو الذي ألهمه وعلمه، فلا عجب إذاً أن يلهم بعض البشر ما تقوم به حياة البشر عامة وصلاح أمرهم.

٢ ـ أن بعض الحشرات كالنحل والنمل وغيرهما تأتي بعجائب الأنظمة، ودقائق الأمور مما يطول شرحه وبسطه، ويدرك المتأمل أنه من المستحيل أن يكون ذلك صادراً عن تفكير لها، أو منبثقاً من غريزتها المجردة، بل يوقن أنها لم تصدر في ذلك إلا عن إلهام رباني ووحي إلـهي.

فإذا اقتضت رحمة الله الإلهام إلى تلك الحيوانات والحشرات بما تقوم به حياتها، هل يستبعد أحد أن يلهم الله أحداً من البشر ما تقوم به حياتهم وسعادتهم وهم أعز وأكرم؟ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1].

٣ ـ وفي المخترعات الحديثة والمكتشفات العلمية ما يقرب إلى الأذهان إمكانية الاتصال، فإذا كان الهاتف مثلاً ـ يمكن للإنسان بواسطته أن يخاطب من في أقصى الأرض، وأن يسمع حديثه لا يخفى عليه منه شيء، ولا يسمع الحاضرون إلا دوياً كدوي النحل!! فضلاً عن الإذاعة التي تنقل الأصوات إلى ما هو أعم وأوسع، والتلفاز الذي ينقل الصوت والصورة، إذا كان هذا بعض شأن البشر وقدرتهم التي أعطاهم الله، هل يجرؤ أحد على إنكار إمكانية اتصال الله بأحد أنبيائه وإسماعه كلامه بواسطة أو بغير واسطة؟ لا ينكر هذا إلا مكابر معاند.

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

١ ـ فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾(١). وغير ذلك من الآيات.

٢ ـ ومن السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ـ وفي رواية ـ الصادقة في المنام...» الحديث(٢).

وحديث عائشة رضي الله عنها ـ أيضاً ـ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس...» الحديث(٣). وغير ذلك من الأحاديث.

٣ ـ والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة، وبراهين عديدة، وثبوت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه، فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي ووقوعه، والله أعلم.

* * *

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٢) رواه البخاري، جـ١، ص٣، ومسلم، جـ١، ص١٤٠.

(٣) رواه البخاري، جـ١، ص٢-٣.

نزول القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات ورد فيها النص على نزول القرآن الكريم:

١ ـ فمنها ما يدل على نزول القرآن الكريم جملة واحدة:

١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[١].

٢ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٢].

٣ ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٣].

٢ ـ ومنها ما يدل على نزوله مفرقاً:

١ ـ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[٤].

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[٥].

أقوال العلماء في نزول القرآن الكريم:

ولتنوع دلالة هذه الآيات فإن للعلماء في نزول القرآن الكريم أقوال:

---

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) سورة القدر: الآية ١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

القول الأول: أن للقرآن الكريم نزولين:

النزول الأول: من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وعلى هذا النزول تحمل الآيات التي تدل على نزوله جملة واحدة وهي:

١ - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[١].

٢ - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٢].

٣ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٣].

والنزول الثاني: نزوله بعد ذلك منجماً على الرسول ﷺ. وعلى هذا تحمل الآيات التي تدل على نزوله منجماً وهي:

١ - ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[٤].

٢ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[٥].

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ - أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس رضي الله عنهما فقال: «إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٦] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٧] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ

---

(١) سورة القدر: الآية ١.

(٢) سورة الدخان: الآية ٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٧) سورة القدر: الآية ١.

مُّبَـٰرَكَةٍ﴾[1] وقد أنزل في شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رَسْلاً في الشهور والأيام»[2].

٢ ـ ما رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: فُصِلَ القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلاً[3].

٣ ـ وما رواه عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئاً أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئاً أحدثه»[4].

٤ ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض..»[5].

---

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) الأسماء والصفات: البيهقي، ص٢٣٦، والطبري في تفسيره، جـ٣، ص٤٤٨، وقال ابن كثير في تفسيره، جـ١، ص٢٣١: رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) رواه البيهقي في دلائل النبوة، جـ٧، ص١٣١، ورواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

٥ ـ وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، وقرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[2][3].

٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا جملة، ثم أنزل نجوماً»[4].

فهذه الأحاديث كلها موقوفة على ابن عباس وأغلب أسانيدها صحيحة.

القول الثاني:

وقال به الشعبي[5] ومحمد بن إسحاق[6] وهو أن للقرآن الكريم نزولاً واحداً بدأ في ليلة القدر وهي ليلة مباركة في شهر رمضان وعلى هذا تدل الآيات الثلاث: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾[7]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٣) رواه البيهقي في الدلائل، جـ٧، ص١٣٢، وأبو عبيد في فضائل القرآن، جـ٢، ص٢٠٢، والحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، جـ١١، ص٣١٢ برقم ١١٨٣٩ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، جـ٧، ص١٤٠: «فيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف، وبقية رجال ثقات».

(٥) النكت والعيون: الماوردي، جـ٦، ص٣١٢، والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٤.

(٦) تفسير الرازي، جـ٥، ص٨٥.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾[1]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[2] ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة فليس للقرآن إلا نزول واحد منجم على الرسول ﷺ.

القول الثالث: أن للقرآن الكريم نزولين منجمين:

الأول: من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا وذلك في ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل في كل ليلة ما سينزل في عامها.

الثاني: نزوله منجماً على الرسول ﷺ وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

وقد قلل بعض الباحثين المعاصرين من هذا القول وقلده آخرون وزعم أنه لا دليل عليه، والحق أن هذا القول لعدد من العلماء المعتبرين كالفخر الرازي الذي توقف في الترجيح بينه وبين القول الأول، بل أوجب التوقف[3] وقال بهذا القول أيضاً مقاتل بن حيان[4] وابن جريج[5].

وقال الحليمي في «المنهاج»: «إن جبريل كان يُنزِل منه من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى السماء الدنيا قدر ما يَنزل به على النبي ﷺ في تلك السنة إلى ليلة القدر التي تليها إلى أن أنزله كله في عشرين ليلة من عشرين سنة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا»[6].

---

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) سورة القدر: الآية ١.

(٣) تفسير الرازي، جـ٥، ص٨٥.

(٤) تفسير القرطبي، جـ٢، ص٢٩٧، والوسيط: الواحدي، جـ٤، ص٥٣٢.

(٥) تفسير الطبري، جـ٣، ص٤٤٧.

(٦) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٢٠.

القول الرابع:

ما رواه الماوردي[1] وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما[2] أنه قال: نزل القرآن في رمضان وفي ليلة القدر في ليلة مباركة جملة واحدة من عند الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة على جبريل في عشرين ليلة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ في عشرين سنة، وكان ينزل على مواقع النجوم أرسالاً في الشهور والأيام».

وقد استغرب بعض العلماء هذا القول وأنكره، فقال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وحكى الماوردي في تفسير ليلة القدر أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة. وهذا أيضاً غريب»[3] بل احتد ابن العربي رحمه الله تعالى فقال: «ومن جهالة المفسرين أنهم قالوا: إن السفرة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة، وألقاه جبريل إلى محمد عليهما السلام في عشرين سنة. وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة»[4].

وأما أبو شامة المقدسي فقد وصف ما حكاه الماوردي بقوله: «وكأنه قول ثالث غير القولين المقدمين، أو أراد الجمع بينهما، فإن قوله: نزل جملة واحدة، هو القول الأول، وقوله: فنجمته السفرة على جبريل عشرين

---

(١) النكت والعيون: الماوردي، جـ٦، ص٣١١.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٤.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٢٠-٦٢١.

(٤) أحكام القرآن: ابن العربي، جـ٤، ص١٩٤٩-١٩٥٠.

ليلة، هو القول الثاني. كأنه فسر قول من قال: نزل في عشرين ليلة بأن المراد بهذا الإنزال تنجيم السفرة ذلك على جبريل» إلى أن قال عن هذا القول: إنه بعيد مع ما قد صح من الآثار عن ابن عباس: أنه نزل جملة إلى سماء الدنيا[1].

القول الراجح:

هو القول الأول أن للقرآن الكريم نزولين: الأول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة في ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة في شهر رمضان. والنزول الثاني: نزوله منجماً على الرسول ﷺ وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن حجر عن هذا القول «هو الصحيح المعتمد»[2] بل حكى القرطبي الإجماع على أن القرآن أُنزل جملة واحدة[3].

وقال في موضع آخر: «لا خلاف أن القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر ـ على ما بيناه ـ جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ﷺ ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب، وذلك في عشرين سنة»[4].. ووصف السيوطي هذا القول بأنه (الأصح الأشهر)[5].

قلت: وتشهد لصحة هذا القول الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي كلها صحيحة كما قال السيوطي، ولا أثر لكونها موقوفة

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص١٩-٢٠.
(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٢٠.
(٣) تفسير القرطبي، جـ٢، ص٢٩٨.
(٤) تفسير القرطبي، جـ٢، ص٢٩٧.
(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٣.

على ابن عباس؛ لأن قول الصحابي في الأمور الغيبية التي لا مجال للاجتهاد فيها له حكم الرفع.

وإياك أن تفهم أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح المحفوظ ولم يسمعه من الله، فإن هذا القول باطل. قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «فمن قال: إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفترٍ على الله، مكذب لكتاب الله، متَّبع لغير سبيل المؤمنين، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[1] فذكر المطر في غير موضع، وأخبر أنه نزله من السماء، والقرآن أخبر أنه منزل منه»[2] في قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[3]، ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[4]، ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[5] وقال ابن تيمية أيضاً: «ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوباً، كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل، ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين»[6].

وقد رد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة - رحمه الله تعالى - على قولٍ أورده السيوطي بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ[7]

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٢، ص٥١٩-٥٢٠.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٤) سورة الزمر: الآية ١.

(٥) سورة فصلت: الآيتان ١-٢. انظر الآيات: النحل: ١٠٢، غافر: ١، ٢، السجدة: ١، ٢، المائدة: ٦٧ وغيرها.

(٦) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٢، ص٥١٩-٥٢٠.

(٧) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٨.

فقال: «هذه المقالة اغتر بها كثير من الجهلة وراجت عليهم والسيوطي[1] - رحمه الله تعالى - مع طول باعه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته ليس ممن يعتمد عليه في مثل هذه الأصول العظيمة، وهذه المقالة مبنية على أصل فاسد، وهو القول بخلق القرآن؛ وهذه مقالة الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلماً حقيقة» إلى أن قال: «والقائلون بخلق القرآن منهم من يقول خلقه في اللوح المحفوظ، وأخذ جبريل ذلك المخلوق من اللوح، وجاء به إلى محمد ﷺ؛ ومنهم من يقول خلقه في جبريل، ومنهم من يقول خلقه في محمد ﷺ إلى غير ذلك من أقوالهم»[2].

فهذا ما ينتهي إليه هذا القول ويؤول إليه، وإن لم يكن كثير من الناقلين له يقصدونه[3].

وإذا كان الرأي الراجح أن للقرآن الكريم نزولين فلنفصل القول في كل نزول على حِدَة.

النزول الأول: نزول القرآن الكريم جملة:

كيفيته:

من المعلوم أن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا نعرف نصاً خاصاً في كيفية هذا النزول، وإنما

---

(١) ينبغي أن ننبه إلى أن السيوطي رحمه الله تعالى أورد هذا القول ناقلاً وصرح بعد ذلك بقوله: «قلت: ويؤيد أن جبريل تلقفه سماعاً من الله تعالى ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً: «إذا تكلم الله بالوحي...» الحديث، جـ١، ص٥٨.

(٢) الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: للعلامة محمد ابن إبراهيم، ص٢.

(٣) نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول ﷺ. د. محمد بن عبد الرحمٰن الشايع، ص٣٣.

وردت النصوص العامة في بيان كيفية وحي الله إلى ملائكته، وقد سبق بيانها في مبحث الوحي.

ومع هذا فقد نقل أبو شامة المقدسي عن بعض التفاسير كيفية ذلك فقال: ورأيت في بعض التفاسير. قال: وقال جماعة من العلماء: نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام، وغشي على أهل السموات من هيبة كلام الله، فمرَّ بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾[1] يعني القرآن، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[2]، فأتى به جبريل إلى بيت العزة، فأملاه جبريل على السفرة الكتبة، يعني الملائكة، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[3] ثم قال أبو شامة: «نقلته من كتاب «شفاء القلوب» وهو تفسير علي بن سهل النيسابوري»[4].

دليله:

أما الدليل على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا فمن القرآن:

أ - قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[5].

ب - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[6].

جـ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[7].

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٣) سورة عبس: الآيتان ١٥-١٦.

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٢٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٦) سورة الدخان: الآية ٣.

(٧) سورة القدر: الآية ١.

والمراد بالنزول في هذه الآيات كما مرَّ بنا نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ومن السنة الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سبق بيانها.

واسطته:

وهذا أيضاً من الأمور الغيبية التي لم أجد نصاً صحيحاً صريحاً في بيانها، ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالوحي كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2].

وقد مر بنا قول ابن العربي: «ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة»[3] والله أعلم.

مدته:

أما المدة التي تم فيها النزول الأول نزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا فهي ليلة واحدة، هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من شهر رمضان، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[4] وقال عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[5].

وليس هناك دليل صحيح على تحديد وقت هذه الليلة غير أنها ليلة القدر في شهر رمضان من غير تحديد للعام الذي كانت فيه، هل كانت قبل

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٩٣-١٩٥.

(٣) أحكام القرآن: ابن العربي، جـ٤، ص١٩٥٠.

(٤) سورة الدخان: الآية ٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

ظهور نبوة محمد ﷺ أم بعدها؟ ومع هذا فقد قال أبو شامة: «الظاهر أنه قبلها وكلاهما محتمل»[1] وخالفه السيوطي وقال: «الظاهر هو الثاني، وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه»[2].

قلت: سياق الآثار المذكورة لا يدل على ذلك، ولو من بعيد فضلاً عن أن تكون صريحة فيه.

حكمته:

ولنزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا حكم عديدة منها ما ذكره أبو شامة المقدسي بقوله: «فإن قلت: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لَهَبِط به[3] إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجمع له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً، وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ»[4].

وقال السخاوي: فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله

---

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٢٥.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٢.

(٣) في المرشد الوجيز (لم نهبط به) وقد صححتها من الإتقان، جـ١، ص٥٤ الذي نقل عبارة أبي شامة.

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص٢٤-٢٥.

عز وجل بهم ورحمته لهم. ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها[1] وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفرة الكرام البررة عليهم السلام وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له.

وفيه أيضاً: إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يعزب عنه شيء، إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها.

وفيه أيضاً: التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجماً ليحفظه، قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[3].

وفيه أيضاً: «أن جناب العزة عظيم ففي إنزاله جملة واحدة وإنزال الملائكة له مفرقاً بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية»[4].

قلت: وبهذا يظهر أن لنزول القرآن الكريم جملة واحدة حكماً عديدة منها:

١ ـ تعظيم شأن القرآن الكريم وتفخيم أمره.

٢ ـ تعظيم شأن الرسول ﷺ وتشريفه وتفضيله.

٣ ـ تكريم أمة محمد ﷺ وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها.

٤ ـ إعلام أهل السمٰوات أن هذا آخرُ الكتب، المنزلُ على خاتم الأنبياء.

---

(١) انظر المعجم الكبير: الطبراني، جـ١٢، ص١٦٦، رقم ١٢٩٣٠ وسيأتي تخريجه.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٣) سورة الأعلى: الآية ٦.

(٤) جمال القراء وكمال الإقراء: السخاوي، جـ١، ص٢٠-٢١.

٥ ـ إعلام الملائكة وغيرهم بأن الله يعلم ما كان وما سيكون وأنه علام الغيوب، ففي القرآن ذكر للأشياء قبل وقوعها وبيان لأحداث قبل حدوثها.

٦ ـ بيان منزلة محمد ﷺ وفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

فإن قلت: وما أثر بيان عظمة القرآن ومكانة الرسول ﷺ وأمته عند الملائكة وما فائدة ذلك؟

قلت: إن المسلم ليفرح فرحاً شديداً بدعوة أخيه المسلم الصالحة، وتعظم مكانتها بقدر صلاح الداعي واستقامته، فإذا كانت الدعوة ممن لم يعص الله طرفة عين، وهم الملائكة، كانت من أفضل الدعاء وأحراها بالإجابة.

والملائكة يصلون على النبي ﷺ، ويستغفرون لأمة محمد ﷺ، ويدعون لهم، ويحضرون مجالس الذكر، ويكثرون في الأزمنة والأماكن الفاضلة، وحضورهم كله خير، ودعاؤهم حري بالإجابة، فعلمهم بمنزلة الرسول ﷺ، ومكانة أمته، وعظمة كتابه من أسباب إكثارهم ومداومتهم على ذلك، واختصاصهم بزيادة الدعاء، والله أعلم.

اختصاص القرآن الكريم بالنزول الأول:

وهو النزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى الأنبياء إلا القرآن الكريم، والله أعلم.

النزول الثاني: نزول القرآن الكريم منجماً:

كيفيته:

سبق في مبحث (الوحي) بيان كيفية وحي الملك إلى الأنبياء عليهم السلام وأنواعه، وأن القرآن كله نزل بالوحي الجلي، ولم ينزل منه شيء بالمنام أو الإلهام أو التكليم بلا واسطة.

واسطته:

والقرآن كله نزل بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2].

دليله:

من الأدلة على نزول القرآن الكريم منجماً:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[3].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[4].

٣ ـ ما هو معلوم بالضرورة من سيرة الرسول ﷺ من نزول القرآن عليه مفرقاً من بعثته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

مقدار ما ينزل في كل مرة:

ليس هناك مقدار ثابت لما ينزل من القرآن الكريم في كل مرة، ونفصل الحديث على النحو التالي:

١ ـ الآيات.

٢ ـ قصار السور.

٣ ـ طوال السور.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٣-١٩٥.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

أما بالنسبة للآيات فقد ينزل خمس آيات أو أكثر أو أقل، بل قد ينزل بعض آية كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[1][2] وكقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾[3]، ولعل غالب ما ينزل خمس آيات وعشر آيات لما رواه أبو نضرة، قال: كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات[4]. وما رواه أبو خلدة عن أبي العالية قال: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا القرآن خمساً خمساً فإن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً[5]، وقال أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً[6].

أما قصار السور فمنها ما كان ينزل جملة واحدة كالفاتحة والمعوذات، ومنها ما ينزل مفرقاً كسورة العلق والمدثر والضحى.

وأما السبع الطوال فلم ينزل منها سورة جملة واحدة إلا سورة الأنعام كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنـه قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، ونزل معها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح»[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) انظر صحيح البخاري، جـ٢، ص٢٣١، وصحيح مسلم، جـ٢، ص٧٦٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٤) رواه ابن عساكر، انظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٧.

(٥) شعب الإيمان: البيهقي، جـ٤، ص٥١٣.

(٦) المرجع السابق، جـ٤، ص٥١٢.

(٧) المعجم الكبير: الطبراني، جـ١٢، ص١٦٦ رقم ١٢٩٣ وقال محققه الأستاذ حمدي عبد المجيد السلفي: في سنده علي بن زيد وفيه كلام وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن، ص١٢٩، وفضائل القرآن: ابن الضريس، ص٩٤، والإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٥٠.

مدته:

اختلف في مدة نزول القرآن منجماً على الرسول ﷺ تبعاً للاختلاف في مدة بعثة الرسول ﷺ وهو في مكة، فقيل: عشرون سنة، وقيل: ثلاث وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة.

فمن المعلوم أن مدة الوحي بالرؤيا الصالحة كانت ستة أشهر، ثم فتر الوحي في سنتين ونصف. قال السهيلي رحمه الله تعالى: «جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر، فمن قال: مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة، ومن قال: ثلاث عشرة أضافهما»[1].

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»[2].

وروى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً»[3].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وهذا ظاهره أنه ﷺ عاش ستين سنة إذا انضم إلى المشهور أنه بعث على رأس الأربعين، لكن يمكن أن يكون الراوي ألغى الكسر» ثم قال: «ويمكن أن يجمع بينه وبين المشهور بوجه آخر، وهو أنه بعث على رأس الأربعين، فكانت مدة وحي المنام ستة أشهر

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٣٧.

(٢) صحيح البخاري، جـ٤، ص٢٥٣.

(٣) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٦.

إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان من غير فترة، ثم فتر الوحي، ثم تواتر وتتابع فكانت مدة تواتره وتتابعه بمكة عشر سنين من غير فترة»[1].

وعلى هذا يظهر أن القول أن مدة النزول عشرون عاماً أو ثلاثة وعشرون عاماً كالقول الواحد وهو الصواب، والله أعلم.

الحكمة في نزول القرآن الكريم منجماً:

ولنزول القرآن منجماً حكم عديدة وفوائد كثيرة منها:

أولاً: تثبيت قلب الرسول ﷺ[2]:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾[3].

حين بعث الله عز شأنه عبده ورسوله محمداً ﷺ، بعثه في أمة صلبة كصلابة أرضها، قاسية كقسوتها، شامخة كشموخ جبالها، بعثه لهذه الأمة ليس لأمر تافه، أو شأن حقير، بل في شأن عظيم، وأمر خطير، بعثه ليسفه أحلامها، ويحطم أوثانها، ويهدم أصنامها، وهي أعز ما يملكون، وأقدس ما يعتقدون. ومن ذا الذي يجرؤ على بعض هذا فضلاً عنه كله وأكثر منه.

تصدى محمد بن عبد الله ﷺ لهذه المهمة فكان أصلب منهم وأقوى، وأحكم منهم وأهدى، جمع بين الصلابة والهدى، والقوة والحكمة، حتى اشتكوه إلى عمه أبي طالب الذي قال له: يا ابن أخي إن بني عمك زعموا

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٢٠.

(٢) في هذا الموضوع كتب الشيخ عبد الرحمٰن هوساوي رسالته للماجستير وعنوانها «منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه» وطبعت في مجلد سنة ١٤١٣هـ.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، قال: فلحظ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة (يعني الشمس)»[1].

نعم إنها قوة إيمان، وصلابة عقيدة، وهذه القوة وتلك الصلابة بحاجة إلى من يسوسها ويدعمها، ويرعاها ويحفظها، حتى لا تضعف أمام التيارات العاصفة، أو تنهار أمام الضربات المتتابعة، فتعهدها الله القوي الحكيم بقوته وحكمته، وكان في إنزال القرآن منجماً دعماً لتلك القوة، وتثبيتاً لتلك الصلابة، وترسيخاً لتلك الحكمة.. ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2].

والأنبياء عليهم السلام كلهم بشر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾[3] يأكلون كما نأكل، ويمشون في الأسواق كما يمشي البشر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[4] ويتزوجون ويولد لهم ذرية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[5] ويعتريهم ما يعتري البشر، من الخوف، والحزن والهم، والفرح والسرور، والضحك، والبكاء ونحو ذلك، وهم بحاجة إلى من يواسيهم، ويثبتهم.

---

(١) قال الألباني: في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث (٩٢) (إسناده حسن) وقال: وأما حديث «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، فليس له إسناد ثابت، ولذلك أوردته في الأحاديث الضعيفة.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٩.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٥) سورة الرعد: الآية ٣٨.

وكان لتثبيت قلب الرسول ﷺ صور متعددة منها:

١ - إخباره أن ما جرى له من الأذى والتكذيب قد جرى للأنبياء السابقين من قبله ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾[1]، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾[2] ومن طبيعة البشر أن المصيبة تخف إذا كانت عامة، وتكون أشد إذا كانت خاصة، هذا في الدنيا دون الآخرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[3].

وإعلام الله تعالى لنبيه ﷺ بأن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من أسباب تثبيت قلبه وتجدد عزمه.

٢ - أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالصبر:

فمن المعهود أن الإنسان إذا أصابته مصيبة وكان بجانبه أحد أصحابه يربت على كتفه، ويأمره بالصبر والاحتساب، ويواسيه ويسليه أن هذا من أقوى الأسباب لسلوانه.

فأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالصبر من أقوى الأسباب لتثبيت قلبه سيما أن الأمر بالصبر كان مقترناً أحياناً بإخباره أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين، وأنهم صبروا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾[4] ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٣٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

(٥) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

٣ ـ نهيه عن الحزن والضيق:

وذلك أن حبس النفس بالحزن، والتضييق عليها بالهم من أقوى الدواعي لفتورها ويأسها، فنهى الله نبيه عن الحزن والضيق من مكرهم وما يلاقيه من أذاهم ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[٤].

ولا شك أن للحزن تأثيراً على صاحبه ولو كان صابراً، فيعقوب عليه السلام حين فَقَدَ ابنه يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٥] وحين فَقَدَ ابنه الآخر قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إلا أنه حزن وتأسف على يوسف ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فكان أثر الحزن ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٦].

وبهذا ندرك الحكمة من نهي الرسول ﷺ عن الحزن والضيق مما يمكرون، لما لهذا من أثر في إعاقة مسار الدعوة، ولما في أمره بالصبر ونهيه عن الحزن من شَدٍّ لأزره وتجديد لعزمه.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٢) سورة النمل: الآية ٧٠.

(٣) سورة يس: الآية ٧٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤١.

(٥) سورة يوسف: الآية ١٨.

(٦) سورة يوسف: الآيتان: ٨٣-٨٤.

٤ ـ إخباره بأن الله يعصمه من الناس:

وذلك أنه إذا علم أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من قبله، وأنهم صبروا، فوطن نفسه على الصبر، واستمر في الدعوة ولم يُصِبْهُ الهم ولا الحزن، لكنه يخشى أن يقتله قومه قبل أن يتم دعوته وهو الحريص عليهم، الرحيم بهم، فأخبره الله بالعصمة من ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] فكانت هذه البشرى من أعظم الدوافع إلى الاستمرار في الدعوة.

أرأيتم ذلك الرجل الذي يتردد في فعل أمر ما فيجد من يشجعه ويطمئنه بأنه لن يصيبه أي مكروه ولا ضرر، وأنه سيكون معه، ويأخذ بيده، ويشد أزره، ولا يزال به حتى يجد الطمأنينة، فكيف إذا كانت البشرى من الله، والعصمة من عنده عز شأنه.

ويجد الرسول ﷺ أثر هذه البشرى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ في كثير من الصور والمشاهد:

أ ـ حين اجتمع صناديد قريش وقبائل العرب عند بابه ليضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فخرج من بين صفوفهم، وجعل فوق رؤوسهم التراب ولم يره أحد[2] ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ب ـ ويذهب مع صاحبه إلى الغار، ويمر به المشركون يبحثون عنهما، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال الرسول ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[3] ومع هذا القرب لم يرهما أحد ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ١، ص١٢٧، وتفسير ابن كثير، جـ٣، ص٦٢٠، ودلائل النبوة: البيهقي، جـ٢، ص٤٦٦-٤٧٠.

(٣) صحيح البخاري، جـ٤، ص١٩٠.

جـ ـ ويلحق بهما سراقة بن مالك ممتطياً جواده ومعه رمحه، حتى إذا اقترب منهما ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين، وعندما أخرجت يديها إذا لأثرهما عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فأدرك سراقة أنه منع عنهما[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

د ـ ويأكل ﷺ من شاة مسمومة أهدتها إليه يهودية، فيموت صاحبه وينجو هو من الموت[2] ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

هـ ـ وحاول اليهود قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر من جدار كان ﷺ جالساً تحته، فجاءه الوحي بذلك فقام من مجلسه[3] ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

والصور كثيرة والمشاهد عديدة لحفظ الله تعالى لنبيه من محاولات الاغتيال[4]، ولا شك أن هذه البشرى[5] من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، ورؤية الرسول ﷺ لفشل هذه المحاولات من أقوى الدوافع للطمأنينة والاستمرار في الدعوة وتجدد العزم.

٥ ـ تبشيره بالنصر والتمكين:

قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[6]، وقال جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[7]، وقال

---

(١) انظر صحيح البخاري، جـ٤، ص٢٥٧.

(٢) سنن أبي داود، جـ٤، ص١٧٣-١٧٥.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص١٩٩-٢٠٠، والبداية والنهاية: ابن كثير، جـ٤، ص٧٥.

(٤) لمزيد من هذه الصور انظر كتاب «والله يعصمك من الناس» للأستاذ أحمد الجدع.

(٥) كانت ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند نزولها مجرد بشرى ثم أصبحت بشرى ومعجزة لثبوتها وعدم وقوع ما يخالفها وهي من الأخبار الغيبية المستقبلية.

(٦) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٧) سورة يوسف: الآية ٢١.

عز وجل: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3]، ووعده سبحانه بالنصر: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[4]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، وقد تحقق نصر الله فقد نصر عبده، وأعز جنده ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[6] السورة.

والوعد بالنصر والتمكين بعد الإخبار بالعصمة من أدعى الدواعي لتثبيت القلب وتجدد العزم.

تلكم بعض صور تثبيت قلب الرسول ﷺ، وهي الحكمة الأولى من حكم نزول القرآن منجماً متتبعاً مسار الدعوة ومسيرة الرسول ﷺ، ينزل عليه بين حين وآخر ما يثبت قلبه ويجدد عزمه.

وقد أشار أبو شامة إلى هذه الحكمة من نزول القرآن منجماً فقال: «إن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه. ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة. ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام عليه فيه»[7].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

(٤) سورة الفتح: الآية ٣.

(٥) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٦) سورة النصر: الآية ١.

(٧) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص٢٧-٢٨.

ثانياً: تيسير حفظه وفهمه:

من المعلوم أن الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ كانت أمية، وكان الرسول ﷺ أمياً ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[1]، وقال عن نبيه ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[2]، وقال جل جلاله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾[3].

وليس من السهل على الأمي وعلى الأميين تلقي كتاب كامل دَفعه واحدة، بل الحكمة في التدرج في تنزيل القرآن، والتدرج في تعليمهم إياه، فكان ينزل كما مر بنا خمس آيات خمس آيات، أو سورة سورة. وهذا ما يناسب أحوالهم، ولو نزل عليهم جملة واحدة لشق عليهم حفظه وفهمه فضلاً عن العمل به.

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله تعالى في بيان هذه الحكمة: «وكان النبي ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ، ففرق عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه، ولو نزل جملة لتعذر عليه حفظه في وقت واحد على ما أجرى الله تعالى به عوائد خلقه، والتوراة نزلت على موسى عليه السلام مكتوبة، وكان كاتباً قارئاً، وكذا كان غيره، والله أعلم»[4].

ثم أورد سؤالاً وأجاب عليه فقال: «فإن قلت: كان في القدرة إذا أنزله جملة أن يسهل عليه حفظه دَفعة واحدة. قلت: ما كل ممكن في القدرة بلازم وقوعه، فقد كان في قدرته تعالى أن يعلمه الكتابة والقراءة في لحظة واحدة، وأن يلهمهم الإيمان به، ولكنه لم يفعل، ولا معترض عليه في

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص٢٧-٢٨.

حكمه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[1] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[2][3].

ثالثاً: مسايرة الحوادث:

فمن المعلوم أن عجلة الحياة تدور، والحوادث تتجدد، وتقع الوقائع، والمسلمون في معمعة هذه الأحداث ووسط هذه الوقائع بحاجة إلى من يرشدهم إلى الحق، ويدلهم إلى الصواب.

فكان في نزول القرآن الكريم منجماً مسايرة لهذه الحوادث والوقائع، وعلاج لما يطرأ في حياة المسلمين من قضايا ومشاكل، ولهذه الحوادث والوقائع صور متعددة نذكر منها[4]:

١ ـ الإجابة على ما يطرأ من أسئلة:

وهذه الأسئلة تقع من الكفار والمشركين للتثبت من رسالته وامتحانه، أو لتعجيزه بزعمهم، وتقع من المسلمين لغرض معرفة الحق والعمل به.

وتكون هذه الأسئلة أيضاً عن أمور ماضية وأحداث سابقة أو حاضرة أو مستقبلة.

فمن الأسئلة عن أمور ماضية ما روي أن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله: سلوا محمداً عن الروح، وعن فتية فقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، فإن أجاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك كله فليس بنبي، وإن أجاب

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٣) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص٢٨-٢٩.

(٤) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥١-٥٣.

في بعض ذلك، وأمسك عن بعضه فهو نبي، فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[1] إلى آخر القصة؛ وأنزل في الرجل الذي بلغ شرق الأرض وغربها ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾[2] إلى آخر القصة، وأنزل في الروح قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[3][4].

وقد تكون الأسئلة عن أمور حاضرة ومشاهدة كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾[5]، وقوله سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾[6]، وقوله سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾[7]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾[8]، وقوله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾[9]، و قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾[10] وغير ذلك من الأسئلة.

وقد تكون الأسئلة عن أمور مستقبلة كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾[11] وقوله جل جلاله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾[12].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٤) أسباب النزول: الواحدي، تحقيق عصام الحميدان، ص٢٩٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٥.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٩) سورة البقرة: الآية ٢٢٠.

(١٠) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(١١) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

(١٢) سورة طه: الآية ١٠٥.

وفي نزول القرآن منجماً تتبع لتلك الأسئلة وما يجد منها والإجابة عليها في حينها.

٢ ـ مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها:

وذلك أن الأقضية والأحداث لم تقع جملة واحدة، وإنما حدثت متفرقة في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، فالمناسب أن ينزل القرآن كذلك منجماً مفرقاً في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، معالجاً لكل قضية في حينها فمن ذلك:

أ ـ حادثة الإفك، وهي الحادثة التي رمى فيها نفر من المنافقين وتبعهم بعض المسلمين عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه في القصة المشهورة، فأنزل الله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[1]. . . الآيات.

ب ـ وقصة خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، أبلى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2][3].

٣ ـ تنبيه المسلمين إلى أخطائهم وإرشادهم إلى الصواب والكمال:

وقد يقع ذلك من أحد أفراد الصحابة أو جماعة منهم أو من الرسول ﷺ. فيرشده ربه إلى الأكمل والأتم لمقامه ﷺ.

---

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٤٨١، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر أسباب النزول: الواحدي، ص٤٠٨.

فهذا ثابت بن قيس رضي الله عنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾[1] قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هو من أهل الجنة»[2].

ولما تزوج الرسول ﷺ زينب بن جحش دعا القوم، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، قال: فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام من القوم... فقعد ثلاثة وأن النبي ﷺ جاء ليدخل فإذا القوم جلوس...»[3] فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾[4].

وقد يقع من الرسول ﷺ ما يوجهه الله بعده إلى ما فيه الخير والكمال، كما وقع من الرسول ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم وهو يخاطب أحد عظماء المشركين، قالت عائشة رضي الله عنها: فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا. ففي هذا أنزلت عبس وتولى[5].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٣٨٦. وانظر صحيح البخاري، جـ٦، ص٤٦، وصحيح مسلم، جـ١، ص١١٠.

(٣) صحيح مسلم، جـ٢، ص١٠٥٠.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٥) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٥١٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٤ ـ كشف حال المنافقين وهتك أستارهم حتى يحذرهم المسلمون ويأمنوا مكرهم وشرهم:

وذلك أن ركب الدعوة جاد في سيره في مأمن من شر عدوه الظاهر، لكن الخطر يكمن فيمن يندس بين المسلمين يخالطهم ويخالطونه، ويسمع حديثهم، ويعلم أسرارهم، ويكيد لهم، وهم يحسبونه منهم، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في نزول القرآن منجماً كشف لهؤلاء المنافقين، وهتك لأستارهم، وتشنيع عليهم.

فإذا نطق أحدهم قولاً مناوئاً للرسول ﷺ نزل فيه القرآن، وكشف نفاقه حتى يحذره المسلمون ويرتدع.

والآيات في هذا الموضوع كثيرة ففي أول سورة البقرة ثلاث عشرة آية متتالية في المنافقين.

وسورة التوبة تسمى (الفاضحة) كما روى سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها»[(١)].

ويريد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «ومنهم ومنهم» الآيات الكثيرة في سورة التوبة التي تحدثت عن المنافقين كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾[(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص٥٨، ومسلم، جـ٤، ص٢٣٢٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٨.

﴿هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾[2] وغير ذلك..

بل أنزل الله في المنافقين سورة كاملة سماها باسمهم سورة «المنافقون».

وفي نزول القرآن منجماً تتبع لهذه الحالات في المجتمع الإسلامي وتنقية لطريق الدعوة.

٥ ـ رد شبهات أهل الكتاب وإبطال كيدهم للإسلام والمسلمين:

فقد كان المسلمون يعيشون في المدينة، ويخالطهم اليهود، وهم أهل كيد ومكر وخبث وحقد على الإسلام والمسلمين. بذلوا كل ما يستطيعون لبث الفرقة بين المسلمين، وبث الشبهات والشكوك في عقائد الإسلام، فكان في نزول القرآن منجماً تتبع لخططهم، وكشف لمآربهم، ومحق لشبهاتهم. والآيات في هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3]، وحذر المسلمين منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[4]، ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5]، ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[6] ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٠.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧٢.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٦٩.

رَبِّكُمْ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾[2] ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾[3] وغير ذلك من الآيات..

رابعاً: التدرج في التشريع وتربية الأمة:

لو تدبر الإنسان في نفسه لوجد أنه في كل شأن من شؤونه يبدأ من الأدنى إلى الأعلى بالتدرج، فحين يولد أول ما يولد لا يستطيع أن يتحكم بحركات يديه ولا رجليه، ثم يبدأ التحكم باليدين، وهكذا إلى أن يبدأ بالقدرة على الجلوس ثم القيام ثم السير ثم الجري والقفز، وفي الأكل شرابه أول ما يشرب حليب أمه الخفيف، ثم تزداد كثافته ويرتقي بالأكل من السوائل إلى اللحوم وغيرها. وفي نطقه يولد لا يحسن غير البكاء ثم التبسم ثم الصوت غير المركب وهكذا إلى أن يصبح متكلماً، وهكذا في التعلم وفي كل شأن من شؤونه.

والمجتمعات في رقيها تشبه إلى حد كبير حالة الأفراد، ليس من السهل تحولها من حال إلى حال دون تدرج. وقد اقتضت حكمة الله تعالى مراعاة حال الأمة في قدرتها وطاقتها، فجاءت الأحكام والتشريعات متدرجة حسب طاقة الأمة وما تقتضيه الحكمة الإلـٰهية، فجاء نزول القرآن الكريم منجماً مطابقاً تمام المطابقة لما فيه الحكمة.

وأخبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذا حين قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»[1].

فبدأ أولاً بتنقيتهم من أدران الشرك بنبذ الأوثان والأصنام وبيان أنها لا تضر ولا تنفع، ثم غرس في قلوبهم العقيدة الصحيحة وهي توحيد الله وإفراده بالعبادة.

ثم تدرج في فرض العبادات، فبدأ بأصلها وعمودها وهي الصلاة التي شرعت في وقت مبكر، ثم الزكاة والصيام، ثم الحج، ونزل بعد ذلك مزيد تفصيل لهذه العبادات وغيرها من أنواع العبادة.

ولم يزل يتدرج بهم في معالي الأمور وسامي الآداب والأخلاق حتى أصبحت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وحتى أصبح هذا القرن من أصحابه خير القرون.

خامساً: استمرار التحدي والإعجاز:

وتجدد ثبوت الإعجاز عند تجدد عجزهم عن الإتيان بمثل كل آية تنزل على مر الأيام والسنين مدة نزول القرآن.

وذلك أن تكرر نزول القرآن مرات عديدة في أماكن مختلفة وأزمان متغايرة ومتباعدة مدة نزول القرآن، وفي كل مرة يتحداهم أن يأتوا بمثله، فهذا دليل على تكرر الإعجاز واستمرار التحدي، ولو نزل القرآن جملة واحدة وتحداهم به عند النزول لكان وقوع التحدي مرة واحدة، والإعجاز كذلك. فكان في تنجيم نزوله وتكرره استمرار للتحدي وتكرار للإعجاز.

ولا شك أن الذي يستطيع تكرار عمل ما يعجز عنه الناس أقوى إعجازاً ممن يفعله مرة واحدة لا يعيدها أخرى.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠١.

سادساً: الدلالة على مصدر القرآن وأنه من الله تعالى وليس في قدرة البشر:

وقد أوضح الشيخ الزرقاني ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الحكمة فقال: وبيان ذلك: أن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك، ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره.

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينزل جملة واحدة، بل تنزل آحاداً مفرقة، تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين سنة.

الجواب: أننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1][2].

وبين الأستاذ حيدر قفة هذا الوجه من الإعجاز فقال: «إن القرآن نزل منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة تقريباً، وهذه مدة طويلة يعجز أي أديب أو كاتب أو بليغ أن يحتفظ بأسلوبه وبيانه، وخصائصه البلاغية والفنية هذه السنوات الطوال، ومهما كانت درجته ومقدرته البلاغية فلا بد أن نجد في أسلوبه اختلافاً ولو للأحسن والأرقى، مما يظهر الضعف والركاكة والإسفاف

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥٣-٥٤.

في بداية الأمر، والجزالة وحسن السبك في نهايته. فهل وجدوا ذلك في القرآن؟ حاشا لله، وصدق الله العظيم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(1)(2).

ويتحدث الشيخ الزرقاني عن الانفصال الزماني واختلاف أسباب النزول لآيات القرآن اللذين يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم الكلام، أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً، فقد نزل منجماً ولكنه تم مترابطاً محكماً ثم قال: «أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون».

ثم قال: «لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: ضعوها في مكان كذا من سورة كذا، وهو بشر لا يدري (طبعاً) ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل من الله فيها، وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طراً بما فيه من انسجام ووحدة وترابط ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(3)(4).

---

(1) سورة النساء: الآية ٨٢.

(2) مع القرآن الكريم: حيدر قفة، ص٥٥.

(3) سورة هود: الآية ١.

(4) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥٤-٥٥.

الاستفادة من نزول القرآن الكريم منجماً في مجال التربية والتعليم:

ينبغي أن يستفاد في العملية التعليمية من منهج القرآن الكريم في تربية هذه الأمة، وتهذيب أخلاقها، وتصحيح معتقداتها، وتحويلها من أمة الجهل والجاهلية إلى أمة الكتاب والقلم.

فقد كان الناس في غاية من الجهل والانحطاط في كثير[1] من شؤون حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فأنزل الله عليهم القرآن، ولم يزل يرتقي بهم في سامي المبادئ وعالي الأخلاق حتى أصبحوا في أعلى الدرجات، بل صاروا خير أمة أخرجت للناس بعدما كانوا ما كانوا.

وسلك القرآن الكريم في ذلك منهجاً فريداً، ومسلكاً حميداً، فبدأ بتصحيح العقيدة وغرس المبادئ الصحيحة، ثم تدرج في أحكام العبادات حتى تمامها وكمالها.

وفي التربية والتعليم ينبغي الاستفادة من هذا المنهج الحكيم، فمن المعلوم أن العملية التربوية تقوم على أمرين أساسين[2]:

الأول: معرفة المستوى الذهني للطلاب:

فلا بد قبل التعليم من معرفة المستوى الذهني لديهم حيث يكون نقطة الانطلاق بهم، وإعطائهم ما يتناسب مع قدراتهم الذهنية وطاقاتهم الفكرية.

فإنهم إن أُعطُوا أقل من مستواهم الذهني ملوه وهجروه، وإن أعطوا ما هو فوق مستوى إدراكهم وفهمهم عجزوا عنه ونفروا منه.

---

(١) نعم كان عندهم بعض العادات الحميدة والأخلاق الفاضلة لكنها تضمحل في صور الجاهلية.

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص١١٦-١١٧.

الثاني: تنمية قدراتهم:

أ - الذهنية.

ب - النفسية.

جـ - الجسمية.

فإذا عرف مستواهم الذهني وما يناسبهم من المادة العلمية، بدأ التدرج في تلقينهم وتعليمهم ما يراد تعليمه مراعياً النواحي الذهنية والجسمية والنفسية.

فالمنهج الدراسي الذي يوضع من غير معرفة للمستوى الذهني للطلاب، ثم تنمية مداركهم العامة ببناء الجزئيات على الكليات، والتفصيل بعد الإجما ل منهج فاشل.

والكتاب المدرسي الذي لا يبنى على معرفة دقيقة لمستوى الطلاب الذهني وما سبق لهم من مادة علمية، وما يحتاجون إليه بعدها، وتتدرج المعلومات فيه من السهل إلى الصعب مع وضوح في الأسلوب، وبساطة في العبارة بعيدة عن التعقيد والغموض في الألفاظ كتاب لا يرجى نفعه.

والمدرس، وهو العمود الأساس في العملية التعليمية، إذا لم يدرك هذين الأمرين الأساسين في العملية التعليمية إدراكاً تاماً، فيعرف مستوى طلابه الذهني، ويضع ما يمدهم به من معلومات على قواعد وأسس المعلومات السابقة، فإن بناءه سينهار ويسقط.

فعلى المعلم أن يدرك تماماً المستوى الذهني لطلابه، ويمدهم بما يلائم قدراتهم الذهنية. ويخطئ من يعتقد أن مهمته التلقين أو حشو أذهانهم بالمادة العلمية فحسب، بل عليه أن يراعي مع الناحية العلمية أيضاً الناحيتين الجسمية والنفسية، فلا يستمر في شرح الدرس مثلاً والطلاب في حالة رعب

أو فزع لأمر ما، أو حين يرى أحد طلابه في حالة نفسية تستدعي تدخله وعلاجه.

المعلم الناجح يراعي الناحية الجسمية للطلاب، فيكتشف حالات من في بصره أو سمعه ضعف، فيلتمس علاجه الطبي والفصلي بتقديمه إلى الصفوف الأولى، وزيادة الاهتمام بما يناسب حاله ولا يؤثر على الآخرين.

المعلم الناجح يوازن بين الترغيب والترهيب، فلا يقسو قسوة تنفر منه الطلاب، ولا يضعف حتى يصبح ألعوبة بين طلابه وتسقط هيبته واحترامه.

المعلم الناجح الذي يعرف كيف يعطي طلابه القدر المناسب من الواجبات المدرسية، فلا يثقل كاهلهم بأدائها، ولا يشغل بقية نهارهم وليلهم في الحفظ أو الكتابة فهم بحاجة إلى الراحة.

المعلم الناجح هو الذي يستطيع المزج بين نظرة الأب لأبنائه ونظرة المعلم لطلابه، فيتفقد شؤونهم ويلاطفهم ويعالج مشاكلهم، فيشعرهم بعطفه، ويظهر لهم محبته، ويريهم حرصه على مصلحتهم.

ولنا في منهج القرآن الكريم في تربية الأمة والتدرج بها بلطف، ورحمة، وحكمة، أسوة حسنة.

❊ ❊ ❊



أول ما نزل وآخر ما نزل

منذ أن نزل أول شعاع من نور القرآن الكريم والمسلمون يولونه عنايتهم واهتمامم إلى يومنا هذا بل إلى يوم الدين، حتى بلغت عنايتهم أن عرفوا ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة، وما نزل بالطائف، وما نزل بالجُحْفَة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالحديبية، وما نزل في الليل، وما نزل بالنهار، وما نزل في الصيف، وما نزل في الشتاء، وما نزل في السفر، وما نزل في الحضر، ومن ذلك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل.

ومعرفة ذلك علم توقيفي يعتمد على النقل عن الصحابة أو التابعين، ولا مجال للاجتهاد فيه إلا للترجيح بين الأدلة والنقول.

ويرجع الاختلاف في معرفة أول ما نزل ومعرفة آخر ما نزل إلى أن صاحب كل قول يخبر عن حَدِّ علمه، أو عما بلغه من الدليل، أو أنه أراد أولية مخصوصة ففهمت على غير ما أراد ونحو ذلك.

وبحث العلماء أول وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأول وآخر ما نزل في معاني خاصة، كأول وآخر ما نزل في الأطعمة، وأول وآخر ما نزل في الأشربة، وأول وآخر ما نزل في الخمر، وأول وآخر ما نزل في القتال، وأول وآخر ما نزل في الربا، وأول وآخر سورة نزلت كاملة وغير ذلك.

أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:

للعلماء في ذلك أقوال كثيرة منها:

القول الأول: إن أول ما نزل من القرآن (صدر سورة اقرأ).

وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها ومن أدلته:

١ ـ ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. . .» الحديث[2].

٢ ـ ما رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول سورة نزلت من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[3].

---

(١) سورة العلق: الآيات ١-٥.

(٢) صحيح البخاري، جـ١، ص٣، ومسلم، جـ١، ص١٤١ واللفظ للبخاري.

(٣) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٠-٢٢١، وص٥٢٩، والبيهقي في دلائل النبوة، جـ٢، ص١٥٥ وقال: هذا إسناد صحيح.

٣ ـ ما رواه الحاكم والطبراني عن أبي رجاء العطاردي، قال: كان أبو موسى الأشعري يقرئنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. قال: هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ[1].

٤ ـ ما رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن مجاهد قال: إن أول ما نزل من القرآن: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ و﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾[2].

القول الثاني: أول ما نزل سورة المدثر:

ودليل هذا القول الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمٰن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أُنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر، فقلت: أو اقرأ. قال جابر: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري، نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ثم نوديت. فنظرت فلم أر أحداً ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء ـ يعني جبريل عليه السلام ـ فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا علي ماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[3][4].

---

(١) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال السيوطي في الإتقان، جـ١، ص٣١: (أخرجه الطبراني في الكبير بسند على شرط الصحيح).

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣١، فضائل القرآن لأبي عبيد ٢/ ١٩٩ رقم (٨١٠).

(٣) سورة المدثر: الآيات ١-٤.

(٤) رواه البخاري، جـ٦، ص٧٥، ومسلم، جـ١، ص١٤٤ واللفظ له.

وأجيب عن هذا الحديث:

١ ـ أن المراد بالأولية في هذا الحديث أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة[١] فيحتمل:

أ ـ أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي، ويشهد لهذا قول جابر في رواية أخرى «سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي... الحديث»[٢].

ب ـ أن أول ما نزل للنبوة سورة اقرأ، وللرسالة سورة المدثر.

جـ ـ أن المدثر أول سورة كمل نزولها، أي: أن باقيها نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها.

د ـ أن سورة المدثر أول سورة تنزل لسبب خاص، حيث إن الرسول ﷺ قال: دثروني دثروني فنزلت، أما سورة اقرأ فلغير سبب خاص بل نزلت ابتداء[٣]. قال ابن حجر: «ولا يخفى بُعْدُ هذا الاحتمال»[٤].

٢ ـ أن جابراً رضي الله عنه استنبط هذا الرأي باجتهاده وفهمه وليس بنَصٍّ ما رواه عن الرسول ﷺ، فتقدم عليه رواية عائشة رضي الله عنها. قال الكرماني: استخرج جابر «أول ما نزل يٰأيها المدثر» باجتهاد وليس هو من روايته، والصحيح ما وقع في حديث عائشة[٥].

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ ٨، ص٥٤٦.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص٧٥.

(٣) انظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٢.

(٤) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٥٤٦.

(٥) المرجع السابق.

ويشهد لهذا أن جابراً رضي الله عنه أخبر عما سمع، ولم يسمع كُلَّ ما حَدَّثَ به رسولُ الله ﷺ قبل فترة الوحي الذي روته عائشة، فاقتصر على ما سمع ظاناً أنه ليس هناك غيره.

٣ ـ أن في حديث جابر رضي الله عنه ما يدل على أن الرسول ﷺ، رأى جبريل قبل ذلك، حيث جاء في حديث جابر رضي الله عنه «فإذا هو على العرش» وإشارته إليه بالضمير تدل على أنه سبق ذكره، وفي رواية أصرح: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء. .».

ولهذا فإن هذا الدليل غير كاف لإثبات أولية النزول لسورة المدثر، بل وصف النووي رحمه الله تعالى القول بأن أول ما نزل سورة المدثر بأنه «ضعيف، بل باطل، والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ كما صرح به في حديث عائشة»[١].

القول الثالث: إن أول ما نزل سورة الفاتحة.

واستدل أصحاب هذا القول بـ:

١ ـ ما رواه البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً» فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر. . . الحديث، وفيه أن خديجة قالت لأبي بكر: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما

---

(١) شرح صحيح مسلم: النووي، جـ٢، ص٢٠٧.

يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد قل: بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. حتى بلغ ولا الضالين» الحديث[1].

وقد زعم الزمخشري أن «أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم»[2] ورد عليه ابن حجر: «والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول، وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول»[3] ويعني بالأول صدر سورة اقرأ.

ويرد على أصحاب هذا القول بردود منها:

أ - أن هذا الحديث لا يدل على أن الفاتحة كانت أول ما نزل، بل فيه دلاله على أن جبريل خاطب الرسول ﷺ غير مرة، وليس فيه نفي بنزول شيء من القرآن في بعضها، فلا يصح الاستدلال بهذا على الأولية.

ب - أن الحديث مرسل فلا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع، وقد عقب البيهقي على هذا الحديث بقوله: «فهذا منقطع، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ والله أعلم»[4].

وأورد ابن كثير حديث البيهقي ثم عقب عليه بقوله: «هذا لفظ البيهقي وهو مرسل، وفيه غرابة، وهو كون الفاتحة أول ما نزل»[5].

---

(١) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٢، ص١٥٧-١٥٨.

(٢) تفسير الكشاف: الزمخشري، جـ٤، ص٢٢٣.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٢، فتح الباري، جـ٨، ص٧١٤.

(٤) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٢، ص١٥٩.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، جـ٣، ص١٠.

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر، والله أعلم»[1].

القول الرابع: إن أول ما نزل «بسم الله الرحمٰن الرحيم».

ولأصحاب هذا القول أدلة منها:

١ ـ حديث أبي ميسرة السابق، وقلنا: إنه حديث مرسل لا يقوى على مناهضة المرفوع.

٢ ـ ما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن، قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمٰن الرحيم، فهو أول ما نزل من القرآن بمكة، وأول سورة اقرأ باسم ربك[2]. وهو أيضاً حديث مرسل لا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع.

٣ ـ ما أخرجه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، عن الضحاك عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أول ما نزل جبريل على محمد. قال: «يا محمد استعذ، قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم» ثم قال: «قل: بسم الله الرحمٰن الرحيم» ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾» قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل»[3] قال ابن كثير: «وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً»[4].

قلتُ: ومع ضعفه وانقطاعه فهو حجه عليهم لا لهم، إذ إن ابن عباس رضي الله عنهما صرح فيه بأولية نزول اقرأ، ولم يعتد بأولية ذكر البسملة.

---

(١) شرح صحيح مسلم: النووي، جـ٢، ص٢٠٨.

(٢) أسباب نزول القرآن: الواحدي، ص٨ تحقيق السيد أحمد صقر.

(٣) تفسير الطبري، جـ١، ص١١٣.

(٤) تفسير ابن كثير، جـ١، ص١٦.

ثم إن البسملة فاتحة لكل سورة تنزل فلا يعتد بأوليتها أولية مطلقة. وبهذا كله يظهر بطلان هذا القول.

وقد جمع القاضي أبو بكر في «الانتصار» ـ كما نقله عنه الزركشي ـ بين هذه الأقوال فقال:

وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وأول ما نزل من أوامر التبليغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة(١).

أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في آخر ما نزل من القرآن.

قال البيهقي رحمه الله تعالى في بيان سبب هذا الاختلاف: «قلت: هذا الاختلاف يرجع ـ والله أعلم ـ إلى أن كل واحد منهم أخبر بما عنده من العلم، أو أراد أن ما ذكر من أواخر الآيات التي نزلت، والله أعلم»(٢).

وقال القاضي أبو بكر: «هذه الاقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وكل قاله بضرب من الاجتهاد، وغلبة الظن، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ، في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب»(٣).

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص١٣٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٧.

وللعلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم كله أقوال منها:

القول الأول: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: أن آخر ما نزل آية الربا، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] ومن الأدلة على ذلك:

١ - ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في باب «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا[2].

٢ - ما رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه والبيهقي عن سعيد بن المسيب، قال: قال عمر رضي الله عنه: «إن آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها، فدعوا الربا والريبة»[3] وفي لفظ آخر «إن من آخر ما أنزل آية الربا..»[4].

٣ - ما رواه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خطبنا عمر فقال: «إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا»[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٨.

(٢) صحيح البخاري، جـ٥، ص١٦٤-١٦٥.

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٣٦، سنن ابن ماجه، جـ٢، ص٣٩. دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص١٣٨. وقال الأستاذ: محمود شاكر: (وهذا الحديث على جلالة رواته وثقتهم - ضعيف الإسناد لانقطاعه، سعيد بن المسيب لم يسمعه من عمر. تفسير الطبري، جـ٦، ص٣٨ (الهامش).

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٤٩-٥٠.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٥، وقال الأستاذ محمود شاكر: (إسناده صحيح) تفسير الطبري: ج٦، ص٣٩.

٤ ـ ما أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن ابن شهاب الزهري قال: «آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين»[١].

القول الثاني: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الآية[٢] واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ ـ ما رواه النسائي[٣] والبيهقي[٤] من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية، ورواه الطبري بلفظ: آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[٥].

٢ ـ ما أخرجه ابن مردويه[٦] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

٣ ـ ما أخرجه ابن جرير الطبري عن الضحاك وعن ابن جريج كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ الآية، قال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ مكث بعدها تسع ليالٍ، وبدئ يوم السبت، ومات يوم الاثنين[٧].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

(٣) تفسير ابن كثير، جـ١، ص٣٥٧. وقال الأستاذ محمود شاكر: «يريد بها السنن الكبرى» تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠ (الهامش).

(٤) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص١٣٧.

(٥) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠. وقال شاكر: وهذا إسناد صحيح.

(٦) الدر المنثور، جـ١، ص٣٧٠، والإتقان، جـ١، ص٣٦، وابن كثير، جـ١، ص٣٥٧.

(٧) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤١ ومعنى (بدئ) يعني مرض.

٤ ـ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: آخر ما أنزل من القرآن كله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول[١].

٥ ـ ما أخرجه الطبري عن عطية العوفي قال: آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية[٢].

٦ ـ ما أخرجه ابن جرير الطبري عن السدي الكبير قال: آخر آية نزلت ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣].

القول الثالث: أن آخر ما نزل من القرآن آية الدين، وهي أطول آية في القرآن الكريم وأولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ...﴾ الآية[٤] واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ ما أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» عن ابن شهاب، قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين[٥].

٢ ـ ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن شهاب، قال: حدثني سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين[٦].

---

(١) الدر المنثور، جـ١، ص٣٧٠، والإتقان، جـ١، ص٣٦.

(٢) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠-٤١ وفي سنده سهل بن عامر، قال الأستاذ محمود شاكر: ضعيف جداً، جـ٦، ص٤١ (الهامش).

(٣) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٦) تفسير الطبري، جـ٢، ص٤١. وقال الأستاذ محمود شاكر: (هذا إسناد صحيح إلى ابن المسيب ولكنه حديث ضعيف لإرساله إذ لم يذكر ابن المسيب من حدثه به) اهـ.

الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة:

ومن ينظر إلى هذه الأقوال الثلاثة ويتدبرها يجد أنها بمثابة قول واحد ذلك:

١ ـ أن هذه الآيات آيات متتابعة في سورة البقرة من الآية ٢٧٨-٢٨٢ فالقول فيها بمثابة قول واحد فكل راوٍ يذكر بعض آخر ما نزل.

٢ ـ أن ابن عباس رضي الله عنهما روي عنه القول بأن آخر ما نزل آية ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ وروي عنه القول بأن آخر ما نزل آية الربا. والجمع بين القولين أولى من إبطال أحدهما.

٣ ـ أن البخاري رحمه الله تعالى أورد بدقته وثاقب نظره قول ابن عباس آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا «في باب قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ فجعل بهذه الإشارة الموضوع واحداً والروايتين متحدتين غير متعارضتين رحمه الله[١].

ولهذا قال ابن حجر: «وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية يعني ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا﴾ هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن»[٢].

وقد جمع بينهما السيوطي فقال: «قلت: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ـ واتقوا يوماً ـ وآية الدين ـ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح»[٣].

وبهذا يظهر أن هذه الأقوال الثلاثة قول واحد وهو القول الصحيح.

---

(١) قاله الأستاذ أحمد شاكر، تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠ الهامش.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٥٣.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

القول الرابع: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية[1].

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت يستفتونك[2].

ولمسلم عن البراء «آخر آية أنزلت آية الكلالة، وآخر سورة أنزلت براءة» وفي لفظ: آخر سورة أنزلت كاملة[3].

ويجاب عن هذا بحمل المراد على أنه آخر ما نزل في المواريث، وليس آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، فهي آخرية مقيدة لا مطلقة.

وجمع ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ بين هذا القول والقول بأن آخر ما نزل آية الربا وآية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾.. الآية بأن الآيتين نزلتا جمياً فيصدق أن كلاً منهما آخرٌ بالنسبة لما عداهما. ويحتمل أن تكون الآخرية في آية النساء مقيدة بما يتعلق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه، والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول[4].

القول الخامس: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[5].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٢) صحيح البخاري، جـ٨، ص٥٣.

(٣) صحيح مسلم، جـ٣، ص١٢٣٦-١٢٣٧.

(٤) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٥٣.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٣.

واستدلوا بما رواه البخاري ومسلم ـ رحمهما الله تعالى ـ عن سعيد بن جبير قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء[1].

قلت: ويحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما على أنه أراد بالآخرية آخر ما نزل في قتل النفس، ويشهد لهذا المعنى قوله في الحديث: «وما نسخها شيء» كما يشهد له الحديث الذي رواه مسلم عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية[2]. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾[3].

قلت: فقوله عنها: إنها آخر ما نزل يعني في هذا المعنى، والله أعلم. وقد أشكل هذا القول على السيوطي رحمه الله تعالى فعد هذا القول من غريب ما ورد[4].

القول السادس: أن آخر ما نزل الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[5] ويشهد لهذا القول:

---

(١) صحيح البخاري، جـ٥، ص١٨٢ واللفظ له، ورواه مسلم، جـ٤، ص٢٣١٧.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٨.
(٣) صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٣١٨.
(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٧.
(٥) سورة التوبة: الآيتان ١٢٨-١٢٩.

١ ـ ما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: آخر ما نزل من القرآن ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

٢ ـ ما أخرجه ابن مردويه عن أبي أيضاً قال: آخر القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٢].

٣ ـ ما أخرجه أبو الشيخ[٣] في «تفسيره» من طريق علي بن زيد عن يوسف المكي عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٤].

قلت: ويجاب عن هذا القول بأن يحمل المراد بالآخرية على آخر ما نزل من سورة التوبة لا آخر ما نـزل من القرآن على الإطلاق، ويشهـد لهذا ما روي أن أبي بن كعب رضي الله عنه قال للذين يجمعون القرآن في عهد أبي بكر لما بلغوا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[٥]: إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وقال: هذا آخر ما نزل من القرآن، قال: فختم بما فتح به بالله الذي لا إلـه إلا هو»[٦].

---

(١) المستدرك، جـ٢، ص٣٣٨ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ ت٣٦٩ وله كتاب (العظمة) مطبوع.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٢٧.

(٦) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

القول السابع: أن آخر ما نزل من القرآن كله قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾[1] واستدلوا بما أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى آخرها[2].

ويجاب عن هذا بأن المراد آخر ثلاث آيات ذكرت النساء فقد روي عنها رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء، فنزلت ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3] ونزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[4] ونزلت هذه الآية[5] فلعلها أرادت إن هذه الآية آخر هذه الآيات نزولاً، ولهذا قال السيوطي: «فهي آخر الثلاثة نزولاً أو آخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة».

القول الثامن: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية[6].

ودليل ذلك ما أخرجه الطبري رحمه الله تعالى عن عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقال: «إنها آخر آية أنزلت من القرآن»[7].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٢) الدر المنثور: السيوطي، جـ٢، ص١١٢، والإتقان، جـ١، ص٣٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٧.

(٦) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٧) تفسير الطبري، جـ١٦، ص٤٠ طبعة دار الفكر.

وقد ردَّ ابن كثير رحمه الله تعالى هذا القول بقوله: «وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها، ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم»[١]. وقد عد السيوطي رحمه الله تعالى هذا القول من غريب ما ورد في ذلك[٢].

قلت: ولعل ابن كثير رحمه الله تعالى سها عن أن هذه الآية مما لا يدخله النسخ، لأنها أمر بالعمل الصالح، ونهي عن الشرك، ومثل هذا لا يمكن أن يدخله نسخ، فلا يصح أن يحمل قصد معاوية رضي الله عنه على أنها لم تنسخ، بل يحمل على أنه أراد أنها آخر آية في سورة الكهف كما مر بنا في آخر سورة التوبة، والله أعلم.

هذه هي أهم الأقوال الواردة في آخر ما نزل من القرآن، وهناك أقوال أخرى يوردها كثير من المهتمين في هذا المبحث مع أنها لا تدخل هنا وإنما في مبحث أوائل وأواخر مخصوصة.

إشكال ودفعه:

قد يشكل فهم قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣].

فإن لم تكن هذه الآية هي آخر ما نزل، بل نزل بعدها آيات فكيف يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؟

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ٣، ص١٢٢.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

والجواب: أن هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ وهو يخطب في يوم عرفة في حجة الوداع في السنة العاشرة، وبالتحديد ظهر يوم الجمعة ٩/١٢/١٠هـ وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام توفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة ١١هـ، فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وفاته ﷺ بنحو واحد وثمانين يوماً، وقد مر بنا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[1] قد نزلت قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بتسع ليالٍ، وبهذا يظهر أن المراد بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية[2]، ليس إكمال نزول القرآن أو أنَّ هذه الآية هي آخر ما نزل منه. وقد بين العلماء المراد بإكمال الدين فمن ذلك:

١ ـ ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام قال: أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله ـ عز ذكره ـ فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً[3] وفسر قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بقوله: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت «براءة» فنفى المشركين عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[4].

٢ ـ أن المراد بإكمال الدين إكمال الحج، والمعنى اليوم أكملت لكم حجكم، فأفردتم بالبلد الحرام تحجونه أنتم أيها المؤمنون دون المشركين، لا يخالطكم في حجكم مشرك[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) تفسير الطبري، جـ٩، ص٥١٨.

(٤) المرجع السابق، جـ٩، ص٥٢١-٥٢٢.

(٥) المرجع السابق، جـ٩، ص٥١٩.

٣ ـ أن المراد بإكمال الدين إعلاء كلمته وظهوره على الدين كله، وفي حجة الوداع ظهرت شوكة هذا الدين وعلت كلمته، فقد كان المشركون يحجون مع المسلمين ويزاحمونهم في المشاعر، فأمر الرسول ﷺ أن لا يحج مشرك، فامتثل المشركون أمره، وأعلى الله كلمته، ولم يجرؤ أحد منهم على مخالفته.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم ـ يوم أنزل هذه الآية على نبيه ـ دينهم بإفرادهم البلد الحرام وإجلائه عنه المشركين، حتى حجه المسلمون دونهم لا يخالطونهم المشركون[1].

أوائل وأواخر مخصوصة:

وكما بحث العلماء أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، فقد أولوا عنايتهم واهتمامهم في معرفة أوائل ما نزل وأواخر ما نزل في موضوعات خاصة كالقتال، والربا، والخمر، والأطعمة، والأشربة، وغير ذلك.

ونظراً لما في معرفة ذلك من أثر كبير في معرفة الحكم الشرعي، والذي وقع بجهله عدد من العلماء فضلاً عن من دونهم في أخطاء عظيمة، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، وأصبح كلامهم حجة عند آخرين، فإني سأبين هنا بشيء من التفصيل بعض هذه الأوائل والأواخر المخصوصة وهي:

١ ـ أول وآخر ما نزل في الخمر.

٢ ـ أول وآخر ما نزل في الربا.

٣ ـ أول وآخر ما نزل في الجهاد.

---

(١) المرجع السابق: جـ٩، ص٥٢٠.

أولاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في الخمر:

وإنما قدمته ليكون لوضوحه وظهوره ميزاناً نعرف به مقدار الخطأ الذي وقع من بعض العلماء والمفتين في الموضوعين الآخرين الربا والجهاد.

وتظهر في التدرج في تحريم الخمر والمراحل التي مر بها حكمة الله سبحانه وتعالى، فقد كان الخمر ميسراً في الجاهلية لمبتغيه، فالتمر والعنب أصناف لا يخلو منها بيت في أرض الحجاز، فالنخيل من زراعة المدينة وما حولها ولا يزال، والعنب في الطائف ولا يزال، واعتصارهما خمراً أمر معروف لا يكاد ينكره أحد، وشربه شأن مألوف لا يكاد يتركه أحد. وليس من السهل الامتثال للإقلاع عنه لأول الأمر ما لم يكن وراء ذلك عقيدة راسخة واقتناع تام.

فجاء القرآن الكريم بترسيخ العقيدة وتثبيت أركانها، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام شرع في الحلال والحرام، ومنه حكم الخمر، مراعياً أحوالهم فيها، واعتيادهم عليها، متخذاً من رسوخ العقيدة والتدرج في التحريم وسيلة حكيمة لعلاج هذا الداء وانتزاعه من جسد هذه الأمة، فجاء تحريمه بالتدريج. وقد وصفت عائشة رضي الله عنها هذا التدريج فقالت: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1]. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[2].

---

(١) القمر: ٤٦.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠١.

وجاء التدرج في تحريم الخمر على النحو التالي:

المرحلة الأولى: أول ما نزل في الخمر قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[1].

وقد ذكر ابن العربي أقوال العلماء في معنى (سكراً) ثم قال: أما هذه الأقاويل فأَسَدُّها قولُ ابن عباس: «أن السكر الخمر»[2] وهل نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر أو بعده؟ قال ابن العربي: والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني[3].

فتقسيم هذه الآية ما يتخذون من الخمر إلى قسمين هما:

١ ـ سكراً.

٢ ـ رزقاً حسناً.

فيه إشارة إلى أن السكر ليس من الرزق الحسن، وإذا لم يكن كذلك فهو من الرزق الخبيث، وقد ورد وصف الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[4] وإذا كان السكر من الخبائث، والرسول ﷺ يحرم الخبائث، فالخمر حرام. لكن هذا ليس نصاً يوجب الامتناع والكف، لكنه إشارة فَهِمَها مَنْ فَهِمَها توطئة لدرجة أعلى في التحريم وهي المرحلة الثانية.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٧.

(٢) أحكام القرآن: ابن العربي، جـ٣، ص١١٤١.

(٣) أحكام القرآن: ابن العربي، جـ٣، ص١١٤١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

المرحلة الثانية: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

كأن السؤال في هذه الآية نتيجة عدم التصريح بالحكم في الآية الأولى، ولهذا روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لما نزل تحريم الخمر[2]: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ...﴾ الآية[3].

وتعتبر هذه المرحلة أعلى من المرتبة التي قبلها في التحريم حيث صرحت بالإثم، وصرحت بأن الإثم أكبر من النفع، وفي ذلك إشارة إلى أن العاقل لا يقدم على فعل شيء ضرره أكبر من نفعه، وأن عليه أن يفكر في ذلك، ولهذا جاءت الفاصلة في الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فكان النص على الإثم توطئةً للنص على التحريم ولو في أوقات مخصوصة في المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[4] وهي أول نص في التحريم، وحتى التحريم كان على مرحلتين: تلك المرحلة هي المرحلة الأولى منه، تحريم في أوقات معينة، وهناك أوقات يظل الخمر فيها مباحاً، لكن هذه الأوقات

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) يقتصر بعض الباحثين على ذكر الآيات الثلاث الأخيرة دون الأولى في تحريم الخمر، وقوله في هذا الحديث: إن عمر قال: لما نزل تحريم الخمر. إشارة إلى أنه سبق نزول هذه الآية آية أخرى، وأنها ليست الأولى.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ١، ص٥٣، والترمذي، جـ٥، ص٢٥٣، وأبو داود، جـ٣، ص٣٢٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٤٣.

تضيق حتى لا يكاد مبتغيها يجدها، فإن شرب بعد الظهر فلن يعلم ما يقول قبل العصر، وإن شرب بعد العصر فلن يعلم قبل المغرب، وإن شرب بعد المغرب فلن يعلم قبل العشاء، ويقل الشرب بعد العشاء لمزاحمته وقت النوم، وهم ليسوا أهل سمر وسهر، فمن يسهر سينام في النهار وكيف يكتسب معاشه، وإن نام بعد العشاء وشرب بعد الفجر فكيف سيعمل ويكتسب وهو في هذه الحالة!! ولهذا قال ابن كثير: «وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم»[1]، كل هذا كان إرهاصاً وتوطئة لتحريم الخمر تحريماً قاطعاً صارماً عاماً شاملاً في المرحلة الرابعة وهي:

المرحلة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وللمتدبر أن يطيل النظر فيما تحويه هذه الآية وما بعدها من تهيئة للتحريم، ومراعاة لواقع القوم وتمكن الخمر منهم، فمزج النص القاطع في تحريمها ببيان آثارها وعواقب شربها الخطيرة، وآثار طاعة الله وعواقب معصيته.

ثم وصف الخمر بأوصاف تكفي لتحريمها بأنها رجس وبأنها من عمل الشيطان، وكفى بهذين الأمرين إشارة للتحريم، ومع هذا فقد صرح بالحكم (فاجتنبوه) وتلكم ـ والله ـ أبلغ كلمة نعم إنها أبلغ من (حرام) أو (فاتركوها) أو (لا تشربوها) لأن من لم يشرب الخمر ولكنها وجدت في بيته أو في

(١) تفسير ابن كثير، جـ٢، ص٥٤٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٠.

غرفته لم يخالف النصوص الأخيرة (حرام، فاتركوه، لا تشربوه) لأنه لم يرتكب شيئاً منها لكنه خالف (فاجتنبوه) إذ الاجتناب يقتضي أن تكون في جانب والخمر في جانب آخر غير جانبك، فإن كانت في غرفتك أو في دارك فأنت لم تجتنبها، والخطاب ليس بالإفراد بل بالجمع للمسلمين عامة، فإذا وجد في بيت جارك وجب على المسلمين إتلافه، فإن لم يفعلوا فإنهم لم يجتنبوه لأنه بينهم، بل إن وجد في بلد آخر من بلاد الإسلام ولهم قدرة على إزالته ولم يفعلوا فهم لم يجتنبوه، إن الأمر بالاجتناب يقتضي أن يكون في جانب وبلاد المسلمين في جانب آخر. أرأيتم إلى أي مدى وصل التحريم بهذه الكلمة.

تلكم المراحل التي مر بها تحريم الخمر، ولو قال قائل: إن الخمر فيها إثم وفيها منافع، قلنا: تلكم مرحلة في التحريم، وإن قال: إن الخمر محرمة قرب الصلاة، جائزة في غير أوقات الصلاة، قلنا: تلك مرحلة تجاوزها التشريع إلى مرحلة الحسم في التحريم، فإن الحكم الشرعي إذا مر بمراحل فالحكم للمرحلة الأخيرة فيه.

أقول: هذا توطئة للمرحلتين التاليتين اللتين يقع في خطأ فيهما بعض المفتين، وهما مراحل تحريم الربا، ومراحل تشريع الجهاد.

ثانياً: أول ما نزل وآخر ما نزل في تحريم الربا:

وذلك أن تحريم الربا أيضاً مر بمراحل أربع كالمراحل التي مر بها تحريم الخمر وهي:

المرحلة الأولى: أول ما نزل في الربا قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[1].

---

(1) سورة الروم: ٣٩.

وليس في هذه الآية نص على تحريم الربا، وإنما إشارة إلى أن الله يمحق الربا، فلا ينمو ولا يبارك الله فيه بخلاف الزكاة التي يراد بها وجه الله، فإنه سبحانه يضاعف الثواب لصاحبه.

وهي مرحلة شبيهة تماماً بالمرحلة الأولى في تحريم الخمر حيث بين هناك أن السكر ليس بالرزق الحسن.

المرحلة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(١)].

وكما بين في المرحلة الثانية من تحريم الخمر أن فيه إثماً وفيه منافع، وأن الإثم أكبر من النفع، فإنه هنا في المرحلة الثانية من تحريم الربا أشار إلى أن من معاصي اليهود أكلهم الربا وقد نهوا عنه، وفي ذلك إشارة إلى أنه إذا كان أكل الربا والتعامل به محرماً على اليهود، فأولى أن يكون كذلك بين المسلمين، وهم خير أمة أخرجت للناس، وهو تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح[(٢)]، وفي هذا توطئة للنص على التحريم في المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٣)].

فحرم الربا على مرحلتين، كما حرم الخمر على مرحلتين، وإذا كان تحريم الخمر بدأ بتحريمه في أوقات معينة، فإن تحريم الربا بدأ بتحريم

---

(١) سورة النساء: الآيتان ١٦٠-١٦١.

(٢) منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: مصطفى الباجقني، ص٢٧٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٠.

نسبة منه معينة، وهي ما كانت أضعافاً مضاعفة تمهيداً لتحريمه كله في المرحلة الأخيرة.

المرحلة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[1] وكما أنه ـ سبحانه ـ غلظ في تحريم الخمر في المرحلة الأخيرة بالأمر باجتنابه، ووصفه بأنه رجس، وأنه من عمل الشيطان، فإنه هنا في تحريم الربا غلظ في تحريمه بالتهديد والوعيد لأصحابه، ووصفهم بأنهم محاربون لله ورسوله، وهل بعد هذا قول أغلظ في التحريم وأبشع في الوصف.

ولعدم إدراك بعض الناس لهذه المراحل التي مر بها تحريم الربا وقعوا في الخطأ في الفتيا، فأباح بعضهم الربا اليسير، وهو الذي لا يصل إلى الأضعاف المضاعفة، جهلاً منه بأن هذا كان في مرحلة من مراحل تحريم الربا، وأنه بهذا كمن يبيح الخمر في غير أوقات الصلاة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[2] ولعله يظهر بهذا أهمية معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل، والله المستعان.

ثالثاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في تشريع الجهاد:

وقد مر تشريع الجهاد بمراحل هي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة المكية، حيث لم يشرع الجهاد، وإنما أمروا بالعفو والصفح، فمن الآيات المكية ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

﴿يَعْلَمُونَ﴾[1] ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3] ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[4] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[5] ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[6] ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[7] والآيات المكية في هذا المعنى كثيرة، فلم يؤمروا بالقتال بل بالكف عنه، وقد صرح بهذا الحكم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾[8].

المرحلة الثانية: بعد نيف وسبعين آية مكية في النهي عن القتال[9] أُذن بالقتال بمعنى إباحته لا وجوبه للمهاجرين منهم خاصة الذين أخرجوا من ديارهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾[10].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: ولأن الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله، حتى هاجر إلى

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٩.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٢.

(٤) سورة الحجر: الآية ٨٥.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٦) سورة المزمل: الآية ١٠.

(٧) سورة إبراهيم: الآية ١٢.

(٨) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٩) الكشاف: الزمخشري، جـ٢، ص١٥.

(١٠) سورة الحج: الآيتان ٣٩-٤٠.

المدينة، فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[1].

ورجح ابن العربي أن أول آية نزلت آية الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ ثم نزل ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾[2] فكان القتال إذناً ثم أصبح بعد ذلك فرضاً، ثم أمر بقتال الكل فقال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية[3][4].

وذلك أن قريشاً حتى بعد أن هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم تألوا جهداً للإيقاع بالمسلمين، فأذن الله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمهاجرين معه بالقتال، فكان رسول الله ﷺ يبعث السرايا وكل أفرادها من المهاجرين وليس فيهم من الأنصار أحد[5].

وحتى هذا الإذن كان لقتال المشركين وحدهم دون غيرهم، فاليهود في المدينة لم يؤمر بقتالهم مع أذاهم، بل أمر بالعفو والصفح حتى يأتي الله بأمره، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[6] وفترة هذه المرحلة من الهجرة إلى غزوة بدر.

---

(١) السياسة الشرعية: ابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى، جـ٢٨، ص٣٤٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥.

(٤) أحكام القرآن: ابن العربي، جـ١، ص١٠٢.

(٥) السيرة النبوية: ابن هشام، جـ٢، ص٢٤٥ وص٢٥٢، وزاد المعاد: ابن القيم، جـ٢، ص٨٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد للدفاع.

وذلك أن قريشاً تضررت من السرايا التي يبعثها الرسول ﷺ للهجوم على قوافل قريش، فجمعت جمعها، واتجهت إلى المدينة لحماية إحدى قوافلها وإرهاب المسلمين، فانتدب الرسول ﷺ أصحابه للدفاع، والتقى الجيشان في بدر، وفرض قتال الذين يقاتلون المسلمين ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1].

فأصبح القتال مفروضاً على المسلمين كافة المهاجرين والأنصار للدفاع عن أنفسهم لا للابتداء. قال الطبري رحمه الله تعالى عن هذه الآية: «هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك، وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم»[2].

وفي هذه المرحلة ظل القتال قاصراً على مشركي قريش وبعض اليهود، وحدثت فيها عدة غزوات وسرايا، منها غزوة السويق، وأحد، وحمراء الأسد، وإجلاء بني قينقاع وبني النضير، واستمرت حتى غزوة الخندق[3] ومن آيات هذه الفترة[4] ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾[5] و﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٢) تفسير الطبري، جـ٣، ص٥٦١.

(٣) انظر منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: الباجقني، ص٢٩٤.

(٤) آيات الجهاد في القرآن الكريم: د. كمال سلامة الدقس، ص٢١٢.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

المرحلة الرابعة: فرض الجهاد في سبيل الله:

وفي هذه المرحلة فرض الجهاد ابتداء من غير أن يبدأ الكفار بالقتال، قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

وتبدأ هذه المرحلة في السنة الخامسة للهجرة، حيث زحفت جيوش الأحزاب إلى المدينة حين أَلَّبَتْ قريشٌ قبائل الجزيرة العربية ضد المسلمين بمساعدة بعض زعماء اليهود[3] ففرض جهاد الكفار كافة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[4] وهي آخر مراحل تشريع الجهاد.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ ملخصاً مراحل تشريع الجهاد: «وكان محرماً ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين»[5].

وبمعرفة هذه المراحل يظهر خطأ بعض المتصدين للدفاع عن عقيدة الجهاد، فيخطئون تحت وطأة الهزيمة الداخلية، فيزعمون أن الجهاد للدفاع لا للطلب، فيقفون به عند حد المرحلة الثالثة تماماً كأولئك الذين يزعمون أن الربا الحرام هو ما كان أضعافاً مضاعفة، وهؤلاء وأولئك كمن يعتقد

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٣) منهج القرآن في تقرير الأحكام، ص٢٩٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٥) زاد المعاد: ابن القيم، جـ٢، ص٥٨.

إباحة الخمر، وأن تحريمها قرب وقت الصلاة. وبمعرفة ذلك كله يظهر الحق والصواب، والله المستعان.

فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

وتشترك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل مع معرفة المكي والمدني في فوائد كثيرة منها:

أولاً: تمييز الناسخ من المنسوخ:

وذلك حين ورود آيتين بحكمين مختلفين، فإن معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل تعين على معرفة الناسخ من المنسوخ، ومثال ذلك قوله تعالى في عدة المرأة المتوفى عنها زوجها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾[1] فقد بينت هذه الآية أن العدة عام، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[2] جعل العدة أربعة أشهر وعشراً، وإذا عرفنا أن هذه الآية هي آخر ما نزل عرفنا أنها هي الناسخة.

ثانياً: معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه الحكيم في التشريع، وقد مر بنا استعراض المراحل التي مر بها تحريم الخمر، وكيف تمت مراعاة أحوالهم حيث اعتادوا شرب الخمر، لا يكاد يخلو منها بيت، وكيف تدرج في علاج هذه المشكلة حتى خرجوا إلى بر الأمان والسلامة والإسلام بحكمة بالغة.

ثالثاً: الاستعانة بمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل في تفسير القرآن التفسير السليم، واستنباط الحكم الصحيح، وقد عرفنا ذلك في معرفة أول

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

وآخر ما نزل في الربا والجهاد، والخطأ الذي وقع فيه بعضهم بسبب جهل معرفة أول وآخر ما نزل.

رابعاً: تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة من ذلك في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، حيث يكون بأسلوب لتقرير حكم ثم يختلف الأسلوب لتقرير حكم آخر بالوعد مرة والوعيد أخرى، وبالترغيب أو الترهيب، أو بالتخيير أو الإلزام حسب ما يناسب الحال.

خامساً: معرفة السيرة النبوية وترتيب أحداثها حسب حديث القرآن عنها، ومتابعة أحوال الرسول ﷺ ومواقفه في الدعوة في مكة، وسيرته في الدعوة إلى الله بعد الهجرة، مما يوقف الدعاة خاصة والمسلمين عامة على أصدق حديث عن أفضل سيرة لأحسن قدوة عليه الصلاة والسلام.

سادساً: إظهار عناية الصحابة والعلماء من بعدهم بالقرآن الكريم حتى عرفوا أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن كله، وفي كل حكم من أحكامه الذي لا يمكن الوصول إليه وإدراكه إلا بالجهد الكبير والاهتمام العظيم، مما يوجب على من بعدهم الاقتداء بهم والسير على نهجهم.

❊ ❊ ❊



إعجاز القرآن الكريم

جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يد كل نبي من أنبيائه معجزة يظهر بها على قومه، وتكون دليلاً على صدقه في أنه مرسل من الله تعالى.

وقد كانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه، حتى يكون تحديه لهم فيما يعرفون وفيما يتقنون، ليكون التحدي أعظم وأشد.

فجاءت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وهي من جنس ما برع فيه قومه، وهو الطب وإن لم تكن طباً.

وجاءت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد وغيرهما، وهي من جنس ما برع فيه قوم فرعون، وهو السحر وإن لم تكن سحراً.

وجاءت معجزة محمد ﷺ وقد تفوق قومه في البيان والفصاحة والبلاغة، فجاءت معجزته عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه، فأنزل الله القرآن، وأعجزهم، ولم يستطيعوا ولن يستطيعوا الإتيان بمثله أو بعضه.

وقد بيَّن العلماء هذا العجز عن الإتيان بمثل هذا القرآن بدراسة نصوص التحدي، وإثبات العجز وما يتعلق بذلك كله في هذا المبحث (إعجاز القرآن)، بل تجاوز ذلك إلى أن أصبح هذا الإعجاز علماً مستقلاً.

تعريف المعجزة:

لغة: أصلها مأخوذ من (عجز) قال ابن فارس: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء[1].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس مادة (عجز)، ص٧٣٨.

وخلاصة كلام أهل اللغة[1] في ذلك أن كلمة عجز تطلق على:

١ ـ **العجز بمعنى:** الضعف تقول: «عجزت عن كذا، أعجز، أي: ضعفت عنه، والعجوز سميت بذلك لعجزها في كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾[2].

٢ ـ **العجز بمعنى:** مؤخر الشيء، والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور: أواخرها، وعَجْزُ الشيء وعِجْزُه، وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخره، وعجز بيت الشعر: آخره، وعجز المرأة وعجيزتها: مؤخرتها، والعِجْزَة: آخر ولد الرجل، وأعجاز النخل، وأعجاز الإبل، وأعجاز الليل: أواخرها، والألف تسميه العرب العجوز؛ لأنه آخر الأرقام عندها، وما بعده يكرر فيقال: عشرة آلاف، مائة ألف، ألف ألف.

وصار العجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[3].

أما المعجزة في الاصطلاح فهي:

أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهداً على صدقه.

شرح التعريف:

ونريد بقولنا: «خارق للعادة» أنها مخالفة لأحكام العادة المألوفة كحرارة النار، وبرودة الثلج، وحدود القدرة البشرية المعتادة، فالمعجزة لا

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ص٧٣٨، ولسان العرب: ابن منظور، جـ٥، ص٣٦٩-٣٧٣، والمفردات: الأصفهاني، ص٣٢٥.

(٢) سورة هود: الآية ٧٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣١.

تخضع لهذه الأحكام، ونؤكد أنها مخالفة لأحكام العادة وليست مخالفة لأحكام العقل.

ونريد بقولنا: «مقرون بالتحدي» أن يكون مقصوداً بها تحدي القوم وإثارتهم للإتيان بمثلها، حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم، والتحدي يكون إما بلسان المقال أو بلسان الحال من غير نطق به أو تصريح بالتحدي.

وقد أخطأ بعض الباحثين فأسقط هذا الشرط معتقداً أن بعض المعجزات غير مقرون بالتحدي، لاعتقاده أن التحدي لا بد أن يكون بلسان المقال.

ونريد بقولنا: «سالم من المعارضة» أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، ولهذا فإن معجزات الأنبياء لا تتكرر، فلكل نبي معجزاته الخاصة به، لا يأتي أحد بمثلها حتى من إخوانه الأنبياء، وإلا لاشترك الأنبياء كلهم في نوع واحد من الخوارق لا يأتي به أحد غيرهم يدل على نبوتهم، ولهذا الاختلاف حكم عديدة، وهي صفة يغفل عنها كثير من الباحثين فيقصرون عدم المعارضة على عامة الناس.

ونريد بقولنا: «يجريه الله على يد نبيه» أن المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده، وليست في قدرته، ولكنها من الله.

ونريد بقولنا: «شاهداً على صدقه» أن الإتيان بالمعجزة إنما هو لإقامة الدليل على أنه مرسل من ربه، وإقامة الحجة على قومه.

المعجزة في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات كلمة (عجز) نحو ست وعشرين مرة، لكنه لم يرد استعمال مصطلح (معجزة) ولا (إعجاز) في القرآن ولا في السنة.

ولم يعرف إطلاق مصطلح (معجزة) على الأمور الخارقة التي تظهر على أيدي الأنبياء عليهم السلام إلا في أواخر القرن الثاني تقريباً[(1)].

وأطلق القرآن على المعجزة عدة مسميات منها:

١ ـ الآية: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(2)] وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[(3)] وفرعون يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[(4)].

٢ ـ البينة: قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[(5)] وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[(6)].

٣ ـ البرهان: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[(7)] وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه موسى عليه السلام بعدما أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية، وأن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[(8)].

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص١٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٠٥.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٧٣.

(٧) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٨) سورة القصص: الآية ٣٢.

٤ ـ السلطان: كما قال الكفار لأنبيائهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وأجاب الرسل عليهم السلام ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.[1] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[2].

شروط المعجزة:

وللمعجزة شروط منها[3]:

١ ـ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة:

سواء كانت كلاماً كالقرآن الكريم، وتسبيح الحصى بين يدي الرسول ﷺ، وحنين الجذع، وكلام الهدهد ونحو ذلك. أو كانت فعلاً كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين أصابعه ﷺ، وتكثير الطعام القليل ونحو ذلك. أو كانت ترك فعل كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام، وعدم إغراق البحر لموسى عليه السلام وقومه، وعدم تأثير السم في جسده ﷺ.

والمعجز هو الأمر الخارق للعادة، ولو فعل النبي أمراً غير خارق للعادة، ولم يستطع الآخرون فعله، فإن الإعجاز ليس في فعله، وإنما في منعهم وحبسهم عن الإتيان بمثل فعله، كما لو رفع الرسول يده أو مد رجله أو تكلم بالكلام المعتاد، ثم تحدى قومه بالإتيان بمثل فعله أو قوله فلم يستطيعوا ذلك، فإن الإعجاز ليس في فعله هذا أو قوله؛ لأنه ليس خارقاً

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ١٠-١١.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٤٥-٤٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٧٠-٧١، وانظر مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص١٥-١٧ ومنهما اقتبست هذا المبحث.

للعادة، وإنما الإعجاز في هذه الحالة في منعهم وصرفهم عن ذلك؛ لكونه هو الأمر غير المعتاد والخارق للعادة.

٢ ـ أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(١) وقال الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢) وحين قال الكفار للرسول ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(٣).

٣ ـ سلامتها من المعارضة بالإتيان بمثلها:

إذ لو استطاع البشر الإتيان بمثلها لما صلحت علامة على أن صاحبها مرسل من ربه، فلا بد لكونها علامة على صدق صاحبها في أنه مرسل من ربه أن لا يقدر البشر كلهم، بل والجن معهم، على الإتيان بمثلها؛ لأنها من قدرة الله وحدَه. كما قال تعالى عن القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾(٤).

٤ ـ أن تقع وفق مقتضى قول صاحبها:

فلا تقع على خلاف قوله. فإذا جاءت على خلاف قوله لم تصلح دليلاً على دعواه، ولا دليلاً على صدقه؛ لمخالفتها لمقتضى كلامه كما حدث لأدعياء النبوة.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١١.

(٣) سورة يونس: الآية ١٥.

(٤) سورة الطور: الآية ٣٤.

٥ ـ أن تقترن بالتحدي عند وقوعها:

وذلك لأمرين: أولهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها، وعدم إدعائهم أو من بعدهم عدم وجود الداعي للإتيان بمثلها. وثانيهما: إقامة الحجة عليهم عند عجزهم.

ولا يلزم أن يكون التحدي بلسان المقال كما فهمه بعض المعاصرين، وإنما يكون بلسان المقال وبلسان الحال، إذ المقام مقام صراع، وعناد، واحتجاج يغني فيه الحال عن المقال في بعض المقام.

٦ ـ أن يستدل بها النبي على صدقه في رسالته:

إذا الغرض من إظهارها إثبات أمرين: أولهما: أنه صادق في دعوى الرسالة. ثانيهما: أنه مرسل من الله لا من غيره، فينبغي أن يكون إظهارها لإثبات ذلك لا لغيره دونهما.

٧ ـ أن يكون ظهور المعجزة أو المعجزات بعد دعوى الرسالة:

حتى يصح الاستشهاد بها، أما إذا تقدم وقوع الأمر الخارق على دعوى الرسالة فإنه لا يسمى معجزة، وإنما يسمى إرهاصاً كتظليل السحابة للرسول ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة.

جواز وقوع المعجزة:

لا يشك مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون كله صغيره وكبيره ومدبر شؤونه، وموجد نظامه، والذي يوجد الشيء من العدم أقدر على تغيير سنة من سننه أو نظام من أنظمته، بل أقدر على إعادة خلقه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة يسٓ: الآيتان ٧٨-٧٩.

فالذي جعل النار حارة في قدرته أن يجعلها باردة، والذي خلق القمر قادر على أن يقسمه إلى نصفين، والذي خلق في السم خاصية قادر على سلبها منه، والذي خلق الثعبان من العدم قادر على خلقه من العصا، وهكذا في بقية المعجزات. ومن ينكر هذا فقد أساء الظن بربه وقدرته، واعتقد ربوبية إله عاجز عياذاً بالله تعالى.

ومما يحز في النفس ظهور بعض من ينكر الخوارق أو بعضها، ويؤولها بتكلف شديد حتى لا تكون من الأمور الخارقة، فيزعم مثلاً أن المرء إذا اعتقد اعتقاداً جازماً في أمر من الأمور، وتيقنه يقيناً قاطعاً أنه يقع وفق اعتقاده، فإذا اعتقدت امرأة بكر لم تتزوج ولم يجامعها أحد أنها حامل وتيقنت ذلك فإن الحمل يقع!![1] ويريدون بذلك تعليل حمل مريم بعيسى عليه السلام، فتكلفوا ما هو أغرب من المعجزة، وفروا من خارق إلى أخرق.

وفسروا فلق البحر لموسى عليه السلام بالمد والجزر، والطير الأبابيل[2] بالجراثيم والميكروبات.

ونسي أولئك أن الذي يقدر على جعل الماء سائلاً قادر على أن يجعله متجمداً أو صلباً، وما المانع أو المستغرب أن يجعل نوعاً من أنواع الطيور قادراً على حمل حجارة ورميها على أعداء الله ونحو ذلك.

---

(١) تفسير المنار، جـ٣، ص٣٠٩-٣١٠.

(٢) حكاية طريفة أسوقها للعظة والعبرة طفل صغير سأله والده ماذا حفظت اليوم؟ فقال: سورة العصافير فاستغرب والده وطلب منه قراءتها وحين قرأها وجد أنه فهم من ذكر الطير الأبابيل أنها طيور حقيقية وهو لا يعرف من الطيور إلا العصافير فانظر لهذا العقل الفطري وانظر لتأويلات أهل العقول الكبيرة!!.

المراد بإعجاز القرآن الكريم:

للعلماء في تعريف الإعجاز أقوال تختلف ألفاظها وتتحد معانيها، منها تعريف الهمداني أن معناه: «أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة، فعل مثله، في القدر الذي اختص به»[1].

ويمكن تعريفه بقولنا هو: عجز المخاطبين بالقرآن وقتَ نزوله ومَن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن، مع تمكنهم من البيان وتملكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة، وتوفر الدواعي، واستمرار البواعث.

إثبات إعجاز القرآن الكريم:

حين نزل القرآن الكريم لم ينزل بما يوافق معتقدات الجاهلية أو يداريها، بل نزل هادماً لها، مبطلاً لأصولها، منكراً لمبادئها، ساخراً من معتقداتها، وأهلها أهل جاهلية، أهل عناد واستكبار، أهل طغيان وجبروت، أهل أنفة وعزة، لو كان عندهم أدنى قدرة على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله، وقد تحداهم واستثارهم لذلك، ما ترددوا وما تلكؤوا، ولكنهم يعلمون من فورهم أن بينهم وبين ذلك بعد ما بين المشرقين، أو قل بعد ما بين السموات والأرضين.

نعم عجزوا وهم أهل اللغة وأهل البيان «أجل، لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي»[2] جمعوا الحشود في الصحراء، ورفعوا المنابر في الأسواق

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل، جـ١٦، (إعجاز القرآن)، ص٢٢٦.

(٢) النبأ العظيم: د. عبد الله دراز، ص٨٣.

وعرضوا فيها أنفس بضائعهم، وأجود صناعاتهم وما البضاعة إلا بضاعة الكلام، وما الصناعة إلا صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها، ويتنافسون في نقدها، «فما هو إلا أن جاء القرآن.. وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صفرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه»[1] كرروا النظر ورجعوا البصر علَّهم يجدون فيه فجوة ينفذون منها فعاد إليهم البصر خاسئاً وهو حسير.

«ولم يسد القرآن عليهم باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه، فدعاهم إليه أفراداً أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكماً بهم، متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف...، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاؤوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2] وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[3] فانظر أي إلهاب!! وأي استفزاز، لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فوالله لو كان فيهم لسان يتحرك، لما صمتوا عن منافسته، وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقباً... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم، واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم: إلا أن ركبوا متن

---

(١) المرجع السابق: ص٨٣-٨٤ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤.

الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان[1].

سلكوا مع الرسول ﷺ كل سبيل للتوقف عن دعوته، ساوموه بالمال، وعرضوا عليه الملك، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعاً، وتآمروا على قتله، وأخرجوه من بلده، وسلكوا أصعب الطرق، وأعرضوا كل الإعراض عن الطريق الوحيد الذي عرضه عليهم الرسول ﷺ لإبطال دعوته، وهو أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فوجدوا أن كل سبيل أهون من هذا السبيل، وكل مشقة دون هذا المطلب، فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز كل العجز[2].

ولو أثر عنهم معارضة للقرآن الكريم، أو محاولة جادة لتطاير خبرها في الأجيال، ولتداولتها الألسن وسطرتها الأقلام، ولكن ذلك لم ولن يكون ما دام هناك مسكة من عقل، أو ذرة من كرامة.

عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه:

كان للعلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ عناية كبيرة واهتمام عظيم بإعجاز القرآن الكريم. وسبق أن ذكرنا أن مصطلح (المعجزة) أو (إعجاز القرآن) لم يرد في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وإنما ورد التعبير عن هذا المعنى بالآية.. والبرهان.. والسلطان.. وغير ذلك.

---

(١) النبأ العظيم، ص٨٤-٨٥ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨ بتصرف.

وهي العبارات التي كان يتداولها العلماء في القرنين الأول والثاني الهجريين عند حديثهم عن إعجاز القرآن، وليس هناك تحديد دقيق لتأريخ ظهور مصطلح إعجاز القرآن.

وقد استعمل هذا المصطلح في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، ويؤيد هذا أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى (ت٢٤١هـ) استعمل كلمة (معجزة) للأمر الخارق المؤيد للأنبياء ولما استعمل له من بعده مصطلح (الكرامة)[١].

كما ظهر استعمال هذا المصطلح عند النَّظّام (ت٢٣١هـ) أحد أئمة المعتزلة حين زعم أن إعجاز القرآن كان بالصَّرْفَة ـ كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى ـ فتصدى له علماء السنة والجماعة، وردوا عليه، وأبطلوا زعمه، فشاع مصطلح المعجزة، وقَلَّ استعمال مصطلح الآية والبرهان والسلطان وغيرها..

وللمعتزلة عناية خاصة بإعجاز القرآن، ولعل عنايتهم تلك نتيجة عدم اعتمادهم في إثبات نبوة محمد ﷺ إلا على معجزة القرآن دون سواها من المعجزات، يقول الهمداني: «لم يعتمد شيوخنا في إثبات نبوة محمد ﷺ على المعجزات[٢]. ويقول عن المعجزات: «فلا يصح أن يستدل بها على صحة النبوة، ولذلك اعتمد شيوخنا في تثبيت نبوة محمد ﷺ على القرآن»[٣] ويوضح هذا الأمر فيقول: «إن شيوخنا أثبتوها معجزة ودلالة، لكنهم لم يجوزوا الاعتماد عليها في مكالمة المخالفين»[٤] ولهذا كثرت مؤلفاتهم في إعجاز القرآن وبلاغته ومناظراتهم ومجادلاتهم وشطحاتهم.

---

(١) انظر «فكرة إعجاز القرآن»: نعيم الحمصي، ص٨.

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، جـ١٦، ص١٥٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

أما أول كتاب يحمل هذا المصطلح في عنوانه فهو كتاب «إعجاز القرآن» الذي ألفه محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦هـ[١] وهو كتاب مفقود. إلا أن أقدم كتاب خاص بإعجاز القرآن وصل إلينا هو «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤)[٢] وهو من أئمة المعتزلة.

ثم تتابعت المؤلفات بعد ذلك وكثرت كثرة لا تكاد تحصى قديماً وحديثاً، وليس من السهل حصرها كلها، وسأذكر بعض هذه المؤلفات إجمالاً، فمن المؤلفات قديماً:

١ ـ **النكت في إعجاز القرآن**: لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ) وهي رسالة مختصرة جاءت جواباً لسؤال عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وتقع في سبع وثلاثين صفحة طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٢ ـ **بيان إعجاز القرآن**: لأبي سليمان حَمْد بن محمد الخطابي (ت٣٨٦هـ)، وهي أيضاً رسالة مختصرة تقع في ٤٧ صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٣ ـ **إعجاز القرآن**: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) طبع بتحقيق عماد الدين أحمد حيدر في مجلد واحد يقع في ٣٢٥ صفحة.

٤ ـ **الرسالة الشافية**: لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وهي رسالة موجزة لكنها شاملة، قرر فيها أن الإعجاز ثابت عن طريق عجز

---

(١) الفهرست: ابن النديم، ص١٧٢ أو ص٢٤٥، والأعلام: الزركلي، جـ٦، ص١٣٢، وانظر فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص٨، وإعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان، ص٥٠.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم ص٤٣.

العرب عن معارضة القرآن، وقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين لنزوله دون المتأخرين عن زمانه، ورد على القول بالصَّرْفة، وتقع هذه الرسالة في حوالي ٤٠ صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٥ ـ **دلائل الإعجاز**: وهو أيضاً لعبد القاهر الجرجاني في مجلد طبع أكثر من مرة بتحقيق أحمد مصطفى المراغي، وطبع كذلك بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي.

٦ ـ **نهاية الإيجار في دراية الإعجاز**: للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) اختصر فيه كتابي «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني، وزاد فيه بعض الفوائد، وبين يدي طبعة مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ.

٧ ـ **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**: لعبد الواحد الزملكاني (ت٦٥١هـ) طبع بتحقيق د. خديجة الحديثي؛ ود. أحمد مطلوب في بغداد، الطبعة الأولى عام ١٣٩٤هـ، وتقع مع الفهارس في ٤٣٢ صفحة. وللزملكاني أيضاً كتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» طبع في بغداد أيضاً عام ١٣٨٣هـ.

٨ ـ **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) طبع في ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

وأما المؤلفات الحديثة فكثيرة جداً في مختلف أوجه الإعجاز أذكر بعض أشهرها:

١ ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**: للأستاذ مصطفى صادق الرافعي (ت١٣٥٦هـ) طبع عدة مرات في مصر. وهو بحق من أفضل المؤلفات في موضوعه قديماً وحديثاً.

٢ ـ **النبأ العظيم**: د. محمد عبد الله دراز (ت١٣٧٧هـ) وهو كتاب في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم أحد ثلاثة أنواع من الإعجاز وعد المؤلف بالكتابة عنها، فأتم الأول، وتوفي قبل تمام الباقي، وامتاز بأسلوبه الأدبي المميز، ودقة استنباطه، وسلاسة لفظه. يقع في ٢١٦ صفحة وطبع أكثر من مرة.

٣ ـ **مباحث في إعجاز القرآن**: د. مصطفى مسلم وكتبه مؤلفه لطلاب قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمادة إعجاز القرآن، وهو كتاب قيم يقع في حوالي ثلاث مئة صفحة.

٤ ـ **فكرة إعجاز القرآن**: تأليف نعيم الحمصي، وهو في أصله مقالات نشرها في مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق، ثم جمعها في هذا الكتاب، وصدرت طبعته الأولى عام ١٣٧٤، والثانية ١٤٠٠هـ، ويقع في حوالي خمس مئة صفحة وهو عرض لقضية إعجاز القرآن الكريم منذ البعثة إلى حين تأليفه.

مراحل التحدي بالقرآن:

ورد التحدي بالقرآن الكريم في خمس آيات من خمس سور، هي على ترتيب السور[1]:

١ ـ **في سورة البقرة**: الآية ٢٣ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ الآية.

---

(١) أما على ترتيب النزول فأولها: آية الإسراء وثانيها: آية يونس وثالثها: آية هود. ورابعها: آية الطور (وكلها مكي) ثم نزل خامسها: آية البقرة في المدينة. انظر البرهان: الزركشي جـ١، ص١٩٣. والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٢٧ ويرى الزمخشري والبيضاوي والرازي وأبو حيان وابن كثير وابن عاشور والرافعي وغيرهم أن آية هود نزلت قبل آية يونس.

٢ ـ في سورة يونس: الآية ٣٨ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ الآية.

٣ ـ سورة هود: الآية ١٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾.

٤ ـ سورة الإسراء: الآية ٨٨ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

٥ ـ سورة الطور: الآية ٣٣-٣٤ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

والتحدي في هذه الآيات كما ترى جاء مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، ومرة بعشر سور، ومرة بسورة، ومرة بحديث مثله. فهل جاء التحدي بالقرآن متدرجاً من الأكثر إلى الأقل أم لا؟ للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

القول الأول: وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجاً بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة في سورة يونس، ثم بسورة من مثله في سورة البقرة، ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم.

القول الثاني: رتب آيات التحدي حسب ترتيب النزول وأنه كان متدرجاً أيضاً، إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور، ثم ذهب أصحاب هذا القول يعللون ذلك بتعليلات ليس فيها ما يقنع.

القول الثالث: وهو ما أرى صوابه أن القولين السابقين قاما على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سور، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة، وهذا غير صحيح. لأن القرآن كله قليله

وكثيره على حد سواء في الإعجاز، فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كله، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار، فلا يهم إذاً أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله.

واستحالة المجيء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المجيء بعشر سور، واستحالة المجيء بمثل القرآن كله على حدٍّ سواء، فكل ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي، والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره.

مقدار المعجز من القرآن الكريم:

ومما يتصل بالحديث عن مراحل التحدي بالقرآن، الحديث عن القدر المعجز من القرآن الكريم، فقد وقع في هذا القدر خلاف أيضاً على أقوال هي:

القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه، وهذا القول مردود بالآيات التي تتحدى بعشر سور وبسورة واحدة أو حديث مثله.

القول الثاني: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة، وهذا رأي الجمهور، وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضاً بقدر سورة تامة[1] من الكلام بحيث يظهر به تفاضل قوى البلاغة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ثلاث آيات، فيكون مقدار هذه السورة من الآيات معجز.

القول الثالث: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[2] والتحدي بجنس القرآن لا بالمقدار كما مر بنا بيانه، وهذا هو ما نرجحه، والله أعلم.

---

(١) إعجاز القرآن: الباقلاني، ص٢٦١.

(٢) سورة الطور: الآية ٣٤.

استمرار التحدي بالقرآن الكريم:

والتحدي في القرآن الكريم ليس خاصاً بأمة دون أمة أو عصر دون عصر، بل هو باق ما بقي القرآن يعلن للناس تحديه، فقوله عز شأنه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ..﴾ الآية[1]. عام يشمل جميع الإنس في جميع العصور.

ولأن القرآن خاتم الكتب، والرسول ﷺ خاتم الرسل، والإسلام خاتم الأديان، فقد اقتضت الحكمة بقاء المعجزة لتكون شاهدة على كل جيل، كما هي شاهدة على الجيل الأول.

ولئن عجز الجيل الأول، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وأهل البيان والبديع عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه، أو مجرد محاولة ذلك لعلمهم سلفاً بعجزهم عن ذلك، فإن مَنْ بعدهم أعجز وأبعد عن الاستطاعة، فالإعجاز مستمر، والتحدي قائم إلى يوم القيامة.

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

من المُسلَّم به بين المسلمين عامة أن القرآن معجزة لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، لكنهم اختلفوا في بيان وجه الإعجاز فيه، وذكروا أقوالاً كثيرةً، ومذاهب مختلفة، وهم في هذا بين مصيب ومخطئٌ، ومحسن ومسيء.

تعددت الأقوال في وجه أو أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، فمنهم من لم يذكر للإعجاز إلا وجهاً واحداً ومنهم من ذكر وجهين أو أكثر، بل قال السيوطي: «أنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين»[2] ثم قال: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»[3] وذكر هو في كتابه «معترك الأقران في إعجاز

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، جـ١، ص٥.

(٣) المرجع السابق.

القرآن» خمسة وثلاثين وجهاً ضمنها المجلد الأول منه. وذكر غيره وجوهاً أخرى غير ما ذكره السيوطي. والحق أن بين بعض هذه الوجوه تداخل، وليس مرادنا هنا حصرها أو ذكرها كلها، فلنذكر بعض هذه الأقوال:

القول الأول: أن الإعجاز كان بالصَّرْفَة:

القول بالصَّرْفَة هو الباعث على نشأة البحث في وجوه الإعجاز للقرآن الكريم، فقد كان المسلمون مُسَلِّمين بإعجاز القرآن، وألفوا في ذلك كتباً تشير بصورة غير مباشرة إلى إعجاز القرآن من غير أن يخوضوا أو يتعمقوا في بيان وجهه، حتى أظهر النَّظَّام (ت ٢٣١هـ) مقولته بالصَّرْفَة، فثار العلماء لإنكار قوله والرد عليه، ومن ثم تحديد الوجه أو أوجه الإعجاز الصحيحة في القرآن الكريم.

وأول من قال: إن أعجاز القرآن الكريم كان بالصَّرْفَة هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النَّظّام (ت ٢٣١هـ) أحد أئمة المعتزلة، وصار له مذهب خاصّ ينسب إليه، وقلده آخرون في هذه المقولة، وتشعب القول فيها إلى شعبتين:

١ ـ **القول الأول**: للنَّظّام وآخرين أن المراد بالصَّرْفَة أن الله صرف العرب عن الاهتمام بمعارضة القرآن الكريم مع قدرتهم عليها، ولو توجهوا إليها لقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن.

٢ ـ **والقول الثاني**: للمرتَضَىٰ من الرافضة، ومراده بالصَّرْفَة أن الله سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها للإتيان بمثل هذا القرآن، ولو توجهوا للإتيان بمثله لما استطاعوا لسلبهم هذه العلوم.

والفرق بين رأي النظام وأتباعه والمرتضى ومن معه أن النظام يرى أن العرب لو أرادوا الإتيان بمثله لاستطاعوا، ولكن همتهم لم تتوجه لذلك، أما

المرتضى فيرى أن العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله، ولو أرادوا ذلك، لأنهم لا يملكون العلوم التي تمكنهم من ذلك. فالفرق بينهما أن النظام يرى أن العرب يستطيعون لو أرادوا، والمرتضى يرى عدم استطاعتهم، وكلا القولين غير صحيح.

ونرد على ذلك بثلاثة ردود:

الأول: رد مشترك على القولين لإبطال القول بالصَّرْفَة عامة.

والثاني: رد على مذهب النَّظّام.

والثالث: رد على مذهب المرتضى.

أما الرد العام على القول بالصَّرْفَة: فإنَّا نقول: إنه يلزم من القول بالصرفة أن الإعجاز ليس في القرآن ذاته، وإنما في غيره، وهو عدم استطاعتهم، فالقرآن بزعمهم ليس معجزاً، إنما الإعجاز في المنع، وهذا باطل، قال أبو بكر الباقلاني: «ومما يبطل القول بالصَّرْفَة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفةُ لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»[1].

ونقول أيضاً: إن ديوان العرب محفوظ شعره ونثره، وليس فيه قبل أن يسلبوا الاهتمام بالإتيان بمثله، أو تسلب منهم العلوم كما يزعم هؤلاء وأولئك، ما يماثل القرآن أو يدانيه.

أما الرد على النَّظّام ومن معه: فإنا نقول: كيف يصح القول: إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثل القرآن، وهم الذين لم يتركوا سبيلاً للقضاء على دعوة محمد ﷺ، وسلكوا كل طريق شاق، حاربوه، وناوَءُوه، وقاطعوه، وآذوه مع إبطاله لمعتقداتهم، وإثارته لحفيظتهم، واستفزازه لمشاعرهم، وإلهابه

---

(١) إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، ص٥٤.

لغيرتهم، وأصاب موضع عزتهم وفخارهم، وقد مَكَّنهم من نفسه لو استطاعوا، فدعاهم وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من القرآن، ولو كان فيهم أدنى قدرة، أو عرفوا أحداً يملكها في أقصى الأرض لبعثوا إليه، كما بعثوا لليهود يسألونهم عما يسألون محمداً ﷺ عنه ليحرجوه، فلا يصح بعد هذا أن يقال: إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثله.

وأما الرد على المرتضى ومن معه: ففي قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وفي هذا دليل على أن عجزهم كان مع بقاء قدرتهم، ولو لم يكن عندهم قدرة لما صح تحديهم، إذ لا يصح لأحد أن يتحدى الموتى، إذ ليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره[2] كما لا يصح أن يتحدى المبصر الأعمى، وإنما يصح التحدي إذا تحدى مَن يملك البصر، أما إذا سلب البصر لم يصح تحدي مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ يدل على وجود القدرة؛ لأن المعاونة والمظاهرة إنما تمكن مع القدرة، ولا تصح مع العجز والمنع[3].

القول الثاني: **أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو الأخبار الغيبية فيه:**

وذلك أن القرآن الكريم تضمن عدداً من الأخبار الغيبية في الماضي والحاضر والمستقبل؛ وإذا علمنا أن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعلمنا أن أمته أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم يذكر في تاريخ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٥١.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، جـ١٦، ص٣٢٣.

الأمم الماضية، ومع هذا كله فقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن الأمم الماضية بما يظهر أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله الذي يعلم الغيب في السموات والأرض.

والأخبار الغيبية الواردة في القرآن ثلاثة أنواع:

الأول: الأخبار الغيبية الماضية (غيب الماضي):

وهي الأخبار التي تحدثت عن الأمم الماضية والأنبياء السابقين عليهم السلام، وذلك لعدم تلقي الرسول ﷺ لهذه الأخبار عن أحد من البشر، ولم يقرأها في كتاب، فلم يبق إلا أن يكون تلقاها عن طريق الوحي، ولهذا كان القرآن كثيراً ما يشير إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[4] وقوله جل جلاله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[5] وغير ذلك من الآيات.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس: الآية ١٦.

(٤) سورة صٓ: الآيات ٦٧-٧٠.

(٥) سورة هود: الآية ٤٩.

الثاني: الأخبار الغيبية عما يقع بغير حضرة الرسول ﷺ (غيب الحاضر):

إذ كثيراً ما تحدث بعض الأحداث وتقع بعض القضايا ولا يشهدها الرسول ﷺ ولا يحضرها، ومع هذا ينزل عليه الوحي والخبر الصادق حتى قبل أن يصل أحد ممن رآها إلى الرسول ﷺ، وحتى كان الكفار يقول بعضهم لبعض: اخفضوا أصواتكم حتى لا يسمعكم إله محمد، ولهذا كان المنافقون يحذرون ذلك، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ..﴾[2] وكقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[3] وغير ذلك من الآيات.

الثالث: الأخبار الغيبية عن أمور مستقبلة (غيب المستقبل):

وكثيراً ما أخبر القرآن عن أمور ستحدث في المستقبل، ووقعت كما جاءت في القرآن، فمن ذلك قوله تعالى عن ظهور الإسلام وسيادته، وقد كان ذلك فيما بعد ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[4] وعن القرآن، أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٣.

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] وحتى الآن لم يأت أحد بمثله، ولن يفعل أحد ذلك. ومنه قوله تعالى عن الكفار ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[3] وقد نزلت هذه الآية وعائشة رضي الله عنها بمكة جارية تلعب[4]، وتحقق ذلك فيما بعد. ومنه قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾[5]، وكقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[6].

ومنه قوله تعالى عن أبي لهب: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وعن امرأته ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾[7] والخبر الغيبي في هذا أنه أخبر أنهما في النار، ويقتضي هذا موتهما على الكفر، وقد كان ذلك، ومثله عن أبي جهل[8] ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[9] فمات على كفره، وكذلك

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣-٢٤.

(٣) سورة القمر: الآية ٤٥.

(٤) انظر صحيح البخاري، جـ٦، ص٥٤.

(٥) سورة الروم: الآية ١-٤.

(٦) سورة الفتح: الآية ٢٧.

(٧) سورة المسد: الآيتان ٣-٤.

(٨) أسباب النزول: الواحدي، ص٣٩٨.

(٩) سورة الدخان: الآيات ٤٧-٤٩.

أُبيّ بن خلف، قال عنه[1] ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾[2] فمات على الكفر، والنضر بن الحارث[3] ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[4] والوليد بن المغيرة[5] ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴾[6].

ومع قوة هذا الوجه من الإعجاز وتحققه في القرآن الكريم، إلا أنه لا يصح الزعم بأنه وجه الإعجاز في القرآن الكريم، لخلو كثير من الآيات القرآنية من الأخبار الغيبية مع تحقق الإعجاز فيها.

الثالث: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو: نظمه:

ومن أدلة أصحاب هذا القول قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾[7] فحين زعم الكفار أن أخبار القرآن افتراء وكذب، قطع جدلهم بأن طلب منهم على التسليم بأنه مفترى، أن يأتوا بعشر سور في نظمه وأسلوبه لا صدق خبره حسب زعمهم. فالتحدي هنا بالنظم لا بالأخبار فضلاً عن الأدلة الأخرى الكثيرة على إدراك العرب بذوقهم لإعجاز القرآن في نظمه واستيلائه على ألبابهم.

وقال بهذا الإعجاز عدد من أئمة اللغة والبيان، كالواسطي والجاحظ الذي ألف كتاباً عن نظم القرآن، ومنهم الجرجاني والخطابي وغيرهم.

---

(١) لباب النقول: السيوطي، ص٢٣٤.

(٢) سورة الهمزة: الآية ٤.

(٣) لباب النقول: السيوطي، ص١٦٩.

(٤) سورة لقمان: الآية ٧.

(٥) لباب النقول: السيوطي، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٦) سورة المدثر: الآية ٢٦.

(٧) سورة هود: الآية ١٣.

وقد فسر الخطابي هذا الوجه بقوله: «وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة.

١ ـ لفظ حامل.

٢ ـ ومعنى به قائم.

٣ ـ ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرقة في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً».

ثم ذكر بعض ما احتوى عليه القرآن من أحكام التوحيد والعبادة، والتحليل والتحريم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بمحاسن الأخلاق والزجر عن مساوئها، ثم قال: «ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه

قُدَرُهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله»[1].

الرابع: أن وجه الإعجاز هو بلاغته:

التي فاقت ما عرفته العرب من صور البلاغة، وعجزوا عن الإتيان بمثلها، وقال بهذا القول عدد من أئمة البلاغة والبيان كالعسكري[2]، وحازم القرطاجني[3]، والسكاكي الذي ذكر أربعة أقوال لوجه الإعجاز في القرآن فردها كلها ثم قال: «فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين بعد فضل إلهي»[4].

الخامس: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم علومه ومعارفه:

وذهب إلى هذا القول عدد من العلماء قديماً وحديثاً، قال به الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، والزركشي (ت ٧٩٤هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)، ومن المتأخرين: الجوهري والإسكندراني والكواكبي والمراغي ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي والقاسمي ومصطفى الرافعي ومحمود شكري الألوسي وابن باديس والغمراوي وعبدالرزاق نوفل وغيرهم كثير[5]، وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا الوجه.

---

(١) بيان إعجاز القرآن: الخطابي، ص٢٤-٢٥.

(٢) فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص٦٥.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٥٢.

(٤) مفتاح العلوم: السكاكي، ص٢١٦.

(٥) انظر كتابي اتجاهات التفسير في القرآن الرابع عشر، جـ٢، ص٥٥٠ وما بعدها.

والأقوال في وجه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، وكثرتها ناشئة من تكرار بعضها، إذ إن بعض هذه الأوجه داخل في بعض، قال الألوسي: «قد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن وأتوا بوجوه شتى، الكثير منها خواصه وفضائله»[1].

والرأي الراجح في وجه الإعجاز في القرآن أن لا يقتصر على وجه واحد، فإعجازه مركب من وجوه عدة، فهو معجز في نظمه، وفي أسلوبه، وفي بلاغته، وفي أخباره، وفي علومه ومعارفه، كما قال الزركشي رحمه الله تعالى وهو يعدد أوجه الإعجاز: «الثاني عشر: وهو قول أهل التحقيق أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد عن انفراده فإنه جمع كلَّه، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق»[2].

وقال الألوسي في ترجيحه: «والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالأخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب فما يبقى كافٍ في العرض وافٍ.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكب[3]

وسنذكر بعد ذلك بعض أوجه إعجاز القرآن الكريم بشيء من التفصيل المناسب للمقام.

---

(١) روح المعاني: الألوسي، جـ١، ص٢٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٢، ص١٠٦.

(٣) روح المعاني: الألوسي، جـ١، ص٣١، والبيت لأبي الطمحان القيني، انظر الشوارد: للأستاذ عبد الله بن خميس، جـ١، ص٦٠ والقافية عنده (كواكبه).

الإعجاز اللغوي:

وهو أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها. إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن، فالتحدي يكون بجنس ما برز فيه القوم وتفوقوا، وهم تفوقوا في البيان والبلاغة والفصاحة، ولم يتفوقوا في العلوم والمعارف وأخبار الغيب أو التشريع أو نحو ذلك، فكان الإعجاز بالبيان أظهر وجوه التحدي وأبرزها.

والقوم أدركوا أول ما أدركوا إعجازه البياني، فملك منهم الألباب، واستولى على الأفئدة.

ويطلق على هذا الوجه عدة مصطلحات فيسمى: (الإعجاز اللغوي) و(الإعجاز البياني) و(الإعجاز البلاغي) وتدخل في هذا المعنى أيضاً أقوالهم المختلفة في أن إعجاز القرآن (بلاغته) أو (فصاحته) أو (ما تضمنه من البديع) أو (نظمه) أو (أسلوبه) أو غير ذلك من فروع اللغة العربية.

والناظر في هذا القرآن الكريم لا يخلو من حالتين[1]:

الأولى: أن لا يكون ممن أُوتوا قوة المعرفة للفصل بين درجات الكلام والتفريق بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح.

الثانية: أن يكون قد أُوتي حظاً من التمييز بين الأساليب ومعرفة درجات البلاغة والفصاحة.

فإن كنت من الفئة الأولى فلا سبيل لك لمعرفة إعجاز القرآن وبلاغته بحسك وذوقك، وإنما سبيلك أن تقنع بشهادة أهل الخبرة والمعرفة، وهم هنا أهل الفصاحة والبلاغة، والبيان والبديع، وأعلمهم بذلك سليقة، وأجودهم فطرة، وأتقنهم تربية وسماعاً هم من نزل عليهم القرآن، وأولئك

---

(١) لمزيد من التوسع والبيان انظر كتاب النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص٩٢ وما بعدها، ومنه اقتبست أفكار هذا المبحث وزينته ببعض ألفاظه.

قد أقروا بذلك في مشاهد عديدة، وأقوال كثيرة، فهذا الوليد بن المغيرة يقول لمن أنكر عليه سماعه للقرآن وتأثره به: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[1][2]، وقد وصف الله تفكيره بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[3].

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: «فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني حيث يقول: إنه فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول.. وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه، وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى، وإنه يحطم ما تحته» هذه شهادة أهل اللغة نفسها، وهي شهادة خصم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وإذا لم ترَ الهلال فسَلِّم ... لأناس رأوه بالأبصار

---

(١) سورة المدثر: الآية ١١.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٥٠٦-٥٠٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) سورة المدثر: الآيات ١٨-٢٥.

وإن كنت **من الفئة الثانية**، وهم الذين أُوتوا حظاً من تذوق البيان، وشيئاً من إدراك الفصاحة والبلاغة، فدونك نصوص البلغاء، وأبيات الشعراء، وكلمات الخطباء، اختر منها ما شئت من أرقى عصور البلاغة، وأعلى صور البيان، ثم انظر في آية من آيات القرآن، ستجد البون شاسعاً، والفرق كما بين الثرى والثريا أو السماء والأرض.

فإن قلت: نعم، لقد نثرت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها، فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً، وقد آمنت أنه كما وصفتموه غير أن الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله، فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا، ونزداد إيماناً إلى إيماننا؟

قلنا: إن هذا أمر جسيم، ومرام بعيد لا يمكن رسمه في هذه العجالة ولو طالت، ولعلنا نذكر ما يقرب البعيد ويدنيه، ونتحدث عن أمرين:

أولهما: ألفاظه وهي القشرة البادية.

ثانيهما: معانيه وهي اللآلئ الكامنة.

فأول ما يلاقيك من ألفاظه خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

١ ـ دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حَقَّ ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، لا بنفس تاليه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغُنَّاتها، ووصلها وسكتها ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي سمعك، لا يعروك منه على كثرة ترداده ملل ولا سأم. هذا الجمال في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب،

فكيف يخفى على العرب أنفسهم. إنه النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادي النَّفَس فيه آناً بعد آن.

٢ ـ وإذا ما قربت أذنك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعَك جواهرُ حروفه خارجةً من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وعلاقاتها مع بعضها، فهذا يُنْقَر، وهذا يُصْفَر، وذاك يُهْمَس، وذلك يُجْهَر، وآخر ينزلق عليه النَّفَس، وآخر يحتبس عنده النَّفَس وهلُمَّ جراً، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة.

من هاتين الصفتين السابقتين تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة؛ فاقتضت حكمته تعالى أن يصون معاني القرآن الكريم السامية بألفاظ عذبة تغري بطلاوتها، وتكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها عناء السفر في طلبها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالَب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسةٌ تذوقُ، وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سِرِّه، وينفذون بها إلى بعيد غَوْره.

ثانياً: المعاني:

فإن لم يلهك جمال القشرة البادية عن سامي المعاني المستترة، فكشفت الصدفةَ عن دُرِّها، ونفذتَ من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيتَ ما هو أروع وأبدع، ولا تحسبن ذلك الأمر لا يظهر أمره إلا في مجموع القرآن، بل يظهر ذلك في القطعة منه، ويظهر في السورة، وسنعرض لك لمحة سريعة عن هاتين المرتبتين:

أولاً: بيان القرآن في قطعة قطعة منه:

فمن صفاته:

١ ـ القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى:

وهما طرفان متقابلان. الميل لأحدهما ميل عن الآخر، فمن أوجز في لفظه لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً، ومن يعمد إلى الوفاء بالمعنى، وإبراز كل دقائقه، لا يجد في قليل اللفظ ما يشفي صدره، فيسترسل استرسالاً يشعرك بتضاؤل قوة نشاطك، واضمحلال باعثة إقبالك؛ فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد وفاء الألفاظ بحق المعاني، واحتواء المعاني للألفاظ، بحيث لا يستغني معنى عن لفظة، ولا تقصر لفظة عن معنى، كما قال ابن عطية: «لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[1].

٢ ـ خطاب العامة وخطاب الخاصة:

وهما أيضاً غايتان متباعدتان، فما تخاطب به الذكي لا تخاطب به الغبي، وما تخاطب به الطفل لا تخاطب به الكبير، أدرك العرب ذلك وسدوا عجزهم عنه بعبارات مثل «لكل مقام مقال» ونحو ذلك.

وجاء القرآن الكريم وقد ملك الغايتين فهو قرآن واحد، يراه البلغاء أوفى كلام وأبلغه، ويراه العامة أحسن كلام وأوضحه.

٣ ـ إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

وفي كل إنسان قوتان:

---

(١) المحرر الوجيز: ابن عطية، جـ١، ص٦٠-٦١.

أ - قوة تفكير.

ب - قوة عاطفة ووجدان.

والقوة الأولى تغوص باحثة عن الحقائق المستترة والمعاني الباطنة، وأما الثانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر في القشرة البادية. والنفس الإنسانية إما أن تغوص مع تلك أو تطفو مع هذه، ولا تستطيع أن تغوص وتطفو في آن واحد أو لحظة واحدة.

وحين تظهر (قوة الوجدان) تضعف (قوة التفكير) فلا يتقن عقله فكراً فإن وَفَى المتكلمُ بحق العقل بخس حق العاطفة، وإن وَفَى بحق العاطفة بخس حق العقل، فإما أن يأتي بكلام علمي مجرد يرضي به عقله، أو بكلام أدبي منمق يرضي به عاطفته، حتى بات الناس يقسمون الأساليب إلى نوعين لا ثالث لهما:

أ - أسلوب علمي.

ب - أسلوب أدبي.

وقسمت الدراسة في عصورنا هذه إلى علمية أو أدبية؛ فلا تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء، وما كلام المتكلم إلا نتاج قوته، إما قوة التفكير، وإما قوة الوجدان، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

حاشا القرآن الكريم الذي جمع (قوة الحقيقة البرهانية) (وقوة المتعة الوجدانية) تدبروا في آيات القرآن الكريم فسترون أنها في معمعة البراهين والأحكام لا تنسى نصيب القلب والوجدان، ذلك أنها كلام الله رب العالمين الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤ ـ البيان والإجمال:

وهما أيضاً أمران متقابلان لا يكادان يجتمعان في كلام، إنْ وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثاني تلاشى الأول. فكلام البشر إما أن يكون مجملاً، وإما أن يكون مبيناً، وأنى له أن يكون مجملاً مبيناً في آن واحد.

أما القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى فالأمر غير ذلك، تقرأ الآية القرآنية فتجد فيها من الوضوح والظهور ما يبوئها الدرجة العليا في البيان بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض، يسبق معناها إلى نفسك دون كد ذهن، ولا إعادة تلاوة، فإن أعدت النظر مرة أخرى، لاح لك منها معانٍ جديدة، فإن زدت التدبر زاد العطاء، وانكشف لك ما يجعلك توقن أن في الآية (إجمالاً) لمعانٍ عديدة مع بيان ووضوح.

ثانياً: بيان القرآن في سورة سورة منه:

وهي أيضاً مرتبة من مراتب البيان في القرآن لها صفات وخصائص أهمها:

الكثرة والواحدة:

فالكلام هو مرآة المعنى، فإن ساء نظمه، تبددت معانيه كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة المهشمة أو غير المستوية السطح.

ولا بد لإبراز المعنى ووضوحه من إحكام ألفاظه، وإتقان بيانه، وذلك بتمام التقارب بين كلماته، والترابط بين جمله، حتى تتماسك وتتعانق أشد ما يكون التماسك وأقوى ما يكون العناق.

وليس ذلك بالأمر الهيّن، بل هو مطلب شاق يحتاج إلى مهارة وحذق، ولطف وحس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تتمة، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم، ثم اختيار أحسن الطرق للمزج بينها بالإسناد أو التعليق أو بالعطف، وغير ذلك من أسباب الترابط، ذلك حال

المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، كم تحتاج من المهارة والحذق؟ ولهذه المشقة نرى كثيراً من البلغاء حين ينتقل من معنى إلى معنى لا يستغني عن استعمال بعض الأدوات لسد الثغرة التي يحدثها الانفصال بين المعاني، من نحو قولهم: (وبعد) أو (ونعود) أو (ننتقل إلى الحديث عن) أو (وسنتحدث) أو (بقي علينا) ونحو ذلك. . .

وهذا شأن البلغاء في الحديث الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو جاء حديثه في أماكن مختلفة، وأزمان متباعدة، ألا تكون سمات الانفصال وظواهر الانقطاع أقوى وأشد.

حاشا القرآن فقد اشتملت السورة منه على وصف، وقصص، وتشريع، وجدل، وعقائد، وأمر، ونهي، ونزلت السورة في أوقات مختلفة وأزمان متباعدة، ورتبت آياتها بطريقة عجيبة، يرسم مكان الآية ويحدد قبل أن تنزل الآية التي قبلها أو التي بعدها، ثم لا يحدث أن تنقل من موضعها إلى آخر، فإذا نزل ما حولها من الآيات رأيت الترابط والتلازم كأنهن قطعة واحدة، بل رأيتهن مع بقية آيات السورة كأنهن سبيكة واحدة، فلا تجد فرقاً، ولا يستبين لك أمر في معرفة ما نزل من السورة منجماً، وما نزل منهن مفرقاً، فجاءت الكثرة الكاثرة من المعاني في السورة كأنهن معنى واحداً أو آية واحدة محكمة السبك متقنة السرد[1][2].

---

(١) إن شئت دراسة وافية دقيقة لنموذج تطبيقي لهذا المعنى فانظر ما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز عن الكثرة والواحدة في سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم من ص١٤٢ إلى نهاية الكتاب.

(٢) إلى هنا انتهى ما اقتبسته مما كتبه في هذا الموضوع الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم «النبأ العظيم» من ص٩٢، ولمزيد بيان انظر ما كتبه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» جـ٢، ص٣٢٥-٣٥٣. والأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ص٢١٣-٣٠٩.

الإعجاز العلمي:

القرآن الكريم كلام الله، والكون كله من خلق الله، ولا يشك مؤمن في التطابق التام بين كلام الله تعالى وبين حقائق هذا الكون ونظامه.

ولا ريب أن المؤمن حين يقرأ اكتشافاً علمياً جديداً أثبته العلماء بالبرهان القاطع، ثم يجد ذلك مذكوراً في القرآن أو ما يوافقه، فإنه يشعر بزيادة الطمأنينة القلبية كالتي طلبها إبراهيم عليه السلام، وبفرح وسرور كفرح الرسول ﷺ بحديث الجساسة[1].

لكن هذه المقارنة أو التوفيق بين النص القرآني الكريم والاكتشاف العلمي الجديد ينبغي أن تكون له ضوابطه، وأن تكون له موازينه. ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء في التفسير العلمي للقرآن الكريم بين مؤيد ومعارض.

المراد به:

يراد بالتفسير العلمي: «اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم ومكتشفات العلم التجريبي، والربط بينهما بوجه من الوجوه» وهذا تعريفه بما هو عليه، أما تعريفه بما ينبغي أن يكون عليه فهو: «كشف الصلة بين النصوص القرآنية وحقائق العلم التجريبي».

والفرق بينهما أن في الأول خلطاً بين النظريات والحقائق، بحيث نجد كثيراً من المفسرين يفسرون القرآن بهما من غير تحقيق، وما ينبغي أن يكون هو التمييز بين النظريات والحقائق، والاقتصار على الثانية دون الأولى في تفسير القرآن الكريم.

---

(١) انظر حديث الجساسة في صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٢٦١.

أقوال العلماء في الإعجاز العلمي[1]:

مما لا شك فيه أن مثل هذا اللون من التفسير في جدته وتجدده سيكون له خصوم، وسيكون له أنصار، يلتمس كل منهم دليلاً، ينصر به رأيه، ويؤيده به، ثم يكر على دليل الخصم فيبطله.

وقد كان هذا الأمر في التفسير العلمي للقرآن الكريم منذ لحظات بزوغه، ونحن وإن كنا لا نعرف هذا الحدث باليوم أو بالسنة، إلا أن العلماء اتفقوا على أنَّ الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ من أوائل المتكلمين في هذا النوع من التفسير، وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري، واتفقوا أيضاً على أن الغزالي نفسَه أكثر من استوفى بيان هذا القول إلى عهده[2].

ومما لا شك فيه أن الغزالي لم يكن وحيداً في الميدان يجول ويصول، فقد نزل معه أنصار ونازله خصوم، وما زالت المعركة قائمة لم يهدأ لها بال، ولم تقعد لها قائمة، وانقسموا إلى فريقين أو ثلاثة:

١ ـ المؤيدون للتفسير العلمي.

٢ ـ المعارضون.

٣ ـ المعتدلون.

---

(١) نقلت هذا المبحث بتصرف يسير من كتابي اتجاهات التفسير، جـ٢، ص: ٥٥٠، وما بعدها.

(٢) انظر مثلاً: التفسير معالم حياته: أمين الخولي، ص٢٠، والتفسير والمفسرون: الذهبي، جـ٣ ص١٤٠، ولمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، ص٢٠٣، والتفسير العلمي للقرآن الكريم: عبد الله الأهدل، ص١٨٥، واتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبد المجيد المحتسب، ص٢٤٧، وغيرهم.

المؤيدون للتفسير العلمي:

ومن المؤيدين للتفسير العلمي الإمام الغزالي، الفخر الرازي، الزركشي، السيوطي، البيضاوي، نظام الدين النيسابوري، ومن المعاصرين الألوسي، وطنطاوي الجوهري، والإسكندراني، والكواكبي، ومحمد فريد وجدي، والرافعي، والقاسمي وغيرهم.

من أدلة المؤيدين للتفسير العلمي:

استدل المؤيدون للتفسير العلمي بأدلة كثيرة منها[1]:

١ ـ الاستدلال بظاهر عموم بعض الآيات:

كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[5] وغير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكر والتدبر في خلق الله عز شأنه.

٢ ـ الاستدلال بظاهر عموم بعض الأحاديث والآثار:

كحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم...» الحديث[6].

---

(١) نقلت هذه الأدلة بتصرف من بحث «التفسير بمكتشفات العلم التجريبي» للدكتور محمد الشايع، مجلة جامعة الإمام، العدد الرابع ١٤١١هـ، ص٣٧-٤٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٤) سورة قٓ: الآية ٦.

(٥) سورة فصلت: الآية ٥٢.

(٦) رواه الترمذي جـ٥، ص١٧٢، سبق تخريجه ص٥٢.

وما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين»[1].

٣ ـ وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالهم جائزاً لما ملأ الله كتابه منها[2].

٤ ـ أن العلم الحديث قد يكون ضرورياً لفهم بعض المعاني القرآنية، وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهماً دقيقاً متوقفاً على تقدم بعض العلوم، فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى، فيتعين أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية.

٥ ـ تحقق فوائد كثيرة ومنافع كبيرة من التفسير العلمي منها[3]:

أ ـ إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم بإثبات التوافق بين حقائق القرآن الكريم وحقائق العلم.

ب ـ استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به ببيان إعجاز القرآن العلمي، وإقامة الحجة عليهم بذلك.

جـ ـ امتلاء النفوس إيماناً بعظمة الله جل جلاله وعظيم سلطانه وقدرته بعد الوقوف على أسرار الكون التي كشفها القرآن.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٢٦.

(٢) تفسير الرازي، جـ٤، ص١٢١.

(٣) انظر كتابي «اتجاهات التفسير»، جـ٢، ص٦٠٢.

المعارضون للتفسير العلمي:

ومن المعارضين للتفسير العلمي أبو حيان الأندلسي، والشاطبي، ومحمود شلتوت، وأمين الخولي، وسيد قطب وغيرهم.

من أدلة المعارضين[1]:

واستدل المعارضون للتفسير العلمي بأدلة منها:

١ ـ أن للتفسير شروطاً وقيوداً قررها العلماء ينبغي الالتزام بها، فلا يكون تفسير القرآن مباحاً لكل من حصل علماً من العلوم، وغابت عنه علوم أخرى لا بد منها للمفسر. ومن ذلك عدم تحميل ألفاظ القرآن معاني وإطلاقات لم توضع لها ولم تستعمل فيها.

٢ ـ أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وليس بكتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته، ودقائق الاكتشافات والمعارف، ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

٣ ـ أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه من المعاصرين؛ لأن عملية التوفيق تفترض غالباً محاولة للجمع بين موقفين يتوهم أنهما متعاديان ولا عداء، أو يظن أنهما متلاقيان ولا لقاء[2].

٤ ـ أن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني؛ لأنه يحس بالضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة، فيتعجل تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلاً غير مشروع.

---

(١) انظر كتابي اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، جـ٢، ص٦٠٢-٦٠٣، والتفسير بمكتشفات العلم التجريبي: د. محمد الشايع، ص٢٨-٣٣.

(٢) معالم الشريعة: د. صبحي الصالح، ص٢٩٠.

٥ ـ أن ما يكشف من العلوم إنما هو نظريات وفروض قابلة دائماً للتغيير والتبديل، والتعديل، والنقض، والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات؛ حتى لا نقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية.

الرأي المختار[1]:

قبل أن نذكر ما نراه صواباً يجب أن نذكر حقيقة ينبغي إدراكها وهي التفريق بين التفسير العلمي، والإعجاز العلمي. فالأول هو مثار البحث والمناقشة، وأما الثاني فقضية مسلمة لا نزاع فيها.

ذلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضاً كلهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضاً، بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلبوها دراسة وتأملاً، وتدبراً، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه.

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين، فما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وعوامض المعارف، وأسرار الكون، وخفايا العلم، وبذا يظفر بهذه السمة.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك، لكنه وقد أُنزل قبل أربعة عشر قرناً من الزمن عرض لكثير من مظاهر هذا الكون كخلق السموات والأرض وخَلْقِ الإنسان، وسَوْقِ السحب وتراكمها، ونزول المطر، وجريان

---

(١) نقلته بتصرف من كتابي اتجاهات التفسير، جـ٢، ص٦٠٠-٦٠٤.

الشمس، وتحدث عن القمر والنجوم والشهب، وأطوار الجنين. وعن النبات والبحار وغير ذلك كثير، ومع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته[1]، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازاً علمياً للقرآن، حتى ولو لم يتم الربط بين الآية والاكتشاف العلمي الحديث.

وهذا أمر يدركه ويقره كل العلماء، لا ينكره أحد، فالإعجاز العلمي في القرآن متحقق مدرك ثابت، لا خلاف فيه.

ثم انقسم العلماء بعد ذلك إلى قسمين: فمنهم من قال: ما دام الإعجاز العلمي متحققاً في القرآن وثابتاً فما علينا أن نطبقه بين آياته واحدة واحدة وبين الحقائق العلمية واحدة واحدة. وامتنعت طائفة أخرى عن تطبيقه لا خوفاً عليه من النقض، وليس لخشية على حقائقه، ولكن لعدم الثقة في مداركنا نحن البشر، فقد نحسب نظرية علمية حقيقة علمية، فما تلبث إلا قليلاً حتى تتقوض بعد رسوخ، وتتزعزع بعد ثبوت، ولات حين مناص نقع في الحرج الشديد، فيُكَذَّبُ القرآن وهو الصادق، فتكون البلية، فالعيب والنقص في مداركنا وليس في حقائق القرآن.

وبهذا ندرك أن الجميع يقول بالإعجاز العلمي في القرآن، لكن منهم من قال بجواز التفسير العلمي، ومنهم من منعه، والذي نراه صواباً هو الوسط بين الفريقين.

فلا رفض ولا إنكار للتفسير العلمي يمنع من إدراك وجوه الإعجاز الجديدة، ويدفع مزاعم القائلين بالعداوة بين الدين والعلم، ويمنع من استمالة غير المسلمين، أو يحث على الانتفاع بقوى الكون.

---

(١) انظر كتابي «خصائص القرآن الكريم» ص٧٥-٧٦.

ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي لأن إعجاز القرآن ثابت وغني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك، كما أن الدعوة إلى النظر في الكون دعوة لمواضع العبرة والعظة، وليس بالضرورة إلى بيان دقائقها وكشف علومها، ولأن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه، وأن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ القرآن، ويحملها ما لا تحتمل، فضلاً عن أن ما يكشف من العلوم إنما هو فروض ونظريات قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة.

إذاً فلا رفض مطلق، ولا قبول مطلق، بل وسط بين طرفين، وجمع بين حقيقتين: حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين.

لهذا فلا بأس ـ فيما أرى ـ من إيراد الحقائق العلمية الثابتة في تفسير القرآن بشروط:

١ ـ ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن، وهو الهداية.

٢ ـ أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.

٣ ـ أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية.

٤ ـ أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني. ذلك أن تفسير النص

القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان[1].

فإذا تحققت هذه الشروط فلا مانع من إيراد الحقائق العلمية في كتب التفسير، والله أعلم.

من المؤلفات في الإعجاز العلمي:

هناك مؤلفات كثيرة في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أذكر منها:

١ ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري.

٢ ـ كشف الأسرار النورانية القرآنية: محمد بن أحمد الإسكندراني.

٣ ـ القرآن ينبوع العلوم والعرفان: علي فكري.

٤ ـ ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان: محمود شكري الألوسي.

٥ ـ التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد.

والمؤلفات في ذلك كثيرة جداً، وهناك محاضرات وأفلام على هذا النحو، كما أُنشِأت في المملكة العربية السعودية هيئة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة تابعة للمجلس الأعلى للمساجد، تعقد الندوات والمحاضرات، وتطبع الكتب المتعلقة بذلك.

أمثلة للتفسير العلمي:

والأمثلة على الحقائق العلمية والآيات القرآنية التي توافقها ولا تخالفها كثيرة ليس بوسعنا أن نوردها بالتفصيل، بل نذكر الآية وما تشير إليه بإيجاز شديد، ومن أراد التوسع فدونه كتب الإعجاز العلمي:

---

(١) مجلة كلية أصول الدين، العدد الثاني ص٥٨، مقال: نظرات في مدرسة التفسير الحديثة. د. مصطفى مسلم.

١ ـ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[١] تفريق بين الشمس والقمر ثم أدركه العلماء بعد ذلك.

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[٢] إشارة إلى شكل الجبل الظاهر والباطن، وأدركه العلماء بعد ذلك.

٣ ـ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[٣] إشارة إلى مراحل خلق الإنسان في الرحم، ولم يدركها العلماء إلا في العصور الحديثة.

٤ ـ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[٤] إشارة إلى موضع تكوُّن النطفة، وهو أمر لم يدركه العلماء إلا حديثاً.

٥ ـ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[٥] في تخصيص البنان بالذكر صفة تميزه عن غيره من أعضاء الجسم لم يكتشفها العلم إلا حديثاً، وهو علم البصمات.

٦ ـ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[٦] إشارة إلى مركز الحس بالألم في الإنسان وهو الجلد.

---

(١) سورة يونس: الآية ٥.

(٢) سورة النبأ: الآيتان ٦-٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٤) سورة الطارق: الآيتان ٥-٧.

(٥) سورة القيامة: الآية ٤.

(٦) سورة النساء: الآية ٥٦.

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] إشارة إلى ضيق صدر مَن يصعد إلى السماء، وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا حديثاً حيث يقل الأوكسجين وينخفض الضغط.

٨ ـ وفي قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[2] إشارة إلى ما اكتشف العلم الحديث بعضه من عظمة هذا الكون واتساعه الذي يقصر عن إدراكه إنسان.

٩ ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[3] إشارة إلى ما كان مجهولاً من تحديد مصدر اللبن في الأنعام.

١٠ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾[4] إشارة إلى أن الإنسان يخلق من جزء ضئيل جداً (نطفة) من المني، وهذا ما كشفه العلم الحديث.

وسبحان الذي أحاط بكل شيء علماً...

الإعجاز التشريعي:

والمراد بهذا الوجه ذلكم (التشريع) الذي جاء به القرآن الكريم الشامل الكامل المحكم المتقن.

(شامل) لكافة أوجه التشريع، سواء ما يتعلق منها بالفرد أو في المجتمع، وسواء أكان في العقيدة أو العبادة أو المبادئ والأخلاق، أو

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٧٥-٧٦.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٦.

(٤) سورة القيامة: الآية ٣٦-٣٧.

الاجتماع، أو الاقتصاد، أو السياسة في السلم أو الحرب، في السفر أو الحضر، في الليل أو النهار.

(كامل) لاستيفائه لدقيق المسائل وجليلها، وصغيرها وكبيرها.

(محكم متقن) لا نقص فيه ولا عيب، ولا قصور ولا خلل.

أحكم تشريع، وأكمل نظام، عجز البشر ولا زالوا عن الإتيان بمثل تشريعه، أو الإتيان بمثل سياسته أو نظامه فحين ننظر في التشريعات البشرية والقوانين الوضعية نرى البون الشاسع بين هذا وذاك مما يكشف لنا وجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

فهذا التشريع بشموله وكماله وإحكامه أكبر من أن تحيط به العقول البشرية في جيل واحد أو في مجموعة من الأجيال، فضلاً عن أن يحيط به عقل بشري واحد في جيل واحد.

وليس من السهل أن نرسم في أسطر معالم هذا التشريع المعجز، ولكنها إشارة مجرد إشارة بأصبع صغير إلى شيء عظيم. فنشير إلى أن القرآن نزل في مجتمع جاهلي سادت فيه الجاهلية العقدية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وليس من السهل في مثل هذا المجتمع نقد أمر من أمورها فضلاً عن تغييره، أو قلب الأمور كلها، فسلك القرآن مسلكاً عجيباً.

منهج القرآن في التشريع:

يقوم منهج القرآن في التشريع على أسس منها:

أولاً: تربية الفرد:

ومن شأن كل بناء أن يبدأ بالقطع الصغيرة يصفها بعضها إلى بعض حتى يصبح بناء عظيماً، والأفراد هم لبنات المجتمعات، وتهذيب الأفراد وتربيتهم تأسيس لبناء محكم متقن. ومن أسس هذه التربية:

١ ـ تطهير قلبه من أدران الشرك:

ببيان أن هذه الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع فلا تستحق العبادة، ووبخهم وشنع عليهم ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[٥] وهكذا في آيات كثيرة كشف أحوال هذه الأصنام والأوثان التي يدعونها من دون الله، وبسط الأدلة على عدم استحقاقها للعبادة، فطهر قلوبهم من أدران الشرك.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧١.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٣.

(٣) سورة الأعراف: الآيات ١٩١-١٩٥.

(٤) سورة سبأ: الآية ٢٢.

(٥) سورة فاطر: الآية ١٣.

٢ ـ غرس عقيدة التوحيد:

وبعد أن نزع منهم عقيدة الشرك غرس في الأرض الطيبة عقيدة طيبة، وبعد أن نزع من قلوبهم عبادة الأصنام دعا إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له، مثبتاً استحقاقَه سبحانه للعبادة وحدَه دون سواه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾(٢)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾(٤).

ثم بين الوحدانية ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥)، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾(٦)، ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾(٧).

وحذر من أن يشرك به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(٨)، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا

---

(١) سورة الرعد: الآيتان ٢-٣.

(٢) سورة الملك: الآية ٣٠.

(٣) سورة الملك: الآية ١٩.

(٤) سورة الأعلى: الآيات ١-٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٧) سورة الصافات: الآية ٤.

(٨) سورة النساء: الآية ٤٨.

بَعِيدًا﴾[1]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2]، ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[3]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[4].

وإذا كان سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له فالعبادة حق له سبحانه وحدَه، ويجب الإذعان والإسلام له ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾[5]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[6]، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[7]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[8]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾[9].

٣ ـ التربية بالعبادة:

وانتقل القرآن بالفرد من صحة العقيدة إلى صحة العبادة، فشرع العبادات التي تهذب سلوك الفرد، وتربطه بربه في كل شأن من شؤونه ومنها:

أ ـ الصلاة:

وهي صلة بين العبد وربه، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي لقاء يومي بين المسلم وإخوانه خمس مرات في اليوم، ولقاء أسبوعي مع آخرين

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٢.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

(٥) سورة الحج: الآية ٣٤.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٨) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٩) سورة الأنعام: الآية ١٠٢.

منهم في يوم الجمعة، ولقاء سنوي كالعيدين، وهي مدعاة للترابط والشعور بالمسؤولية المشتركة في بعضها كصلاة الكسوف والخسوف والاستسقاء.

وهي علاج لما نلاحظه في عصرنا هذا من تفكك اجتماعي بين الجيران، حيث لا يكاد الجار يعرف جاره حتى اسمه. أرأيتم لو كان هؤلاء الجيران يلتزمون بهذه الشعيرة بأدائها في مسجد واحد خمس مرات في اليوم هل سينكر بعضهم بعضاً، أو يقع بينهم هذا التقاطع.

ب ـ الزكاة:

وهي تطهير للنفس من الشح والبخل أولاً، وكبح للنفس في لهاثها خلف المادة، وتعليم وأي تعليم أن المال وسيلة وليس بغاية، وتربية للنفس على الإحساس بمعاناة إخوانه المسلمين ومواساتهم، وإعانتهم على قضاء حوائجهم.

جـ ـ الصيام:

كبح لجماح النفس عن شهواتها، وتقوية للتحكم في رغباتها، وترويض لها على الصبر على الطاعات، والاعتدال في الملذات، حتى يسهل انقيادها لصاحبها، فلا تجمح به إن رام خيراً، أو تشرد به إلى الآفات والشرور.

وهو أيضاً تذكير للمسلم بحالة إخوانه الفقراء المحتاجين، فإن كان المانع له عن الأكل والشرب في هذا الشهر هو التعبد، فهناك مَن يمنعهم طول العام مانع آخر هو الفقر.

د ـ الحج:

وهو عبادة مالية، بدنية، وفي الأولى بذل للمال لركوبه، وزاده، وسكنه، وهديه، وغير ذلك. وفي هذا مثل ما في الزكاة، وفي الثانية تربية للنفس على تحمل المشاق، وترك ما اعتادت في إقامتها من دعة أو سكون، وتعويد

لها على الصبر على حرارة الصيف أو برد الشتاء، وعلى الحلول والارتحال، وتغيير المبيت، وكثرة التنقل أشبه ما يكون في جيش المجاهدين في سبيل الله، ولا تخفى آثار ذلك وفوائده.

وهو فوق هذا لقاء سنوي بين جموع المسلمين من شتى أقطار الأرض، يتفقد فيه بعضهم أحوال بعض، ويعرف بعضهم بعضاً فيشعر بالأخوة الإسلامية بأبعادها، ويعاني بعض معاناتهم.

٤ ـ التربية بتهذيب السلوك:

وبعد تنقية القلب من أدران الشرك، وغرس العقيدة الصحيحة، وتوثيق الصلة بين العبد وربه، رسم بحكمة العلاقة بين العباد، وجعلها تقوم على المحبة والمودة، ونهى عن كل ما يؤدي إلى ضعفها أو وهنها. ونرى معالم هذه التربية في صور منها:

أ ـ تزكية النفس:

وذلك يكون بإلزامها بالآداب الحميدة والأخلاق الفاضلة، فأمر بالصبر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ . . .﴾ الآية[1]، ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ. . .﴾ الآية[2]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[3].

وأمر بالصدق ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ. . .﴾ الآية[4]، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[5]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

وأمر بالعدل والإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]، ونهى عن الأخلاق السيئة كالتبختر ورفع الصوت ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ﴾[2].

وأمر بغض البصر وحفظ الفرج ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾[3].

ب ـ توثيق أواصر الصلة بين العباد:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾[4]، وأمر بالتآخي ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[5]، وبالتعاون ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[6]، وأمر بأداء الأمانة والعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾[7].

جـ ـ نهى عن كل ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف:

فنهى عن السخرية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ...﴾ الآية[8] ونهى عن سوء الظن والغيبة والتجسس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٨-١٩.

(٣) سورة النور: الآية ٣٠.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٥) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٦) سورة المائدة: الآية ٢.

(٧) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٨) سورة الحجرات: الآية ١١.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[1] ونهى عن شهادة الزور وقول الزور ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2].

وبهذا يكتمل بناء الفرد، ويصبح لبنة صالحة لبناء أسرة صالحة، قائمة على أسس ثابتة، وقواعد راسخة.

ثانياً: بناء الأسرة:

ومن بناء الفرد وتهذيبه، وإصلاحه وتقويمه إلى بناء الأسرة الواحدة المترابطة المتماسكة، وشرع لها نظامها وأسسها فمن ذلك:

أ ـ الزواج:

وهو الطريق الصحيح إلى بناء الأسرة، والأرض الصلبة التي يقوم عليها البناء، ولأهمية هذا الأمر وضرورته، وحتى يجد الناس كلهم الدافع القوي لذلك جعل غريزة الجنس من أقوى الدوافع لسلوكه، فهذبها بالزواج، وحظفها بالآداب.

وبين ما للزوج على زوجته من حقوق وما للزوجة على زوجها من حقوق ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[3].

وجعل القوامة للرجل ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[4] والقوامة هنا لا تعني التسلط، ولو أدركت النساء في عصرنا هذا معنى القوامة حقاً لطالبن الرجال بالقوامة عليهن وأدائها، وأصررن على قيام الرجل بها، وحُقَّ لهن ذلك.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٣٤.

ب ـ تربية الأولاد:

ومن أسس بناء الأسرة حسن تربية الأولاد، فهم أمانة في أعناق الآباء لهم حقوقهم في حسن التربية، والرعاية والنفقة حتى وهو في بطن أمه المطلقة.

جـ ـ بر الوالدين:

وكما أمر الآباء بأداء حق الأولاد، أمر الأبناء أيضاً ببر الوالدين، وأوصى بذلك ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[2].

فإذا أدى الزوج حق زوجته، وأدت الزوجة حق زوجها، وأدى الابن حقوق والديه، وأدى الآباء حقوق الأبناء، أصبحت الأسرة متماسكة مترابطة تصلح وأي صلاح لبناء مجتمع قوي.

ثالثاً: بناء المجتمع:

وإذا كان بناء الأسر يقوم على بناء الأفراد وهم لبناته، فإن بناء المجتمعات يقوم على هذه الأسر، وقد رسم القرآن نظام هذا المجتمع ووضع له أسسه ونظامه فشرع لذلك:

١ ـ الحكومة الإسلامية:

إذ لا يستقيم لمجتمع أن يظل على ترابطه ما لم يكن له حكومة تسوسه وترعاه، وتتفقده وتحميه وتنظم شؤونه، وترتب أموره، وجعل لهذه الحكومة نظامها وقواعدها فمن ذلك:

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

أ ـ الشورى:

وقد أمر الله بذلك نبيه، ومن باب أولى ولاة الأمر من بعده ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] ولأهمية الشورى سميت سورة كاملة باسمها.

ب ـ الحكم بما أنزل الله:

ويجب على هذه الحكومة أن تحكم بما أنزل الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[3]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[4]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[5].

جـ ـ العدل:

الذي لا يفرق بين حاكم ومحكوم، وكبير وصغير، وغني وفقير، وعربي وعجمي، وأسود وأبيض، إلا بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[6]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٥) سورة المائدة: الآية ٤٧.

(٦) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٧) سورة النحل: الآية ٩٠.

حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[1] وهو عدل لا يتأثر بغضب أو كره أو حقد ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[2].

د ـ المحافظة على الكليات الخمس:

وعلى الحكومة الإسلامية المحافظة على الكليات الخمس، وهي: (النفس، الدين، العرض، المال، العقل) ففي النفس القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[3]، ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾[4].

وفي العرض: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ ﴾[5]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً ﴾[6].

وفي المال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾[7].

وحرم ما يزيل العقل ولو إلى حين كشرب الخمر، وفي الدين حرم الردة عن دين الله والعياذ بالله، وأوجب الله في هذا وذاك العقوبات الصارمة.

هـ ـ تنظيم العلاقات الدولية:

وعلى الحكومة الإسلامية أن تنظم علاقات هذا المجتمع الإسلامي بالمجتمعات الأخرى في حالة الحرب والسلم وما يتعلق بذلك من تشريع الجهاد وتنظيمه، والغنائم وأحكامها والمعاهدات وغيرها.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٥) سورة النور: الآية ٢.

(٦) سورة النور: الآية ٤.

(٧) سورة المائدة: الآية ٣٨.

٢ ـ ومما شرعه القرآن لبناء المجتمع السمع والطاعة لولي الأمر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[1] وعندما يتدبر المسلم هذه الآية ويكرر تلاوتها، سيجد الإلحاح والحث على الطاعة لما في العصيان والتمرد من أثر سيئ ليس على الفرد بل على بناء المجتمع كله.

٣ ـ تحريم الخروج على جماعة المسلمين:

وكما حرم الخروج على ولي الأمر ما لم نر كفراً بواحاً حرم الخروج على جماعة المسلمين ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنٗا... ﴾ الآية[2].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفْرٗا وَتَفْرِيقَۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ الآية[5].

وبهذا كله يتم بناء المجتمع وترابطه، واتحاده وقوته ويصبح للمسلمين قوة ولهم شأن عظيم.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.

(٤) سورة الروم: الآيتان ٣١-٣٢.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٧.

بهذا المنهج التشريعي الحكيم جاء القرآن الكريم، فدرسه العلماء وتدبروه، وتفكروا فيه وخرجوا بنتيجة واحدة هي أن في تشريعه إعجازاً لا يمكن للبشر أن يخترعوه.

ويمكن أن نختم الحديث عن الإعجاز التشريعي بذكر أهم مزاياه فمنها[1]:

١ ـ أن التشريع مظهر لهداية القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2].

٢ ـ أنه خير تشريع، وأصدق حديث، وأعدل حكم:

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[3].

٣ ـ الشمول:

فهو في أحكامه شامل لجميع جوانب الحياة العقيدية والتعبدية، والاقتصادية والسياسية، والاجتماعية وغير ذلك.

٤ ـ وجوب العمل به:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[5].

---

(١) نقلتها بتصرف من كتاب البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي، ص٣٢٣-٣٢٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) سورة المائدة: الآية ٤٤.

٥ ـ تحريم أخذ بعضه وترك بعضه:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

٦ ـ اليسر:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾[5].

٧ ـ وجوب الإيمان بكمال التشريع وإحكامه:

لأنه من الله وهو أحكم الحاكمين ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾[6] والله أعلم.

* * *

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٤٠.

القراءات والقراء

القراءات لغة:

القراءات جمع قراءة، والقراءة مصدر سماعي لقرأ، تقول: قرأ يقرأ قراءة، وقرآناً وقرءاً، والقرء في اللغة الجمع والضم، تقول: قرأت الماء في الحوض، إذا جمعته، وسميت القراءة قراءة؛ لأن القارئ يجمع الحرف مع الحرف فتكون الكلمة، والكلمة مع الكلمة فتكون جملة، والجملة مع الجملة. فهو يقرأ يعني يجمع ذلك كله.

القراءات اصطلاحاً:

يخلط كثير من الباحثين بين تعريف القراءات وتعريف علم القراءات، والفرق بين القراءات وعلم القراءات كالفرق بين القرآن الكريم وعلوم القرآن الكريم.

فالقراءة: هي مذهب من مذاهب النطق بالقرآن الكريم؛ يذهب إليه إمام من الأئمة مذهباً يخالف غيره مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها[1].

ومذهب النطق بالكلمة القرآنية له مسميات هي:

قراءة، رواية، طريق، وجه.

فالقراءة: ما نسب إلى أحد أئمة القراءات إذا اتفقت الروايات والطرق عنه.

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٤١٠.

والرواية: ما نسب إلى الآخذ عن هذا الإمام ولو بواسطة.

والطريق: ما نسب إلى الآخذ عن الراوي ولو نزل.

والوجه: ما نسب إلى تخير القارئ من قراءة يثبت عليها وتؤخذ عنه[١].

قال السيوطي: «الخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم، واتفقت عليه الروايات والطرق عنه، فهو قراءة، وإن كان للراوي عنه، فرواية، أو لمن بعده فنازلاً فطريق، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخير القارئ فيه، فوجه»[٢].

تعريف علم القراءات:

وأما علم القراءات:

فهو: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقاً أو اختلافاً، مع عزو كل وجه لناقله[٣]، أو «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوّاً لناقله»[٤].

موضوعه:

كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها.

استمداده:

النقول الصحيحة والمتواترة من علماء القراءات إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر: البنا، جـ١، ص١٠٢.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٩٩.

(٣) البدور الزاهرة: عبد الفتاح القاضي، ص٥.

(٤) منجد المقرئين: ابن الجزري، ص٣، لطائف الإشارات: القسطلاني، ص١٧٠، وإتحاف فضلاء البشر: البنا، جـ١، ص٦٧.

حكمه:

فرض كفاية تعلماً وتعليماً.

ثمرته وفائدته:

العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها عن التحريف والتغيير، والعلم بما يقرأ به كل إمام من الأئمة القراء، والتمييز بين ما يُقرأ به، وما لا يُقرأ به.

مكانته:

علم القراءات من أَجَلِّ العلوم قدراً، وأعلاها منزلة، لاتصاله بأشرف الكتب السماوية وأفضلها على الإطلاق، وهو القرآن الكريم[1]، وشرف العلم من شرف المعلوم.

قال القسطلاني: فإن القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبْدؤها، ومبنى قواعد الشرع وأساسه، وأصل كل علم ورأسه، والاستشراف على معانيه لا يتحقق إلا بفهم وَصْفِهِ ومبانيه، ولا يطمع في حقائقها التي لا منتهى لغرائبها ودقائقها إلا بعد العلم بوجوه قراءته، واختلاف رواياته، ومن ثَمَّ صار علم القراءات من أَجَلِّ العلوم النافعات[2].

نشأة علم القراءات:

ليس هناك تاريخ مقطوع به عند العلماء لنزول القراءات، فمن المعلوم أن القرآن الكريم نزل أول ما نزل في غار حراء قبل الهجرة بنحو ثلاث عشرة سنة، أما القراءات نفسها فاختلف العلماء في بدايتها على قولين[3]:

---

(١) صفحات في علوم القراءات: عبد القيوم السندي، ص٢٣.

(٢) لطائف الإشارات لفنون القراءات: القسطلاني، ص٦.

(٣) انظر صفحات في علوم القراءات: عبد القيوم السندي، ص٢٨-٣٠.

الأول: أنها نزلت في مكة المكرمة؛ لأن الآيات منها ما هو مكي ومنها ما هو مدني، وفي المكي ما في المدني من تعدد القراءات. ولا دليل على نزول القراءات المكية في المدينة وانفرادها بالنزول؛ فتبقى على الأصل.

ويدل على ذلك حديث اختلاف عمر مع هشام بن حكيم رضي الله عنهما لأنهما اختلفا في قراءة سورة الفرقان، وهي مكية، فدل على أن نزول القراءات كان في مكة أيضاً.

الثاني: أنها نزلت في المدينة النبوية؛ لأن القراءات نزلت للتيسير على الأمة؛ بسبب اختلاف اللهجات، ولم تكن الحاجة إليها قائمة إلا بعد الهجرة؛ لدخول القبائل المجاورة والبعيدة في الإسلام، وغموض بعض الألفاظ التي بغير لهجتهم.

ولأن اختلاف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في القراءات كان في المدينة، ولم يثبت شيء من ذلك في مكة.

وهناك من جمع بين القولين؛ بأن بداية نزول القراءات كان بمكة مع بداية نزول القرآن، لكن الحاجة لم تدع إلى استخدامها؛ لوحدة اللغة في مكة وما جاورها (لسان قريش)، واختلاف اللهجات إنما حدث بعد الهجرة في المدينة حين دخلت في الإسلام قبائل متعددة بلهجات مختلفة.

وسواء كان نزول القراءات بمكة أو بالمدينة، إلا أنها مرت بمراحل حتى وصلت إلينا نستطيع أن نرسمها كما يلي:

المراحل التي مرَّ بها علم القراءات:

المرحلة الأولى:

تلقى الرسول ﷺ القراءات كما يتلقى سائر القرآن عن طرق جبريل عليه السلام، وأمره الله تعالى أن يقرأه على الناس ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2].

فبلغه الرسول ﷺ حق التبليغ، وكان يُقرِئهم القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي، وربما أقرأ صحابياً بحرف، وأقرأ آخر بحرف آخر، وكان كل صحابي يقرأ بما سمعه من الرسول ﷺ.

وأمر الرسول ﷺ أن يُقرِئ بعضُهم بعضاً، فكان إذا أسلم رجل دفعه إلى أحد الصحابة ليعلمه القرآن، وكان يرسل بعض أصحابه إلى القبائل لتعليمهم القرآن، وإذا هاجر رجل إلى المدينة دفعه الرسول ﷺ إلى مَن يحفظه القرآن؛ وبهذا تكونت جماعة من الصحابة عرفت بالقُرّاء، وحفظ القرآن عدد كبير من الصحابة.

المرحلة الثانية:

بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ارتدت كثير من قبائل العرب، فجهز الخليفة أبو بكر رضي الله عنه الجيوش لقتال المرتدين، وقتل في هذه الحروب عدد كبير من القراء؛ خشي الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، فجمعوه في مصحف واحد بجميع قراءاته.

المرحلة الثالثة:

بعد القضاء على المرتدين وانتهاء حروب الردة، اتجهت جيوش المسلمين لنشر الإسلام، فدخل في الإسلام أمم مختلفة، وانتشر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في البلدان المفتوحة يعلمون أهلها القرآن، وكان كل صحابي يعلم القرآن حسبما تلقاه عن الرسول ﷺ، ومن ثم اختلف النقل في التابعين وتلاميذهم، وكثرت القراءات وتنوعت، وتلقاها عدد كبير من التابعين.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

المرحلة الرابعة:

أن جماعة من التابعين وتابعي التابعين كرسوا حياتهم، وقصروا جهودهم على قراءة القرآن وإقرائه، وتعليمه وتلقينه، وعنوا العناية كلها بضبط ألفاظه، وتجويد كلماته، وتحرير قراءاته، وتحقيق رواياته، وكان ذلك شغلهم الشاغل وغرضهم الهادف، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم، ويرحل إليهم، ويؤخذ عنهم، وأجمع المسلمون على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم اثنان، ولتصديهم للقراءة وجمعهم لها نسبت إليهم[1].

قال القسطلاني: «ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد تلاوته، وفاقاً لبدعتهم، كمن قال من المعتزلة ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[2] بنصب الهاء، ومن الرافضة ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[3] بفتح اللام، يعنون أبا بكر وعمر، رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة، والأمانة في النقل، وحسن الدراية، وكمال العلم، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم فيما نقلوا، والثقة بهم فيما قرؤوا ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم»[4].

---

(١) انظر مع القرآن الكريم: د. شعبان إسماعيل، ص٣٩٠، وصفحات في علوم القراءات: السندي، ص٣٧.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

(٤) لطائف الإشارات: القسطلاني، ص٦٦.

قال ابن الجزري: «ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم، إنما هو من حيث إنه كان أضبط له، وأكثر قراءة وإقراءً به، وملازمة له، وميلاً إليه، لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتها المراد بها: أن ذلك القارئ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة، حسب ما قرأ به فآثره على غيره، وداوم عليه، ولزمه، حتى اشتهر وعرف به، وقصد فيه، وأخذ عنه؛ فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة: إضافة اختيار، ودوام ولزوم، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد»[1].

وكثر عدد القراء في الأمصار واشتهر في كل مصر عدد منهم:

ففي مكة:

مجاهد بن جبر، طاووس بن كيسان، عطاء بن أبي رباح، عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، ابن أبي مليكة وغيرهم.

وفي المدينة:

سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، عمر بن عبد العزيز، ابن شهاب الزهري، زيد بن أسلم، سليمان وعطاء ابنا يسار، وسالم بن عبد الله بن عمر وغيرهم.

وفي الكوفة:

علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، أبو عبد الرحمٰن السُّلَمي، والنخعي، والشعبي، وعمرو بن شُرَحبيل، والأسود بن يزيد، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

---

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٥٢.

وفي البصرة:

الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وقتادة بن دعامة السدوسي، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يَعمَر، وأبو العالية الرياحي، وجابر بن زيد، وأبو رجاء العطاردي وغيرهم.

وفي الشام:

المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان، وخليد[1] بن سعد صاحب أبي الدرداء، ويحيى بن الحارث الذماري، وعطية بن قيس الكلابي وغيرهم.

وغير ذلك كثير من القراء، حتى أصبحت القراءات وجمعها والعناية بها علماً مستقلاً كعلوم الشريعة الأخرى.

تسبيع السبعة:

وكما رأيت فإن القراء بلغوا المئات بل الآلاف من القراء الحفاظ المتقنين، وقد تصدى عدد من العلماء للكتابة والتأليف عن القراء، فألف أبو عبيدة (ت ٢٢٤هـ) كتاباً جمع فيه قراءات خمسة وعشرين قارئاً. وألف أحمد بن جبير الأنطاكي (ت ٢٥٨هـ) كتاباً جمع فيه قراءات خمسة من القراء، وألف أبو بكر الداجوني (ت ٣٢٤هـ) كتابه الثمانية، وألف ابن جرير الطبري (ت ٣٢٤هـ) كتابه (القراءات) وذكر فيه أكثر من عشرين قارئاً، وألف غيرهم كثير، إلا أن هذه المؤلفات لم تنتشر أو تشتهر.

---

(١) ورد في الإتقان أن اسمه (خليفة) والصواب ما جاء في «النشر في القراءات العشر» ص٨، وهو خليد بن سعد السلاماني. انظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» ١/ ٣١٠، و«لسان الميزان» ٣/ ٣٧٦ (٢٩٧٤).

فلما ألف أحمد بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) كتابه (السبعة) واقتصر فيه على جمع المتواتر من قراءات سبعة من القراء، وكان هو نفسه حجة في القراءات وإماماً ثقة ثَبْتاً، اشتهر كتابه وحظي بالقبول، وتداوله العلماء، واشتهر هؤلاء السبعة حتى توهم بعض الناس أن القراء سبعة، وأن القراءات سبع، وزاد التوهم فاعتقد آخرون أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة!!

وأخذ بعض العلماء على ابن مجاهد اختياره للسبعة؛ لما في ذلك من الإيهام، فقال أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي «لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كُلَّ مَنْ قَلَّ نظرُه أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر؛ (أي حديث الأحرف السبعة) وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة»[1].

وقال القَرَّابُ في «الشافي»: «التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين، فانتشر وأوهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد»[2].

وقد علل مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) سر اختيارهم سبعة فقال: ليكونوا على وفق مصاحف الأمصار السبعة، وتيمناً بأحرف القرآن السبعة، ثم قال: على أنه لو جعل عددهم أكثر أو أقل لم يمنع ذلك؛ إذ عدد القراء أكثر من أن يحصى[3].

وقد دافع كثير من العلماء عن ابن مجاهد رحمه الله تعالى في ذلك بأنه لم يقتصر على هؤلاء السبعة إلا بعد اجتهاد طويل ومراجعة متأنية في الأسانيد

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٦، والنشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٣٦.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٧.

(٣) الإبانة عن معاني القراءات: مكي بن أبي طالب، ص٥١.

الطوال، وكان موفقاً في اختياره الذي حظي بموافقة جمهور العلماء والقراء وتأييدهم؛ حيث إن كثرة الروايات في القراءات أدت إلى ضرب من الإضراب عند طائفة من القراء غير المتقنين، فقد حاول بعضهم أن يختار من القراءات لنفسه خاصة فينفرد بها، فقطع ابن مجاهد عليهم الطريق، ودرأ عن القراءات كيدهم، وعن القراء اضطرابهم، ومما يدل على نزاهته ـ رحمه الله ـ وحسن قصده أنه لم يسع إلى أن يختار لنفسه قراءة تحمل عنه، وحين سئل عن ذلك أجاب: «نحن أحوج إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا»[1].

وقد أطلت الحديث عن هذه المرحلة لأهميتها، وكثرة المؤلفات والقراء، واتساع علم القراءات فيها.

المرحلة الخامسة: مرحلة التدوين في القراءات:

اختلف العلماء في أول من ألف في علم القراءات، وذهب الكثيرون إلى أن أول من ألف في علم القراءات هو أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وقال ابن الجزري إنه الإمام أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) وقيل يحيى بن يعمَر (ت ٩٠هـ).

ثم ازدادت المؤلفات في القرن الثالث، وبلغت ذروتها في القرنين الرابع والخامس، ثم فتر التأليف بعد ذلك حتى القرن التاسع حيث قل التصنيف وصارت جهود العلماء تكاد أن تنحصر على شرح منظومة الشاطبي (ت ٥٩٠هـ).

---

(١) معرفة القراء الكبار: الذهبي، جـ١، ص٢١٧، وانظر صفحات في علوم القراءات: السندي، ص٥١، ٥٤.

ومن أهم المؤلفات في القراءات قديماً وحديثاً:

وهي كثيرة جداً لا يمكن استيفاؤها ولا يسعنا إلا ذكر النزر اليسير منها:

١ ـ السبعة: لأبي بكر أحمد بن محمد بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، وقد طبع بتحقيق د. شوقي ضيف.

٢ ـ التذكرة في القراءات الثمان: لابن غلبون (ت ٣٩٩هـ)، طبع بتحقيق أيمن سويد في مجلدين.

٣ ـ المبسوط في القراءات العشر: لأبي بكر بن مهران (ت ٣٨١هـ)، طبع في مجلد واحد بتحقيق سبيع حمزة حاكمي.

٤ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع لأبي محمد مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ).

٥ ـ التيسير في القراءات السبع: لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) طبع في مجلد واحد.

٦ ـ الإقناع في القراءات السبع: لأبي جعفر ابن الباذش (ت ٥٤٠هـ)، طبع بتحقيق د. عبد المجيد قطامش في مجلدين.

٧ ـ حرز الأماني ووجه التهاني المعروفة بـ (الشاطبية)، وهي منظومة للإمام القاسم الشاطبي (ت ٥٩٠هـ) نظم فيها كتاب التيسير للداني، وشرحها عدد من العلماء وطبعت كثيراً.

٨ ـ الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع: عبد الفتاح القاضي (ت ١٤٠٣هـ).

٩ ـ معرفة القراء الكبار: لأبي عبد الله الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، طبع في مجلدين بتحقيق محمد سيد جاد الحق.

١٠ـ غاية النهاية في طبقات القراء: لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، طبع في مجلدين، واعتنى به المستشرق ج. برجستراسر.

شروط القراءة الصحيحة:

وضع علماء القراءات شروطاً أو ضوابط للقراءة الصحيحة، جمعها ابن الجزري وحررها، وفصل القول فيها حتى صارت تنسب إليه واقترنت باسمه. قال في الطيبة:

فَكُلُّ ما وافقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وكانَ للرَّسْمِ احْتمالاً يَحوِي
وصحَّ إسناداً هُو القرآنُ ... فهذه الثلاثةُ الأركانُ
وحيثُما يَخْتَلُّ رُكْنٌ أثْبِتِ ... شُذوذَه لو أنه في السَّبْعَةِ[1]

وفصل القول في ذلك في كتابه «النشر في القراءات العشر»[2] فقال: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم؛ هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الإمام أبو عمرو الداني، ونص عليه مكي بن أبي طالب، وأبو العباس المهدوي، وأبو شامة.. وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه».

---

(١) طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ص٣٢.

(٢) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٩، (بتصرف يسير).

وبهذا يظهر أن ضوابط أو شروط القراءة الصحيحة ثلاثة هي:

الأول: موافقة اللغة العربية ولو بوجه من الوجوه.

فلا بد أن توافق القراءة اللغة العربية، ولا يلزم أن توافق الأفشى في اللغة؛ بل يكفي أن توافق أي وجه من أوجه اللغة، قال ابن الجزري «وقولنا في الضابط: «ولو بوجه» نريد وجهاً من وجوه النحو؛ سواء كان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح؛ إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو، أو كثير منهم، ولم يعتبر إنكارهم، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها كإسكان ﴿بَارِئْكُمْ﴾[1]، و﴿يَأْمُرْكُمْ﴾[2]، ونحوه.. وضم، ﴿المَلائِكَةُ اسْجُدُوا﴾[3]، ونصب ﴿كُنْ فَيكُونَ﴾[4]، وخفض ﴿والأَرْحَامِ﴾[5]، .. ووصل ﴿وإنَّ الْيَاسَ﴾[6]، وألف ﴿إنّ هَٰذَانِ﴾[7].. وغير ذلك. قال أبو عمرو الداني في كتابه «جامع البيان»: «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٥٤؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٦٧؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٦٧؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٣٤؛ وهي قراءة أبي جعفر.

(٥) سورة النساء: من الآية الأولى؛ وهي قراءة حمزة.

(٦) سورة الصافات: من الآية ١٢٣؛ وهي قراءة ابن ذكوان بخلف عنه.

(٧) سورة طه: من الآية ٦٣ وقرأها أبو عمرو بالياء وقرأها الباقون بالألف.

والرواية، وإذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية، ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»[١].

الثاني: موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم عندما كتبوا القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه تعمدوا كتابته بطريقة تشتمل على جميع القراءات الثابتة عن الرسول ﷺ إما صراحة أو احتمالاً، وأي قراءة لا توافق رسم المصحف فإن ذلك يعني أن الصحابة لا يعرفونها وإلا لكانوا قد كتبوها، والقراءة التي لا يعرفها الصحابة ليست بقراءة صحيحة، فمن ذا الذي يدعي معرفة قراءة لا يعرفها الصحابة رضي الله عنهم!!

قال ابن الجزري: «ونعني بقولنا بـ«موافقة أحد المصاحف» ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[٢] بدون واو ﴿وبالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[٣] بزيادة الباء في الاسمين ونحو ذلك، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٤] في الموضع الأخير من سورة براءة بزيادة (من)، فإن ذلك ثابت في المصحف المكي..

وقولنا بعد ذلك: «ولو احتمالاً» نعني به ما يوافق الرسم ولو تقديراً؛ إذ موافقة الرسم قد تكون تحقيقاً وهو الموافقة الصريحة، وقد تكون تقديراً وهو الموافقة احتمالاً، فإنه قد خولف صريح الرسم في مواضع إجماعاً؛ نحو (السمٰوات والصٰلحٰت، واليل، والصلوة، والزكوة، والربوا).. وقد

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٠-١١ (بتصرف يسير).

(٢) سورة البقرة: الآية ١١٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

توافق بعض القراءات الرسم تحقيقاً ويوافقه بعضها تقديراً نحو ﴿ملك يوم الدين﴾ فإنه كتب بغير ألف في جميع المصاحف. فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً وقراءة الألف محتملة تقديراً.

الثالث: صحة الإسناد.

قال ابن الجزري: «نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله كذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم.

وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتف فيه بصحة السند، وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره؛ إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم[1].

أنواع القراءات:

اشتهر لدى المتأخرين خاصة علماء أصول الفقه تقسيم القراءات إلى نوعين: متواتر وشاذ أو آحاد[2]، وقسمها البلقيني إلى ثلاثة أقسام: متواتر وشاذ وآحاد[3]، وقد حرر السيوطي من كلام متقن لابن الجزري أن القراءات أنواع هي[4]:

---

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٣.

(٢) قراءة عبد الله بن مسعود، مكانتها، مصادرها، إحصاؤها: د. محمد أحمد خاطر، ص٤٧.

(٣) الإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٩٩.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص١٠٢.

الأول: المتواتر:

وهو ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهى السند ومثاله: ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة، وهذا هو الغالب في القراءات وكقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1] وهي قراءة متواترة قرأ بها عاصم والكسائي ويعقوب وخلف وقرأ الباقون بحذف الألف ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾[2].

الثاني: المشهور:

وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ووافق الرسم والعربية، واشتهر عند القراء فلم يَعُدُّوه من الغلط ولا من الشذوذ.

ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض.

وأمثلة ذلك كثيرة في فرش الحروف من كتب القراءات كالمتواتر، ومثالها: قراءة أبي جعفر ﴿ما أشْهَدْناهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وما كُنْتَ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾[3] بفتح التاء في (وما كنتَ) وقرأها الباقون (وما كنتُ)، وبلفظ الجمع في (ما أشهدناهم) وقرأها الباقون بالإفراد (ما أشهدتهم).

الثالث: الآحاد:

وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لا يقرأ به، ولا يجب اعتقاده.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٢) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي، ص١٥.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

وعقد الترمذي في «جامعه»[1] والحاكم في «مستدركه»[2] لذلك باباً أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الإسناد.

ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في «مستدركه» من طريق عاصم الجحدري، عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان)[3].

وكقراءة ابن عباس رضي الله عنهما (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) بزيادة صالحة، وأمامهم بدل وراءهم[4].

وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)[5].

واختلف في حكم القراءة بها في الصلاة، والجمهور على منع ذلك، وأجاز بعض العلماء ذلك فيما لا يجب من القراءة.

أما الاحتجاج بها في الأحكام الشرعية فحكمها حكم أحاديث الآحاد يحتج بها، ونفاه الشافعي، وأثبته أبو حنيفة واحتج به وبنى عليه وجوب التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءة ابن مسعود وهي آحاد (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)[6].

---

(١) جامع الترمذي: أبواب القراءات، ص٦٥٨-٦٦٠.

(٢) المستدرك: للحاكم، جـ٢، ص٢٣٠-٢٥٧.

(٣) المستدرك: جـ٢، ص٢٥٠، والقراءة المتواترة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ [الرحمٰن: ٧٦].

(٤) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٤، والقراءة المتواترة: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩].

(٥) معاني القرآن: الفراء، جـ١، ص٣١٨، وتفسير القرطبي، جـ٦، ص٢٨٣، والبحر المحيط: لأبي حيان، جـ٤، ص١٢، والقراءة المتواترة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ [المائدة: ٨٩].

(٦) تفسير القرطبي، جـ٦، ص٢٨٣.

الرابع: الشاذ:

وهو: ما لم يصح سنده، ونقل ابن الجزري عن مكي بن أبي طالب في تعريف الشاذ أنه: «ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة، ولا وجه له في العربية، وقيل هو: ما صح سنده ووافق العربية ولو بوجه وخالف رسم المصحف[1]، وذلك أن عثمان رضي الله عنه اقتصر في جمعه للقرآن على ما ثبت في العرضة الأخيرة، فسمى العلماء من بعده ما صح سنده ولو قرأ به النبي ﷺ، ولم يثبت في العرضة الأخيرة شاذاً»[2].

والمؤلفات في القراءات الشاذة كثيرة، ومن أمثلة ما نقله غير ثقة ـ كما قال ابن الجزري ـ كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، كقراءة ابن السميفع وأبي السمال وغيرهما في ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ننحيك بالحاء المهملة، ﴿وتكون لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[3] (خلفَكَ) بفتح سكون اللام.. وكالقراءة المنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[4] برفع الهاء ونصب الهمزة.. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها، وإن أبا حنيفة لبريء منها.

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٩٣-٣٩٤، وقد وسع بعض العلماء هذا المدلول حتى شمل كل ما خرج من أوجه القراءات عن أركان القراءة المتواترة فيدخل في القراءات الشاذة: ما يسمى بالقراءات الآحاد والضعيفة والموضوعة والمدرجة والمنكرة والغريبة والباطلة، وبعبارة أخرى فإن كل ما خرج عن القراءات العشر التي يقرأ بها اليوم عن القراء العشرة فهي (القراءة الشاذة). انظر المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي ص١٧٨ والتحبير في علم التفسير: السيوطي ص١٤٢.

(٢) انظر ص٩٥-٩٨ من كتابنا هذا.

(٣) سورة يونس: الآية ٩٢.

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٨.

ومثال ما نقله ثقة، ولا وجه له في العربية، ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط، ويعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون وهو قليل جداً، بل لا يكاد يوجد، وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع (معائش)[1] بالهمز وما رواه يحيى عن ابن عامر من فتح ياء ﴿أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ﴾[2] مع إثبات الهمزة[3].

الخامس: الموضوع:

وهو الذي لا أصل له، أي ما روي بلا إسناد، وذلك أن القراءات توقيفية، قال ابن الجزري: «وبقي قسم مردود أيضاً، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة، فهذا رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر»[4]. ومثاله قراءة (مَلَكَ يومَ الدين) بصيغة الماضي[5].

السادس: المدرج:

وهذا النوع مما أضافه السيوطي إلى أنواع القراءات، ويريد به «ما زيد في القراءات على وجه التفسير»[6] كقراءة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾[7] (من أم) أخرجها سعيد بن منصور[8]، وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[9]

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠، سورة الحجر: الآية ٢٠.

(٢) سورة الجن: الآية ٢٥.

(٣) النشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٤، ١٦ (بتصرف يسير).

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص١٦.

(٥) البحر المحيط: لأبي حيان، جـ١، ص٢٠، والكشاف: الزمخشري، جـ١، ص٩.

(٦) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٢.

(٧) سورة النساء: الآية ١٢.

(٨) البحر المحيط: لأبي حيان، جـ٣، ص١٩٠، والكشاف: الزمخشري، جـ١، ص٢٥٥.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٩٨.

(في مواسم الحج) أخرجها البخاري[1] وقراءة ابن الزبير ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2] (ويستعينون الله على ما أصابهم) قال عمرو[3]: فما أدري أكانت قراءته أم فسَّر به؟ أخرجه سعيد بن منصور[4] وأخرجه الأنباري وجزم بأنه تفسير فقال:

«وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن»[5].

ثم نقل السيوطي عن ابن الجزري قوله: «وربما كانوا يدخلون التفسير في القراءات إيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآناً فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه، وأما من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب»[6].

حكم هذه القراءات:

وقد لخص الأستاذ عبد الفتاح القاضي حكم هذه القراءات فأجاد حيث قال:

«والحاصل أن القراءة إن خالفت العربية أو الرسم فهي مردودة إجماعاً، ولو كانت منقولة عن ثقة مع أن ذلك بعيد، بل لا يكاد يوجد».

---

(١) صحيح البخاري: حديث (١٧٧٠)، كتاب الحج، و(٤٥١٩) كتاب التفسير.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٣) هو: عمرو بن دينار.

(٤) البحر المحيط: لأبي حيان، جـ٣، ص٢١، وتفسير الطبري، جـ٧، ص٩١-٩٢، تفسير القرطبي، جـ٤، ص١٦٥، والإتقان: للسيوطي، جـ١، ص١٠٢.

(٥) تفسير القرطبي، جـ٤، ص١٦٥.

(٦) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٢، وانظر النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، جـ١، ص٣٢.

وإن وافقت العربية والرسم ونقلت بطريق التواتر فهي مقبولة، إجماعاً.

وإن وافقت العربية والرسم ونقلت عن الثقات بطريق الآحاد فقد اختلف فيها، فذهب الجمهور إلى ردِّها وعدم جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها. سواء اشتهرت واستفاضت أم لا.

وذهب مكي بن أبي طالب وابن الجزري إلى قبولها وصحة القراءة بها، بشرط اشتهارها واستفاضتها، أما إذا لم تبلغ حد الاشتهار والاستفاضة فالظاهر المنع من القراءة بها إجماعاً.

ومن هنا يُعلم أن الشاذ عند الجمهور ما لم يثبت بطريق التواتر، وعند مكي ومن وافقه ما خالف الرسم أو العربية ولو كان منقولاً عن الثقات، أو ما وافق الرسم والعربية ونقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولكن لم يتلق بالقبول، ولم يبلغ درجة الاستفاضة والشهرة.

إلى أن قال: وإذ قد علمت أن القراءة الشاذة لا تجوز القراءة بها مطلقاً فاعلم أنه يجوز تعلُّمها وتعليمها، وتدوينها في الكتب، وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى، واستنباط الأحكام الشرعية منها على القول بصحة الاحتجاج بها، والاستدلال بها على وجه من وجوه اللغة العربية، وفتاوى العلماء قديماً وحديثاً مطبقة على ذلك، والله تعالى أعلم[١].

قلت: وبقي النوعان الخامس والسادس وهما الموضوع والمدرج، ولا يخفى تحريم القراءة الموضوعة أو العمل بها، أما المدرجة فهي تفسير وليست بقرآن، فلا تقرأ، وإنما تستنبط بها الأحكام على أنها قول صحابي وليست بقرآن.

---

(١) القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح القاضي، ص١٠.

القراء:

التعريف: القراء جمع قارئ وهو على ثلاث مراتب:

المبتدئ: وهو من شرع في الإفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات.

المتوسط: إلى أربع أو خمس.

المنتهي: وهو من عرف من القراءات أكثرها وأشهرها[1].

أما المقرئ فهو: العالم بالقراءات، رواها مشافهة، فلو حفظ الشاطبية مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيها، إن لم يشافِهَ من شُوفه به مسلسلاً؛ لأن في القراءات شيئاً لا يحكم إلا بالسماع والمشافهة[2].

تاريخ القراء:

يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة[3] رضي الله عنهم، فقد اشتهر بالإقراء عدد كبير منهم تلقوه مشافهة من الرسول ﷺ وتلقاه عنهم عدد كبير من التابعين بالمشافهة أيضاً.

وذكر الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ أن المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة سبعة هم:

١ ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٢ ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٣ ـ أبي بن كعب رضي الله عنه.

---

(١) لطائف الإشارات: القسطلاني، جـ١، ص١٧١، وإتحاف فضلاء البشر: البنا، ص٦٨.

(٢) لطائف الإشارات: القسطلاني، جـ١، ص١٧١.

(٣) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص١٧٠.

٤ ـ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٥ ـ زيد بن ثابت رضي الله عنه.

٦ ـ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.

٧ ـ أبو الدرداء عويمر بن زيد رضي الله عنه.

ثم قال رحمه الله تعالى: «فهؤلاء الذين بلغنا أنهم حفظوا القرآن في حياة النبي ﷺ وأخذ عنهم عرضاً، وعليهم دارت أسانيد قراءة الأئمة العشرة. وقد جمع القرآن غيرهم من الصحابة؛ كمعاذ بن جبل، وأبي زيد، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمر، وعتبة بن عامر، ولكن لم يتصل بنا قراءتهم، فلهذا اقتصرت على هؤلاء السبعة رضي الله عنهم»[1].

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل بلد من بلدان المسلمين كما ذكرنا فيما مضى.

واشتهر سبعة من القراء هم الذين ترجم لهم ابن مجاهد في كتابه السبعة، وأُلحق بهم ثلاثة من القراء وسموا جميعاً بالعشرة، وزاد بعضهم أربعة آخرين حتى صاروا أربعة عشر.

أما السبعة فهم:

١ ـ ابن عامر (أبو عمران عبد الله بن عامر اليحصبي) (٨-١١٨هـ) تابعي جليل أخذ القرآن عن المغيرة بن أبي شهاب عن عثمان رضي الله عنه، وقيل: إنه قرأ على عثمان نفسه، وهو إمام أهل الشام وقاضيهم، وهو قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، وراوياه هشام وابن ذكوان (بواسطة).

---

(١) معرفة القراء الكبار: الذهبي، جـ١، ص٣٩.

٢ ـ ابن كثير (عبد الله بن كثير الداري) (٤٥-١٢٠هـ) إمام القراء بمكة، قرأ على عبد الله بن السائب، وقرأ عبد الله على أُبيّ بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وراوياه البِزِّيّ وقُنْبل (بواسطة).

٣ ـ عاصم بن أبي النَّجُود (أبو بكر) (٠٠-١٢٧هـ) انتهت إليه رئاسة الإقراء في الكوفة. قرأ على زِرّ بن حبيش الذي قرأ على عبد الله بن مسعود، وقرأ على أبي عبد الرحمٰن السلمي الذي قرأ على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وراوياه شعبة وحفص (بلا واسطة).

٤ ـ أبو عمرو بن العلاء (زَبّان بن العلاء البصري) (٦٨-١٥٤هـ) ليس في السبعة أكثر شيوخاً منه، قرأ على الحسن البصري، وأبي العالية وسعيد ابن جبير وعاصم بن أبي النجود وابن كثير المكي، وعكرمة مولى ابن عباس، وابن محيصن، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب رضي الله عنهما، وراوياه الدوري والسوسي (بواسطة).

٥ ـ نافع بن عبد الرحمٰن بن أبي نُعيم المدني (أبو رويم) (٧٠-١٦٩هـ) إمام دار الهجرة، وكان إمام المسجد النبوي. أخذ القراءة عن جماعة من التابعين كأبي جعفر وعبد الرحمٰن الأعرج، وبلغ شيوخه السبعين، وهم أخذوا عن ابن عباس وأُبيّ بن كعب وأبي هريرة رضي الله عنهم، وراوياه قالون وورش (بلا واسطة).

٦ ـ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (٨٠-١٥٨هـ) قرأ على الأعمش على يحيى بن وثاب على زِرٍّ بن حبيش على عثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وراوياه خلف وخلاد (بواسطة).

٧ ـ الكسائي (علي بن حمزة النحوي الكوفي) (١١٩-١٨٩هـ) كان من أعلم الناس بالنحو، أخذ القراءة عن حمزة الزيات وابن أبي ليلى وعيسى الهمداني، وقرأ عيسى على عاصم، وراوياه أبو الحارث والدوري (بلا واسطة).

وأما الثلاثة تكملة العشرة فهم:

١ ـ أبو جعفر (يزيد بن القعقاع) (٠٠-١٣٠هـ) إمام أهل المدينة. أخذ عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، عن أُبي بن كعب، وراوياه ابن وردان وابن جماز.

٢ ـ أبو محمد (يعقوب بن إسحاق) (١١٧-٢١٥هـ) إمام أهل البصرة، وراوياه رويس وروح.

٣ ـ خلف بن هشام (١٥٠-٢٢٩هـ) وقراءته في اختياره لم تخرج عن قراءة الكوفيين، وراوياه إسحاق وإدريس.

وأما الأربعة تكملة الأربعة عشر فهم:

١ ـ ابن محيصن المكي (٠٠-١٢٣هـ).

٢ ـ اليزيدي (أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي البصري) (١٢٨-٢٠٢هـ).

٣ ـ الحسن البصري (٢١-١١٠هـ).

٤ ـ الأعمش أبو محمد سليمان بن مهران الكوفي (٦٠-١٤٨هـ).

حكم هذه القراءات:

للعلماء في هذه القراءات أقوال:

الأول: أن قراءات القراء السبعة متواترة، والقراءات الثلاث المتممة للعشر آحاد، ومثلها ما يكون من قراءات الصحابة، وما بقي فهو شاذ.

الثاني: أن العشر متواترة وغيرها شاذ.

الثالث: أن المعتمد في ذلك هو الضوابط؛ سواء كانت القراءة من السبع أو العشر أو الأربع عشرة، ويريدون بالضابط توفر أركان القراءة الصحيحة التي سبق ذكرها، قالوا: «فإذا اجتمعت هذه الثلاثة في قراءة وجب قبولها، وحرم ردها، سواء كانت عن السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم، من الأئمة المقبولين نص على ذلك الداني والمهدوي، ومكي، وأبو شامة، وغيرهم ممن يطول ذكره»[(١)].

وقد لخص البنا في كتابه «إتحاف فضلاء البشر» هذا الخلاف فقال:

«والحاصل: أن السبع متواترة اتفاقاً، وكذا الثلاثة (أبو جعفر) و(يعقوب) و(خلف) على الأصح، بل الصحيح المختار، وهو الذي تلقيناه عن عامة شيوخنا، وأخذنا به عنهم، وبه نأخذ، وأن الأربعة بعدها (ابن محيصن)، و(اليزيدي)، و(الحسن)، و(الأعمش) شاذة اتفاقاً»[(٢)].

فوائد تعدد القراءات:

يجب أن يعلم أولاً أن الاختلاف الواقع في القراءات يرجع كله إلى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فإن اختلاف التضاد محال أن يكون في كلام الله تعالى قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[(٣)(٤)].

---

(١) لطائف الإشارات: القسطلاني، ص٦٨-٦٩.

(٢) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا، جـ١، ص٧٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) لمزيد بيان في تقرير هذه المسألة انظر النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٤٩.

ولهذا الاختلاف بين القراءات فوائد كثيرة أذكر منها[1]:

١ ـ التخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها؛ شرفاً لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها.

٢ ـ ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز، وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، وتصريف القول؛ إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان ذلك من التطويل. ومثال ذلك اختلاف القراءة في كلمة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[2] بالنصب (وأرجلَكم) والخفض (وأرجلِكم)، ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[3].

وفي قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه؛ حيث يكون العطف على معمول فعل المسح ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[4].

فدلت الآية بهاتين القراءتين على حكمين متغايرين، ولو لم يكن كذلك لاحتاج كل حكم إلى آية خاصة لبيانه.

---

(١) أخذت هذه الفوائد بنصها أحياناً وبتصرف أحياناً أخرى، من النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، جـ١، ص٥٢-٥٤، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص١٨٠-١٨١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

٣ ـ الدلالة على حفظه وصيانته من التحريف والتغيير؛ إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه، لم يتطرق إليه تضاد، ولا تناقض، ولا تخالف؛ بل كله يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض على خط واحد، وأسلوب واحد. وما ذاك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ، إذ لا يمكن أن يكون هذا من كلام البشر.

٤ ـ سهولة حفظه، وتيسير نقله على هذه الأمة؛ إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإن من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأدعى لقبوله من حفظه جملاً من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات، لا سيما فيما كان خطه واحداً، فإن ذلك أسهل حفظاً وأيسر لفظاً.

٥ ـ بيان ما يحتمل أن يكون مجملاً في قراءة أخرى كقراءة ﴿يَطْهُرْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[1] قرئ بالتشديد (يَطَّهَّرْن) والتخفيف (يَطْهُرْنَ) فقراءة التشديد مبينة لمعنى التخفيف عند الجمهور، فالحائض إذا انقطع دمها طهرت، وإذا اغتسلت تكون قد تطهرت. وإنما تحل لزوجها بالتطهر لا بالطهر وحده.

٦ ـ تعظيم أجر هذه الأمة؛ من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره، وخفي إشاراته، وتدبرهم للقرآن بغية الكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح.

٧ ـ بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي، وإقبالهم عليه، والبحث عن لفظه، والكشف عن

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

معانيه، وإتقان تجويده، فلم يهملوا تحريكاً، ولا تسكيناً، ولا تفخيماً، ولا ترقيقاً حتى ضبطوا مقادير المدات، وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف والصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم.

٨ ـ ومنها ما ادخره الله تعالى من المنقبة العظيمة لهذه الأمة الشريفة من إسنادها كتاب ربها واتصال هذا السبب الإلـٰهي بسببها خصيصة الله تعالى هذه الأمة المحمدية وكل قارئ يوصل حروفه بالنقل إلى أصله.

وقال ابن الجزري: «فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكفت. ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخصيصة النبيلة لوفت»[١].

٩ ـ ظهور حكمة الله تعالى في توليه سبحانه حفظ كتابه العزيز﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[٢] حيث لم يخل عصر من الأعصار ولو في قطر من الأقطار من إمام حجة قائم بنقل كتاب الله تعالى، وإتقان حروفه وروراياته، وتصحيح وجوهه وقراءاته.

❋ ❋ ❋

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١ ص٥٣.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

الأحرف السبعة

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[2] وقال عز شأنه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3]. وقال عز وجل: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[4] وصور تيسير القرآن أكثر من أن تحصى، وتشمل تيسير تلاوته من حيث الكمية والكيفية.

وقد عقد البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ باباً في صحيحه هو (باب قول الله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾) وذكر حديثاً عن الرسول ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»[5].

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: «والمراد بالمتيسر منه في الحديث غير المراد به في الآية، لأن المراد بالمتيسر في الآية بالنسبة للقلة والكثرة، والمراد به في الحديث بالنسبة إلى ما يستحضره القارئ من القرآن، فالأول من الكمية، والثاني من الكيفية»[6].

---

(١) سورة القمر: الآية ١٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٣) سورة الدخان: الآية ٥٨.

(٤) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التوحيد ح (٧٥٥٠).

(٦) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ج١٣، ص٦٤٩.

وبهذا يظهر أن الله يسر القرآن على الأمة كَمّاً وكيفاً فيقرؤون ما شاؤوا من المقدار على ما شاؤوا من الأحرف السبعة.

أما المقدار فالمراد به معلوم، وأما الأحرف السبعة فقد أفاض العلماء في الحديث عنها، وتعددت أقوالهم وتنوعت، وأوْلوها جُلَّ اهتمامهم، وأفردوها بمؤلفات مستقلة أذكر منها:

١ ـ شرح حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» لابن تيمية (مطبوع).

٢ ـ الكواكب الدرية فيما ورد في إنزال القرآن على سبعة أحرف من الأحاديث النبوية. تأليف: محمد بن علي بن خلف الحسيني المعروف بالحداد ١٣٥٧هـ.

٣ ـ الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن: محمد بخيت المطيعي.

٤ ـ الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها: د. حسن ضياء الدين عتر.

٥ ـ الأحرف السبعة: مناع القطان.

وغير ذلك من المؤلفات، ولا يكاد كتاب في علوم القرآن الكريم يخلو من باب خاص بالأحرف السبعة، وكذا في كثير من مقدمات المفسرين. ومنها ما هو أكثر تفصيلاً من المؤلفات المستقلة.

الأحرف السبعة لغة:

أما الأحرف فجمع حرف، وله في اللغة عدة معان:

١ ـ يطلق على الحرف من حروف الهجاء المعروفة ا ب ت إلخ.

٢ ـ يطلق على اللغة فيقال: حرف قريش، وحرف ثقيف، أي: لغة قريش ولغة ثقيف.

٣ ـ يطلق على طرف الشيء، وشفيره، وَحَدّه، وجانبه. وفي الحديث «فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر»[١] وفي التنزيل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾[٢] أي: على جانب السراء دون الضراء. وفي حديث ابن عباس «وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف»[٣] أي: على جانب، ويقال: انحرف فلان إذا خرج عن حَدِّ الاستقامة.

٤ ـ يطلق على وجه القراءة فيقال: حرف ابن مسعود، أي: قراءته.

وأما السبعة فهو العدد المعروف بين الستة والثمانية، ويطلق السبعة ويراد به المبالغة في الآحاد، كما تطلق السبعين للمبالغة في العشرات، والسبع مئة للمبالغة في المئات على سبيل المجاز.

الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف:

حكى العلماء ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلاّم تواتر نزول القرآن على سبعة أحرف، فقال أبو عبيد: «قد تواترت هذه الأحاديث كلها على الأحرف السبعة..»[٤].

وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابياً فقال: «ورد حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» من رواية جمع من الصحابة: أبي بن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم حديث رقم (١٢٢)، ومسلم كتاب الفضائل حديث رقم (٦١٦٣).

(٢) سورة الحج: الآية ١١.

(٣) سنن أبي داود، باب في جامع النكاح (٢١٦٣).

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٨٧.

كعب، وأنس، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسليمان بن صرد، وابن عباس، وابن مسعود، وعبد الرحمٰن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمر بن أبي سلمة[1]، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبي بكرة، وأبي جهيم، وأبي سعيد الخدري، وأبي طلحة الأنصاري، وأبي هريرة، وأم أيوب[2] فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً»[3].

كما روي حديث الأحرف السبعة عن علي بن أبي طالب، وعبادة بن الصامت، وزيد بن ثابت[4]، رضي الله عنهم.

ونجد السيوطي نفسه يقول في موضع آخر «. . . وحديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» من رواية سبع وعشرين»[5].

ومما يؤكد كثرة الرواة ما أخرجه أبو يعلى في «مسنده» أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال على المنبر: أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ يقول:

---

(١) في كثير من المصادر ورد اسمه (عمرو) والصواب ما أثبته.

(٢) في كثير من طبعات «الإتقان» ورد: وأبي أيوب، وفي طبعة مؤسسة النداء بتحقيق د. القيسية، والأتاسي. ١/ ٢١٠ وهو الصواب: وأم أيوب. وحديثها أخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» ٤٥/ ٤٣١ (٢٧٤٤٣) ط. مؤسسة الرسالة، والطبري في «تفسيره» ١/ ٣٠(٢٠)، ١/ ٣١(٢٣)، ١/ ٣٢(٢٤) ط. دار المعارف، وابن كثير في فضائل القرآن: ص٦١ وفي تفسيره جـ١ ص٤٠ وانظر «النشر في القراءات العشر» ١/ ٢١ وجمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، جـ٢ ص٥٤٩.

(٣) الاتقان: السيوطي، ج١، ص٦١.

(٤) انظر: حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص٩، والأحرف السبعة: د. حسن عتر ص١٠٨.

(٥) تدريب الراوي: السيوطي، جـ٢، ص١٧٩-١٨٠.

«إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها كاف شاف» لمَّا قام. فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك. فقال: وأنا أشهد معهم»[1].

وليس في وسعنا أن نذكر هذه الأحاديث كلها ولذا سأذكر منها:

١ ـ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سَلَّم، فلبَّبْته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام» فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». ثم قال: «اقرأ يا عمر» فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»[2].

٢ ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[3].

---

(١) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٧، ص١٥٢ وقال رواه أبو يعلى في الكبير وفيه راوٍ لم يُسَمَّ.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٩٢)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٨٩٩).

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٩١)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٩٠٢).

٣ ـ حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ كان عند أضاة[١] بني غِفَارٍ، قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تَقْرَأ أُمتُك القرآن على حرفٍ فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا[٢].

٤ ـ حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المِرَاء[٣] فقال: «إني بعثت إلى أمة أُمِّيِّين منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي[٤] والعجوز» فقال جبريل: فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف[٥].

٥ ـ حديث أم أيوب رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف أيها قرأت أصبت»[٦].

---

(١) أضاة وجمعها أضاً كحصاة وحصى. الماء المستنقع كالغدير.

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٩٠٦).

(٣) موضع بقباء، وقيل: هي قباء.

(٤) العاسي: يقال عسا الشيخ إذا كبر سنه وضعف بصره ويبس جلده وصلب.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٥، ص١٣٢، والترمذي حديث رقم (٢٩٤٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وقال أحمد شاكر: وهذا إسناد صحيح (تفسير الطبري، جـ١، ص٣٥).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٦، ص٤٣٣، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة» تفسير ابن كثير، جـ١، ص٤٠، وصحح أحمد شاكر إسناده. تفسير الطبري، جـ١، ص٣٠-٣١.

والأحاديث ـ كما ترى ـ كثيرة جداً، لكنها جاءت على ثلاث صور[١]:

الصورة الأولى: أحاديث حوار بين الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام كالحديث الثاني والثالث والرابع هنا.

الصورة الثانية: خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في القراءة، واحتكامهم إلى الرسول ﷺ فيما اختلفوا فيه كالحديث الأول.

الصورة الثالثة: خبر من الرسول ﷺ غير مرتبط بحادثة كالحديث الخامس.

المراد بالأحرف السبعة:

اختلف العلماء كثيراً في المراد بالأحرف السبعة المذكورة في هذه الأحاديث حتى قال ابن حبان: «اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً»[٢] ثم سرد هذه الأقوال وعقب عليها بقوله: «فهذه خمسة وثلاثون قولاً لأهل العلم واللغة في معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف، وهي أقاويل يشبه بعضها بعضاً وكلها محتملة وتحتمل غيرها»[٣].

أما السيوطي فقال: «اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً»[٤].

وقال المرسي: «هذه الوجوه أكثرها متداخلة، ولا أدري مستندها، ولا عمن نقلت»[٥].

---

(١) ذكر هذا التقسيم د. إسماعيل الطحان في كتابه (من قضايا القرآن) ص١٠.

(٢) الاتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٥.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص٦٦.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص٦١.

(٥) المرجع السابق، جـ١، ص٦٦

ولعلنا ـ ما دامت الأقوال متداخلة ـ نقسم أصحابها إلى أربع طوائف[1]:

الطائفة الأولى:

وهم الذين أوَّلُوا مدلول الأحرف السبعة ولهم قولان:

القول الأول: أن هذا الحديث من المشكل المتشابه الذي لا يُعلم معناه، وذلك لأن الحرف مشترك لفظي يصدق على معان كثيرة، ولم يعين المراد منها في الحديث، وقال بهذا القول ابن سعدان النحوي[2].

ويرد عليهم بأن الرسول ﷺ قد أُمِرَ بأن يقرئ أمته بهذه الأحرف وقد فعل، وأَمَرَ أمته أن تقرأ القرآن بهذه الأحرف وقد فعلت، فهي معلومة لديهم، أو لدى كثير منهم، وقد أقرؤوا الناس بها فليست من المتشابه، إلا إن أرادوا أن الصدر الأول قد علموها وقرؤوا بها، ثم اندثر علمها وتَعَفَّت من الناس آثارها فله وجه. والعلماء يحاولون الوصول إلى ما كان معلوماً عند الصحابة فليس بمتشابه، أما المتشابه فهو ما خفي على الجميع.

القول الثاني: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، وإنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد، وهو إشارة إلى كمال القرآن في لغته وبيانه ومعانيه وإعجازه.

ويرد على هذا القول بأن في دلالة بعض الأحاديث ما يؤكد على إرادة العدد سبعة، كقوله في حديث ابن عباس: «فلم أزل أستزيده ويزيدني» وقوله في حديث أبي: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف» ثم قوله: «على حرفين» ثم «على ثلاثة أحرف» ثم «على سبعة أحرف» وكذا اتفاق الأحاديث كلها على العدد سبعة كل هذا يؤكد إرادة العدد سبعة.

---

(١) انظر من قضايا القرآن: د. إسماعيل الطحان، ص٢٥.

(٢) حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص٥٥ و٦٥.

الطائفة الثانية:

رأت أن هذه الأحرف تتعلق بالمعاني وليس بالألفاظ ثم اختلفوا إلى أقوال كثيرة منها:

١ ـ أن المراد بها سبعة معاني: أمر وزجر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال.

٢ ـ وقيل: وعد ووعيد، وحلال وحرام، ومواعظ وأمثال واحتجاج.

٣ ـ وقيل: محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخصوص وعموم وقصص، وغير ذلك من الأقوال.

الرد على هذه الطائفة:

وأنكر أكثر العلماء هذا القول وأبطلوه، قال ابن عطية: «وهذا أيضاً ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة»[١]. وقال ابن قتيبة: ليس شيء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل»[٢] ونقل السيوطي عن قوم قولهم: «إن سياق تلك الأحاديث يأبى حملها على هذا، بل هي ظاهرة في أن المراد أن الكلمة تقرأ على وجهين وثلاثة إلى سبعة تيسيراً وتهويناً، والشيء الواحد لا يكون حلالاً حراماً في آية واحدة» ونقل عن غيرهم قوله: «مَن أَوَّلَ السبعة الأحرف بهذا فهو فاسد، لأنه محال أن يكون الحرف منها حراماً لا ما سواه وحلالاً لا ما سواه»[٣].

---

(١) تفسير ابن عطية، جـ١، ص٣٥.

(٢) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ص٢٦.

(٣) الاتقان: السوطي، جـ١، ص٦٤.

وقال الماوردي: هذا القول خطأ، لأنه ﷺ أشار إلى جواز القراءة بكل واحد من الحروف، وإبدال حرف بحرف، وقد أجمع المسلمون على تحريم إبدال آية أمثال بآية أحكام[1].

والخلاصة أن هذا القول مردود من وجوه:

١ ـ أن الأحاديث صريحة في أن الاختلاف في القراءة وليس في المعنى.

٢ ـ أن الصحابة رضي الله عنهم احتكموا إلى الرسول ﷺ فاستقرأ كل رجل منهم ثم صوب جميعهم، ولو كان المراد أن قراءة أحدهم دلت على التحريم وقراءة الآخر على التحليل لم يكن الصواب معهما معاً، بل المصيب أحدهما؛ لاستحالة أن يكون الشيء حراماً وحلالاً لما يؤدي إليه ذلك من التناقض في القرآن[2].

٣ ـ أن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف هي التيسير على الأمة والرحمة بهم، ولا وجه لهذا إذا كان المراد بها ما ذكروه من المعاني.

٤ ـ أن لا وجه لتخصيص كل واحد منهم الأحرف السبعة بما ذكره من معان مع أنها كلها موجودة في القرآن[3]. فهذه الأنواع التي ذكروها موجودة في قراءة عمر كما هي موجودة في قراءة هشام ولا فرق[4].

الطائفة الثالثة:

رأت أن المراد بالأحرف السبعة الوجوه التي يقع بها التغاير والاختلاف في الكلمات القرآنية ولا يخرج عنها، وقد اتفقوا على أنها سبعة.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢١٧، والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري، جـ١، ص٤٨.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٦.

(٤) الأحكام: لابن حزم، جـ٤، ص١٧٨.

وقد ذهب إلى هذا القول أبو حاتم السجستاني وابن قتيبة والباقلاني وأبو الفضل الرازي والسخاوي وابن الجزري ومكي بن أبي طالب ومن المعاصرين المطيعي، والخضري الدمياطي والزرقاني وغيرهم.

ثم اختلفوا في تحديدها إلى أقوال منها:

أولاً: قول ابن قتيبة[1] أن الوجوه السبعة هي:

١ ـ الاختلاف في إعراب الكلمة بما لا يغير معناها كقوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[2] بالضم والفتح[3].

٢ ـ الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[4]، وقراءة ﴿كيف ننشرها﴾[5].

٣ ـ الاختلاف في إعراب الكلمة بما يغير معناها ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[6]، وقراءة ﴿رَبُّنا باعَد بين أسفارنا﴾[7].

٤ ـ الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾[8]، وقراءة (إلا زقية)[9].

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ص٢٨.

(٢) سورة هود: الآية ٧٨.

(٣) قراءة الضم متواترة، والفتح شاذة عن سعيد بن جبير والحسن وغيرهما انظر: المحتسب، جـ١، ص٣٢٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٥) بالراء قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب، وقرأ باقي العشرة بالزاي.

(٦) سورة سبأ: الآية ١٩.

(٧) قراءة يعقوب (رَبُّنا بَاعَد) وقراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام (رَبَّنَا بَعِّد) وقراءة الباقين (رَبَّنا بَاعِد).

(٨) سورة يسٓ: الآية ٢٩.

(٩) قراءة شاذة رويت عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٥ ـ الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها كقوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[١]، وقراءة (وطلع نضيد)[٢].

٦ ـ الاختلاف بالتقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[٣] وقراءة (وجاءت سكرة الحق بالموت)[٤].

٧ ـ الاختلاف بالزيادة والنقصان كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٥]، وقراءة ﴿فإن الله الغني الحميد﴾[٦].

ثانياً: قول أبي الفضل الرازي المقرئ:

١ ـ اختلاف الأسماء من إفراد وجمع تذكير وتأنيث كقوله تعالى: ﴿وَكُتُبِهِ﴾[٧] وقراءة ﴿وكتابه﴾[٨]. وقوله تعالى ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾[٩]، وقراءة ﴿لا تقبل﴾[١٠].

٢ ـ اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ومضارع وأمر كقوله تعالى ﴿بَاعِدْ﴾[١١]، وقراءة ﴿بَاعَدَ﴾[١٢].

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٩.

(٢) قراءة شاذة رويت عن علي رضي الله عنه.

(٣) سورة قٓ: الآية ١٩.

(٤) قراءة شاذة رويت عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٥) سورة الحديد: الآية ٢٤.

(٦) وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وقرأ باقي العشرة بزيادة (هو).

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٨) قراءة حمزة والكسائي.

(٩) سورة البقرة: الآية ٤٨.

(١٠) قراءة ابن كثير وأبي عمرو.

(١١) سورة سبأ: الآية ١٩.

(١٢) سبق ذكرها.

٣ ـ الاختلاف في وجوه الإعراب.

٤ ـ الزيادة والنقص.

٥ ـ التقديم والتأخير.

٦ ـ الإبدال كقوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقراءة (فامضوا)[2].

٧ ـ اختلاف اللغات كالفتح والإمالة كقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[3] بإخلاص الفتح في موسى وإمالته[4].

ثالثاً: قول ابن الجزري أن الوجوه السبعة هي:

١ ـ اختلاف الحركات بلا تغير في المعنى والصورة كقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾[5] بضم فسكون، وقراءة ﴿بالبَخَل﴾[6] بفتحتين.

٢ ـ اختلاف الحركات مع تغير في المعنى فقط كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[7]، وقراءة ﴿فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ﴾[8].

٣ ـ اختلاف الحروف بتغير المعنى لا الصورة كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ﴾[9] وقراءة ﴿تتلوا﴾[10] بتاءين.

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٢) (فامضوا) قراءة شاذة.

(٣) سورة طه: الآية ٩.

(٤) وهما قراءتان متواترتان.

(٥) سورة النساء: الآية ٣٧، سورة الحديد: الآية ٢٤.

(٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الباء والخاء، وقرأ باقي العشرة بضم الباء وسكون الخاء.

(٧) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٨) وهي قراءة ابن كثير، وقرأ الباقون ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ﴾.

(٩) سورة يونس: الآية ٣٠.

(١٠) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون ﴿تبلوا﴾.

٤ ـ اختلاف الحروف بتغير الصورة فقط كقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾[1] وقراءة ﴿السراط﴾[2] بالسين.

٥ ـ الاختلاف في المعنى والصورة كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾[3]، وقراءة (فامضوا)[4].

٦ ـ التقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾[5] ببناء الأول للمعلوم والثاني للمجهول والعكس[6].

٧ ـ الزيادة والنقصان كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ﴾[7] وقراءة ﴿وأوصى﴾[8].

ويستدل لهذه الطائفة بأدلة منها:

١ ـ أن تأويل الحرف المذكور في الحديث بالوجه موافق لما فسر به الحرف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[9] ولأن يفسر الحديث بما فسرت به الآية أولى من تفسيره بما سواه.

٢ ـ جاء في بعض الروايات ما يشير إلى أن الأحرف تقرأ قراءة كما جاء في حديث عمر «فاقرؤوا ما تيسر منه» وقول جبريل عليه السلام في بعض

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٢) قراءة قنبل ورويس بالسين، وقراءة حمزة بإشمام الصاد زاياً، وقرأ باقي العشرة بالصاد.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٤) سبق ذكرها.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء الأولى وفتح الثانية، وبعكسه قرأ الباقون.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

(٨) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿وأوصى﴾، وقرأ باقي العشرة ﴿ووصى﴾.

(٩) سورة الحج: الآية ١١.

الروايات «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف. فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا» وغير ذلك.

٣ ـ أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع إليه من الوجوه السبعة.

٤ ـ أن الحكمة من نزول الأحرف السبعة هي التيسير على الأمة وهذا متحقق في اختلاف اللغات أو اللهجات في القراءات كما ذكره الرازي في الوجه السابع عنده كما ذكرناه.

الاعتراضات الواردة على هذا القول[١]:

ومن الاعتراضات المحتملة على هذا القول:

١ ـ أن هذه الوجوه السبعة المذكورة التي استقرأها أولئك هي وجوه اختلاف القراءات، لكن لا يلزم من ذلك تفسير الأحرف السبعة بها، وتفسير الأحرف بهذه الوجوه إدعاء يستلزم الدليل وليس ثَمَّ دليل.

٢ ـ أن أصحاب هذا القول اختلفوا فيما بينهم في تحديد الأوجه السبعة اختلافاً لا يدع مجالاً للشك بأن في تأويل الأحرف بالأوجه سعة لا تنضبط بها هذه الوجوه، ولا تنحصر في السبعة المذكورة.

٣ ـ لا تنهض بعض الأوجه المذكورة إلا بأمثلة من القراءات الشاذة أو الضعيفة أو المنكرة، وقد صرح بذلك ابن الجزري حيث قال: «قد تتبعت

---

(١) انظر هذه الردود في مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٦٦ وما بعدها والأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص١٦٦ وما بعدها، وحديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص٧٨ وما بعدها.

صحيح القراءات شاذها وضعيفها ومنكرها فإذا هو يرجع إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها»[1].

٤ ـ أن الحكمة من تعدد الأحرف السبعة الرخصة لطوائف من الأمة يشق عليها التعلم، ويعسر عليها التحول عما ألفته ألسنها، كالشيخ العاسي والعجوز والغلام والخادم. والعرب لم يكونوا يحسنون الكتابة ولا القراءة، وهذه الوجوه التي ذكروها يتعلق معظمها بطريقة الخط واختلاف صورة الكلمة في الكتابة، كما أنها جميعها لا يتسنى إدراكها إلا بعد بحث عميق واستقراء مع خبرة بأوجه الخط والكتابة، وهذا شأن خواص العلماء، ومن نزلت الرخصة لأجله لا يدرك ذلك ولا يفهمه، ولا يظهر وجه الرخصة لهم بالقراءة على ما تيسر لهم من الأحرف.

ولهذا قال القاسم بن ثابت في الرد على أصحاب هذا القول: إنهم «اخترعوا معنى لم يقل به أحد من السلف ولا أشار إليه، وليس للخلف الخروج عن السلف» ثم قال: «وهذه الأحاديث الصحاح... تضيق عن كثير من الوجوه التي وجهها عليها من زعم أن الأحرف في صورة الكتابة والتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، لأن الرخصة كانت من رسول الله ﷺ والعرب ليس لهم يومئذ كتاب يعتبرونه، ولا رسم يتعارفونه، ولا يقف أكثرهم من الحروف على كَتْبه، ولا يرجعون منها إلى صورة»[2].

الطائفة الرابعة:

رأت أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ثم اختلفوا إلى أقوال منها:

---

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢٦.

(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص١٢٨-١٣٢.

القول الأول: أنها سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن بمعنى أن كلمات القرآن لا تخرج عن سبع لغات هي أفصح لغات العرب، وأكثره بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل أو ثقيف أو هوازن أو كنانة أو تيم أو اليمن.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «ليس معناه أن يكون للحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم يسمع به قط، ولكن يقول: هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات ومعانيها مع هذا كله واحد»[١].

وذهب إلى هذا القول أبو عبيد وثعلب وابن سيده والأزهري واختاره ابن عطية، وصححه البيهقي في «الشعب».

واستدلوا بما قاله عثمان رضي الله عنه للأربعة حين أمرهم بنسخ الصحف: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم»[٢] ووجه الاستدلال أن الحديث يدل على أن معظم القرآن نزل بلسان قريش، وأن فيه بقية من لغات العرب، ولذلك ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب قرآناً عربياً بلسان عربي مبين»[٣].

واعترض على هذا القول بأمور منها[٤]:

١ ـ مخالفته لحديث عمر وهشام رضي الله عنهما فكلاهما من قريش، ولسانهما واحد، فلو كان المراد بالأحرف اللغة لما وقع بينهما اختلاف.

---

(١) غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام، جـ١، ص٤٥١.

(٢) تفسير القرطبي، جـ١، ص٤٣-٤٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن.

(٤) انظر: الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص١٨٢، وحديث الأحرف السبعة: د. عبدالعزيز القاري، ص٧٢.

٢ ـ هذا القول لا تتحقق فيه حكمة التيسير بهذه الأحرف، وليس للقارئ أن يختار منها حرفاً واحداً، بل يلزمه القراءة بها جميعاً حيث يقرأ آية بحرف والثانية بحرف آخر وهكذا.

٣ ـ أن في هذا زيادة مشقة على كل قارئ، ولو كان بحرف واحد لكان أيسر من هذا التنويع، إذ إن على كل قارئ أن يحيط بكل اللغات السبع حتى يقرأ القرآن.

٤ ـ اختلاف أصحاب هذا القول في تعيين تلك اللغات وحصرها، ولو كان المراد بالأحرف تلك اللغات لاشتهرت عند الصحابة ومن بعدهم.

القول الثاني: هو ما ذهب إليه أكثر العلماء:

ومنهم سفيان، وابن وهب، وابن جرير الطبري، والطحاوي وغيرهم.

وهو: أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه إذا اختلفت لغة العرب في كلمة جاء القرآن بسبع لغات منها.

واختلفوا في تحديد هذه اللغات السبع فقيل:

١ ـ قريش، هذيل، تميم، هوازن، كنانة، ثقيف، اليمن.

٢ ـ قريش، هذيل، تميم، هوازن، الأزد، ربيعة، سعد بن بكر. وقيل غير ذلك.

وممن قال بهذا الرأي القاسم بن ثابت الذي قال: «ونقول ـ وبالله التوفيق ـ بالذي صحت به الآثار، وتواطأت عليه الأخبار، وتأوَّله من أهل التفسير من لا يدفع نقله، ولا يتهم نظره، إن الله تبارك وتعالى بعث نبيَّه ﷺ والعرب متناؤون في المحال والمقامات، متباينون في كثير من الألفاظ

واللغات، ولكل عمارة لغة ذلت بها ألسنتهم، وفحوى قد جرت عليها عادتهم، وفيهم الكبير العاسي، والأعرابي القح، ومن لو رام نفيَ عادته وحمل لسانه على غير ذربته تكلف منه حملاً ثقيلاً. وعالج منه عبثاً شديداً، ثم لم يكسر غَرْبه، ولم يملك استمراره إلا بعد التمرين الشديد، والمساجلة الطويلة، فأسقط عنهم تبارك وتعالى هذه المحنة، وأباح لهم القراءة على لغاتهم، وحمل حروفه على عاداتهم، وكان الرسول ﷺ يقرئهم بما يفقهون، ويخاطبهم بالذي يستعملون بما طوقه الله من ذلك، وشرح به صدره، وفتق به لسانه، وفضله على جميع خلقه» ثم ذكر بعض الأحاديث وعقب عليها بقوله: «فمعنى قوله: «على سبعة أحرف» يريد ـ والله أعلم ـ على لغات شعوب من العرب سبعة، أو من جماهيرها وعمايرها»[1].

وممن قال بهذا أبو جعفر الطحاوي حيث قال: «كانت هذه السبعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها، لأنهم كانوا أميين، لا يكتبون إلا القليل منهم، فكان يشق على كل ذي لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً[2].

وسئل سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين والعراقيين هل تدخل في السبعة الأحرف؟ فقال: لا، وإنما السبعة الأحرف كقولهم: هلم، أقبل، تعال، أي ذلك قلْتَ أجزاك[3].

---

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص١٢٨-١٣٠.

(٢) المرجع السابق: ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق: ص١٠٥-١٠٦.

وأشهر من ذهب إلى هذا الرأي الإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ حتى صار القول ينسب إليه، وأفاض في مقدمة تفسيره في الاحتجاج له واستدل بأمور منها[1]:

١ ـ أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تماروا في القرآن فخالف بعضهم بعضاً في نفس التلاوة دون ما في ذلك من المعاني.

٢ ـ أنهم احتكموا فيه إلى النبي ﷺ فاستقرأ كل رجل منهم ثم صَوَّب جميعهم في قراءتهم على اختلافها... ولو كان اختلافهم فيما دلت عليه تلاوتهم من التحليل والتحريم. والوعد والوعيد وما أشبه ذلك لكان مستحيلاً أن يصوب جميعهم.. ولأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه وفَرَضَه في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه ـ ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه في تلاوة الذي دلت تلاوته على النهي والزجر عنه ـ وفي انتفاء ذلك عن كتاب الله وجوبُ صحة القول الذي قلناه.

٣ ـ ويؤيد هذا حديث أبي بكرة رضي الله عنهم عن الرسول ﷺ عن الأحرف السبعة «كلها شافٍ كافٍ» وفيه «كقولك: هلم وتعال»[2] فقد أوضح نص هذا الخبر أن اختلاف الأحرف السبعة إنما هو اختلاف ألفاظ كقولك: «هلم وتعال» باتفاق المعاني لا باختلاف معانٍ موجبة اختلافَ أحكام.

٤ ـ ويؤيد هذا ما صح من الأخبار عن جماعة من السلف والخلف كقول ابن مسعود رضي الله عنه: «فإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال» وقوله: «من قرأ على حرف فلا يتحولن منه إلى غيره» فمعلوم أن عبد الله بن

---

(١) انظر: تفسير الطبري، جـ١، ص٤٨-٥٥.

(٢) انظر الحديث وتخريجه في تفسير الطبري جـ١ ص٤٣ رقم ٤٠ و٤٧.

مسعود رضي الله عنه لم يَعْنِ بقوله هذا: من قرأ ما في القرآن من الأمر والنهي فلا يتحولن منه إلى قراءة ما فيه من الوعد والوعيد، ومن قرأ ما فيه من الوعد والوعيد فلا يتحولن منه إلى قراءة ما فيه من القصص والمثل.

ويرد على هذا القول اعتراضات منها[1]:

١ ـ أنه قصر أحاديث الأحرف السبعة على بعض معانيها فحسب؛ لأنه قصر إنزال القرآن على سبع لغات على ما كان من الألفاظ المتفاوتة الموضوعة لمعنى واحد بين لغات القبائل دون هيئة النطق فإنه اعتبرها خارج الأحرف السبعة، وهذا الإخراج لا دليل عليه لأن ذلك مما تشمله اللغات.

٢ ـ أن هذا القول لا يسعف في تخريج القراءات وتعليل وجودها واختلافها، والقول بأنها قراءات لحرف واحد فقط يعوزه الدليل على أن كل حرف له قراءات أنزلت من الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ أن هشام بن حكيم قرشي فلا داعي لإنكار عمر عليه لأنه قرشي مثله يقرأ على لغته.

٤ ـ أن الاختلاف بين لغات العرب ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأكثر، وإنما هو أن قريشاً استعملت في عباراتها شيئاً، واستعملت هذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى وسعد بن بكر غيره والجميعُ كلامُهم في الجملة ولغتُهم[2]، ولا يستوجب ذلك أو يستدعي نزول القرآن بلغاتهم كلهم، بل وإذا نزل بلغة بعضهم كقريش كفى.

---

(١) انظر: الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص١٨٢-١٨٦.

(٢) تفسير ابن عطية، جـ١، ص٤٠.

الترجيح:

باديء ذي بدء ينبغي أن نقر ونعترف بأنه لا يمكن لأحد الجزم بمعنى الأحرف السبعة، وإنما هي اجتهادات لا يسلم كل قول منها على كثرتها من اعتراضات وإشكالات، وقد سئل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ صاحب أضواء البيان ـ رحمه الله تعالى عما ترجح لديه في معنى حديث الأحرف السبعة فقال: الذي ترجح لدي أني لا أعرف معناه[1].

وقبله قال ابن الجزري «لا زلت استشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله»[2].

ولذا فلا تطمع أن تجد هنا أكثر من ذلك، أو مثله، لكن هذا لا يعني أن الأقوال كلها على درجة واحدة من القرب أو البعد عن الصواب، فمنها ما هو ظاهر الضعف، وهو ما ذكرناه من أقوال الطائفتين الأولى والثانية، وهي أقوال كثيرة تقارب الثلاثين قولاً.

وإذا علمنا أن أحاديث الأحرف السبعة تدل على أمرين:

الأول: أن الأحرف السبعة في القراءة وليس في المعنى.

الثاني: أن الحكمة منها التخفيف والتيسير على الأمة والرحمة بهم.

ظهر لنا أن الصواب أقرب إلى قول الطائفتين الثالثة والرابعة بل لا يتحقق الأمران إلا في قول أبي الفضل الرازي من الطائفة الثالثة وابن جرير الطبري من الطائفة الرابعة وإنما خصصنا قول الرازي لذكره الوجه السابع وهو اختلاف اللغات ولم يذكره غيره.

---

(١) حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص٥.

(٢) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢٦.

وعلى هذا فإن هذين القولين هما الأقرب للصواب، وهما قولان لا يتعارضان بل يتداخلان، وتداخلها يزيدهما قوة وظهوراً.

ولنا أن نقول إن المراد بالأحرف السبعة هو: تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى ـ كما قال أبو الفضل الرازي ـ في سبع لغات من لغات العرب ـ كما قال ابن جرير الطبري.

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد بالأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات[1].

وذلك أن اختلاف القبائل العربية فيما مضى كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات، والتخفيف على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف يتحقق بملاحظة اختلاف اللهجات، إذ إن اختلاف اللغة في جوهرها أيسر من اختلاف اللهجة، فقد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لغته، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لغته نفسها بلهجة غير لهجته، وطريقة في الأداء غير طريقته[2].

أي أن القرشي مثلاً يسهل عليه أن ينطق بلغة هذيل في جوهرها، لكنه يشق عليه أن ينطق لغة هذيل بلهجة أهلها.

ولما كانت الأحرف بمعنى اللغات فإن الوجوه التي ذكرتها الطائفة الثانية ليست إلا الفوارق بين اللغات السبع التي نزل القرآن عليها.

وإن حصر الفروق في سبعة أمر لا موجب له، ولو زادت عن السبعة أو نقصت لما كان مخالفاً لنص شرعي طالما حققنا أن الأحرف هي اللغات

---

(١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص٢٨.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٦٤.

السبع التي أنزل القرآن وفقها، فلا عبرة عندئذ لعدد الفروق بينها سواء أزادت عن السبعة أم نقصت(١).

والخلاصة:

أن المراد بالأحرف السبعة وجوه القراءات المتغايره في سبع لغات من لغات العرب وليست لغات القبائل على حَدّ سواء، بل بعضها أسعد من بعض بهذه الوجوه.

ونختم هذا بالتأكيد أن هذا ما قلناه ونحن ندرك أن عليه مآخذ وفيه إشكالات تظهر للمتأمل، كغيره من الأقوال، والله أعلم.

ما بقي من الأحرف السبعة:

ينبغي أن نبين قبل ذكر الأقوال في ذلك:

أن الأقوال هنا مبنية على الأقوال في الأحرف السبعة فمن فسرها برأي ذهب إلى ما يوافق ذلك من بقاء الأحرف كلها أو بعضها.

وبعد هذا نقول: إن للعلماء في ما بقي من الأحرف السبعة ثلاثة أقوال:

الأول: بقاء حرف واحد من الأحرف السبعة:

ذهب الطبري والطحاوي وابن حبان وابن عبد البر وغيرهم إلى أن عثمان رضي الله عنه لما استنسخ الصحف من عند حفصة أمر أن يكون ذلك على حرف واحد لئلا تختلف الأمة في القرآن كما اختلفت اليهود والنصارى، وجمع الأمة على حرف واحد وأمر الناس بترك ما سواه، فتتابع المسلمون على ذلك، وأجمعوا عليه، وبذلك اندثرت الأحرف الستة وعفت آثارها فلا سبيل اليوم إلى

---

(١) الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص١٨٠.

القراءة بها[1]. وقال ابن تيمية: إنه قول جمهور العلماء من السلف والأئمة.. وقال: والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول[2]. وقال أبو جعفر الطبري: «لا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية»[3].

إشكال:

وقد أورد الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ إشكالاً على هذا القول ثم أجاب عليه فقال:

«فإن قال بعض من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة»[4] وقد سبق بيان ذلك في جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه.

الثاني: بقي من الأحرف السبعة ما يحتمله رسم المصحف:

قال ابن الجزري: «وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له»[5].

وقال أيضاً: «فكتبوا المصاحف على لفظ لغة قريش والعرضة الأخيرة... وجردوا المصاحف عن النقط والشكل لتحتمل صورة ما بقي من الأحرف السبعة»[6].

---

(١) انظر تفسير الطبري، جـ١، ص٦٣-٦٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٣، ص٣٩٥.

(٣) تفسير الطبري، جـ١، ص٦٤.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص٦٤.

(٥) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٣١.

(٦) منجد المقرئين: ابن الجزري، ص١١١.

وقال أبو شامة المقدسي: «والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله، والمقطوع به، والمكتوب بأمر النبي ﷺ، وفيه بعض ما اختلفت فيه الأحرف السبعة لا جميعها»(١).

وقال أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي المقرئ: «أصح ما عليه الحذاق من أهل النظر في معنى ذلك أن ما نحن عليه في وقتنا هذا من هذه القراءات هو بعض الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن»(٢).

وقال مكي بن أبي طالب القيسي ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم وصحت روايتها عن الأئمة إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن»(٣).

وقال أيضاً: «فالمصحف كتب على حرف واحد، وخطه محتمل لأكثر من حرف إذ لم يكن منقوطاً ولا مضبوطاً، فذلك الاحتمال الذي احتمل- الخط هو من الستة الأحرف الباقية»(٤).

قلت: وبهذا يظهر أن لا خلاف يذكر بين القولين الأول والثاني، فأصحاب القول الثاني يقولون: إن المصحف كتب على حرف واحد ـ كأصحاب القول الأول ـ لكنه يحتمل حروفاً أخرى من الأحرف الستة الباقية. ولذا نرى بعض الباحثين يخلط بين القائلين بالقولين الأول والثاني.

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص٢٤.
(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص١٤٠.
(٣) الإبانة: مكي بن أبي طالب القيسي، ص٣٢.
(٤) المرجع السابق، ص٣٤.

القول الثالث: بقاءُ الأحرف السبعة كلها:

وذهب إلى ذلك - كما قال السيوطي - جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة. وبنوا عليه أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء منها[1].

الترجيح:

والراجح - والله أعلم - هو القول الثاني، وهو بقاء ما يحتمله الرسم من الأحرف السبعة، وهو القول الذي عليه جمهور العلماء، والقول الأول ينطوي تحت القول الثاني، وعلى هذا فإن جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه:

١ - كان على حرفٍ واحد هو حرف قريش، وقد كتب مجرداً حتى يحتمل أحرفاً أخرى.

٢ - كان الهدف من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان - رضي الله عنه - تجريده مما لم يثبت من القراءات ولذا كانت لجنة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه «إذا تدارؤوا في شيء أخَّروه»، قال محمد: فظننت ظناً أنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله»[2]. وقد أصبح بعض مَن لا يفقه يخلط في القراءة تفسيرها، أو يقرأ بقراءة فلان، ويقرأ الآخر بقراءة فلان مما لم يثبت في العرضة الأخيرة فجمع القرآن على القراءات الثابتة.

٣ - وكان من قصده - أيضاً - ترتيب السور حيث لم تكن كذلك.

٤ - وتأكيد الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته من الآيات أو القراءات.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٦.

(٢) المصاحف: ابن أبي داود، ص٣٣.

وفي ذلك يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وكان هذا من عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي ﷺ واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأيه سديداً موفقاً، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين»[1].

وقال الباقلاني: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جَمْعَهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاءَ ما ليس كذلك، وأخْذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثبتَ مع تنزيل، ومنسوخ تلاوة كُتِبَ مع مثبت رسمه، ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد»[2].

ولا تنس أن الراجح في المراد بالأحرف السبعة هو وجوه القراءات المتغايرة على سبع لغات من لغات العرب. وقد كتب القرآن في عهد عثمان على لسان قريش على وجه يحتمل وجوه القراءات الثابتة، فإن أمكن وإلا كتبت في مصحف بوجه وفي مصحف آخر بوجه آخر فالأحرف الباقية ـ موجودة في أفراد المصاحف ومجموعها. والله أعلم.

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف:

أما حِكَمُ نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف فلا تكاد تحصى، ولا تنس أنا قلنا: إن الأحرف هي وجوه القراءات، فتدخل في ذلك فوائد تعدد

---

(١) تفسير القرطبي، جـ١، ص٥٢.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥-٢٣٦.

القراءات، ولهذا نجد كثيراً من المؤلفين يمزج فوائد تعدد الأحرف مع فوائد تعدد القراءات[1].

ومن تلكم الفوائد:

١ ـ التيسير على الأمة والرحمة بهم:

وهي أظهر الحِكَم وأشهرها، والأحاديث صريحة في الدلالة على هذا، ووجه هذه الحكمة أن الأمة التي نزل عليها القرآن الكريم كانت أمة عربية واحدة لكنها كانت قبائل متعددة، وكان بين كل قبيلة وأخرى اختلاف في اللهجات، وطريقة أداء بعض الكلمات، ولا يخفى عليك أن تمكن اللهجة من صاحبها تجعل تحويل لسانه عما ألفه واعتاده في غاية الحرج والمشقة، بل قد يُعرِضُ عما عُرِضَ عليه ويأباه إذا خالف لهجته، ولا يطاوعه لسانه لنطقه.

فكيف يمكن والحالة هذه أن تلهج ألسنتهم بالقرآن، وتقبل قلوبهم عليه إذا اقتصر نزوله على لسان قريش[2].

وقد صَوَّرَ ابن قتيبة حالهم فقال: «فكان من تيسيره: أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم.. ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمِرَ أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات»[3].

---

(١) انظر مثلاً مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٤٨، والقراءات القرآنية: عبد الحليم قابه، ص٦٧ وغيرهما كثير.

(٢) الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص٢١٥-٢١٦.

(٣) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ص٣٨-٤٠.

ويشهد لهذا قول الرسول ﷺ في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه: «أن هَوِّن على أمتي» وفي حديث آخر «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك» وفي حديث ثالث: أن رسول الله ﷺ لقي جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط» قال: يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

قال ابن الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفاً لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها»[1] وقال أيضاً: «وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه ﷺ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع»[2].

ثانياً: تحقيق انتشار الدعوة الإسلامية:

وذلك أن انتشار الدعوة الإسلامية مرتبط بانتشار القرآن الكريم، ونشره مرتبط بتمكنهم وقدرتهم على تلاوته، وهذه تكون بمراعاة لغاتهم وألسنتهم وقد كان ذلك بإنزال القرآن على سبعة أحرف.

---

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢١-٢٢.

(٢) المرجع السابق.

ثالثاً: الإيجاز والإعجاز:

وبيان ذلك أن في تعدد الأحرف كمال الإعجاز مع غاية الإيجاز، إذ إن كل حرف بالنسبة إلى الآخر بمنزلة آية مستقلة، ولا يخفى أن تنوع المعاني تابع لتنوع الألفاظ، ولو كان كل حرف آية مستقلة لكان في ذلك إطالة وإطناب يتعارضان مع جمال الإيجار وبقاء الإعجاز[1].

رابعاً: الدلالة على مصدر القرآن وأنه وحي من الله تعالى:

وذلك أن تعدد القراءات وتعدد الأحرف واتساق بعضها مع بعض وترابطها، من غير اختلاف فضلاً عن التضاد أو التنافي، يدل على أنه من حكيم خبير، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2].

خامساً: توحيد لغات العرب ووحدة الأمة الإسلامية:

فقد كان نزول القرآن على سبعة أحرف تمهيداً لتعليم القبائل اللغات الأخرى واعتيادهم على سماعها خاصة في الكلمات التي نزلت على لسان قريش، حتى شاع لسان قريش واعتادته القبائل، وألفته آذانها، واتحدوا عليه بعد ذلك.

سادساً: أن الأحرف السبعة من خصائص أمة محمد ﷺ:

قال ابن الجزري «ومنها بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي وإقبالهم عليه هذا الإقبال، والبحث عن لفظة لفظة، والكشف عن صيغة صيغة، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده حتى حموه من خلل التحريف، وحفظوه من الطغيان، والتطفيف، فلم يهملوا تحريكاً ولا تسكيناً، ولا تفخيماً ولا ترقيقاً، حتى

---

(١) انظر القراءات القرآنية: عبد الحليم قابه، ص٦٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

ضبطوا مقدار المدات، وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم، ولا يوصل إليه إلا بإلهام بارئ النسم»[1].

سابعاً: أن الأحرف السبعة من خصائص القرآن الكريم:

وبين ذلك الطبري بقوله: «وذلك أن كل كتاب تقدم كتابنا نزولُه على نبي من أنبياء الله، صلوات الله عليهم، فإنما نزل بلسان واحد متى حُوِّل إلى غير اللسان الذي نزل به كان ذلك له ترجمة وتفسيراً لا تلاوة له على ما أنزله الله... وأنزل كتابنا بألسن سبعة بأي تلك الألسن السبعة تلاه التالي كان له تالياً على ما أنزل الله لا مترجماً ولا مفسراً»[2].

وفي الحديث: «كان الكتاب الأول نزل على حرف واحد ونزل القرآن على سبعة أحرف»[3].

* * *

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٥٣.

(٢) تفسير الطبري، جـ١، ص٧٠-٧١.

(٣) تفسير الطبري، جـ١، ص٧١.

النسخ في القرآن الكريم

كان الناس في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان، فنزلت الآيات لتقرير العقيدة الصحيحة، والعقيدة لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل لقيامها على الإيمان بأصول ثابتة اتفقت دعوة الرسل عليها. واقتضت حاجة الأمة الجديدة تشريعات تعبدية ومعاملات، واقتضت حكمة الله تعالى ـ رحمة بالأمة ـ التدرج في تقريرها، فكانت هذه الأحكام تنزل مفرقة بين حين وآخر، فإذا نزل حكم شرعي وعمل الناس به ارتقى بهم إلى حكم آخر يناسب الحال التي وصلوا إليه ورفع الحكم السابق، وهذا ما يسمى بالنسخ، وقد اعتنى العلماء بدراسة هذا النوع من الآيات وأفردوه بمؤلفات مستقلة أذكر منها:

١ ـ الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى: قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ) طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.

٢ ـ الناسخ والمنسوخ: ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.

٣ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي (ت ٢٢٤هـ) طبع بتحقيق محمد بن صالح المديفر.

٤ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: محمد بن أحمد بن حزم الظاهري (ت ٣٢٠هـ).

٥ ـ الناسخ والمنسوخ: أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) طبع بتحقيق د. محمد عبد السلام محمد.

٦ ـ الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل: هبة الله بن سلامة بن نصر المقرئ (ت ٤١٠هـ) طبع بتحقيق زهير الشاويش ومحمد كنعان.

٧ ـ الناسخ والمنسوخ: أبو منصور عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) طبع بتحقيق د. حلمي عبد الهادي.

٨ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ).

٩ ـ نواسخ القرآن: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) طبع بتحقيق محمد أشرف الملباري. وله أيضاً المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ: طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.

١٠ـ النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، طبع في مجلدين.
والمؤلفات في الناسخ والمنسوخ كثيرة جداً وإنما ذكرت أشهرها، وأفضلُ من كتب في ذلك من المتقدمين أبو عبيد القاسم بن سلاّم، ومن المتأخرين د. مصطفى زيد[1].

تعريفه:

النسخ لغة:

يطلق بمعنى الرفع والإزالة، يقال: نسخت الشمسُ الظلَّ، ونسخت الريحُ الأثرَ: إذا أزالته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[2].

---

(١) انظر: الآيات المنسوخة في القرآن الكريم: د. عبد الله بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص٩.

(٢) سورة الحج: الآية ٥٢.

ويطلق ويراد به نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه: تناسخ المواريث؛ لانتقال المال من وارث إلى وارث. وتناسخ الأرواح عند القائلين به، ونسخ الكتاب، ويقال: نسخه الله قرداً بمعنى مسخه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] والمراد نقل الأعمال إلى الصحف.

النسخ اصطلاحاً:

رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخٍ عنه.

والمراد بقولنا: (**رفع**)، أي: قطع العمل به، وخرج بهذا القيد ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم، وإنما يقصره على بعض أفراده[2].

وبقولنا: (**الحكم الشرعي**) خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، وخرج به رفع البراءة الأصلية، كإيجاب الصلاة والزكاة فإنه رافع للبراءة الأصلية لذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها، ولا يقال لهذا: نسخ لأنها حكم عقلي لا شرعي.

والمراد بقولنا: (**بخطاب شرعي**) الكتاب والسنة. وخرج بذلك رفع الحكم الشرعي بدليل عقلي، كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه، وكذلك خرج به رفع الحكم الشرعي بالإجماع أو القياس.

وخرج بقولنا: (**متراخٍ عنه**) ما كان متصلاً بالحكم، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[3] فإن قوله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ غير ناسخ لإباحة الأكل والشرب، وإنما هو بيان وتتمة للمعنى فلا يعتبر نسخاً.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٩.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص١٩١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

شروط النسخ:

ويظهر من التعريف أن شروط النسخ أربعة:

١ ـ أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.

٢ ـ أن يكون الحكم الناسخ خطاب شرعي متراخٍ عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣ ـ أن لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته، ولا يُعَدُّ هذا نسخاً[١].

٤ ـ أن يكون بين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما أو إعمالهما معاً[٢].

مذاهب الناس في النسخ:

ولهم في ذلك أربعة مذاهب:

١ ـ ذهب اليهود إلى إنكار النسخ وزعموا أنه يستلزم البداء على الله، وهو الظهور بعد الخفاء، أو نشأة رأي جديد لم يكن نتيجة تَجَدُّد علمٍ كان مجهولاً، وهذا محال على الله تعالى.

واستدلالهم هذا فاسد، لأن النسخ ليس لتجدد علم الله ـ تعالى وعز وجل ـ وإنما لتجدد حاجة الأمة، وتغير أحوالهم وحاجتهم إلى حكم جديد في كل حالة من حالاتهم. فما يناسبهم في حال الضعف في مكة مثلاً قد لا يناسبهم في حال القوة في المدينة، وليس هذا من البداء في شيء.

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٣٢.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص١٩٢ و١٩٦.

٢ ـ مذهب الرافضة:

وهؤلاء غالوا في إثبات النسخ بل وأجازوا على الله البداء ـ الذي نزَّه اليهود عنه الله تعالى ـ ووضعوا أحاديث نسبوها إلى عليٍّ رضي الله عنه كقوله: «لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

٣ ـ مذهب أبي مسلم الأصفهاني:

وإنما نسب إليه لأنه أول من قال به، وهو من أئمة المعتزلة، حيث قال بجواز النسخ عقلاً وامتناع وقوعه شرعاً، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]. على معنى أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ويرد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لا يأتيه خلل ولا نقص ولا تحريف ولا تبديل، ولا يمكن أن يتطرق إليه شيء من ذلك، والنسخ ليس من الباطل بل هو من الحق، فالناسخ والمنسوخ كلاهما وحي من الله تعالى، ووحي الله كله حق لا باطل.

٤ ـ مذهب جمهور علماء المسلمين:

على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً للنصوص الشرعية الكثيرة الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾[3] وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠١.

ما يقع فيه النسخ:

اعلم أن النسخ لا يكون إلا في (الأوامر) و(النواهي) سواء كانت:

١ ـ صريحة في الطلب.

كالأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[1].

٢ ـ أو كانت بصيغة الخبر.

كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[2].

وكقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾[3].

ولا يقع النسخ في:

١ ـ مسائل العقيدة المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأن العقائد حقائق ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل فلا يدخلها النسخ. كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾[5].

٢ ـ أصول العبادات والمعاملات فلا يقع النسخ في فرض الصلاة أو الصيام أو الحج أو البيع أو الشراء أو الزواج؛ لأن هذا وغيره من الأمور التي

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(٣) سورة النور: الآية ٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

يشترك فيها الأنبياء كلهم ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(1) وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(2) وقوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(3).

٣ ـ الأخلاق والآداب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾(4) ونحو ذلك.

٤ ـ الأخبار المحضة كقصص الأنبياء وما جرى للأمم السابقة.

طرق لمعرفة الناسخ والمنسوخ:

لمعرفة الناسخ والمنسوخ ثلاثة طرق هي:

١ ـ أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، كقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(5) وكقوله سبحانه: ﴿الْـَٰٔنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾(6) وكقول الرسول ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٥) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكراً»[1].

٢ ـ أن ينعقد إجماع من الأمة في أي عصر من العصور على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣ ـ معرفة المتقدم من المتأخر في النزول.

ولا يعتمد في معرفة الناسخ من المنسوخ على:

١ ـ الاجتهاد من غير سند.

٢ ـ قول المفسر: هذا ناسخ وهذا منسوخ من غير دليل.

٣ ـ التعارض بين الأدلة ظاهراً.

٤ ـ تأخر إسلام أحد الراويين.

قال ابن الحصار: «إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي، يقول: آية كذا نسخت كذا. قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر. قال: ولا يُعتمد في النسخ قولُ عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد. قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد. والصواب خلاف قولهما»[2].

---

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز ح (٢٢٦٠).

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٣٢.

أقسام النسخ:

والنسخ أربعة أقسام:

الأول: نسخ القرآن بالقرآن:

وأجمع القائلون بالنسخ على جوازه ووقوعه، وهو ثلاثة أنواع سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾[1] نسخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[2].

الثاني: نسخ القرآن بالسنة:

وهو نوعان:

١ ـ نسخ القرآن بالسنة الآحادية:

وجمهور العلماء على عدم جوازه، لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والسنة الآحادية ظنية ولا يرفع اليقين بالظن.

ومثاله قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[3] قيل: إنها منسوخة بحديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»[4]

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٤) رواه الترمذي برقم (٢١٢١)، وابن ماجه برقم (٢٧١٢).

والصحيح أن الآية منسوخة بآية المواريث[1]، كما يدل على هذا أول الحديث نفسه «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه».

٢ ـ نسخ القرآن بالسنة المتواترة:

وأجازه أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية، وقالوا: إن السنة وحي كما أن القرآن وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] والنسخ نوع من البيان.

ومنعه الشافعي وأحمد في رواية أخرى لقوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[4] والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

ويجاب عن ذلك بأن الخيرية في الفضل وليس في وجوب الاتباع والدلالة على الأحكام، فالسنة يجب العمل بها كما يجب العمل بالقرآن سواء بسواء.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[5] فإن جلد المحصن منسوخ بالرجم كما جاء في السنة المتواترة، والذي أراه أن هذا تخصيص وليس بنسخ، ولم أجد مثالاً آخر[6]، ويظهر لي أن هذا النوع جائز عقلاً ولم يقع في القرآن.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٣٢.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٥) سورة النور: الآية ٢.

(٦) انظر النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، جـ٢، ص٨٣٨.

٣ ـ نسخ السنة بالقرآن:

وأجازه الجمهور، ومثاله التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة كان ثابتاً بالسنة ونسخه قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1]

وصيام عاشوراء ثبت بالسنة ونسخه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[2].

ومنعه الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ في رواية عنه، وذلك أن الشافعي لا يرى نسخ القرآن بالسنة ولا نسخ السنة بالقرآن. قال رحمه الله تعالى: «حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة ليتبين توافق القرآن والسنة»[3].

ووصف الزركشي من فهم من هذا النص مَنْعَ الشافعي لنسخ القرآن بالسنة بأنه لم يفهم مراده، وقال: «إنما مراد الشافعي أن الكتاب والسنة لا يوجدان مختلفين إلا ومع أحدهما مثله ناسخ له، وهذا تعظيم لقدر الوجهين وإبانة تعاضدهما وتوافقهما، وكل من تكلم على هذه المسألة لم يفهم مراده[4].

٤ ـ نسخ السنة بالسنة:

وتحته أربعة أنواع:

أ ـ نسخ المتواتر بالمتواتر.

ب ـ نسخ الآحاد بالآحاد.

جـ ـ نسخ الآحاد بالمتواتر.

وهذه الأنواع الثلاثة جائزة عند الجمهور.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص٢٧.

(٤) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٢، ص٣٢.

د ـ نسخ المتواتر بالآحاد، وفيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن بالسنة الآحادية والجمهور يمنعه ولا يجيزه.

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه[1].

أنواع نسخ القرآن بالقرآن:

وهو القسم الأول من أقسام النسخ في القرآن الكريم. وهو ثلاثة أنواع:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً:

وأجمع القائلون بالنسخ على وقوعه، ومثاله ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن[2]. فجملة (عشر رضعات معلومات يحرمن) كانت من القرآن ثم نسخت تلاوتها وحكمها.

وحكى القاضي أبو بكر في «الانتصار» عن قوم: إنكار هذا القسم، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد. ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها[3].

ويجاب عن ذلك أن التواتر شرط لإثبات لفظ قرآني، أما النسخ فيكفي لإثباته خبر الآحاد، والمقام هنا مقام إثبات نسخ آية لا إثباتها.

---

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٣٧.

(٢) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب التحريم بخمس رضعات ح (٣٥٩٧).

(٣) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٣٩-٤٠.

الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

وهذا النوع هو أشهر الأنواع، وهو الذي ألفت فيه الكتب، وتفاوت المؤلفون في عدد الآيات المنسوخ حكمها مع بقاء تلاوتها بين مكثر جداً وبين منكر.

والصحيح أن عددها قليل يقارب العشرين يزيد قليلاً أو ينقص كذلك عند المحققين.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[(1)] فتلاوتها باقية في المصحف وحكمها منسوخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾[(2)].

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾[(3)] فتلاوتها باقية وحكمها نسخه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾[(4)].

حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

فإن قلت: وما الحكمة من بقاء التلاوة ورفع الحكم؟ قلنا من الحكم:

١ - أن الآية يتعبد بالعمل بها ويتعبد بتلاوتها، ورفع أحدهما لا يلزم منه رفع الآخر، فبقيت تلاوتها للتعبد بها.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

٢ ـ أن النسخ غالباً يكون إلى الأخف كما في المثالين السابقين، فبقاء التلاوة تذكير بنعمة رفع المشقة.

حكمة نسخ الآية قبل العمل بحكمها:

كما هو في آية الصدقة عند النجوى، وحكمة ذلك ـ والله أعلم ـ الثواب على مجرد الإيمان والقبول، وعلى نية الطاعة والتوجه إليها[١].

الثالث: نسخ التلاوة وبقاء الحكم:

وأنكر هذا النوع بعض العلماء وأجازه آخرون، ومن أمثلته حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: إنا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشِّدَّةِ بسورة براءة، فأُنسيتُها، غير أنى قد حفظت منها: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المُسَبِّحات فأُنسيتُها، غير أنى قد حفظت منها (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادةً في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة)[٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا أدري من القرآن هو أم لا[٣] وقال أبي بن كعب رضي الله عنه:ـ كنا نُرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٤][٥].

ومن أمثلته حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب،

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٢، ص٣٩.

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة ح (٢٤١٩).

(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق ح (٦٤٣٧).

(٤) سورة التكاثر: الآية ١.

(٥) رواه البخاري كتاب الرقاق ح (٦٤٤٠).

الكتاب، فكان مما أنزل الله عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده..»[1] الحديث وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمر: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتبنيها[2].

وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان؛ لأن الآية دليل على الحكم، فإذا نسخت تلاوة الآية دون حكمها وقع الناس في لبس.

ويجاب عن ذلك بأن التلازم بين الآية وحكمها مشروط بانتفاء القرينة والدليل، أما إذا نصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة وبقاء الحكم كما في رجم المحصن فلا لبس ولا إشكال[3].

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

وقد يكون نسخ الحكم إلى بدل وقد يكون إلى غير بدل.

أ - النسخ إلى غير بدل:

كنسخ الصدقة بين يدي نجوى الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾[4] فقد نسخت بالعفو عن ذلك إلى غير بدل في قوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[5].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود ح (٦٨٣٠)، ومسلم، كتاب الحدود ح (٤٤١٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٥، ص١٨٣، ح (٢١٠٨٦).

(٣) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٥) سورة المجادلة: الآية ١٣.

ب ـ وقد يكون النسخ إلى بدل:

وله أحوال ثلاثة:

١ ـ النسخ إلى بدل أخف.

كآية الاعتداد بالحول نسختها آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا.

٢ ـ النسخ إلى بدل مماثل.

كنسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى المسجد الحرام.

٣ ـ النسخ إلى بدل أثقل.

كنسخ جواز قتال المشركين إلى الوجوب ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[1] ونسخ وجوب صوم عاشوراء إلى وجوب صيام شهر رمضان، ونسخ حبس الزانية إلى الجلد للبكر والرجم للثيب.

ولعل حكمة هذا النوع إرادة الخير بالأمة، وزيادة الأجر والثواب؛ لأن الأجر على قدر المشقة.

حكمة النسخ:

وللنسخ حكم كثيرة منها:

١ ـ رحمة الله بالأمة ومراعاة مصالحها، فقد يكون الحكم الشرعي في حينٍ خيراً للأمة وغيره خيراً لها في حينٍ آخر، فاقتضت حكمة الله تقرير الحكم الشرعي الذي فيه مصلحتها في كل حين.

٢ ـ تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الأمة حين نزول القرآن، وسبق تفصيل هذه الحكمة في حِكَمِ نزول القرآن الكريم منجماً.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

٣ ـ إبتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه، حيث إن في تبدل الأحكام وتغيرها امتحاناً للقلوب ليميز الخبيث من الطيب.

٤ ـ إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، وذلك أن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة ثواب، فالأجر على قدر المشقة، وإن كان إلى أخف ففيه التيسير على الأمة مع ثبات الأجر[١].

* * *

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٤٠، ومناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢١٠-٢١٣.

القسم في القرآن الكريم

في القرآن الكريم خمس عشرة سورة مبدوءة بالقسم، وجاء القسم في أثناء سور كثيرة من القرآن الكريم.

ويأتي القسم في اللغة العربية لتأكيد المقسم عليه، وتمكينه في النفس، والقرآن يخاطب الناس كافة وفيهم المنكر وفيهم الشاك، وفيهم الخصم الألد، وفيهم المؤمن المصدق، ولكل منهم الأسلوب الذي يناسبه من المؤكدات أو عدمها، فجاء القسم لإقامة الحجة، وتأكيد الخبر، ولتطمئن نفس المؤمن.

المؤلفات فيه:

وقد اعتنى العلماء بدراسة القسم في القرآن الكريم وأفردوه بمؤلفات مستقلة منها:

١ ـ التبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، وطبع مرات كثيرة.

٢ ـ الإمعان في أقسام القرآن: عبد الحميد الفراهي (مطبوع).

٣ ـ آيات القسم في القرآن الكريم: أحمد كمال محمد المهدي[1]

تعريفه:

لغة: الحلف واليمين والقسم بمعنى واحد.

---

(١) تقدم بها لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين في الأزهر ١٩٦٨م.

والحِلْف بكسر الحاء: العهد يكون بين القوم، وحالفه، أي: عاهده، والحَلِف هو اليمين قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «من حَلَفَ على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر وليأت الذي هو خير»[2].

وسمي يميناً؛ لأنهم إذا تحالفوا تصافقوا بأيمانهم، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يفعلون ذلك أحيانا، ولذلك سمي الحلف يميناً.

وسمي قسماً من قَسَّم الشيء بمعنى جَزَّأه وفرقه، وذلك أن اليمين تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم فيحلفون خمسين يميناً تقسم عليهم، ثم صار اسماً لكل حَلِف، فكأنه كان في الأصل تقسيم أيمان، ثم صار يستعمل في نفس الحَلِف والأيمان[3]، وتسمى هذه المسألة عند الفقهاء القسامة.

اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فهو: ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه أو على صحته أو بطلانه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً»[4].

أرأيتم ذلك الصحابي الجليل الذي ربط نفسه بسارية المسجد حتى يتوب الله عليه في حادثة الثلاثة الذين خلفوا[5] للدلالة على عزمه وإصراره على التوبة. فذلك مثل الذي يربط نفسه ربطاً معنوياً لتأكيد عزمه على الشيء

---

(١) سورة القلم: الآية ١٠.

(٢) رواه مسلم، جـ٢، ص٢٣ كتاب الأيمان.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، ص٦٧٠.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٩١.

(٥) هو كعب بن مالك رضي الله عنه، وانظر قصته مع صاحبيه في كتب التفسير للآية ١١٨ سورة التوبة.

بمعنى معظم عنده، سواء كان معظماً حقيقة كالذات الإلهية، أو بمجرد اعتقاده كالكفار الذين يقسمون باللات والعزى وأمثالهم.

صيغته:

وصيغة القسم الأصلية أن يؤتي بالفعل «أقسم» أو «أحلف» متعدياً بالباء إلى المقسم به ثم يأتي المقسم عليه وهو جواب القسم.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[1].

أركان القسم:

وعلى هذا فأركان القسم أربعة:

الأول: فعل القسم (أقسم) أو (أحلف).

الثاني: أداة القسم، أو حروف القسم وهن (الباء، والواو، والتاء، واللام، ومن). ولم يرد القسم في القرآن إلا بالأحرف الثلاثة الأولى، أما اللام فقال سيبويه: «وبعض العرب يقولون في هذا المعنى: لله، فيجيء باللام، ولا تجيء إلا أن يكون فيها معنى التعجب»[2] وأما (من) فقال سيبويه أيضاً: واعلم أن من العرب من يقول: من ربي لأفعلنَّ ذلك. . . ولا يدخلونها في غير ربي كما لا يدخلون التاء في غير «الله»[3] والواو أكثر ما يستعمل في القسم.

الثالث: المقسم به، وهو الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز القسم بغير الله، ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الرابع: المقسم عليه أو جواب القسم.

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٨.

(٢) الكتاب: سيبويه، جـ٣، ص٤٩٧. قلت: وقد يرد عند بعض العامة ذلك ولكن في مقام النفي.

(٣) المرجع السابق، جـ٣، ص٤٩٩.

أنواع القسم:

وهو نوعان:

١ ـ قسم ظاهر:

وهو ما توافرت فيه أركان القسم الأربعة كما جاء في المثال السابق، أو حذف منه أولها، وهو فعل القسم كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[١] وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾[٢] أو حذف منه جواب القسم إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز[٣] كقوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[٤] ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[٥].

٢ ـ قسم مضمر:

وهو ما حذف منه فعل القسم وأداته والمقسم به. وتدل عليه اللام المؤكدة للقسم، والتي تدخل على جواب القسم، كقوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٦] أي: والله، وكقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾[٧].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٣) التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم، جـ١، ص٥٨.

(٤) سورة قٓ: الآية ١.

(٥) سورة صٓ: الآية ١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٧) سورة العلق: الآية ١٥.

المقسم به في القرآن الكريم:

وهو نوعان:

النوع الأول: قسم بالله تعالى:

أقسم الله تعالى بنفسه في خمسة مواضع:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾[٣].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٤].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[٥].

كما ورد القسم بالله على لسان أنبيائه أو أمراً لهم ـ عليهم السلام ـ بالقسم في أربعة مواضع:

١ ـ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٦].

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٩٢-٩٣.

(٣) سورة مريم: الآية ٦٨.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٢٣.

(٥) سورة المعارج: الآية ٤٠-٤١.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٥٧.

٢ ـ وأمره سبحانه لنبيه بالقسم في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[1].

٣ ـ وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾[2].

٤ ـ وقوله سبحانه: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾[3].

كما جاء القسم بالله في آيات أخرى منها:

١ ـ كقول إخوة يوسف لأبيهم عليهم السلام: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾[4].

٢ ـ وكقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾[5].

٣ ـ وقوله سبحانه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾[6] وغير ذلك.

النوع الثاني: قسم الله تعالى بمخلوقاته:

وهو كثير في القرآن، والقسم بها لدلالتها على عظمة خالقها وبارئها، وفيه إشارة:

إما لفضيلتها، كقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[7] وقوله:

---

(١) سورة التغابن: الآية ٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٨٥.

(٥) سورة الصافات: الآية ٥٦.

(٦) سورة النحل: الآية ٣٨.

(٧) سورة البلد: الآية ١.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[1] ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[2] ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[3].

وإما لنفعها، كقوله سبحانه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[4].

وإما لكونها من أعظم آياته ومخلوقاته، كقوله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾[5] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[6] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[7] وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[8].

ولله سبحانه وتعالى أن يحلف بما شاء من خلقه وليس لأحد غيره أن يحلف بغير الله، وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[9] وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»[10].

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال «إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله»[11].

---

(١) سورة التين: الآية ٢.

(٢) سورة التين: الآية ٣.

(٣) سورة قٓ: الآية ١.

(٤) سورة التين: الآية ١.

(٥) سورة الشمس: الآيتان ٢-٣.

(٦) سورة الطارق: الآية ١.

(٧) سورة الليل: الآيتان ١-٢.

(٨) سورة القيامة: الآية ١.

(٩) رواه الترمذي، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ح رقم (١٥٣٥).

(١٠) رواه البخاري ح رقم (٦٦٤٦) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم في كتاب الأيمان ح(٤٢٥٧).

(١١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٠.

المقسم عليه في القرآن الكريم:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها»[1].

والأمور التي أقسم الله عليها في القرآن الكريم هي أصول الإيمان[2] التي يجب على الخلق معرفتها ويمكن إجمالها بـ:

١ ـ التوحيد:

كقوله تعالى: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾[3].

٢ ـ أن القرآن حق:

كقوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[4].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣١٥، وانظر التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، جـ١، ص٤٦ وكثير من الباحثين ينسب النص لابن القيم رحمه الله تعالى خطأ انظر مثلاً الاتقان للسيوطي، جـ٢، ص١٧٠-١٧١.

(٢) في القرآن أقسام كثيرة ليست على أصول الإيمان، لكنها ليست قسماً من الله تعالى، بل من المخلوقين، ولهذا أرى عدم دقة عبارة بعض الباحثين حين يقصرون القسم كله في القرآن على هذه الأصول.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١-٤.

(٤) سورة الواقعة: الآيات ٧٥-٧٧.

٣ ـ أن الرسول ﷺ حق:

كقوله سبحانه: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(١)] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[(٢)].

٤ ـ أن القيامة حق:

كقوله سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[(٣)] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[(٤)].

٥ ـ بعض أحوال الإنسان وما فطره الله عليه من صفات:

كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[(٥)] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[(٦)] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[(٧)] وقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[(٨)(٩)].

---

(١) سورة يسٓ: الآيات ١-٣.

(٢) سورة النجم: الآيات ١-٤.

(٣) سورة الذاريات: الآيات ١-٦.

(٤) سورة المرسلات: الآيات ١-٧.

(٥) سورة التين: الآيات ١-٦.

(٦) سورة الليل: الآيات ١-٤.

(٧) سورة العاديات: الآيات ١-٦.

(٨) سورة البلد: الآيات ١-٤.

(٩) ذكر هذه الأحوال مع أمثلتها ابن القيم في كتابه التبيان في أقسام القرآن، جـ١، ص٤٩-٥٦.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

ولك أن تتأمل في الحكمة في أن يقسم الله على ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ بـ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ وعلى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ بـ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ وعلى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ بـ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ لِمَ لَمْ يقسم على ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ بالضحى مثلاً أو بالصافات أو المرسلات وقل مثل هذا في الأقسام الأخرى.

فإن فعلت فإنك ستدرك في أقسام القرآن وجهاً بلاغياً من أظهر أوجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم وهو الصلة بين المقسم به والمقسم عليه.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[1].

قال البيضاوي: «ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها»[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[3].

والمقسم به هنا النجم الذي يهتدي به السائرون في ظلمة الليل، والمقسم عليه نفي ضلال الرسول ﷺ، وإثبات صدقه ونبوته وهدايته للناس، فكأنه النجم الذي يهتدي به الناس إلى الحق والنجاة.

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان ٧-٨.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، جـ٥، ص٩٥.

(٣) سورة النجم: الآيات ١-٤.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى. فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله يحفظ بها دينه ووحيه، وآياته المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهادية»[1].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: وَدَّع محمداً ربُّه.

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس، وهذان للعقل.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها»[3].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم، جـ٢، ص١٠.

(٢) سورة الضحى: الآيات ١-٣.

(٣) التبيان في أقسام القرآن: لابن القيم، جـ١، ص١٥٨-١٥٩.

لا النافية للقسم:

وردت (لا) وهي أداة نفي مقترنة مع فعل القسم (أقسم) في سبعة مواضع من القرآن الكريم هي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾[3].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[4].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾[5].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾[6].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[7].

واختلف العلماء في (لا) على أقوال:

١ ـ أنها نافية للقسم:

فقيل: إن المعنى أن الأمر من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم فلا أقسم.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٥.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ٣٨-٣٩.

(٣) سورة المعارج: الآية ٤٠.

(٤) سورة القيامة: الآيتان ١-٢.

(٥) سورة التكوير: الآية ١٥.

(٦) سورة الانشقاق: الآية ١٦.

(٧) سورة البلد: الآية ١.

وهذا مردود بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1] فأثبت القسم.

٢ ـ أنها صلة، أي: زائدة:

ثم اختلفوا في توجيهها:

فقيل: إن لا زائدة لتوكيد القسم، والمعنى أقسم، قاله ابن خالويه[2] والزمخشري[3]، وأجازه أبو علي الفارسي[4] وغيرهم.

وهذا مردود لأن حكم التوكيد لا يتقدم على المؤكَّد بل يتأخر عنه[5]، ولا يصح أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة، لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه[6].

وقيل: إنها زيدت توطئة وتمهيداً لنفي جواب القسم.

ففي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[7] يكون المعنى لا أقسم بيوم القيامة لا يتركون سدى[8].

وهذا مردود بمثل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[9] فإن جوابه ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[10] وهو مثبت وليس بمنفي.

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٧٥-٧٦.

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالويه، ص٨٧.

(٣) الكشاف: الزمخشري، جـ٤، ص٥٨.

(٤) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات: أبو علي الفارسي، ص٥٧١.

(٥) انظر: شرح المفصل: ابن يعيش، جـ٨، ص١٣٦.

(٦) تفسير القرطبي، جـ١٩، ص٦٠.

(٧) سورة القيامة: الآية ١.

(٨) مغني اللبيب: ابن هشام، ص٣٢٨-٣٢٩.

(٩) سورة الواقعة: الآية ٧٥.

(١٠) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

٣ ـ وقيل: إنها نافية لمحذوف يناسب المقام لا للقسم:

ومثال ذلك ما قاله القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[(١)]: «وقال بعضهم: (لا) رد لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال: ليس الأمر كما زعمتم. قلت: وهذا قول الفراء»[(٢)].

٤ ـ أن (لا أقسم) صيغة من صيغ القسم:

وذلك أن القسم المسبوق بالنفي عبارة من عبارات القسم، وليست لا نافية للقسم، وليست بصلة، وإنما لتأكيد القسم.

وتأكيد الأمر عن طريق النفي مألوف في لغة العرب، فإنك إذا قلت لصاحبك: لا أوصيك بفلان، فإنما تريد تأكيد التوصية به، وتبالغ في الاهتمام به، فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه بالأسلوب الصريح المباشر[(٣)].

فإن قلت: إذاً لا يعرف خبر فيه نفي من خبر لا نفي فيه ـ كما قال القرطبي ـ قلتُ: إن دلالة القرينة كافية لمعرفة ذلك والتفريق بينهما، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[(٤)] بعد قوله سبحانه ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[(٥)].

وكما ترى فإن القولين الثالث والرابع أقوى الأقوال وإن كنت أميل إلى الثالث منها، والله أعلم.

---

(١) سورة القيامة: الآية ١.

(٢) تفسير القرطبي، جـ١٩، ص٦٠.

(٣) الكشف والبيان في علوم القرآن: د. سمير شيلوه، ص٣١٦.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٦.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٧٥.

من فوائد القسم:

١ ـ تأكيد المقسم عليه.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها. فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها»[١].

٢ ـ لفت الأنظار إلى ما يحويه الكون من أسرار عجيبة، وآيات عظيمة، وما فيه من نظام بديع محكم، والدلالة على عظمة خالقها. ولهذا يتبع المقسم به قوله مثلاً: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٣] كما يتبع قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٤][٥] الآيات الكونية، وهذا أمر زائد على جواب القسم.

٣ ـ إقامة الحجة على المشركين وإثبات صدق الرسول ﷺ، وذلك أن العرب تعتقد أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها، وقد أكثر الرسول ﷺ من الأيمان ولم يصب بمكروه، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره. فكان ذلك دليلاً على صدقه.

٤ ـ إظهار فضل المقسم به وعظمته:

كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته»[٦].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣١٥.
(٢) سورة الفجر: الآية ٥.
(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٦.
(٤) سورة النحل: الآية ١٢.
(٥) وقبلها قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣١٤.

٥ ـ امتناع إنكار الخصم في القسم:

وبيان ذلك أن القسم يتكون من جملتين: إنشائية وهي المقسم به، وخبرية أو إنشائية وهي جواب القسم، والجملة الإنشائية لا يتطرق إليها التكذيب أو الإنكار، ولذا نرى في المقسم به حشد من قضايا العقيدة تساق مساق الجملة الإنشائية التي لا يمكن تكذيبها.

بل يحذف ـ أحياناً ـ جواب القسم وهو جملة خبرية، ويكتفي بالمقسم به ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لجواب القسم المحذوف؛ لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فينازع فيه، وكأن المقسم بهذا يهيئ فرصة للسماع وانتظار الجواب، فيهجم عليه بما يؤيد جواب القسم المحذوف، كقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾[1] فاكتفى بالمقسم به ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ واستغنى عن الجواب بما ذكره من صفة القرآن ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، وفي الوقت الذي ينتظر فيه المخاطب جواب القسم يأتيه ما يؤكد معناه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ فكأنه يقول: والقرآن ذي الذكر إنه لحق ولكن الكفار استكبروا عن قبوله.

٦ ـ بلاغة الإيجاز في القسم:

فهو يجمع بين عدة أدلة متتابعة في جمل قصيرة موجزة كما ترى في القسم في سور الطور والفجر والبلد والشمس والليل والتين، فذكر في الأخيرة مثلاً التين، والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين.

٧ ـ حسن المطلع في السور المبدوءة بالقسم:

وهو وجه من أوجه البلاغة، وذلك أن أسلوب القسم يعطي أوائل السور

---

(١) سورة صٓ: الآيتان ١-٢.

من نضرة بهجتها، ورونق ديباجتها، فتلمع الأقسام في قسمات السور كالغرة البارقة، وفي ذلك تهيئة نفسية لقبول ما بعدها، وشتان بين قولك: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ وقولك: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1][2].

* * *

---

(١) سورة الضحى: الآيات ١-٣.

(٢) انظر هذه الفوائد وغيرها في: الإمعان في أقسام القرآن: لعبد الحميد الفراهي ص٥٦-٦٣، وجاءت هذه الأغراض بتصرف يسير في: علوم القرآن: د. عدنان زرزور ص٣٥٤-٣٥٦، ولغة القرآن الكريم: د. عبد الجليل عبد الرحيم ص٢٦٧-٢٦٩، ونقل ذلك عنهما بتصرف د. سامي عطا حسن في بحثه: «أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه» بحث منشور في العدد ٥٣ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ولم يشر أحد منهم إلى المصدر الأصلي «الإمعان».

فواتح السور وخواتمها

يحرص الأدباء والشعراء وأهل البلاغة على حسن المطلع في كلامهم، سواء كان شعراً أو نثراً، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان حسناً بليغاً بديعاً أقبل السامع على الكلام ومن ثمَّ وعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان ما بعده في غاية الحسن.

لذا ينبغي أن يكون المطلع بأعذب الألفاظ وأجزلها، وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً، وأصحها معنى وأوضحه، فإذا اشتمل على ذلك كانت (براعة الاستهلال) أو (حسن المطلع).

وكما حرص أولئك على الفواتح حرصوا على الخواتم، إذ هي آخر ما يطرق السمع، وربما بقيت في الذاكرة من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، لذا ينبغي أن تكون كالمطلع في غاية الجزالة وحسن النظم مع تضمنها معنى تاماً يؤذن السامع بأنه الغاية والنهاية، وهذا ما يسمى (حسن الخاتمة أو الختام).

وقد تأمل أهل البلاغة وأربابها في فواتح سور القرآن وخواتمها فوقفوا على أحسن الفواتح وأبلغها، وأكمل الخواتم وأفضلها، مع معانٍ بديعة وأسرار عجيبة[1].

وممن ألف في ذلك ابن أبي الأصبع وكتابه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح» طبع بتحقيق د. حنفي محمد شرف.

---

(١) انظر من أسرار البلاغة في القرآن: د. محمود السيد شيخون، ص٢٠١-٢٠٢.

وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات أغلبها إن لم يكن كلها في نوع واحد من أنواع الفواتح وهو الأحرف المقطعة في أوائل بعض السور ومنها:

١ ـ فواتح سور القرآن: د. حسين نصار.

٢ ـ براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور: د. محمد بدري عبد الجليل.

٣ ـ الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: د. السيد عبد المقصود جعفر.

٤ ـ حروف المعجم في فواتح السور ورد التأويلات الباطلة: د. محمد أحمد إبراهيم أبو فراخ.

٥ ـ وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور: د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي.

وهناك مؤلفات كثيرة في الأحرف الهجائية في أوائل السور لا تخلو من أوهام وتأويلات باطلة.

فواتح السور:

من المعلوم أن سور القرآن الكريم مئة وأربع عشرة سورة، وقد قسم العلماء فواتح هذه السور إلى عشر أنواع هي:

أولاً: الاستفتاح بالثناء:

والثناء قسمان:

١ ـ إثبات صفة مدح: وذلك في سبع سور: خمس مبدوءة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهن: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر. وافتتحت سورتان بـ﴿تَبَارَكَ﴾ وهما: الفرقان، والملك.

٢ ـ تنزيه عن صفات النقص: وذلك ـ أيضاً ـ في سبع سور: وكلها بصيغة التسبيح:

بالمصدر في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

وبالماضي في الحديد، والحشر، والصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾.

والمضارع في الجمعة والتغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾.

والأمر في الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

وبهذا استوعب تنزيه الله تعالى وتسبيحه كل الأوقات، وجميع جهات الكلمة وهي أربع المصدر والماضي والمضارع والأمر.

وبهذا تكون السور المبدوءة بالثناء أربع عشرة سورة سبع بالمدح وسبع بالتنزيه.

ثانياً: الاستفتاح بحروف التهجي:

وذلك في تسع وعشرين سورة على النحو التالي:

١ ـ السور المبدوءة بحرف واحد: (٣ سور)

﴿صٓ﴾: صٓ.
﴿قٓ﴾: قٓ.
﴿نٓ﴾: القلم.

٢ ـ السور المبدوءة بحرفين: (٩ سور)

﴿حمٓ﴾: غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.
﴿طه﴾: طه.
﴿طسٓ﴾: النمل.
﴿يسٓ﴾: يسٓ.

٣ ـ السور المبدوءة بثلاثة أحرف: (١٣ سورة)

﴿الٓمٓ﴾: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

﴿الٓر﴾: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر.

﴿طسٓمٓ﴾: الشعراء، القصص.

٤ ـ السور المبدوءة بأربعة أحرف: (سورتان)

﴿الٓمٓصٓ﴾: الأعراف.

﴿الٓمٓر﴾: الرعد.

٥ ـ السور المبدوءة بخمسة أحرف: (سورتان)

﴿كٓهيعٓصٓ﴾: مريم.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾: الشورى.

واعلم أن عدد الحروف المقطعة في أوائل السور ٧٨ حرفاً، وبدون التكرار ١٤ حرفاً، أي: نصف الحروف الهجائية ويجمعها قولك: «نص حكيم قاطع له سر» أو «طرق سمعك النصيحة»، أو «صن سراً يقطعك حمله».

قال الزمخشري: «وإذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة عدد حروف المعجم، ثم تجدها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف المهموسة، والمجهورة، والشديدة، والمطبقة، والمستعلية، والمنخفضة، وحروف القلقلة، . . . فسبحان الذي دقَّت في كل شيء حكمته»[1].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٦٥-١٦٦ وقد نقل كلام الزمخشري مختصراً من تفسيره جـ١، ص١٧، وقد ذكرت هذا القول والردود عليه في كتابي «وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور» ص٣٦-٤٣.

ومن أحكام هذه الحروف:

١ ـ أن البصريين لم يعدوا شيئاً منها آية، وأما الكوفيون فمنها ما عدوه آية، ومنها ما لم يعدوه آية. وهو علم توقيفي لا مجال للقياس فيه.

٢ ـ أنه يوقف عليها جميعاً وقف التمام إن حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور.

٣ ـ أنها كتبت في المصحف على صورة الحروف أنفسها (الم) مثلاً لا على صورة أساميها (ألف، لام، ميم).

معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور:

وقد اختلف العلماء في معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور على قولين:

الأول: أنها علم مستور استأثر الله بعلمه:

قال الشعبي: «إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل»[1].

وقال أبو حاتم: «لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله جل وعزَّ بها»[2].

ونسب القرطبي هذا القول إلى الخلفاء الأربعة وابن مسعود رضي الله عنهم[3]، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري واختاره ابن حبان.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، جـ١، ص١٥٤.

(٣) المرجع السابق.

الثاني: أن المراد منها معلوم:

ثم اختلف أولئك في معناها إلى أكثر من عشرين قولاً منها البعيد ومنها القريب ومن ذلك:

١ ـ أنها حروف مقتضبة من أسماء الله تعالى وصفاته المفتتحة بأحرف مماثلة لهذه الحروف المقطعة فالألف إشارة إلى (أحد)، واللام إلى (لطيف)، والميم إلى (ملك) ونحو ذلك.

٢ ـ أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه وقال بعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[(١)] فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة[(٢)].

٣ ـ أنها أسماء للسور.

٤ ـ أنها من أسماء القرآن.

٥ ـ أن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي هي «ا ب ت ث.. فجاء بعضها مقطعاً، وجاء تمامها مؤلفاً، ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعقلونها، ويبنون كلامهم منها»[(٣)].

وقال بهذا القول مجاهد وأبو عبيدة والفراء وقطرب والمبرد وابن تيمية، والمزي، وابن القيم وابن كثير، ومن المعاصرين: الشنقيطي والطاهر بن عاشور وابن عثيمين وغيرهم. وبهذا يظهر أنه أرجح الأقوال، والله أعلم.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٧٥.

(٣) المرجع السابق.

ثالثاً: الاستفتاح بالنداء:

وذلك في عشر سور:

خمس منها نداء للرسول ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ في الأحزاب والطلاق والتحريم.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ في سورة المدثر.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ في سورة المزمل.

وثلاث منها نداء للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في المائدة، والحجرات، والممتحنة.

وفي سورتين نداء للناس:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في النساء، والحج.

رابعاً: الاستفتاح بالجملة الخبرية:

وذلك في ثلاث وعشرين سورة منها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ ﴿عَبَسَ﴾.

خامساً: الاستفتاح بالقسم:

وذلك في خمس عشرة سورة:

﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَالشَّمْسِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ﴾ ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَالتِّينِ﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

سادساً: **الاستفتاح بالشرط:**

وذلك في سبع سور:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

سابعاً: **الاستفتاح بالأمر:**

وذلك في ست سور:

﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

ثامناً: **الاستفتاح بالاستفهام:**

وذلك في ست سور:

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾.

تاسعاً: **الاستفتاح بالدعاء:**

وذلك في ثلاث سور:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.

عاشراً: **الاستفتاح بالتعليل:**

وذلك في سورة واحدة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾.

وقد جمعت هذه الأنواع العشرة في بيتين:

أثنى على نفسه سبحانه بثبو ... ت المدح والسلب لما استفتح السورا

والأمر شرط النداء التعليل والقسم الـ ... دعاء حروف التهجي استفهم الخبرا

خواتم السور:

وقد تعددت الخواتم وتنوعت ولم يحصر العلماء أنواعها كما حصروا الفواتح وذلك لاشتمال الخاتمة أحياناً على أكثر من معنى، وذكروا من أنواع الخواتم:

أولاً: الختام بما يشعر بانتهاء السورة:

ومن أوضحه خاتمة سورة إبراهيم ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [٥٢] وخاتمة سورة الأحقاف ﴿ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [٣٥].

ثانياً: الختام بتفصيل جملة المطلوب:

كخاتمة سورة الفاتحة فبعد أن وجه عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [٦] فصل ذلك ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [٧].

ثالثاً: الختام بالدعاء:

كخاتمة سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [٢٨٦] إلى آخر السورة.

رابعاً: الختام بالوصايا:

كخاتمة سورة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٠٠].

خامساً: الختام بالتعظيم لله سبحانه وتعالى:

كخاتمة سورة المائدة: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [١٢٠].

سادساً: الختام بالوعد والوعيد:

كخاتمة سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [١٦٥].

المناسبات بين الآيات والسور

سلك القرآن منهجاً خاصاً فريداً في عرضه للقضايا، فلم يلتزم الطريقة المعروفة بتقسيم الكتاب إلى أبواب والأبواب إلى فصول، يتناول كل باب موضوعاً خاصاً، ويعرض كل فصل جانباً من جوانب هذا الموضوع حتى اكتمال الموضوع وتمامه.

والقرآن الكريم ليس كذلك، فهو ينوع في العرض بالترغيب مرة، والترهيب أخرى، وبالموعظة حيناً، والقصة حيناً آخر، ويذكر طرفاً من الموضوع مرة، ثم ينتقل إلى غيره، ثم يعود إلى إتمامه مرة أخرى.

مما جعل العلماء يقبلون على دراسة هذا الأسلوب وأسرار الانتقال من موضوع إلى آخر، ويبينون وجه الارتباط بين الآيات ذات الموضوعات المختلفة مع بعض، حتى نشأ علم خاص سموه (علم المناسبات بين الآيات والسور).

وقد اعتنى المفسرون كثيراً ببيان المناسبة بين الآيات والسور في تفاسيرهم، بل حكى الزركشي خلاف العلماء في أيما أولى البداءة بسبب النزول أو بالمناسبة، لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة على النزول. ثم حقق الخلاف بأنه إذا كان وجه المناسبة متوقفاً على معرفة سبب النزول فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب؛ لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة[١].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٤.

وإذا علمنا أن معرفة المناسبات هو العلم الثاني الذي تحدث عنه الزركشي بعد حديثه عن النوع الأول وهو سبب النزول، علمنا مكانة هذا العلم ودرجته في التفسير.

ولذا فقد أفرده العلماء بمؤلفات كثيرة منها:

١ ـ البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) طبع بتحقيق محمد شعباني. كما طبع بتحقيق د. سعيد الفلاح.

٢ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) وهو تفسير طبع في الهند في اثنين وعشرين مجلداً.

٣ ـ ألف السيوطي (ت ٩١١هـ) ثلاثة كتب في هذا الموضوع هي «قطف الأزهار في كشف الأسرار» و«تناسق الدرر في تناسب السور» و«مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع» وقد طبعت كلها محققة.

٤ ـ الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: د. محمد أحمد يوسف القاسم.

٥ ـ جواهر البيان في تناسب سور القرآن: عبد الله بن محمد الصديق الغماري.

ومع هذا فقد تحدث العلماء عن المناسبة في أبواب مستقلة من كتبهم المؤلفة في علوم القرآن، واعتنى به المفسرون في تفاسيرهم، ومن أشهر التفاسير التي تظهر فيها العناية ببيان المناسبة «البرهان في متشابه القرآن» للكرماني، و«الكشاف» للزمخشري، و«مفاتيح الغيب» للرازي و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي و«في ظلال القرآن» لسيد قطب وغيرهم.

تعريف المناسبة:

لغة: المناسبة: المقاربة والمشاكلة، يقال: فلان يناسب فلاناً، أي: يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب وهو القريب المتصل، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس، وهي الوصف المقارن للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقارنته للحكم ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، كالإسكار في الشراب علة التحريم، والمناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[1].

واصطلاحاً: المناسبة هي وجه الارتباط بين الآية والآية التي تليها، والسورة والسورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك.

أو هي وجه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض.

أهمية هذا العلم ومكانته:

أكد العلماء كثيراً على أهمية هذا العلم ومكانته وفضله، يقول الزركشي: «اعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول»[2].

وقال ابن العربي: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»[3].

وقال الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[4]، وقال: «إن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٨.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٦.

أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك»[1].

فوائد علم المناسبات:

ولهذا العلم فوائد كثيرة منها:

١ ـ جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وبهذا يظهر وجه من أوجه الإعجاز البلاغي.

٢ ـ إبطال الشبهات وإزالة الشك الحاصل في القلب بسبب خفاء وجه الاتصال بين بعض الآيات، وبالتأمل والتدبر يزول الإشكال.

٣ ـ إدراك بعض أسرار التشريع وحكمته، والتلازم التام بين أحكام الشريعة فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[2] وتعرفت على المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، علمت ما بينهما من التلازم. فحفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام فحري أن تزل قدمه في الآثام.

٤ ـ أنه يعين على فهم الآية وتحديد المراد منها، ومثال ذلك خلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾[3] حيث قال الجمهور: هي الملائكة، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ لأنه ذكر في آخر السورة قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾[4].

(١) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٢٨.

(٢) سورة النور: الآية ٣٠.

(٣) سورة الصافات: الآية ١.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٦٥.

٥ ـ كشف حكمة تكرار بعض قصص القرآن، وأن القصة تكرر حسب المناسبة، ولذلك ترى اختلافاً في ترتيب القصة ونظمها ومقدار ما يذكر منها بحسب المناسبة، وإن كانت القصة في أصلها واحدة[١].

خلاف العلماء في المناسبات:

للعلماء في المناسبات في القرآن الكريم قولان:

الأول: المنع:

وذهب إلى ذلك العز بن عبد السلام ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر».

قال: «ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»[٢] كما ذهب إلى هذا الرأي أيضاً الشوكاني في تفسيره[٣].

الثاني: الجواز:

وذهب إلى ذلك جمهور العلماء وعامتهم، قال ولي الدين الملّوي: «قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب

---

(١) انظر في هذه الفوائد «علم المناسبات في القرآن» محمد بن عبد العزيز الخضيري، مجلة البيان، العدد ١٤٦، ص٢٠.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٨.

(٣) فتح القدير: الشوكاني، جـ١، ص٧٢-٧٣.

الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف»[1].

ووضح ذلك د. محمد عبد الله دراز فقال عن آيات القرآن الكريم: «إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده، ورقمت لبناته، ثم فُرِّقَ أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة»[2].

أنواع المناسبات:

المناسبات في القرآن الكريم أنواع كثيرة منها:

١ ـ المناسبة بين الآية والآية التي تليها:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[3] حيث ذكر محاسبته على الحسنات فناسب أن يذكر محاسبته على السيئات ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[5] جاء بعدها ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[6].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذه الآيات؟

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٨.

(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص١٥٤-١٥٥.

(٣) سورة الزلزلة: الآية ١.

(٤) سورة الزلزلة: الآية ٨.

(٥) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٦) سورة الغاشية: الآيات ١٨-٢٠.

فالجواب: أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر، فإن كل انتفاعهم في معايشهم من الإبل، فتكون عنايتهم مصروفة إليها، ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب، وذلك بنزول المطر، وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم، وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم - لتعذر طول مكثهم في منزل - عن التنقل من أرض إلى سواها، فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة، فيه على الترتيب المذكور[1].

٢ - المناسبة بين أول السورة وخاتمتها:

ومثاله أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٣] وفي آخرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ. . .﴾ [٢٨٥].

وأول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [١] وآخرها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [١١٧].

وأول سورة صَ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [١] وآخرها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [٨٧].

وأول سورة نَ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [٢] وآخرها: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [٥١].

٣ - المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة السورة التي تليها:

ومثال ذلك آخر سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [١١١] وأول سورة الكهف التي تليها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [١].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٥.

وآخر سورة الطور: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [٤٩] وأول سورة النجم التي تليها: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [١].

وآخر سورة الواقعة ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [٩٦] وأول سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [١].

وجوه المناسبات:

ووجه المناسبة بين الآيات له أنواع كثيرة منها:

١ ـ التنظير:

فإن إلحاق النظير من شأن العقلاء، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[1] بعد قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[2].

فإن الله تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير في غزوة بدر وهم كارهون. وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي ﷺ وجادلوه، وكره كثير منهم تقسيم الغنائم كما كرهوا الخروج، وقد تبين لهم في الخروج خير كثير من الظفر والنصر والغنيمة وعز الإسلام وانتصار المسلمين وهزيمة المشركين، فكذا ما فعله في قسمة الغنائم، فليطيعوا أمره ويتركوا هوى أنفسهم[3].

٢ ـ المضادة:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤.

(٣) انظر الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٩، والبرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٧.

﴿لُوطٍۖ﴾[1]. ذكر بعد ذلك ما يضاده ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾[2].

٣ ـ الاستطراد:

كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[3].

قال الزمخشري: «هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[4].

٤ ـ الانتقال:

ويراد به الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع، ومثاله: لما انتهى في سورة صَ من الحديث عن الأنبياء عليهم السلام قال سبحانه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[5] فانتقل إلى نوع آخر من الحديث وهو ذكر الجنة وأهلها، ولما انتهى من الحديث عن ذلك انتقل إلى نوع ثالث فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾[6] فذكر النار وأهلها.

قال ابن الأثير: (هذا) في هذا المقام من الفصل الذي هو أحسن من الوصل، وهي علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر[7].

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٢) سورة التحريم: الآية ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٤) الكشاف: الزمخشري، جـ٢، ص٧٤.

(٥) سورة صَ: الآية ٤٩.

(٦) سورة صَ: الآية ٥٥.

(٧) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١١٠.

رسم المصحف

الأصل في المكتوب أن يطابق المنطوق[1]، إلا أنا نجد مخالفة لهذا الأصل ليس في الكتابة العربية فحسب، بل حتى في اللغات الأجنبية، فمن الحروف ما ينطق ولا يكتب، ومنها ما يكتب لا ينطق.

وكتابة القرآن في المصاحف نوع من أنواع الكتابة التي يخالف نطقها كتابتها في بعض المواضع.

ولا شك أن الرسم الإملائي كان معروفاً قبل نزول القرآن الكريم، وقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على كتابة المصحف بطريقة تمنع مَن يتلو النص القرآني من الوقوع في اللحن بسبب خلوه من رموز الحركات، واشتراك بعض الحروف في رمز كتابي واحد[2] فرمز الباء والتاء والثاء مثلاً هو (ت) بلا نقط.

ويبدو أن الصحابة رضي الله عنهم لم يخترعوا كتابة جديدة، أو يصطلحوا على طريقة مبتكرة، بل كتبوا أكثر القرآن بالطريقة السائدة للكتابة في عصرهم[3]، وتشهد النقوش التي ترجع إلى القرن الأول الهجري أن الكتابة السائدة حينذاك مطابقة للصورة التي نجدها في الرسم العثماني، إلا

---

(١) يخالف بعض الباحثين في تقرير هذا الأصل. وليس هذا موضع تقريره.

(٢) انظر رسم المصحف: غانم قدوري الحمد، ص٧٢٩، وقبله فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب، ص٩٠.

(٣) وهذه مسألة أيضاً يخالف فيها بعض الباحثين ما نراه فيها.

أن اتساع استخدام الكتابة العربية في القرون الهجرية الأولى أظهر الحاجة الماسة إلى تطوير الكتابة لتكون أكثر تحديداً وضبطاً[١].

فلم يكن الناس عند كتابة المصحف يجدون فرقاً كبيراً بين كتابتهم وما يجدونه في المصحف، وكان الصحابة ومن وافقهم من التابعين وتابعيهم يوافقون الرسم المصحفي في أكثر ما يكتبون، ولو لم يكن قرآناً ولا حديثاً، واستمر الأمر على ذلك إلى أن ظهر علماء اللغة في البصرة والكوفة، وأسسوا لفن الكتابة ضوابط وروابط بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية، وسموها علم الخط القياسي أو الاصطلاحي «المخترع»، وسموا رسم المصحف بالخط المتبع. وكلما تقدم الزمن ازدادت الحاجة إلى توحيد قواعد الكتابة وضبطها[٢].

إلا أن علماء المسلمين بتوفيق الله لهم أبقوا رسم المصحف على الكتبة الأولى صيانة للقرآن من أن يتعرض للتغيير والتبديل بين حين وآخر، مما قد يؤدي إلى وقوع الخطأ والتحريف والتبديل.

وقد أدى هذا الأمر إلى الاختلاف النسبي بين كتابة المصحف والكتابة الإملائية المعروفة، مما دعا علماء القراءات والرسم إلى تأليف كتب تشرح هذه الاختلافات، وتستنبط قواعد رسم المصحف، وتضبط كيفية كتابة الكلمات، وكانت مؤلفاتهم بين دراسة منهجية عامة تعنى بضبط القواعد والأصول، ودراسة تطبيقية تتبع الكلمات القرآنية حسب ترتيب السور والآيات فتبين طريقة رسمها، **فظهر علم رسم المصحف**.

---

(١) انظر رسم المصحف: غانم قدوري الحمد، ص٧٣٥.

(٢) انظر رسم المصحف: ص٧٣٠.

تعريفه:

وردت في اللغة العربية عدة كلمات للدلالة على تمثيل الألفاظ برموز مرئية من أشهرها (الكتاب، والهجاء، والخط، والرسم، والإملاء) ولم يكن استخدام هذه المصطلحات على حد سواء تأريخياً، ويظهر أن أولها هو أقدمها ثم استعمل الهجاء والخط في عناوين كثيرة من المؤلفات قديماً في قواعد الكتابة ومصطلحاتها، وفي وقت متأخر استعمل مصطلح الإملاء للدلالة على هذا المعني، ولا يزال هو الغالب في الاستعمال في عصرنا هذا[1].

أما الرسم وهو ما نتناوله هنا، فإن معاجم اللغة العربية لا تذكر لمادته أي معنى يتعلق بالخط، فهو في اللغة: بمعنى الأثر، ورسم كل شيء: أثره[2].

ثم أطلق هذا المصطلح على رسم المصحف أكثر من إطلاقه على رسم غيره. وربما كان استعمال الرسم للدلالة على خط المصحف إشارة إلى معنى الأثر القديم الذي يحرص المسلمون على المحافظة عليه، فظهر مصطلح (مرسوم الخط) و(مرسوم خط المصاحف) و(الرسم)[3].

ويراد بالرسم **اصطلاحاً**: تصوير كلمة بحروف هجائها، بتقدير الابتداء بها، والوقوف عليها، لتتحول اللغة المنطوقة إلى آثار مرئية[4].

---

(١) انظر مقال: الكتاب العربية: د. غانم قدوري الحمد، مجلة الحكمة، العدد العاشر، ص٢٠١.

(٢) الجمهرة: ابن دريد، جـ٢، ص٣٣٦، وتهذيب اللغة: الأزهري، جـ١٢، ص٤٢٢، والصحاح: الجوهري، جـ٥، ص١٩٣٢، ولسان العرب: ابن منظور، جـ١٥، ص١٣٢، وانظر رسم المصحف: د. قدوري، ص١٥٦، ومجلة الحكمة، عدد ١٠، ص٢٠١.

(٣) رسم المصحف: د. قدوري، ص١٥٦.

(٤) صفحات في علم القراءات: لأبي طاهر عبد القيوم السندي، ص١٦٦.

أما الرسم العثماني. فيراد به: الوضع الذي ارتضاه الصحابة في عهد عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه.

عناية العلماء به:

اعتنى العلماء قديماً وحديثاً برسم المصحف وليس المقام هنا مقام استيعاب واستيفاء وإنما مقام إشارة وتمثيل فمن أهم المؤلفات:

١ ـ المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار: لأبي عمرو عثمان ابن سعيد الداني (ت ٤٤٤)، حققه الأستاذ محمد أحمد دهمان.

٢ ـ الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق د. غانم قدوري الحمد.

٣ ـ البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن معاذ الجهني (ت ٤٤٢ تقريباً) تحقيق د. غانم قدوري الحمد، ونشره في مجلة المورد م ١٥ العدد الرابع ١٤٠٧هـ.

٤ ـ عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل: لأبي العباس أحمد بن البناء المراكشي (ت ٧٢١)، حققته د. هند شلبي.

٥ ـ عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد: للإمام الشاطبي (ت ٥٩٠هـ)، وهي قصيدة نظم فيها مسائل المقنع: لأبي عمرو الداني وزاد عليه ست كلمات حيث قال الشاطبي:

وهاك نظم الذي في مقنع عن أبي ... عمرو وفيه زيادات فطب عُمُرا

وعدد أبياتها ٢٩٨ بيتاً وتسمى الرائية وشرحها كثير من العلماء.

٦ ـ مورد الظمآن في رسم وضبط القرآن: لأبي عبد الله محمد بن محمد الشريسي الشهير بالخراز (ت ٧١٨هـ) وهي أيضاً قصيدة جاءت في قسمين:

الأول: في الرسم، والثاني: في الضبط، ويعرف الأول: بمورد الظمآن والثاني: بضبط الخراز. وجاءت المنظومة جامعة لما ورد في أمهات مصادر الرسم شاملة للمشهور من أوجه الخلاف بين المصادر فحظيت بالقبول، واعتمدتها اللجنة التي أشرفت على طبع المصحف المشهور بالأميري سنة ١٣٤٢هـ وتعددت شروحها[1] واعتمدت ضبطه لجنة طبع مصحف المدينة النبوية من إصدار مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٧ ـ رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية ألفها د. غانم قدوري الحمد. وهذا الكتاب من أفضل المؤلفات وأشملها في رسم المصحف لم يعتمد فيه مؤلفه على مجرد النقل، بل كان عماده التحقيق الدقيق.

٨ ـ جامع البيان في معرفة رسم القرآن: للأستاذ علي إسماعيل السيد هنداوي وضعه وفق ما جاء في مورد الظمآن حيث يذكر مضمون الأبيات أولاً، ثم يورد الأبيات آخراً، ويعقب كل مبحث بمجموعة من الأسئلة للتدريب والمراجعة.

قواعد رسم المصحف:

لم تكن هذه القواعد منهجاً مرسوماً للصحابة يلتزمونه عند كتابة المصحف، وإنما هي قواعد استنبطها العلماء بعد ذلك عن طريق الاستقراء والتتبع.

كما أن هذه القواعد غير لازمة أو مطردة في كل كلمة قرآنية إذ يخرج عن كل قاعدة عدد من الكلمات أحياناً، وقد يلتزم في كلمة واحدة كتابتها وفق القاعدة في موضع وبخلافها في موضع آخر، فطريق الكتابة للمصحف هو النقل وحده.

---

(١) رسم المصحف، ص١٨١.

وقد استنبط العلماء لرسم المصحف في عهد عثمان رضي الله عنه ست قواعد يجمعها قول الناظم:

الرسم في ست قواعد استقل ... حذف زيادة وهمز وبدل
وما أتى بالوصل أو بالفصل ... موافقاً للفظ أو للأصل
وذو قراءتين مما قد شهر ... فيه على إحداهما قد اقتصر[1]

وهذا بيانها.

القاعدة الأولى: قاعدة الحذف:

والأحرف التي حذفت في بعض المواضع خمسة هي:

الألف، والواو، والياء، واللام، والنون.

أما الألف:

فتحذف لثلاثة أمور[2]:

١ ـ حذف إشارة:

والمراد الإشارة بحذف الألف إلى قراءة أخرى محذوفة الألف. مثل حذفها في ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[3] وكحذفها في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾[4] فحذف الألف في ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ إشارة إلى قراءة حمزة

---

(١) إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام: محمد حبيب الله الشنقيطي ص٣٥ والأبيات المذكورة لشيخه محمد العاقب.

(٢) انظر دليل الحيران شرح مورد الظمآن: للمارغني، ص٤٤-٤٥، وقد أنكر بعض الباحثين هذا التقسيم. انظر رسم المصحف: قدوري، ص٣٠٤-٣٠٥.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٥.

حيث قرأها ﴿أَسْرَى﴾ بفتح الهمزة وإسكان السين وبدون ألف بعدها. وأما حذف الألف في ﴿تفدوهم﴾ فإشارة إلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وخلف حيث قرؤوها ﴿تَفْدوهم﴾ بفتح التاء وسكون الفاء وبدون ألف بعدها[1].

٢ ـ **حذف اختصار:**

ويراد به حذف الألف من جمع المذكر أو المؤنث السالمين ما تكرر وما لم يتكرر إذا لم يقع بعد الألف تشديد أو همز. مثل ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٢]، ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ﴾[٣] ﴿وَٱلْحَـٰفِظِينَ﴾[٤] ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٥] أما إذا وقع بعدها مباشرة حرف مشدد أو مهموز فتثبت مثل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾[٦] ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ﴾[٧] ومثل ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾[٨] ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾[٩] ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[١٠].

٣ ـ **حذف اقتصار:**

وهو حذف يرد في كلمة دون نظائرها في المواضع الأخرى، ومثاله كلمة الميعاد فتحذف في ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ﴾[١١] ولا تحذف

---

(١) جامع البيان: علي هنداوي، ص٤٦.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٣) سورة الذاريات: الآية ١.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٦) سورة الفاتحة: الآية ٧.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٨) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

(٩) سورة الحج: الآية ٢٦.

(١٠) سورة الأعراف: الآية ٤.

(١١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

الألف في بقية المواضع؛ ومثل حذف الألف في ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾[1] في سورة الرعد دون غيرها من المواضع.

هذه أقسام حذف الألف، أما مواضع حذف الألف فلا تكاد تنضبط وقد قال ابن وثيق الأندلسي في الفصل الذي عقده لحذف الألف: «اعلم أن هذا الباب كثير الاضطراب ومتشعب، لا يرجع إلى قياس فيحصر»[2].

إلا أن العلماء ذكروا ضوابط تقريبية لحذف الألف فمنها:

١ - جمع المذكر أو المؤنث السالمين وما ألحق بهما إذا لم يقع بعد الألف همز أو تشديد. مثل: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4] ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾[5] ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾[6].

٢ - ما جاء على وزن فَعَّالين وفَعَّالون. مثل: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾[7] ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾[8] ﴿طَوَّٰفُونَ﴾[9] ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[10] إلا ما استثني.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٦.

(٢) الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي، ص٣١.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) سورة الذاريات: الآية ١.

(٦) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

(٧) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٢٥.

(٩) سورة النور: الآية ٥٨.

(١٠) سورة الذاريات: الآية ١٠.

٣ ـ من كل جمع منقوص إلا ما استثني. والمراد بالمنقوص كل اسم جاء في آخر مفرده ياء لازمة قبلها كسرة مثل ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾[١] و﴿طَٰغِينَ﴾[٢] و﴿غَٰوِينَ﴾[٣].

٤ ـ إذا جاءت الألف متوسطة وبعد لام أو بين لامين فتحذف الألف مطلقاً إلا ما استثني. مثل: ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾[٤] و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[٥] و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٦] ومثال الألف المحذوفة بين لامين ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[٧] ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾[٨] ﴿فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[٩].

٥ ـ تحذف الألف من كل لفظ دال على تنبيه أو نداء بشرط أن لا تكون متطرفة. ومثال ذلك: ﴿هَٰتَيْنِ﴾[١٠] و﴿هَٰذَآ﴾[١١] و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾[١٢].

ومثال حذفها من ياء النداء ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾[١٣] و﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾[١٤]

---

(١) سورة الحج: الآية ١٧.

(٢) سورة القلم: الآية ٣١.

(٣) سورة الصافات: الآية ٣٢.

(٤) سورة هود: الآية ٨٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ١٠٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٥.

(٧) سورة الملك: الآية ٩.

(٨) سورة إبراهيم: الآية ٣١.

(٩) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(١٠) سورة القصص: الآية ٢٧.

(١١) سورة صّ: الآية ٥٥.

(١٢) سورة البقرة: الآية ٣١.

(١٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٠.

(١٤) سورة البقرة: الآية ٢١.

و﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ﴾[1] و﴿ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[2] و﴿ يَبْنَؤُمَّ﴾[3].

وأما الياء:

فتحذف في حالات منها:

١ ـ إذا اجتمعت الياء مع ياء أخرى سواء كانت الياء صورة للهمزة مثل: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾[4] و﴿ سَيِّـَٔاتِ ﴾[5]، أو لم تكن صورة للهمزة مثل: ﴿ وَٱلْأُمِّيِّنَ﴾[6] ﴿ ٱلنَّبِيِّنَ﴾[7] إلا ما استثني.

٢ ـ وتحذف ياء المتكلم المضمر المتصل. مثل: ﴿ وَخَافُونِ ﴾[8] ﴿ فَٱرْهَبُونِ ﴾[9] ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾[10] ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾[11] ﴿ فَٱسْمَعُونِ ﴾[12] إلا ما استثني.

٣ ـ وتحذف من آخر كل اسم منقوص في موضع رفع أو جر مثل:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٣.

(٢) سورة هود: الآية ٧٦.

(٣) سورة طه: الآية ٩٤.

(٤) سورة الكهف: الآية ٣١.

(٥) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٦) سورة آل عمرن: الآية ٢٠.

(٧) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٨) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٩) سورة النحل: الآية ٥١.

(١٠) سورة البقرة: الآية ٤١.

(١١) سورة آل عمران: الآية ٥٠.

(١٢) سورة يس: الآية ٢٥.

﴿ بَاغٍ ﴾[1] و﴿ هَادٍ ﴾[2] و﴿ وَالٍ ﴾[3] و﴿ وَاقٍ ﴾[4] و﴿ ٱلدَّاعِ ﴾[5] و﴿ وَٱلْبَادِۚ ﴾[6].

وتحذف في حالات أخرى.

وأما الواو:

فتحذف في حالات منها:

١ ـ تحذف الواو إذا اجتمعت مع واوٍ أخرى سواء كانت صورة للهمزة مثل: ﴿ مَسْـُٔولًا ﴾[7] و﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾[8] و﴿ تُـْٔوِيهِ ﴾[9] أو لم تكن صورة للهمزة مثل: ﴿ دَاوُۥدَ ﴾[10] و﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ ﴾[11] و﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[12].

٢ ـ وتحذف الواو حملاً للخط على اللفظ مثل: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[13] و﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾[14] و﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[15] إلا ما استثني.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٢) سورة الرعد: الآية ٧.

(٣) سورة الرعد: الآية ١١.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٤.

(٥) سورة القمر: الآية ٦.

(٦) سورة الحج: الآية ٢٥.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٩) سورة المعارج: الآية ١٣.

(١٠) سورة النمل: الآية ١٥.

(١١) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

(١٢) سورة السجدة: الآية ١٨.

(١٣) سورة الإسراء: الآية ١١.

(١٤) سورة الشورى: الآية ٢٤.

(١٥) سورة العلق: الآية ١٨.

وأما اللام:

فتحذف إذا وقعت مع لام أخرى في خمس كلمات هي (الليل) و(اللائي) و(التي) و(اللاتي) و(الذي) سواء كان الأخير مفرداً أو مثنى أو مجموعاً وما عدا هذه الكلمات الخمس فلا حذف مثل (اللطيف) و(اللوامة) و(اللؤلؤ) و(اللهم) وغيرها.

وأما النون:

فتحذف في موضعين ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾[1] و﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

القاعدة الثانية: قاعدة الزيادة:

والمراد بالزيادة حقيقة، إثبات حرف في الكلمة لا يقرأ وصلاً ولا وقفاً، وقد تكون الزيادة في بعض الأحرف ليست حقيقية فتقرأ في الوقف مثل (لكنا)، أو الابتداء مثل (ابن)، والرسم مبني على الوقف والابتداء وما ثبت في أحدهما لم تكن زيادته حقيقية[3].

والأحرف التي تزاد هي: الألف، والواو، والياء.

أما الألف:

فتزاد في حالات منها:

١ ـ تزاد الألف بعد واو الجماعة إذا لم يتصل بالفعل ضمير. مثل:

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

(٣) دليل الحيران شرح مورد الظمآن: للمارغني، ص٢٤٤.

﴿ ءَامَنُوا ﴾[1] و﴿ كَفَرُوا ﴾[2] و﴿ اعْدِلُوا ﴾[3] إلا ما استثني مثل: ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾[4] و﴿ وَعَتَوْ ﴾[5] وغيرها.

٢ ـ وتزاد الألف بعد الواو الأصلية في الفعل المضارع المعتل الآخر بالواو مرفوعا أو منصوباً. مثل: ﴿ يَدْعُوَا ﴾[6] و﴿ لِيَرْبُوَا ﴾[7] و﴿ وَنَبْلُوَا ﴾[8] إلا في موضع واحد هو ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ ﴾[9] فحذفت فيه.

٣ ـ وتزاد الألف بعد الواو التي هي علامة الرفع في جمع المذكر السالم أو ما جرى مجراه إذا حذفت نونه للإضافة إلى ظاهر. مثل: ﴿ مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾[10] و﴿ كَاشِفُوا الْعَذَابِ ﴾[11] و﴿ صَالُوا النَّارِ ﴾[12].

٤ ـ وزادوا الألف في مواضع مختلفة لا تندرج تحت قاعدة:

فزادوها بعد الواو مثل: ﴿ تَفْتَؤُا ﴾[13] و﴿ أَتَوَكَّؤُا ﴾[14] و﴿ تَظْمَؤُا ﴾[15].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦.
(٣) سورة المائدة: الآية ٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٦.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٢١.
(٦) سورة يونس: الآية ٢٥.
(٧) سورة الروم: الآية ٣٩.
(٨) سورة محمد: الآية ٣١.
(٩) سورة النساء: الآية ٩٩.
(١٠) سورة القمر: الآية ٢٧.
(١١) سورة الدخان: الآية ١٥.
(١٢) سورة صَ: الآية ٥٩.
(١٣) سورة يوسف: الآية ٨٥.
(١٤) سورة طه: الآية ١٨.
(١٥) سورة طه: الآية ١١٩.

قلت: ولعله يقال تزاد الألف بعد الهمزة المتطرفة المرسومة واو.

وزادوها بعد النون مثل: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ﴾[1] و﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾[2].

وزادوها بعد الميم مثل: ﴿مِائَةَ﴾[3] و﴿مِائَتَيْنِ﴾[4].

وزادوها بعد اللام مثل: و﴿لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾[5].

وزادوها قبل الياء مثل: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟﴾[6] و﴿يَا۟يْـَٔسُ﴾[7].

وزادوها بعد الجيم مثل: ﴿وَجِا۟ىٓءَ﴾[8].

وزادوها بعد الشين مثل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ﴾[9].

أما الواو:

فتزاد في أربع كلمات حيث وقعت وهي ﴿يَٰٓأُو۟لِى﴾[10] و﴿أُو۟لُوا۟﴾[11] و﴿أُو۟لَآءِ﴾[12] و﴿أُو۟لَٰتِ﴾[13] باتفاق.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٣٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

(٥) سورة النمل: الآية ٢١.

(٦) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٧) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٨) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٩) سورة الكهف: الآية ٨٧.

(١٠) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(١١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(١٢) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

(١٣) سورة الطلاق: الآية ٦.

واختلف في كلمتين هما ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾[1] والراجح زيادتها، و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾[2] والعمل على عدم زيادتها.

أما الياء:

فالكلمات التي زيدت فيها الياء نوعان:

الأول: ما كانت فيه همزة مكسورة سواء تقدم عليها ألف. مثل: ﴿تِلْقَاۤيِٕ﴾[3] و﴿وَإِيتَاۤيِٕ﴾[4] ﴿وَرَاۤيِٕ﴾[5] أو لم يتقدم عليها ألف مثل: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[6] و﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[7].

الثاني: ما لم تكن فيه همزة مكسورة ولا ألف، وزيدت الياء في كلمتين من هذا النوع: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ في سورة القلم [٦] و﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في الذاريات [٤٧].

القاعدة الثالثة: قاعدة البدل:

والحروف التي تبدل ثلاثة: الألف، والنون، وتاء التأنيث.

أما الألف: فتبدل إلى حرفين: الياء والواو.

أولاً: تكتب الألف ياء في مواضع منها:

١ - إذا كانت الألف منقلبة عن ياء أي أن أصلها ياء فإنها تكتب ياء. تنبيهاً على أصلها، وجواز إمالتها. مثل: ﴿هَوَىٰهُ﴾[8] و﴿هُدًى﴾[9]

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٢) سورة طـه: الآية ٧١.

(٣) سورة يونس: الآية ١٥.

(٤) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٥) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٨) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٩) سورة البقرة: الآية ٥.

و﴿ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ ﴾[1] و﴿ أَعۡطَىٰ ﴾[2] و﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ ﴾[3].

والقاعدة التي يعرف بها أصل الألف أن تثنى الكلمة إن كانت اسماً مثل (فتىٰ) فتيان. أو تسند إلى تاء الضمير إن كانت فعلاً مثل (رمى) رميت.

٢ ـ وتكتب الألف ياءً في ما جاء رباعياً. مثل: ﴿ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾[4] و﴿ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾[5] و﴿ إِحۡدَىٰهُمَا ﴾[6].

٣ ـ إذا كانت الألف تشبه المنقلبة عن ياء فإنها تكتب ياءً[7]. مثل: (أنى، يتامى، سكارى، مرضى، متى، بلى، حتى، إلى، أنثى) وما أشبه ذلك إلا ما استثني، وهو كل موضع لو كتبت فيه الألف ياء لاجتمع فيه ياءان[8].

ثانياً: تكتب الألف واواً للتفخيم، إذا كان أصلها واواً ما لم تكن مضافة.

وجاء ذلك في أربع كلمات مطردة حيث وقعن هن: ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[9] و﴿ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[10] و﴿ ٱلۡحَيَوٰةُ ﴾[11] و﴿ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[12].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

(٢) سورة الليل: الآية ٥.

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٧٣.

(٥) سورة طه: الآية ٨٠.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٧) انظر الجامع: ابن وثيق ص٥٧-٥٨.

(٨) المرجع السابق.

(٩) سورة البقرة: الآية ٣.

(١٠) سورة البقرة: الآية ١١٠.

(١١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(١٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

وفي أربع كلمات غير مطردة هن: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ في الأنعام [٥٢] والكهف [٢٨] و﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ في النور [٣٥] و﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾ في غافر [٤١] و﴿وَمَنَوٰةَ﴾ في النجم [٢٠].

فإن أضيفت كتبت بالألف ولم ترد الإضافة إلا في كلمتي (الصلاة) و(الحياة) مثل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾[1] ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[2] واستثني من هذا أربع كلمات رسمت بالواو باتفاق مع أنها مضافة وهي ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[3] و﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾[4] و﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾[5] و﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[6] وذلك لتحتمل وجوه القراءات بالإفراد والجمع.

أما النون:

فتكتب ألفاً في مواضع منها:

١ ـ يرسم التنوين ألفاً في كل اسم منصوبٍ ليس فيه هاء التأنيث ولا هو مقصور مثل: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[7] و﴿مَلْجَإٍ﴾[8]. وما أشبه ذلك.

٢ ـ نون التوكيد الخفيفة تكتب ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً مثل ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[9] و﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾[10].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٢) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

(٤) سورة التوبة: الآية ٩٩.

(٥) سورة هود: الآية ٨٧.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٩.

(٧) سورة يوسف: الآية ٢٢.

(٨) سورة الشورى: الآية ٤٧.

(٩) سورة يوسف: الآية ٣٢.

(١٠) سورة العلق: الآية ١٥.

٣ ـ ومما كتبت نونه ألفاً كلمة (إذن). مثل: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾[١] و﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾[٢] و﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣] وإنما كتبت بالألف لإجماع القراء على أن الوقف عليها يكون بالألف.

أما تاء التأنيث:

فترسم هاء في الأسماء دون الأفعال. وتقرأ بالتاء في الوصل وبالهاء في الوقف، وهذا هو الأكثر. مثل رحمة في ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾[٤] ونعمة في ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾[٥] وكلمة في ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾[٦] وغير ذلك.

واستثني من هذا ثلاث عشرة كلمة هي:

١ ـ ﴿رَحْمَتَ﴾ في البقرة: ٢١٨، والأعراف: ٥٦، والزخرف: ٣٢، وهود: ٧٣، ومريم: ٢، والروم: ٥٠.

٢ ـ ﴿نِعْمَتَ﴾ في البقرة: ٢٣١، وآل عمران: ١٠٣، والمائدة: ١١، وإبراهيم: ٢٨ و٣٤، وفاطر: ٣، ولقمان: ٣١، والنحل: ٧٢، ٨٣، ١١٤، والطور: ٢٩.

٣ ـ ﴿سُنَّتَ﴾ في فاطر: ٤٣، والأنفال: ٢٨، وغافر: ٨٥.

٤ ـ ﴿ٱبْنَتَ﴾ في التحريم: ١٢.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٦.

(٤) سورة هود: الآية ٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢١١.

(٦) سورة يونس: الآية ١٩.

٥ ـ ﴿شَجَرَتَ﴾ في الدخان: ٤٣.

٦ ـ ﴿ٱمْرَأَتُ﴾ في آل عمران: ٣٥، ويوسف: ٣٠، ٥١، والقصص: ٩، والتحريم: ١٠، ١١.

٧ ـ ﴿قُرَّتُ﴾ في القصص: ٩.

٨ ـ ﴿بَقِيَّتُ﴾ في هود: ٨٦.

٩ ـ ﴿فِطْرَتَ﴾ في الروم: ٣٠.

١٠ـ ﴿لَّعْنَتَ﴾ في آل عمران: ٦١، والنور: ٧.

١١ـ ﴿وَجَنَّتُ﴾ في الواقعة: ٨٩.

١٢ـ ﴿وَمَعْصِيَتِ﴾ في المجادلة: ٨، ٩.

١٣ـ ﴿كَلِمَتُ﴾ في الأنعام: ١١٥، ويونس: ٩٦، وغافر: ٦.

والفرق بين ما كتب بالتاء المفتوحة، والهاء أن ما كتب بالهاء يوقف عليه بالهاء، ويوصل بالتاء.

وأما ما كتب بالتاء المفتوحة فيقرأ بالتاء بالوصل، وبالوقف كذلك عند ضيق نفس، أو مقام تعليم، أو اختبار.

القاعدة الرابعة: قاعدة الهمز:

لا تخلو الهمزة من أن تكون في أول الكلمة، أو وسطها، أو في آخرها.

فإذا كانت الهمزة في أول الكلمة:

فقد اتفق شيوخ النقل على أن الهمزة الواقعة في أول الكلمة تكتب على الألف مطلقاً سواء كانت مكسورة أو مفتوحة أو مرفوعة. وسواء كانت همزة وصل أم قطع، ولو تقدمها حرف زائد فلا يعتد به مثل الباء والسين والفاء إلا أن يكون سقوطها يخل ببنية الكلمة وهذه الأمثلة لذلك:

الهمزة الواقعة في أول الكلمة مكسورة: ﴿ إِيَّاكَ ﴾[1] و﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾[2].

الهمزة الواقعة في أول الكلمة مفتوحة: ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾[3] و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[4].

الهمزة الواقعة في أول الكلمة مضمومة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾[5] و﴿ ٱدْعُ ﴾[6].

همزة تقدمها حرف زائد لا يعتد به في رسمها ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ﴾[7] ﴿ فَإِذَآ ﴾[8] ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾[9].

همزة تقدمها حرف زائد يعتد به لأن سقوطه يخل ببناء الكلمة مثل: ﴿ تَؤُزُّهُمْ ﴾[10] ﴿ يُؤْتِي ﴾[11] ﴿ مُؤْمِنٌ ﴾[12].

وإذا كانت الهمزة في وسط الكلمة:

فإنها تكتب بحرف حركة ما قبلها.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٢.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٧.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٥.

(٦) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٧) سورة البقرة: الآية ٣٣.

(٨) سورة يسٓ: الآية ٨٠.

(٩) سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

(١٠) سورة مريم: الآية ٨٣.

(١١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(١٢) سورة الإسراء: الآية ١٩.

فإن كان ما قبلها مضموماً كتبت على الواو مثل: ﴿يُؤْفَكُ﴾[1]. و﴿مُّؤَجَّلًا﴾[2].

وإن كان ما قبلها مفتوحاً كتبت على الألف مثل: ﴿يَأْكُلُونَ﴾[3] و﴿سَأَلَ﴾[4].

وإن كان ما قبلها مكسوراً كتبت على الياء مثل: ﴿وَبِئْرٍ﴾[5] و﴿خَاطِئَةٍ﴾[6].

فإن كانت مكسورة صورت ياء سواء كان ما قبلها مضموماً أو مفتوحاً أو مكسوراً مثل: ﴿يَئِسَ﴾[7] و﴿سُئِلَتْ﴾[8] و﴿بَارِئِكُمْ﴾[9] أو كانت مضمومة وما قبلها مفتوح فترسم واواً مثل: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾[10].

وخلاصة حكم الهمزة المتوسطة أنها تكتب بحرف حركة ما قبلها، إلا إذا كانت مكسورة فترسم بالياء مطلقاً، وإذا كانت مضمومة وما قبلها مفتوح فترسم واواً.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠.

(٤) سورة المعارج: الآية ١.

(٥) سورة الحج: الآية ٤٥.

(٦) سورة العلق: الآية ١٦.

(٧) سورة المائدة: الآية ٣.

(٨) سورة التكوير: الآية ٨.

(٩) سورة البقرة: الآية ٥٤.

(١٠) سورة الشورى: الآية ١١.

وإذا كانت الهمزة في آخر الكلمة:

فإنها تكتب بحرف حركة ما قبلها.

فإن كان ما قبلها مفتوحاً كتبت على الألف مثل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[1] و﴿ذَرَأَ﴾[2].

وإن كان ما قبلها مكسوراً كتبت على الياء مثل: ﴿۞نَبِّئۡ﴾[3] و﴿قُرِئَ﴾[4].

ولم يرد في القرآن همزة متطرفة ساكنة أو مفتوحة وقبلها ضمة.

وخلاصة حكم الهمزة المتطرفة أنها تكتب بحرف حركة ما قبلها فإن كان ما قبلها ساكناً لم يصور لها صورة مثل: ﴿دِفۡءٞ﴾[5] و﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾[6].

وهذا رسم بياني تقريبي يبين حكم الهمزة في جميع الحالات مع عدم الاستيفاء أو التفصيل:

---

(١) سورة العلق: الآية ١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٦.

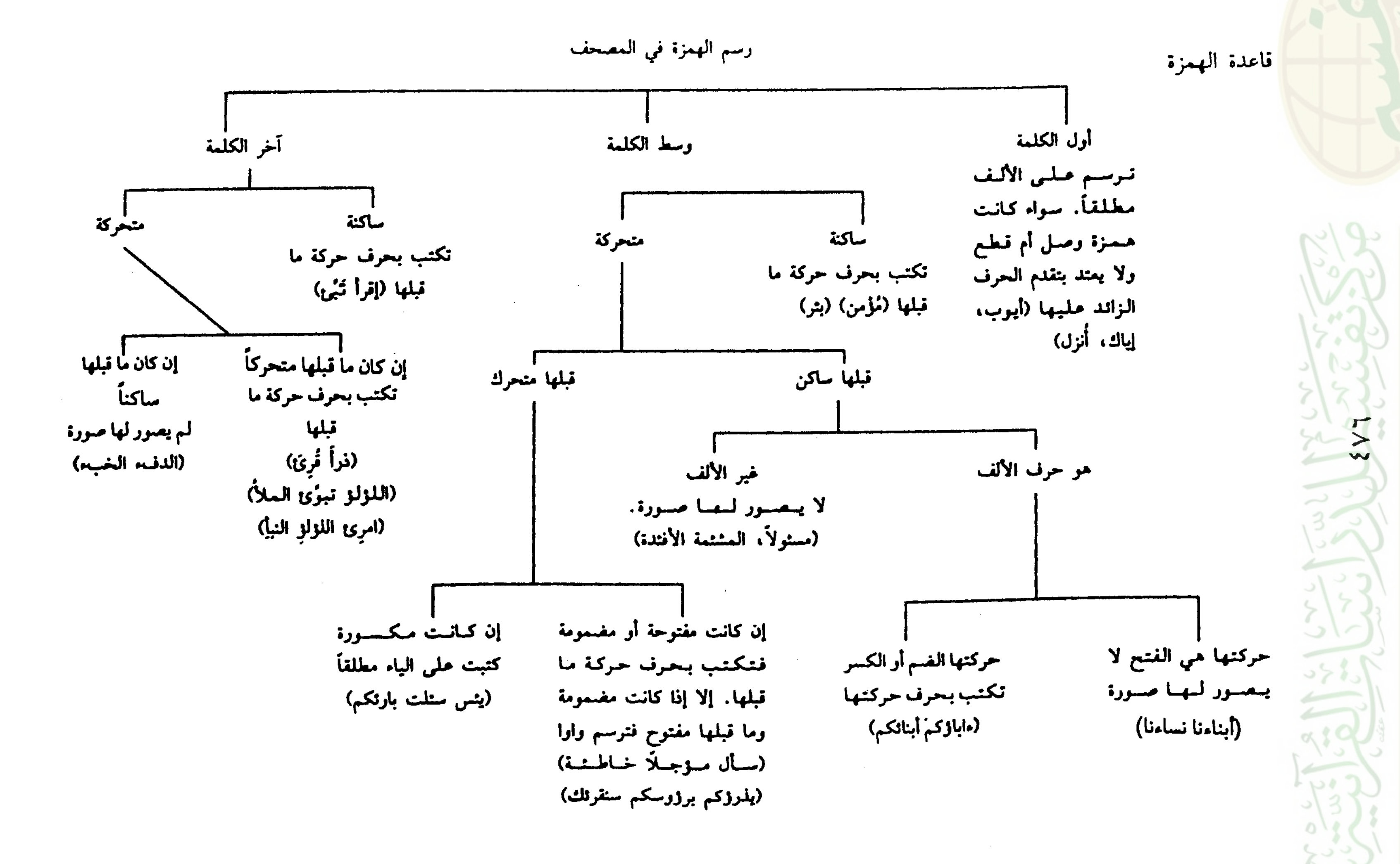
(٣) سورة الحجر: الآية ٤٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٥) سورة النحل: الآية ٥.

(٦) سورة النمل: الآية ٢٥.

قاعدة الهمزة



القاعدة الخامسة: قاعدة الفصل والوصل:

الأصل في الكتابة فصل الكلمة عن الكلمة لأن كل كلمة تدل على معنى غير معنى الكلمة الأخرى، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبر عنهما[1].

وقد نص علماء العربية على أن حق كل كلمة أن تقع مفصولة في الكتاب عما قبلها وما بعدها ليدل كل لفظ على ما وضع له مفرداً[2] إلا أنا نجد بعض الكلمات في رسم المصحف ترد مرة موصولة بما بعدها، وترد مفصولة في موضع آخر.

وفي هذه القاعدة يورد علماء الرسم ما يوصل وما يفصل من هذه الكلمات.

ويريدون بالموصول: كل كلمة اتصلت بما بعدها في الرسم.

وبالمفصول: كل كلمة انفصلت عما بعدها في الرسم.

وإذا كانت الكلمة مفصولة عن غيرها جاز الوقف عليها في مقام التعليم أو الاختبار أو في حالة الاضطرار.

وإذا كانت الكلمة موصولة بما بعدها لم يجز الوقف عليها بل على الكلمة الثانية منهما وتنزل الكلمة الأولى مع الثانية منزلة الكلمة الواحدة.

ولعلك تقول: إذا كان الفصل هو الأصل فكان الحق أن لا يذكر علماء الرسم إلا ما خالف الأصل دون ما وافقه، فما بالهم يتناولون هنا الموصول والمفصول جميعاً.

---

(١) رسم المصحف: د. قدوري، ص٤٤٨.

(٢) المرجع السابق: د. قدوري ص٤٤٧-٤٤٨.

وقد علل بعض علماء الرسم ذلك بأنهم تناولوا المفصول اختصاراً لقلته بالنسبة إلى الموصول ولو تعرضوا إلى جميع ما جاء موصولاً على خلاف الأصل لطال الكلام وفات الاختصار[1].

ومن الكلمات التي تدخل في هذه القاعدة:

١ ـ (ألا) أصلها أنْ لا وكتبت موصولة في ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

٢ ـ (بئسما) أصلها بئس ما وكتبت موصولة في ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾[3].

٣ ـ (ويكأن) أصلها وي كأن وكتبت موصولة في ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[4].

---

(١) دليل الحيران شرح مورد الظمآن: المراغني، ص٢٨٥-٢٨٦ ويبدو لي أن هذا التعليل غير مقنع فمن تتبع الكلمات الموصولة والمفصولة كما وردت في دليل الحيران مثلاً سيجد أن الكلمات المفصولة سبع عشرة كلمة والموصولة سبع عشرة كلمة فهما من حيث العدد سواء.
بل وسيجد أن التقسيم غير دقيق فهم يذكرون مثلاً في الكلمات المقطوعة (عن ما)، وأنها تقطع في موضع واحد في الأعراف وتوصل فيما عداه، ومع هذا فإنهم يعدونها في المقطوع، ولو قلبت القضية وعددتها في الموصول وقلت: إنها توصل في جميع المواضع إلا موضع الأعراف لصح، واختل بهذا تقسيمهم للكلمات المقطوعة والموصولة، وما قلته في (عن ما) ينطبق على أغلب الكلمات المقطوعة والموصولة.
وهذا يؤكد قضية وجوب الاقتصار على ذكر ما خالف الأصل وهو القطع، فلا يذكر في هذا الباب إلا ما هو موصول وحقه القطع. إذ لم يرد في القرآن كلمة مقطوعة وحقها الوصل كما لو قلت (مُحَ مَّد) أو (الح مد) أو (السَّ ماء).
ولهذا التزمت الاقتصار على كلمات وصلت والأصل فيها القطع.

(٢) سورة النجم: الآية ٣٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٤) سورة القصص: الآية ٨٢.

٤ ـ (ألَّن) أصلها أن لن وكتبت موصولة في ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[1].

٥ ـ (يبنؤم) أصلها يا ابن أمي وكتبت موصولة في ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾[2].

هذه بعض الكلمات التي وردت في القرآن موصولة والأصل في رسمها الفصل.

القاعدة السادسة: ما فيه قراءتان:

ويدخل تحت هذه القاعدة نوعان من الكلمات:

النوع الأول: كلمات فيها أكثر من قراءة وتدخل تحت إحدى القواعد السابقة:

ففي قاعدة الحذف ترسم ﴿مٰلك يوم الدين﴾ بحذف الألف لأن في (ملك) قراءتين بالألف (مالك) وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره وقرأ الباقون بحذفها.

وفي قاعدة الهمز كلمة النشأة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[3] رسمت بإثبات الهمزة مع أن القاعدة أن الهمزة المتحركة إذا كان قبلها ساكن غير ألف تحذف صورة الهمزة فتكتب هكذا (النشـئة)، إلا أنها رسمت بإثبات الهمز، وفي ذلك إشارة إلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو (النشاءة) بفتح الشين وإثبات ألف بعدها وبعد الألف همزة مفتوحة.

---

(١) سورة القيامة: الآية ٣.

(٢) سورة طه: الآية ٩٤.

(٣) سورة النجم: الآية ٤٧.

وفي قاعدة البدل كل ما اُختلف فيه القراء جمعاً وإفراداً يرسم بالتاء ليحتمل القراءتين ﴿غَيَٰبَتِ﴾[1] قرأهما المدنيان بالألف على الجمع والباقون بغير الألف على الإفراد. ومثل ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[2] قرأها ابن كثير بغير الألف على الإفراد والباقون بالألف على الجمع.

أما في الوصل والفصل فقد مر بنا قريباً صلته بالوقف فلا يجوز الوقف على الكلمة الأولى من كلمتين موصولتين، ويجوز الوقف عند الفصل للتعليم أو الاختبار ونحوهما.

والنوع الثاني: كلمات يحتمل رسمها قبل النقط أكثر من قراءة.

ومن أمثلة ذلك:

﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[3] بدون نقط قرأ حمزة والكسائي بالثاء (كثير) وقرأ الباقون بالباء.

﴿نُنشِزُهَا﴾[4] بدون نقط قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالزاي والباقون بالراء.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾[5] بدون نقط قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) وقرأ الباقون (فتبينوا).

﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾[6] قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وعاصم بالصاد المهملة. وقرأ الباقون بالضاد المعجمة المكسورة وقبلها قاف ساكنة.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٤.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾[1] قرأها يعقوب (إخوتِكم) بكسر الهمزة وسكون الخاء وكسر التاء. وقرأها الباقون بفتح الهمزة والخاء وسكون الياء.

وغير ذلك من الكلمات التي ساعد عدم نقطها على جمع رسمها لأكثر من قراءة.

فوائد ومزايا رسم المصحف:

ينبغي أن نُذَكِّر قبل ذكر الفوائد والمزايا بما قلناه في أول الباب من أن الصحابة رضي الله عنهم لم يخترعوا رسماً خاصاً لكتابة القرآن، وإنما كتبوه بالطريقة السائدة للكتابة في عصرهم[2]، إلا في مواضع خالفوا فيها هذه الطريقة لحكم وفوائد.

وسنذكر بعض الفوائد والمزايا لرسم المصحف العثماني ومنها:

الفائدة الأولى:

اشتمال هذا الرسم في جملته على القراءات الصحيحة، ولهذا اشترط علماء القراءات لصحة القراءة موافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً.

وعلى هذا فإذا كان في الكلمة الواحدة أكثر من قراءة فإنها ترسم بوجه يحتمل هذه القراءات أو أكثرها.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٢) وقد خالف في هذا بعض الباحثين زاعمين أن الرسم كان بالتوقيف ولا تجوز مخالفته، وهم يخلطون في هذا بين القول بالتوقيف والقول بوجوب التزام الرسم، متوهمين أن الثاني يوجب الأول. والحق أن القول بالتوقيف ظهر في وقت متأخر، أما القول بوجوب التزام الرسم فهو قول جمهور علماء الأمة، ولا يلزم من القول به القول بأن الرسم توقيفي. والله أعلم.

فيكتبون مثلاً ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1] بحذف الألف بعد الميم الأولى ووضع ألف صغيرة للإشارة إلى الألف المحذوفة في قراءة عاصم والكسائي (مالك) وفي حذفها إشارة إلى قراءة الباقين (مَلِك).

وكذا ما كان فيه أكثر من قراءتين فإنهم يرسمونه بصورة تحتمل هذه القراءات ما أمكنهم ذلك مثل: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[2] فقد رسمت في المصحف قبل النقط هكذا (انّ هدنْ) للإشارة إلى القراءات فيها وهي:

١ ـ ﴿إِنَّ هَذَانِ﴾ وهي قراءة نافع وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي.

٢ ـ ﴿إِنْ هَذَانِّ﴾ وهي قراءة ابن كثير.

٣ ـ ﴿إِنْ هذانِ﴾ وهي قراءة حفص عن عاصم.

٤ ـ ﴿إِنَّ هذينِ﴾ وهي قراءة أبي عمرو.

وكما ترى فإن رسم هاتين الكلمتين بلا نقط ولا شكل ومن غير ألف ولا ياء بعد الذال يحتمل هذه القراءات كلها.

وإياك أن تفهم أن الصحابة هم الذين حذفوا النقط أو الشكل وإنما نعني أن عدم وجود النقط أولاً وعدم وجود الشكل ثانياً وحذفهم لبعض الأحرف ثالثاً كل هذا ساعد على رسم بعض الكلمات بحيث تصلح لأكثر من قراءة.

وقد أنكر بعض الباحثين هذه الفائدة معللاً دعواه بأن النقط لم يكن معروفاً عند الصحابة رضي الله عنهم حتى يتعمدوا حذفه لهذا الغرض.

ونحن لم نقل: إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون النقط أو الشكل، ولكن نقول: إن عدم وجود النقط والشكل في تلك الفترة ساعد على كتابة الكلمة بطريقة تحتمل أكثر من قراءة.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٢) سورة طه: الآية ٦٣.

بقي أن نقول: إنه إذا كان في الآية أكثر من قراءة، ولا يمكن كتابتها برسم واحد يحتمل هذه القراءات، فإنهم يكتبون كل قراءة في مصحف ليتفق كل رسم مع القراءة التي يقرأ بها.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[1] كتبت الكلمتان في المصحف الشامي (وبالزبر وبالكتاب المنير) بزيادة باء في الزبر وباء أخرى في الكتاب. وكتبتا في سائر المصاحف بحذف الباءين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2] كتبت في المصحف المكي (من تحتها) بزيادة (من) وفي بقية المصاحف بدونها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[3] كتبت في المصحف المكي والمدني والشامي (منهما) بالتثنية وفي بقية المصاحف (منها) بالإفراد[4].

الفائدة الثانية:

أن في اختلاف الرسم عن النطق حملاً للناس على تلقي القرآن من أفواه القراء والحفاظ، وعدم الاعتماد على مجرد القراءة من المصحف.

ولا شك في أهمية حفظ القرآن عن طريق التلقي، وقد كان أعلام حفاظ القرآن الكريم يميزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٣) سورة الكهف: الآية ٣٦.

(٤) للدكتور محمد محمد سالم محيسن كتاب (الفتح الرباني في علاقة القراءات بالرسم العثماني) ظهر فيه أثر هذه الفائدة لرسم المصحف. ومنه أخذت بعض الأمثلة.

«حفظت من في رسول الله ﷺ بضعة وسبعين سورة»[1]. وبين عمن أخذ باقيه فقال: «وأخذت بقية القرآن عن أصحابه»[2] ولإدراكه رضي الله عنه مكانة التلقي بالمشافهة كان إذا سئل عن سورة لم يكن تلقاها عن الرسول ﷺ صرح لهم بذلك، ودلهم على من تلقاها بالمشافهة عنه ﷺ، فعن معد يكرب قال: «أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ (طسم) المئتين[3]. فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرتّ. قال: فأتينا خباب بن الأرت فقرأها علينا»[4].

ولهذا قرر العلماء أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التلقي عن حافظ متقن، وكانوا يقولون: «من أعظم البليّة تشييخ الصحيفة»[5] ويقولون: «لا تأخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي»[6] وهو الذي يعلم الناس وينظر إلى رسم المصحف. وكان الشافعي رحمه الله تعالى يقول: «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام»[7].

ولحمل الناس على تلقي القرآن مشافهة مزيتان:

المزية الأولى: التوثق من النطق الصحيح لألفاظ القرآن الكريم، وطريقة الأداء، وحسن الترتيل، وإتقان التجويد، وإخراج الحروف من مخارجها، فإن ذلك كله لا يمكن تحقيقه عن طريق الكتابة وحدها، إذ لا

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٢، ومسلم، جـ٤، ص١٩١٢.

(٢) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص٤٨.

(٣) هي سورة الشعراء.

(٤) مسند الإمام أحمد: جـ٦، ص٣٤، بتحقيق أحمد شاكر رقم (٣٩٨٠) وقال: إسناده صحيح.

(٥) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧.

(٦) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: العسكري، ص١٠.

(٧) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧.

يمكن معرفة الرَّوْم، والإشمام، والتسهيل، والتحقيق، والتفخيم والقلقلة، والإدغام، والإخفاء إلا عن طريق السماع الصوتي من معلمٍ متابعٍ مصغٍ.

المزية الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ، فإذا كان كل مسلم يتلقى القرآن عن معلم، فإن السند سينتهي بالمعلم الأول عليه الصلاة والسلام، عن جبريل، عن ربه.

ولا شك أن اتصال السند برسول الله ﷺ في القرآن كله سوره، وآياته، وكلماته، وحروفه، بهيئاتها وحركاتها، وكيفية نطقها بطريق التواتر خاص بهذا القرآن، وهو من خواص هذا الكتاب الذي امتاز به على سائر الكتب، وخواص هذه الأمة التي امتازت به على سائر الأمم[1].

طريق معرفة رسم المصحف:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في طريق معرفة رسم المصحف هل هو توقيفي أو اجتهادي.

القول الأول: أن رسم المصحف توقيفي:

ويرى أصحاب هذا القول أن رسم المصحف ما هو إلا أمر توقيفي عن الرسول ﷺ، علمه أصحابه، فكتبوا المصحف به كما تعلموه. قال الدباغ: «ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز»[2]!! واستدلوا على ذلك بعدة أدلة منها:

---

(١) انظر كتابي خصائص القرآن الكريم، ص١٧٢-١٧٣.

(٢) الإبريز: أحمد بن المبارك، ص٥٥-٥٦.

١ ـ إقرار الرسول ﷺ كتَّابَ الوحي على هذا الرسم:

وبيان ذلك أن كتاب الوحي كانوا يكتبون القرآن بين يدي الرسول ﷺ ويقرهم عليه.

٢ ـ أن القرآن كتب في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بهذا الرسم ولم يغير فيه أو يبدل، وكذلك في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٣ ـ اتفاق الصحابة على التزام هذا الرسم وإقرارهم لرسم المصحف في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم.

٤ ـ اتفاق التابعين وتابعيهم على ذلك وعدم تجويزهم لمخالفته.

وهذا كله يدل على أن رسم المصحف توقيفي، ولو كان غير ذلك لجاز لهم تغيير رسمه، فلما لم يفعلوا دل على التوقيف.

٥ ـ واستدلوا ببعض الروايات غير الثابتة، وبعض الآثار غير الصريحة في الدلالة، كقول زيد رضي الله عنه: كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي علي فإذا فرغت. قال: اقرأ، فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه. ثم أخرج به إلى الناس[١]. وسئل الإمام مالك أيكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ قال: لا، إلا على الكتبة الأولى[٢]. وقال الإمام أحمد: تحرم مخالفة خط المصحف[٣]. وقال البيهقي: من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف[٤]. وقال الزمخشري: خط المصحف سنة لا تغير[٥].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: جـ٢، ص٥٤٤ ورجاله ثقات.

(٢) المقنع: أبو عمرو الداني، ص٩.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧٩، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١٣.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١٣.

(٥) الكشاف: الزمخشري: جـ٣، ص٨٢.

قالوا: وهذه الروايات والآثار تدل على أن رسم المصحف توقيفي لا تجوز مخالفته.

القول الثاني: أن رسم المصحف اصطلاحي:

ويرى أصحاب هذا القول أن رسم المصحف اصطلاحي لا توقيفي، كتبه الصحابة رضي الله عنهم بالطريقة التي كانوا يكتبون بها سائر كتبهم من غير نص من الرسول ﷺ.

وقال بهذا الرأي عدد من العلماء كابن خلدون والباقلاني وابن قتيبة وغيرهم.

قال الباقلاني[1]: «وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخُطَّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه»، وقال: «إن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال» ثم قال: «وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حَدّ محدود مخصوص كما أخذ عليهم في القراءة والأذان، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت.

---

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٧٣-٣٧٤، والإبريز: أحمد بن المبارك، ص٥٥.

الرأي الراجح:

والذي نراه أن رسم المصحف اصطلاحي وليس بتوقيفي؛ لأن القول بالتوقيف يحتاج إلى دليل، وليس ثَمَّ دليل من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال الصحابة على ذلك، ولم يقل به أحد من علماء السلف بل هو لبعض المتأخرين.

وأما ما روي من روايات فهي إما غير صحيحة، أو لا تدل على المراد من القول بالتوقيف، بل تدل على وجوب التزام الرسم، وليس هذا هو موضع الخلاف هنا، واحترام الرسم العثماني واستحسانه والتزامه لا يلزم منه القول بأنه توقيفي.

حكم التزام الرسم العثماني:

اختلف العلماء في حكم التزام الرسم العثماني إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: وجوب التزام الرسم العثماني وتحريم مخالفته[1]:

وهو مذهب جمهور العلماء من السلف والخلف، بل حكى بعضهم الإجماع على ذلك، وأقوال العلماء ونصوصهم في ذلك كثيرة، ومنها: أن الإمام مالك رحمه الله تعالى سئل: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى.

---

(١) وقد ألف عدد من العلماء رسائل خاصة في وجوب التزام الرسم العثماني ومنع كتابته بالرسم الإملائي أو بالأحرف اللاتينية ومنها:

١ ـ الفتوى المحمدية على الأسئلة الهندية عن المرسومات القرآنية: محمد قنديل الرحماني.

٢ ـ إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام: محمد حبيب الجكني.

٣ ـ كتابة القرآن بالرسم الإملائي أو الحروف اللاتينية اقتراحان مرفوضان: عبد الحي الفرماوي.

وقال أشهب: سئل مالك فقيل له: أرأيت من استكتب مصحفاً اليوم أترى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك. ولكن يكتب على الكتبة الأولى. قال أبو عمرو الداني: «ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة وبالله التوفيق»[1].

وقال أشهب: سئل مالك عن الحروف تكون في القرآن، مثل الواو والألف أترى أن تغير من المصحف إذا وجدت فيه كذلك؟ قال: لا. قال أبو عمرو الداني: يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم لمعنى المعدومتين في اللفظ. . .»[2].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «تَحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»[3].

وقال البيهقي في «شعب الإيمان»: «من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانةً مِنَّا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم»[4].

بل قال الجعبري في شرح العقيلة: «إن ذلك هو مذهب الأئمة الأربعة»[5].

وقال الزمخشري في تفسيره: «خط المصحف سنة لا تغير»[6].

---

(١) المقنع: لأبي عمرو الداني، ص٩-١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧٩، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) رسم المصحف: د. غانم قدوري الحمد، ص١٩٩.

(٦) الكشاف: الزمخشري، جـ٣، ص٨٢.

وقد صدرت فتوى هيئة كبار العلماء بالرياض رقم ٧١ وتاريخ ٢١/ ١٠/ ١٣٩٩ «بأن المحافظة على كتابة المصحف بهذا الرسم (يعني الرسم العثماني) هو المتعين اقتداء بعثمان وعليّ وسائر الصحابة وعملاً بإجماعهم».

وقد أيد هذه الفتوى مجلس المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة كما أيدتها دار الإفتاء بمصر[١].

القول الثاني: جواز كتابة القرآن الكريم بالرسم الإملائي الحديث:

وممن ذهب إلى هذا القول الباقلاني وابن خلدون وعدد من المعاصرين واستدلوا بأدلة منها[٢]:

١ ـ أن هذه الخطوط والرسوم ليست إلا علامات وأمارات فكل رسم يدل على الكلمة ويفيد وجه قراءتها فهو رسم صحيح وكاتبه مصيب.

٢ ـ أن كتابة المصحف على الرسم العثماني قد توقع الناس في لبس وحيرة، ومشقة وحرج، ولا تمكنهم من القراءة الصحيحة السليمة وكتابة القرآن بالرسم الحديث فيه تيسير على الناس ورفع للحرج والمشقة.

٣ ـ ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في إجماع الأمة ما يوجب التزام الرسم العثماني.

القول الثالث: جواز كتابته بالرسم الإملائي للعامة وللتعليم مع الإبقاء على الرسم العثماني في المصاحف والمحافظة عليه للعلماء والخاصة.

ومال إلى هذا الرأي الشيخ العز بن عبد السلام والزركشي رحمهما الله تعالى، فقد عقب الزركشي على ما قاله الإمامان مالك وأحمد رحمهما الله

---

(١) انظر تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية: صالح علي العود، ص٥٦-٦٣.

(٢) تاريخ المصحف الشريف: عبد الفتاح القاضي، ص٤٩-٥٠، وهذه الأدلة مقتبسة من كلام الباقلاني، وقد سبق نقله عند القول بأن رسم المصحف اصطلاحي لا توقيفي.

تعالى بقوله: «قلت: وكان هذا في الصدر الأول، والعلم حي غض، وأما الآن فقد يخشى الإلباس. ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال» ولم يرتض الزركشي هذا البعد في الجواز للرسم الإملائي فعقب على كلام العز بقوله: «ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه، لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة»[١].

الرأي الراجح:

والراجح من هذه الأقوال فيما أرى هو أولها إذ نص علماء السلف على وجوب التزام رسم المصحف وتحريم مخالفته ونستدل على ذلك بما يلي:

١ ـ أن القرآن كتب بهذا الرسم في عهد عثمان، وفيه كبار الصحابة، فتلقوه هم وبقية الصحابة حينذاك وعددهم لا يقل عن اثني عشر ألفاً بالقبول، ولم يعترض أحدهم على زيادة حرف أو نقصانه، وتلقاه مِنْ بعدهم التابعون ومَنْ بعدهم. فلا يترك هذا الرسم مراعاة لجهل الجاهلين، وتقصير المقصرين.

٢ ـ أن الكتابة كغيرها من العلوم والمعارف تتغير وتتبدل، وتتطور من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد، فلو كتب في عصرنا هذا على طريقتنا في الكتابة لاحتاج من في المغرب العربي إلى كتابته بصورة أخرى، واحتاج من في الهند وباكستان إلى كتابة ثالثة، ولاحتاجت الأجيال من بعدنا إلى تغيير وتبديل يعرض النص القرآني في كل مرة إلى الخطأ أو التحريف والتغيير.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧٩. وقد خلط بعض الباحثين بين كلامه وكلام العز وحسبوه كلاماً واحداً مع ظهور الاختلاف. وممن وقع في الخلط الزرقاني في مناهله، جـ١، ص٣٧٨، ود. صبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن: ص٢٨٠، ونقل كثير من المؤلفين العبارة عن الزرقاني من غير إدراك للخلط، وقد نبه إلى ذلك د. غانم قدوري الحمد في كتابه رسم المصحف: ص٢٠١.

٣ ـ أن تغيير رسم المصحف كلما هبت الريح أو أشرقت شمس أو آذنت بغروب يعرض المصحف للامتهان، ويمس قداسته، ويغض من هيبته، ويقلل من احترامه، فتعتاد النفوس، ويتبلد الإحساس، وتخمد الغيرة على النص القرآني.

٤ ـ أن أجازة كتابته بالرسم الإملائي، وانتشاره بذلك، واعتياد الناس لذلك، يمهد للدعوة إلى تغيير الأحرف العربية، وكتابة اللفظ بالأحرف اللاتينية ما دام النطق هو النطق، واللفظ هو اللفظ. بل الدعوة قائمة الآن إلى كتابة القرآن بالأحرف اللاتينية.

٥ ـ أن للرسم العثماني فوائده وحكمه، ومزاياه التي يضمنها الالتزام بالرسم العثماني ولا تتحقق في سواه.

٦ ـ أن تعليم القرآن وحفظه لا يكون من المصحف، وإنما عن طريق المشافهة عن حافظ متقن، ومن سلك هذا الطريق لم يشكل عليه رسم، وإنما الإشكال ممن لم يلتزم الطريق الصحيح وقرأ من المصحف وحدَه، فالخطأ من قبله هو أتى.

٧ ـ أن الاحتجاج بتعليم الصبيان غير مُسَلَّم، فها نحن نراهم يتعلمون اللغات الأجنبية بحروفها ولغاتها ويتقنونها، وينكرون كل الإنكار كتابة الكلمات لهم بالأحرف العربية، بل يوجبون قراءة اللغة الأجنبية بأحرفها الأجنبية مع الاختلاف الكلي بين اللغتين، بينا الاختلاف بين الرسم العثماني والإملائي ليس إلا في كلمات معدودة ورسوم محدودة.

٨ ـ أن تعليم الصبيان لا يكون بالمساس بالنص الديني، وإنما يكون برفع مستوى الأذهان، والتهيئة النفسية لذلك.

وعلينا إن كنا حريصين ـ حقاً ـ على تعليم أبنائنا للقرآن الكريم أن نعوّدهم القراءة في المصحف، ففي التعود على قراءته تأليف لأذهانهم على رسم

المصحف، وترويض لمداركهم على مصطلحاته، وسيدرك أولئك أن الصعوبة التي تواجههم بادئ الأمر قد تحولت بعد زمن يسير إلى سهولة ووضوح.

وإنما تصعب تلاوة القرآن وإتقانه على الذين يهجرونه دهراً طويلاً ثم يعودون لتلاوته دقائق معدودة، فأولئك سيواجهون ـ حتماً ـ الصعوبة، وسيحملون تقصيرهم ـ جوراً وظلماً ـ على رسم المصحف وما هو من الرسم، ولكنه من تفريطهم بالتلاوة، وهجرهم للقرآن، والله المستعان[1].

٩ ـ أن في الالتزام برسم المصحف ضمان قوي للنص القرآني من التحريف والتبديل، ولو تم تغييره في كل حين، والتصرف في كتابته في كل عصر، لأدى ذلك إلى تعريض المصحف للتغيير، والتبديل، والتحريف.

١٠ـ أن الذين دعوا إلى كتابة المصاحف بالرسم الإملائي ليسوا من القراء، ولا من العلماء المختصين بالرسم، وإنما عمادهم الرأي المجرد، بل إن بعضهم من المشهورين بالإلحاد وسوء المعتقد، وفيهم من دعا إلى ذلك بحسن نية، لكنها دعوة ينقصها العلم الشرعي، والله المستعان.

ونحن حين نورد هذه الأدلة لا نستجدي موافقة أو نلتمس تأييداً[2] لإبقاء رسم المصحف العثماني، فهو أمر حسمه علماء السلف رحمهم الله تعالى، ولا خيار للمخالف، ولكننا نخشى أن يغتر ببريق هذه الدعوة مغتر، أو تنطلي شبهات هذه الدعوة على من لا يعلم الحكم الشرعي فيغرق في أوحالها.

---

(١) من كتابي خصائص القرآن الكريم، ص١٨٧.

(٢) أقول هذا لأني رأيت فيما كتبه بعض المعارضين للرسم الإملائي فتوراً وليناً، وتنازلاً وكأن في الأمر مقايضة.

نقط المصحف وشكله وتجزئته:

من المعلوم أن المصاحف في عهد الصحابة رضي الله عنهم لم تكن منقوطة ولا مضبوطة بالشكل. وقد كان ذلك لأنهم كانوا عرباً خلصاً يقرؤون بفهمهم أكثر أو مثل ما يقرؤون بالحروف الماثلة أمامهم.

ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بالعجم، دخل اللحن في لسان الأحفاد، وأخطر ما يكون اللحن وأشده حين يقع في القرآن الكريم. وأكثر من يدرك فشو اللحن وانتشاره من يقيم في بلاد العجم السابقة كالعراق بلاد الفرس.

وحين رأى زياد بن عبيد الله والي البصرة (٤٤-٥٣هـ) في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ظهور اللحن خشي أن ينال القرآن منه شيء، فبعث إلى أبي الأسود الدؤلي وقال له: يا أبا الأسود إن هذه الحمراء - يعني العجم - قد كثرت، وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم، ويعربون به كتاب الله تعالى. فأبى ذلك أبو الأسود، وكره إجابة زياد إلى ما سأل هيبة للقرآن وإجلالاً أن يضع فيه ما ليس منه، حتى سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[1] بكسر اللام من ورسوله فاستعظم أبو الأسود ذلك وقال: عَزَّ وجه الله أن يبرأ من رسوله. ثم رجع إلى زياد وأجابه إلى طلبه ووضع علامات الإعراب[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣.

(٢) المحكم: للداني، ص٣-٤، والفهرست: لابن النديم، ص٦٠، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري، ص٢٠.

وكانت علامات الإعراب التي وضعها هي:

١ ـ نقطة فوق الحرف للفتح.

٢ ـ نقطة بين يدي الحرف للضم.

٣ ـ نقطة تحت الحرف للكسر.

٤ ـ نقطتين للحرف المنون.

ثم وبعد أن أمن الناس من اللحن أو كادوا بعد وضع علامات الإعراب، ظهر نوع آخر من الخطأ وهو التمييز بين الحروف التي تتحد صورتها بدون نقط كالباء والتاء والثاء، وكالجيم والحاء، وكالدال والذال، ونحوها، وشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير معجمة. مما دعا الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أن يأمر الحجاج بن يوسف الثقفي واليه في العراق أن يختار من العلماء من يقوم بهذا العمل.

واختار الحجاج بن يوسف لهذا العمل عالمين هما:

١ ـ يحيى بن يعمَر العدواني ت قبل (٩٠هـ).

٢ ـ نصر بن عاصم الليثي ت (٩٠هـ).

فقاما بإعجام الحروف بوضع النقاط المعروفة إلى يومنا هذا[١]، ثم ولئلا يقع خلط بين نقط الإعجام ونقط الإعراب قام الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) بتغيير نقط الإعراب إلى علامات الإعراب المعروفة الآن حتى لا يقع خلط بين نقط الإعراب ونقط الإعجام على النحو التالي:

١ ـ (ـَ) فوق الحرف للفتح.

٢ ـ (ـُ) فوق الحرف للضم.

---

(١) لمعرفة أقوال العلماء في علل إعجام الحروف (يعني علة وضع نقطة تحت الباء واثنتين فوق التاء وثلاث للثاء ونقطة للجيم.. إلخ) انظر المحكم: للداني ص٣٥-٤١.

٣ ـ (ـِ) تحت الحرف للكسر.

٤ ـ (ـّ) فوق الحرف للتشديد وهي رأس ش من شديد.

٥ ـ (حـ) فوق الحرف للسكون وهي رأس خـ من (خفيف).

ووضع الخليل أيضاً الهمزة، والتشديد، والروم، والإشمام، وهو أول من صنف في النقط وذكر علله[1].

وهكذا تتابع العلماء وازدادت عنايتهم في تحسين رسم المصحف حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري بلغ الرسم ذروته، وتنافس العلماء في اختيار الخط، وابتكار العلامات المميزة[2].

تجزئة المصحف:

فقاموا بتجزئة المصحف. ولعل مستند التجزئة هو تيسيره للتلاوة والحفظ، ويرجع هذا إلى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «قلت: يا رسول الله في كم أقرأ القرآن؟ قال: اختمه في شهر. قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: اختمه في عشرين. قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: اختمه في خمسة عشر. قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: اختمه في عشر. قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: اختمه في خمس. قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: فما رخص لي» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[3]. فقاموا بتجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً وقسموا الجزء إلى حزبين والحزب إلى أربعة أرباع والربع إلى عُشْرَين.

---

(١) المقنع: للداني، ص١٢٥، والمحكم: له أيضاً ص٦،٩.

(٢) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص٩٤.

(٣) رواه الترمذي، جـ٥، ص١٩٦.

وقاموا بوضع علامات مختلفة كالخاء فوق كل آية خامسة أو مضاعفاتها. والعين فوق كل آية عاشرة أو مضاعفاتها. ووضعوا رقماً لكل آية أو علامة على نهايتها.

ووضعوا ديباجة في أول كل سورة يذكرون فيها اسم السورة وعدد آياتها ومكية هي أو مدنية.

ووضعوا بين الآيات أو فوقها علامات الوقف بأنواعه اللازم والممنوع والجائز بأنواعه (المستوى الطرفين، والجائز مع كون الوصل أولى، والجائز مع كون الوقف أولى) وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحدهما لم يقف على الآخر.

ووضعوا علامات سجدات التلاوة وزاد بعضهم فيذكر القائلين بالسجدة في كل موضع.

حكم هذه الزيادات:

للعلماء في نقط المصاحف مذهبان:

١ ـ المنع:

ويستدلون على ذلك بأدلة منها:

١ ـ قول الرسول ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه»[١].

٢ ـ ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «جردوا القرآن، ولا تخلطوه بشيء»[٢] وما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه: «جردوا القرآن»[٣].

---

(١) رواه مسلم، جـ٤، ص٢٢٩٨.

(٢) المحكم: الداني، ص١٠.

(٣) المرجع السابق.

٣ ـ ما روي عن الحسن وابن سيرين أنهما كانا يكرهان نقط المصاحف[(١)].

٢ ـ الجواز:

ويستدلون على ذلك بأدلة منها:

١ ـ ما روي عن أئمة السلف في جوازه فقد سئل الحسن عن نقط المصاحف فقال: «لا بأس به ما لم تبغوا» وقال ثابت بن معبد: العَجْمُ نور الكتاب، وقال الحَذّاء: «كنت أمسك على ابن سيرين في مصحف منقوط» وسئل ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن عن شكل القرآن في المصحف فقال: لا بأس به. وقال الليث: لا أرى بأساً أن ينقط المصحف بالعربية. وقال الإمام مالك: أما هذه المصاحف الصغار فلا أرى بأساً وأما الأمهات فلا. وقال أبو يوسف: كان ابن أبي ليلى من أنقط الناس لمصحف[(٢)]، وقال الأوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: كان القرآن مجرداً في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا: لا بأس به. هو نور له[(٣)].

والراجح:

هو جواز ذلك لأن النقط لا ينافي الأمر بالتجريد، ولأنه ـ كما قال الحليمي: «ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً، وإنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها»[(٤)] وقال النووي رحمه الله تعالى: «قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه والتصحيف» وقال: «وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط

---

(١) المرجع السابق، ص١٢-١٣.

(٢) المحكم: الداني، ص١٢-١٣.

(٣) المرجع السابق، ص٣٥.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١٩.

فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه، وقد أُمِنَ ذلك اليوم فلا منع، ولا يمتنع من ذلك لكونه محدثاً فإنه من المحدثات الحسنة فلم يمنع منه»[1].

حكم التجزئة وعلامات الوقف:

والخلاف في حكمها أقوى من الخلاف في النقط.

فقالت طائفة: بالمنع.

والمنع فيه أظهر من المنع في النقط.

فقد روى عن النخعي كراهة النقط والعواشر والفواتح وتصغير المصحف وأن يكتب فيه سورة كذا وكذا[2] وروى عنه أنه أتي بمصحف مكتوب فيه سورة كذا وكذا آية فقال: امح هذا فإن ابن مسعود كان يكره هذا[3]، وعن ابن سيرين أنه كان يكره أن يكتب في المصاحف هذه العواشر والفواتح[4]، وعن أبي العالية أنه كان يكره الجمل في المصحف وفاتحة سورة كذا وخاتمة سورة كذا[5] وقال الحليمي: «تكره كتابة الأعشار والأخماس وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقوله: «جردوا القرآن»[6].

وقال البيهقي: «من آداب القرآن أن يفخم فيكتب مُفَرَّجاً بأحسن خط فلا يصغر ولا تقرمط حروفه، ولا يخلط به ما ليس منه كعدد الآيات والسجدات والعشرات، والوقوف، واختلاف القراءات، ومعاني الآيات»[7].

---

(١) التبيان: النووي، ص٢٧٥.

(٢) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٥٣-١٥٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق: ص١٥٧.

(٥) المرجع السابق: ص١٥٣-١٥٤.

(٦) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١٩.

(٧) المرجع السابق.

وقالت طائفة بالجواز:

معللين ذلك بأمن اللبس، وتحقق الفائدة، وأن الخلط بين النص القرآني وهذه المصطلحات بعيد كل البعد.

والراجح:

أن الحق وسط بين الإفراط والتفريط، وقد جاء في التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية أن اللجنة المشكلة لذلك درست المعلومات التي جرت العادة بإضافتها إلى المصحف دراسة دقيقة وافية، نوقشت فيها سائر الآراء والاتجاهات فتوصلت إلى أنها تنقسم إلى قسمين:

قسم: يضاف عادة أثناء النص القرآني وفي نطاقه وهو: أسماء السور، وعدد آياتها، والمكي والمدني، وما يستثنى من الآيات من ذلك. وبعضهم يزيد وقت نزول السورة، كل ذلك في فواتح السور، ورموز الوقوف وذلك في النص.

وقسم: يضاف في حواشي الصفحات إما في أعلى الصفحة كاسم السورة ورقم الجزء، أو في جانب الصفحة كرموز الأجزاء والأحزاب والأرباع والأعشار والأخماس، ورموز السجدات، والسكتات، وبعضهم يذكر خلاف الفقهاء في بعض السجدات.

أما **(القسم الأول)**: فلم نتردد في حذفه واستبعاده من المصحف ما عدا أسماء السور لأنه يذكر في موضع خطرٍ هو محل تحذير السلف وهو نطاق النص القرآني، ولأن هذه المعلومات محل ذكرها كتب التفسير وعلوم القرآن... ولا يتحمل هذا النص القطعي المتواتر أن نثبت خلاله ما يحتمل الخطأ والصواب إلى أن قالوا: وهذا ينطبق على أسماء السور أيضاً إلا أننا لم نتجاسر على حذفها لشدة الحاجة إليها، ولأنه لا خلاف فيها، فأبقينا عليها مع أن النفس تميل إلى حذفها جرياً على قاعدة (التجريد).

أما رموز الوقف وهي ألصق بالنص مما سبق فإن الكلام فيها كالكلام في النقط والشكل.

أما (القسم الثاني): وهو المعلومات التي تذكر خارج نطاق النص القرآني في حواشي الصفحات من أعلى أو من جانبها فإن المحذور فيها أهون، والخوف منها أقل، لبعدها عن مجال النص فأثبتنا أكثرها مع تصرف في الإخراج الطباعي يجعل التمييز بينها وبين النص واضحاً ـ قدر الإمكان ـ إلا ما يشار إليه عادة من خلاف الفقهاء في بعض السجدات فلم نتردد في حذفه لما فيه من التمادي في إثقال صفحات المصحف بما هو أجنبي عنه، ولما فيه من جرأة على كتاب الله بحشر خلاف البشر في صفحاته وإن كان هذا الخلاف معتبراً لكن مع ذلك لا ينبغي ذكره في المصحف[1].

مرحلة طباعة المصحف:

ظهرت آلات الطباعة وبدأ استعمالها سنة (٨٣٥هـ ـ ١٤٣١م) في البلاد الأوروبية ولا شك أن للطباعة أثرها الكبير في انتشار المطبوعات.

وكانت الطباعة في بدايتها تقوم على تنضيد الحروف وليس على تصوير المكتوب، لذا فقد كانت الطباعة في تلك الفترة على الرسم الإملائي لتعذر الالتزام بالرسم العثماني.

وظهرت أول طبعة للقرآن الكريم في البندقية في إيطاليا في حدود سنة (٩٣٧هـ ـ ١٥٣٠م) ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره[2].

---

(١) التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية، ص٣٥-٤٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص٩٩.

ثم قام هنلكمان Hinkelmann بطبع القرآن في مدينة هامبورج في ألمانيا سنة (١١٠٦هـ ـ ١٦٩٤م)[١] ثم تلاه مراكي Marracci بطبعه في مدينة بادو في إيطاليا سنة (١١١٠هـ ـ ١٦٩٨) وليس لهذه الطبعات الثلاث أثر يذكر في العالم الإسلامي[٢]. وظهر فيها أخطاء فاحشة[٣].

أما في العالم الإسلامي فقد ظهرت أول طبعة إسلامية للقرآن في سانت بطرسبرج في روسيا سنة (١٢٠١هـ ـ ١٧٨٧م) وهي التي قام بها مولاي عثمان.

ثم ظهرت في إيران طبعتان حجريتان الأولى في طهران سنة (١٢٤٤هـ ـ ١٨٢٨م) والثانية في تبريز سنة (١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٣م).

وأصدر المستشرق فلوجل طبعة خاصة سنة (١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٤م) في مدينة ليبزيغ في ألمانيا وتلقاها الأوربيون بحماس منقطع النظير بسبب إملائها الحديث الميسر. ولم تحظ بعناية المسلمين لمخالفتها رسم المصحف[٤].

وظهرت طبعة جديدة للقرآن في قازان عاصمة التتار سنة (١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٧م) وفي آخرها تصويب للأخطاء المطبعية، ومع طبعها بطريقة صف الحروف إلا أن فيها التزاماً في بعض المواضع لرسم المصحف[٥].

وظهرت طبعات للقرآن الكريم في الهند أيضاً ـ ثم طبع في الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية في تركيا سنة (١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٧م) فطبع على أصل

---

(١) توجد من هذا المصحف نسخة في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض ونسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٧٦ مصاحف) ومنه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة. وهي مليئة بالأخطاء والتحريفات.

(٢) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص٩٩.

(٣) رسم المصحف: د. غانم قدوري، ص٦٠٢.

(٤) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص٩٩.

(٥) توجد منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٢١٥٤٢).

مصحف مخطوط بقلم الخطاط التركي المشهور حافظ عثمان[1] (ت ١١١٠هـ) وإذا علمنا أن هذه الطبعة من أفضل الطبعات وأدقها ومع هذا فلم تكن ملتزمة للرسم العثماني التزاماً دقيقاً حتى غلا بعض النقاد فقال: «لا يجوز إطلاق كلام الله على مصحف حافظ عثمان وإنما يجوز إطلاق بعض كلام الله»[2] وقال أيضاً: «إن مصحف حافظ عثمان مشتمل على نقص وزيادة»[3]!!! وقال في موضع آخر: «فيجب على كل مسلم أن يتخذ لنفسه مصحفاً من المصاحف التي رسمت على رسم مصاحف أهل السنة والجماعة إن كان يحسن القراءة، وإن كان تحت يده مصحف أو مصاحف برسم حافظ عثمان ونحوه بادر إلى حرقه»[4]!!

إذا كان هذا النقد الحادّ وغير المعتدل لما كتبه حافظ عثمان مع اختلافه عن رسم المصحف في بعض المواضع فكيف سيكون الموقف من الطبعات التي كتبت بطريقة صف الحروف وفيها اختلاف كثير.

ولذا فقد كتب الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخللاتي (ت١٣١١هـ) مصحفاً اعتنى فيه بكتابة الكلمات القرآنية على قواعد الرسم القرآني وأضاف إليها بعض الإفادات المتعلقة بالعدّ والوقف وتحرير الرسم والضبط وتاريخ كتابة القرآن وغير ذلك وطبع هذا المصحف في المطبعة البهية في القاهرة سنة (١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م) قال الشيخ عبد الفتاح القاضي: «وكان هذا المصحف هو المتداول بين أهل العلم والقراء.. المعول عليه عندهم المقدم دون سائر المصاحف لما اشتمل عليه من المزايا السابقة بيد أنه لم يبرز في

---

(١) في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٤٤٠٥) نموذج من هذا المصحف.

(٢) الفرائد الحسان في بيان رسم القرآن: محمد بن يوسف التونسي الشهير بالكافي، ص٤٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق، ص٥٧.

صورة حسنة تروق الناظر وتنشط القارئ لرداءة ورقه، وسوء طبعه إذ إنه طبع في مطبعة حجرية»[1].

ثم أصدر الملك فؤاد الأول أمره إلى مشيخة الأزهر بتشكيل لجنة من العلماء للإشراف على طبع مصحف، وقد تم تشكيل لجنة[2] قامت بكتابة القرآن كله حسب قواعد الرسم العثماني، وضبطوه الضبط التام على ما ذهب إليه المحققون من العلماء، وأضافوا إليه عدد الآي في كل سورة، وأنها مكية أو مدنية، وأنها نزلت بعد سورة كذا، ورقموا الآيات، وعلامات الوقوف، والأجزاء والأحزاب والأرباع، والسجدات، وقد كتب هذا المصحف بخط رئيس اللجنة وهو الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني الحداد (ت١٣٥٧هـ) شيخ المقارئ المصرية حينذاك وانتهت اللجنة من أعمالها عام ١٣٣٧هـ فأمر الملك فؤاد بطبعه فطبع سنة (١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م) ويعرف هذا المصحف بـ (المصحف الملكي) ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات وفاقت هذه الطبعة كافة الطبعات في الشهرة والقبول مع أنها لا تخلو من ملحوظات[3].

وفي عام ١٣٦٨هـ صدر مصحف سمي بمصحف مكة المكرمة وكتبه الخطاط المشهور محمد طاهر بن عبد القادر كردي وراجعه عدد من علماء مكة المكرمة حينذاك.

---

(١) تاريخ المصحف الشريف: عبد الفتاح القاضي، ص٥٩-٦٠.

(٢) تشكلت اللجنة من: حفني ناصف، ومصطفى عناني، وأحمد الإسكندري ورئيسها الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني المشهور بالحداد.

(٣) أمرت مشيخة الأزهر بتشكيل لجنة لمراجعة هذه الطبعة فكتبت ملحوظاتها وقد أورد هذه الملحوظات أحد أعضاء هذه اللجنة وهو الشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه (تاريخ المصحف الشريف ص٦٢-٦٥).

ثم توالت الطبعات التجارية في مختلف بلدان العالم الإسلامي وغير التجارية وأصبح عرضة لإهمال الطابعين وتساهل الناشرين عن العناية بتصحيحه ومراجعته توفيراً لتكاليف طبعه.

إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

ولهذا احتاج الأمر أن يهب الغيورون لحماية المصحف والإنفاق على طبعه الطبعات السليمة فتصدت لهذا الأمر حكومة المملكة العربية السعودية وفقها الله بإنشاء (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) بالمدينة النبوية وزُوِّد بأحدث وأرقى أنظمة الطباعة وإمكاناتها لإصدار طبعة سليمة ممتازة للمصحف توفر له العناية العلمية اللازمة بتصحيحه ومراجعته، بإشراف عدد من العلماء البارزين المتخصصين ونشر هذا المصحف على أوسع نطاق، وبهذا يتحقق سد حاجة المسلمين لهذا النوع من الطباعة، والحدّ من تلاعب ضعاف النفوس من الناشرين والطابعين بكتاب الله.

وفي ٢٠/ ٤/ ١٤٠٤ تم تشكيل لجنة لاختيار مصحف تجرى طباعته وتكونت اللجنة من خمسة عشر عضواً وروعي في تشكيلها أن تتضمن علماء مختصين في سائر العلوم المتصلة بالمصحف. وتم اختيار المصحف الذي كتبه الخطاط الدمشقي عثمان طه وذلك لجودة خطه ووضوحه وسلاسته ولقلة الأخطاء فيه وقامت اللجنة بمراجعته وفحصه فحصاً دقيقاً آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وحركة حركة مع الفحص الدقيق للاصطلاحات والرموز وتم ختم القرآن أثناء المراجعة أكثر من مئتي مرة. وقامت اللجنة بإجراء تعديلاتها وتصحيحاتها حتى جاءت طبعتها أفضل طبعة صدرت للمصحف حتى الآن وألزمها لرسم المصحف، وأقلها خطأ بتوفيق الله عز وجل. واعتمدت لهذا المصحف اسم (مصحف المدينة النبوية).

وقامت حكومة المملكة العربية السعودية بطبع ملايين النسخ[1] من هذا المصحف بأحجام مختلفة وتوزيعه في سائر أنحاء العالم الإسلامي هدية منها إلى الشعوب الإسلامية في كل مكان، كما تفضلت بسنة حميدة وهي إهداء نسخة من هذا المصحف لكل حاج في جميع منافذ هذه البلاد، ولسلامة هذه البلاد من أخطاء الطبعات الأخرى منعت الحكومة السعودية دخول أي طبعة للقرآن الكريم غير طبعة (مصحف المدينة النبوية)[2] وفقها الله إلى كل خير.

❊ ❊ ❊

---

(١) بلغ مجموع ما تم توزيعه من مصحف المدينة النبوية منذ بدأ التوزيع سنة ١٤٠٥هـ حتى نهاية شهر شوال ١٤٢٥هـ نحو مئة وثلاثة وتسعين مليون نسخة (١٩٣,٠٠٠,٠٠٠).

(٢) رجعت فيما ذكرت من معلومات عن (مصحف المدينة النبوية) إلى طبعة المصحف نفسه وإلى التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية الذي أصدرته لجنة المراجع سنة ١٤٠٦ وغير ذلك من النشرات وانظر ص١١١ من هذا الكتاب.

المحكم والمتشابه[1]

تختلف قوى البشر ومداركهم العقلية كما تختلف قواهم ومداركهم الجسمية. فهناك من الأعمال ما يستطيع أن يفعله كل البشر، ومنها ما لا يستطيع فعله إلا الأقوياء منهم، ومنها ما لا يستطيع أحد من البشر فعله. وكذا في المدارك العقلية هناك من المعاني ما يفهمه كل البشر، ومنها ما لا يفهمه إلا العلماء، ومنها ما لا يدرك المراد به أحد من البشر ولا يعلمه إلا الله.

ومن معاني القرآن الكريم ما هو ظاهر الدلالة، واضح المعنى، ومنه ما خفيت دلالته، وغمض معناه. وتدبر العلماء في معاني الآيات القرآنية ودرسوا هذين النوعين في باب المحكم والمتشابه.

وينقسم المحكم والمتشابه إلى قسمين:

الأول: الإحكام والتشابه العام.

الثاني: الإحكام والتشابه الخاص.

---

(١) في هذه المباحث الأصولية التالية أعني (المحكم والمتشابه) و(العام والخاص) و(المطلق والمقيد) و(المنطوق والمفهوم) بعض المسائل العلمية الدقيقة التي لا يحتاجها بعض الطلاب والطالبات في بعض المقررات لذا اقترح الاقتصار على المسائل الرئيسة وحذف ما يشكل منها تيسيراً للمادة ومراعاة للمستوى العلمي لهم. والله أعلم.

أولاً: الإحكام والتشابه العام:

أ ـ الإحكام العام:

دليله: وردت آيات كثيرة تصف القرآن الكريم كله بأنه محكم منها قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ﴾[3] ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾[4] ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[5]. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[6] ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾[7] وغير ذلك.

معناه:

الإحكام بكسر الهمزة له معان متعددة ترجع كلها إلى معنى واحد، هو «المنع» عن الفساد، ولا يعتبر المنع عن الإصلاح إحكاماً، بل هو خاص بالمنع عن الفساد ومنه:

قولهم: أحكم الأمر، أي: أتقنه ومنعه من الفساد.

وقولهم: أحكمه عن الأمر، أي: منعه منه.

وقولهم: حكم نفسه وحكم الناس، أي: منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي.

---

(١) سورة هود: الآية ١.

(٢) سورة يونس: الآية ١.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٨.

(٦) سورة يونس: الآية ١.

(٧) سورة يسٓ: الآيتان ١-٢.

وقولهم: أحكم الفرس، أي: جعل له «حَكَمَة» وهي ما أحاط بالحنك من لجام الفرس «تمنعه» من الاضطراب[1].

وقول جرير[2]:

أبني حنيفة أَحْكِمُوا سفهاءكم إني أخاف عليكُمُ أن أغضبا

ومنه سميت «الحكمة» وهي إصابة الحق لمنعها صاحبها من الوقوع في الباطل، ولذا سُمي الحكيم حكيماً لمعرفته الحكمة.

وعلى هذا فالقرآن الكريم كله محكم، أي: متقن يمتنع عنه الخلل والنقص في ألفاظه ومعانيه، ولهدايته إلى الحق والطريق المستقيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[3] ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[4].

ب ـ التشابه العام:

دليله: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[5].

معناه: التشابه في الأصل هو التماثل بين شيئين فأكثر حتى يشق التمييز بينهما، ثم أطلق بعد ذلك على كل ما فيه غموض والتباس في تحديد معناه أو حقيقته.

ومن الأول: قولك: فلان يشبه فلاناً، أي: يماثله ويقاربه، سواء كان في الصفات الحسية كالجسم أو الوجه، أو في الصفات المعنوية كالأخلاق والآداب.

---

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢٨٩.

(٢) ديوان جرير: ص٤٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٥) سورة الزمر: الآية ٢٣.

ومن الثاني: قولهم: «شُبِّه عليه الأمر» إذا التبس، وقولهم: «فلان مشبوه» إذا التبست براءته من الجريمة باقترافه لها.

«وذلك أن التشابه والتماثل قد يكون سبباً للعجز عن التمييز بين الأشياء مما يؤي إلى الالتباس والغموض، ولذلك سمي هذا الالتباس أو الغموض متشابهاً من باب إطلاق السبب على المسبب»(١).

ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾(٢) أي: يشبه بعضه بعضاً، وقوله عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾(٣) أي: اختلط أمره علينا، والتبس المقصود منه، وقوله سبحانه: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٤) أي: تماثلت في الغي والجهالة.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الحلال بَيِّنٌ، وإن الحرام بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» الحديث(٥) أي: أمور تشتبه على كثير من الناس هل هي من الحلال أم من الحرام(٦).

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾(٧) أي: يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة والإعجاز وعدم تناقضه، وإبداع ألفاظه، واستخراج حكمه»(٨) وهذا هو التشابه العام بين آيات القرآن.

---

(١) المحكم والمتشابه: د. عبد الرحمٰن المطرودي، ص١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٧٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ١١٨.

(٥) متفق عليه.

(٦) جامع العلوم والحكم: ابن رجب، ص٥٨.

(٧) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٨) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، جـ٢، ص١٢٩٧.

ثانياً: الإحكام الخاص والتشابه الخاص:

وإذا كان القرآن الكريم كله محكم بمعنى: أنه متقن لا يتطرق إليه الخلل والنقص، وهو كله متشابه بمعنى: أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الإعجاز والفصاحة، فإنه قد وردت آية قرآنية تصف القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[1]، فلا بد أن يكون للإحكام والتشابه هنا معنى غير المعنى الأول، وهو خاص ببعض الآيات دون بعض، ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء في تعريف المحكم والمتشابه هنا.

أقوال العلماء في المحكم والمتشابه:

للعلماء في تعريف المحكم الخاص والمتشابه الخاص أقوال كثيرة منها:

الأول: المحكم ماعرف المراد منه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور، وينسب هذا القول إلى أهل السنة.

الثاني: المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أكثر من وجه، وهو قول الأصوليين، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الثالث: المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يؤمن به، ولا يعمل به، وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة[2].

الرابع: المحكم هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه ويحتاج إلى بيان، وهو قول الإمام أحمد.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

الخامس: المحكم ما اتضح دليله، والمتشابه ما يحتاج إلى تدبر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1] فأولها محكم، وآخرها متشابه، وهو قول الأصم[2].

السادس: المحكم ما تضمن حكماً، والمتشابه ما تضمن أخباراً وقصصاً.

السابع: المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ، وقيل: المحكم ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، والمتشابه: منسوخه ومقدمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه وهو قول ابن عباس ومجاهد[3] وقتادة.

الثامن: المحكم ما كانت دلالته راجحة كالنص، والظاهر، والمتشابه ما كانت دلالته غير راجحة، أي: أن دلالة اللفظ عليه وعلى غيره متساوية كالمجمل والمؤول والمشكل[4].

أقسام المتشابه:

والتشابه في بعض آيات القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

الأول: التشابه من جهة اللفظ.

الثاني: التشابه من جهة المعنى.

الثالث: التشابه من جهة اللفظ والمعنى.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ١١.

(٢) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٧٠-١٧١.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

(٤) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٧٠-١٧١.

الأول: التشابه من جهة اللفظ:

وهو ما كان خفاء معناه ناشئاً من جهة اللفظ وهو نوعان:

أ ـ تشابه لفظي يرجع إلى المفردات:

إما لغرابتها وقلة استعمالها مثل ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[1] وكقوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾[2] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[3] ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[4] كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا أدري ما الأواه وما الغسلين»[5].

وإما لجهة الاشتراك اللفظي كالقرء في قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾؛[6] حيث يطلق على الحيض والطهر، ومثل ﴿عَسْعَسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[7] فإنه يطلق على إقبال الليل وإدباره.

ب ـ تشابه لفظي يرجع إلى التركيب للألفاظ وهي الجمل:

وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: لاختصار الكلام كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[8] والمعنى ألا تقسطوا في اليتامى إذا تزوجتموهن.

---

(١) سورة عبس: الآية ٣١.

(٢) سورة الصافات: الآية ٩٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٣٦.

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور، جـ٣، ص١٥٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٧) سورة التكوير: الآية ١٧.

(٨) سورة النساء: الآية ٣.

ثانيها: بسط الكلام. كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] ففي ذكر الكاف بسط للكلام، ولو قال: ليس مثله شيء لظهر المعنى، فاشتبه المراد بذكرها مع ظهور المعنى بدونها.

ثالثها: نظم الكلام كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا﴾[2] فجاءت جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ فاصلة بين الصفة والموصوف وأصل الكلام: أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً. وكقوله ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[3] ففصل بين المصدر ومعموله وأصل الكلام وإنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر.

الثاني: التشابه من جهة المعنى:

ويتعلق هذا النوع بالغيبيات؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يتصور ما غاب عن حواسه على حقيقته، فالتخيل والتصور عنده لا يبتعد عن المحسوسات، فلا تدرك[4] صفات الله تعالى ولا ما في الجنة من النعيم، ولا ما في النار من عذاب إلا على سبيل التقريب.

الثالث: التشابه من جهة اللفظ والمعنى:

وهو خمسة أنواع:

الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الشورىٰ: الآية ١١.

(٢) سورة الكهف: الآيتان ١-٢.

(٣) سورة الطارق: الآيتان ٨-٩.

(٤) المفردات: الأصفهاني، ص٢٥٥ عمدة الحفاظ: السمين، جـ٢، ص١٢٩٩ وانظر المحكم والمتشابه: د. عبد الرحمٰن المطرودي، ص٦٩.

(٥) سورة التوبة: الآية ٥.

الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب، كقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[1].

الثالث: من جهة الزمان؛ كالناسخ والمنسوخ؛ نحو قاله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[2].

الرابع: من جهة المكان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ الآية[3] وكقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[4] فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية في ذلك يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح[5].

قال الراغب الأصفهاني: بعد ذكره لهذه الأقسام «وهذه الجملة إذا تصورت، عُلم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم»[6].

معرفة المتشابه[7]:

اختلف العلماء في المتشابه؛ هل يمكن معرفته أم لا؟ والحقيقة أنه ينقسم من حيث إمكانية معرفته وعدمها إلى ثلاثة أنواع هي:

---

(١) سورة النساء: الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٧.

(٥) انظر المفردات: الأصفهاني، ص٢٥٤-٢٥٥، وعمدة الحافظ: السمين، جـ٢، ص١٢٩٨-١٣٠٠، والمحكم والمتشابه: المطرودي، ٦٥-٧٠.

(٦) المفردات: الأصفهاني، ص٢٥٥.

(٧) المرجع السابق: نفس الموضع. والموافقات: الشاطبي، جـ٣، ص٩١-٩٣.

الأول: المتشابه الحقيقي:

وهذا النوع لا يعلمه أحد من البشر، ولا سبيل للوقوف عليه؛ كوقت قيام الساعة، وحقيقة الروح وغير ذلك من الغيبات التي اختص الله بعلمها.

الثاني: المتشابه الإضافي:

وهو ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه؛ كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغَلِقَة، والتي تحتاج إلى استنباط وتدبر، وبعض مسائل الإعجاز العلمي[1].

الثالث: المتشابه الخفي:

وهو ضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه في دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما. «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

سبب الاختلاف في معرفة المتشابه:

ويرجع بعض الباحثين السبب في الاختلاف في معرفة المتشابه إلى الاختلاف في الوقف في قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[2] وهذا ليس بصحيح؛ إذ إن الوقف أو الوصل مبني على الاختلاف في معنى التأويل. فسبب الاختلاف إذاً في معرفة المتشابه هو الاختلاف في المراد بالتأويل في قوله سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفيه ثلاثة أقوال:

---

(١) انظر التحرير والتنوير، جـ٣، ص١٥٧و١٥٩ لبيان وجه كون الإعجاز العلمي من المتشابه عند قوم ومحكم عند من بعدهم.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

الأول: أن التأويل بمعنى التفسير:

وعلى هذا فالتأويل يعلمه الراسخون في العلم، ومنه دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[1] وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا ممن يعلم تأويله»[2] وقول مجاهد: «الراسخون في العلم يعلمون تأويله»[3] وقول ابن جرير الطبري: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية» وقوله: «القول في تأويل قوله تعالى..» وهو أيضاً المعنى الذي قصده ابن قتيبة وأمثاله ممن يقول: إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل ومرادهم به التفسير[4].

وهو قول متقدمي المفسرين وابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن إسحاق، وابن قتيبة، والربيع بن أنس، والضحاك، والنووي، وابن الحاجب[5].

وعليه فإن الوقف يكون على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد[6].

القول الثاني: أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الخطاب:

وهي نفس الحقائق التي أخبر الله عنها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: جـ١، ص٢٦٦، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦١٤) و(١٢٥٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، جـ٦، ص٢٠٣، رقم (٦٦٣٢).

(٣) تفسير مجاهد، جـ١، ص١٢٢.

(٤) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ٥، ص٣٨١-٣٨٢.

(٥) انظر درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ١، ص٢٠٥، والقطع والائتناف: النحاس، ص٢١٥، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

(٦) تفسير ابن كثير، جـ٢، ص١١.

فتأويل ما أخبر به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وتأويل ما أخبر به عن نفسه هو ذاته المقدسة الموصوفة بصفاته العلية.

وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا كان السلف يقولون: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» فيثبتون العلم بالاستواء، وهو التأويل الذي بمعنى التفسير، وهو معرفة المراد بالكلام حتى يُتدبر، ويُعقل، ويُفقه، ويقولون: الكيف مجهول، وهو التأويل الذي انفرد الله بعلمه، وهو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو»[1].

وعليه فإن الوقف يكون على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، والواو للاستئناف، والراسخون مبتدأ، ويقولون: خبره. وقال بهذا القول نيف وعشرون رجلاً من الصحابة والتابعين والقراء والفقهاء وأهل اللغة، فمن الصحابة: عائشة وابن عباس وابن مسعود، وابن عمر، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، رضي الله عنهم. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «بلغ رسوخهم في العلم إلى أن قالوا: آمنا به» وفي رواية «ولم يعلموا تأويله» وما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة. رضي الله عنها. قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم». وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقرأ: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ ويقولُ الرَّاسِخُونَ في العِلْمِ آمَنَّا بِهِ). وهي قراءة على التفسير وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (وإن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف».

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ٥، ص٣٨٢.

وقال به من التابعين ثلاثة: الحسن وابن نهيك والضحاك، وقال به من الفقهاء مالك بن أنس، ومن القراء ثلاثة: نافع ويعقوب والكسائي، ومن النحويين: الأخفش وسعيد، والفراء وسهل بن محمد، ويروى عن عمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وأبي عبيد، وابن جرير، وأبي إسحاق، وابن كيسان، والسدي[١].

ويدل على ذلك «أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب»[٢].

وقال ابن تيمية عن هذا المعنى: أنه هو معنى التأويل في القرآن والمراد به في مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٤] وقال يوسف: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ ﴾[٥] [٦]. وقال عن هذا المعنى: إنه لغة القرآن التي نزل بها.. فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ ﴾.. وقال

---

(١) القطع والائتناف: النحاس، ص٢١٢-٢١٣، ودرء تناقض العقل والنقل: ابن تيمية: جـ١، ص٢٠٥، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤، وانظر تفسير ابن جرير الطبري، جـ٦، ص٢٠٢-٢٠٤، وفتح القدير: الشوكاني، جـ١، ص٣١٥.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٦) درء تناقض العقل والنقل، جـ١، ص٢٠٦.

الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[1] قالوا: أحسن عاقبة ومصيراً، فالتأويل هنا تأويل فعلهم، الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا، والتأويل في الأعراف ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [٥٣] ويونس ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [٣٩] تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران.

وقال تعالى في قصة موسى والعالم: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾[2] إلى قوله: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾[3] فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، فهو تأويل عمل لا تأويل قول، وإنما كان كذلك؛ لأن التأويل مصدر أوَّله يؤوله تأويلاً، . . وقولهم: آل يؤول، أي: عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه «المآل» وهو ما يؤول إليه الشيء، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر «الموئل» فإنه من وَأَلَ، وهذا من أَوَلَ، والموئل المرجع، قال تعالى: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾[4][5].

القول الثالث:

وهو اصطلاح طوائف من المتأخرين قالوا: إن التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٧٨.

(٣) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٤) سورة الكهف: الآية ٥٨.

(٥) مجموع فتاوي ابن تيمية: جـ١٣، ص٢٩٠-٢٩١ باختصار وتصرف يسير.

ويريدون بذلك صرف الألفاظ القرآنية عن معانيها الحقيقية إلى معانٍ باطلة ليؤيدوا بها مذاهبهم وآراءهم المنحرفة، فهو اعتقدوا رأياً ثم حملوا نصوص القرآن عليه لتوافق ما ذهبوا إليه.

وهؤلاء ـ كما قال ابن تيمية. رحمه الله تعالى ـ صاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صابئة وفلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر، وفي آيات القدر، ويتأولون آيات الصفات، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآخرون من أصناف الأمة وإن كان تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه»[1].

وذكر في موضع آخر أمثلة لهذه التأويلات فقال: «كتأويل من تأوَّل استوى بمعنى استولى ونحوه، فهذا عند السلف والأئمة باطل لا حقيقة له، بل هو من باب تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته.

فلا يقال في مثل هذا التأويل: لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، بل يقال فيه ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] كتأويلات الجهمية والقرامطة الباطنية، كتأويل من تأوَّل الصلوات الخمس بمعرفة أسرارهم، والصيام: بكتمان أسرارهم، والحج بزيارة شيوخهم، والإمام المبين بعلي بن أبي طالب، وأئمة الكفر بطلحة والزبير، والشجرة الملعونة في القرآن ببني أمية، واللؤلؤ والمرجان، بالحسن والحسين، والتين والزيتون وطور

---

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٣، ص٢٨٧.

(٢) سورة يونس: الآية ١٨.

سينين وهذا البلد الأمين بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والبقرة بعائشة، وفرعون بالقلب، والنجم والقمر والشمس بالنفس والعقل ونحو ذلك.

فهذه التأويلات من باب تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في آيات الله، وهي من باب الكذب على الله وعلى رسوله وكتابه، ومثل هذه لا تجعل حقاً حتى يقال: إن الله استأثر بعلمها، بل هي باطل، مثل شهادة الزور، وكفر الكفار، يعلم الله أنها باطل، والله يُعَلِّم عباده بطلانها بالأسباب التي بها يعرف عباده، من نصب الأدلة وغيرها»[1].

وهذا التأويل هو الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحدهم: هذا الحديث، أو هذا النص مؤول، أو هو محمول على كذا، قال الآخر: هذا نوع تأويل، والتأويل يحتاج إلى دليل... وهو أيضاً التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل، أو ذم التأويل أو قال بعضهم: آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخر: بل يجب تأويلها، وقال الثالث: بل التأويل جائز.. إلخ»[2].

وبهذا يظهر بطلان القول الثالث وانحرافه وأنه ليس من أقوال السلف.

وأما القولان الأول والثاني:

فإن الأول: هو معنى التأويل عند الصحابة والتابعين.

والثاني: هو معنى التأويل في القرآن نفسه.

فمن قال: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويله فقد أخذ بالقول الأول وهو أن معنى التأويل التفسير.

ومن قال: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله فقد أخذ بالقول الثاني وهو أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وهذا لا يعلمه إلا الله.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ٥، ص٣٨٢-٣٨٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٢٨٨، باختصار.

ولا تعارض بين هذين القولين ولا اختلاف، فالجميع يسلم بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله بمعنى تفسيره، ومن زعم أنهم لا يعلمون تأويله بمعنى تفسيره نازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله، وقالوا بأنهم يعلمون معناه[1]، والراسخون في العلم لا يعلمون تأويله بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وبهذا يظهر التوافق والتطابق والتكامل بين القولين.

الحكمة من ذكر المتشابهات في القرآن الكريم:

ولأن المتشابه منه ما يمكن علمه للراسخين في العلم، ومنه ما لا يمكن علمه ولا يعلمه إلا الله. فإن لذكر كل نوع حكم خاصة أذكر بعضها:

من حكم ذكر المتشابه الذي يمكن علمه:

أولاً: الحث على زيادة التفكر والتدبر في آيات القرآن الكريم، والبحث عن دقائقه، ولذا كرر القرآن الأمر بالتدبر كثيراً ليظهر في الثانية ما خفي في الأولى.

ثانياً: ظهور التفاضل والتفاوت بين العلماء كل حسب طاقته وقدرته وما بذله من جهد في التفكر والتدبر.

ثالثاً: زيادة الأجر والثواب، لأن الأجر على قدر المشقة، فمعرفة المتشابه أشق وأصعب، وكلما كان الوصول إلى الحق أشق وأصعب، كان الأجر أعظم وأكبر، «وزيادة المشقة توجب زيادة الثواب، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]»[3].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ١، ص٢٠٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

(٣) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٧٢.

رابعاً: تحصيل العلوم الكثيرة؛ لأن معرفة المتشابه تحتاج إلى آلات ووسائل ليمكن بها معرفتها كعلم اللغة والنحو، وأصول الفقه[1]، وغير ذلك من العلوم والمعارف.

خامساً: حمل الناس على تلقي العلم جثياً على الركب من الراسخين في العلم واضطرارهم لذلك، فإنهم إذا حضروا مجالسهم حَصَّلُوا علوماً أخرى، وآداباً أكمل، وعرفوا شأن العلماء، وعلو مقامهم، ووالوهم وزادت محبتهم.

سادساً: بيان فضل العلماء الراسخين في العلم وعلو مقامهم ومكانتهم واختلاف مراتبهم.

سابعاً: تعظيم شأن القرآن وبيان علو معانيه وسموها، واحتياج الناس لمعرفتها إلى التزود بالعلوم والمعارف حتى يرتقوا إلى مداركها، ويحظوا بمعانيها.

ثامناً: زيادة التعلق بمعاني القرآن، فإن الإنسان إذا حصل الشيء بمشقة كان تمسكه به، ومحافظته عليه، واهتمامه به أكبر.

تاسعاً: بيان رحمة الله وفضله بالأمة، إذ لو كان القرآن كله من هذا النوع لكان في تحصيله مشقة عظيمة على الأمة، فاقتضت رحمة الله أن يجعل من القرآن ما هو محكم يدرك الناس معناه، وهو أكثر القرآن[2]، وما يحتاجون إليه في أمور دينهم ضرورة؛ ومنه أخر متشابهات لا يدركها إلا الراسخون في العلم، وتذكر الناس بنعمة الآيات المحكمات. وقريب من

---

(١) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٧٢.

(٢) قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «قوله في المحكمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يدل على أنها المعظم والجمهور، وأمُّ الشيء معظمه وعامته، كما قالوا أم الطريق بمعنى معظمه» الموافقات، جـ٣، ص٨٦.

هذا المعنى حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة إذ إن فيه تذكيراً بالنعمة في رفع المشقة.

من حِكَم ذكر المتشابه الذي لا يمكن علمه:

أولاً: رحمة الله بالإنسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، ولو كشف الله الحجب للبشر لعمت الأضرار، وانتفت المصالح، فلو علم الناس حقيقة جهنم وما فيها من ألوان العذاب، ورأوه رأي العين، لقضى عليهم الخوف، وانقطعت قواهم عن العمل رهبة، ولو علم الناس بموعد قيام الساعة لقعدوا عن الاستعداد لها، ولو علموا بموعد آجالهم لعم الفساد وانقطع باب العمل الصالح عند كثير من الناس حتى موعد وفاتهم، ولو علموا بما سيرزقون لاتكلوا وانقطعوا عن العمل.

ثانياً: إقامة الحجة على عجز الإنسان وجهله، وقصور قواه ومداركه، فمهما بلغ من العلم والمعرفة، ومهما تقدم في الاكتشافات وجال في الفضاء، وهبط على القمر إلا أنه يبقى حائراً جاهلاً أمام أشياء قريبة منه كل القرب كالروح مثلاً ماهي، وما وقت خروجها، وغير ذلك كثير وليس له إلا أن يقول ما قالته الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ثالثاً: ابتلاء العباد واختبارهم بالوقوف عند ما استأثر الله بعلمه، والإيمان بالغيب، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2].

* * *

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

العام والخاص

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وفي اللغة العربية صيغ عامة تشمل جماعة المخاطبين، وفيها ألفاظ خاصة، وأحياناً يكون اللفظ عامّاً ويراد به الخصوص، والعكس كذلك. وفي القرآن الكريم ألفاظ نحت هذا النحو، ففيه صيغ تفيد العموم ويراد بها العموم، وألفاظ تفيد الخصوص ويراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد العموم إلا أنه يراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد الخصوص إلا أنه يراد بها العموم، والقرائن توضح ذلك وتزيل اللبس، ويبقى بعد ذلك ألفاظ هي موضع خلاف بين العلماء تؤثر في استنباط بعض الأحكام.

وهذا يظهر مكانه علم (العام والخاص) وأثره في استنباط الأحكام؛ ولذا نجد بسط مباحثه في كتب أصول الفقه خاصة، ونظراً لتعلق الاستنباط بآيات القرآن فقد درسه أيضاً أرباب العلوم القرآنية، وأفردوه بمباحث خاصة في بطون مؤلفاتهم، وسأعرض لبعض قضاياه المتعلقة بالقرآن، معرضاً عن المباحث الأصولية الخاصة.

العـــام

العام لغة:

العَمَمُ: عِظَمُ الخَلْق في الناس وغيرهم، والعَمَمُ: الجسم التام،... وأمر عَمَمٌ: تام عام.. وعَمَّهم الأمر يعمهم عموماً: شملهم، يقال: عمهم بالعطية، والعامة: خلاف الخاصة[1].

---

(١) لسان العرب: ابن منظور مادة (عمم)، جـ١٢، ص٤٢٦.

وفي الاصطلاح:

هو: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد، من غير حصر فقولنا: (الرجال) يستغرق جميع ما يصلح له.

ولا يدخل فيه النكرة مثل (رجل)؛ لأنه يصلح لكل واحد من الرجال، لكنه لا يستغرقهم.

ولا التثنية ولا الجمع، لأن لفظ (رجلان) و (رجال) يصلحان لكل اثنين وثلاثة، ولا يفيدان الاستغراق.

وقولنا: «بحسب وضع واحد» للاحتراز من اللفظ المشترك، أو الذي له حقيقة ومجاز، فإن عمومه لا يقتضي أن يتناول مفهوميه معاً.

فإذا قلت: رأيتُ كُلَّ العيون.

فإن في لفظ العيون اشتراك حيث تشمل:

١ ـ عيون الماء الجارية.

٢ ـ العيون المبصرة.. وغير ذلك.

وأنت لا تريد كل هذه المعاني، وإنما تريد أحدها. فلا يقتضي العموم أن يشمل كل معاني اللفظ؛ بل بحسب وضع أو معنى واحد من معانيه المختلفة. وقولنا: «من غير حصر» يخرج أسماء الأعداد فهي تدل على كثرة معينة محدودة، فإن كانت الكثرة كثرة معينة بحيث لا يتناول ما بعدها. فهو اسم العدد، وإن لم تكن الكثرة كثرة معينة فهو العام.

وقيل في تعريفه أيضاً:

العام هو: اللفظ الدال على شيئين فصاعداً، من غير حصر.

وقد تعقب القرافي هذا التعريف بأجزائه، وبمجموع حده، ونقضه بأمور منها:

أولاً: جموع التكسير: وهي على قسمين:

١ ـ جموع للقلة: من الثلاثة إلى العشرة وهي ما جاءت على أوزان:

أ ـ أَفْعُل: أَفْلُس، وأَكْلُب.

ب ـ أفعال: أحمال.

جـ ـ أَفْعِلة: أقفزة، وأجربة.

د ـ فِعْلَة: صِبْيَة، غِلْمَة.

وهذه ألفاظ تدل على أكثر من شيئين وليست عامة.

٢ ـ جموع الكثرة: وهي موضوعة لما فوق العشرة فيصدق عليها التعريف.

ثانياً: ومنها ألفاظ نكرات مفردات وضعت لما فوق الاثنين، مع أنها ليست من العموم إجماعاً، مع صدق الحد عليها؛ نحو كثير، وعدد.

ثالثاً: ألفاظ من هذا النمط؛ مثل طائفة، فرقة، رهط، فإنها تتناول الثلاثة فصاعداً من غير حصر ولا تفيد العموم[١].

وهناك تعريفات أخرى كثيرة، وأشمل هذه التعريفات وأصحها هو الأول.

صيغ العموم:

وللعموم صيغ كثيرة تدل عليه، ذكر منها القرافي مئتين وخمسين صيغة[٢] ومن هذه الصيغ:

---

(١) نقلت هذين التعريفين والتعقيب عليهما بتصرف من المحصول: للفخر الرازي، جـ٢، ق٢، ص٥١٣-٥١٦؛ والعقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين القرافي، جـ١، ص٢٨٣-٢٩٥.

(٢) العقد المنظوم في الخصوص والعموم: القرافي، جـ١، ص٤٥٣-٥٤٦.

١ ـ كل: وهي أقوى صيغ العموم، وتدل عليه؛ سواء كانت للتأسيس، مثل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[١]، ومثل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٢]، أو للتأكيد مثل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٣]، ومثل ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٤]، ومثلها جميع ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٥] وديارا ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٦].

٢ ـ الأسماء الموصولة: مثل: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾[٧] ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾[٨] و﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[٩] ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[١٠] ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾[١١].

٣ ـ أسماء الشرط: مثل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[١٢] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[١٣] ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[١٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.
(٢) سورة الرحمٰن: الآيتان ٢٦-٢٧.
(٣) سورة صٓ: الآية ٧٣.
(٤) سورة الزمر: الآية ٦٢.
(٥) سورة فاطر: الآية ١٠.
(٦) سورة نوح: الآية ٢٦.
(٧) سورة الأحقاف: الآية ١٧.
(٨) سورة النساء: الآية ١٦.
(٩) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.
(١٠) سورة البقرة: الآية ١٦٤.
(١١) سورة النساء: الآية ١٥.
(١٢) سورة النساء: الآية ٩٢.
(١٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.
(١٤) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

٤ ـ أسماء الاستفهام: كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[1] ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2] ومَنْ تفيد العموم إذا كانت شرطية أو استفهامية، أما إذا كانت موصولة مثل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[3] فإنها قد تكون للعموم وقد تكون للخصوص، والقرائن هي التي تفيد العموم أو الخصوص.

٥ ـ المُعرَّف بأل التي ليست للعهد وإنما للاستغراق؛ سواء كان جمعاً، مثل: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[4]، أو مفرداً مثل: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[5]، ومثل: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[6]، أو اسم جنس؛ وهو الذي لا واحد له من لفظه مثل الناس، الحيوان، الماء، التراب، فالناس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[7] تفيد العموم، أو مثنى كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[8]، أي: كل أختين لا يجوز الجمع بينهما.

وعلامة (أل) المستغرقة للجنس، أن يصح حلول (كل) محلها، وأن يصح الاستثناء من عمومها.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٦) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٧) سورة الناس: الآية ١.

(٨) سورة النساء: الآية ٢٣.

٦ ـ كل ما أضيف إلى معرفة؛ سواء كان مفرداً، أو مثنى، أو جمعاً، أو اسم جنس[١] مثل: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[٢] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[٣] ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[٤] وفي الاستثناء هنا إشارة إلى عموم اللفظ.

٧ ـ النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط. مثالها في سياق النفي: قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[٥] ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[٦][٧] ومثالها في النهي: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٨] فإن (أحد) نكرة بعد نهي فتفيد العموم، ومثل: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[٩]، ومثالها في الشرط: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[١٠].

أما إذا كانت النكرة في سياق الإثبات فلا تفيد العموم، فإذا قلت: ما رأيت رجلاً فهو نفي يفيد العموم، وإذا قلت: رأيت رجلاً فهو إثبات لا يفيد العموم.

---

(١) انظر إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، جـ٦، ص٣٦.

(٢) سورة النور: الآية ٦٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٦) سورة الصافات: الآية ٤٧.

(٧) والغول ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم.

(٨) سورة التوبة: الآية ٨٤.

(٩) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(١٠) سورة التوبة: الآية ٦.

أقسام العام:

وأقسام العام ثلاثة:

١ - العام الذي لا يدخله التخصيص:

وهو العام الذي لا يمكن تخصيصه، وهذا النوع قليل جداً؛ إذ الأصل في العموم أن يقبل التخصيص.

ومع أن البلقيني قال عن هذا النوع: «ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص»[١] إلا أن الزركشي قال: «وهو كثير في القرآن»[٢].

وقد جمع السيوطي بينهما بأن مراد البلقيني أنه عزيز في الأحكام الفرعية، ومراد الزركشي أنه كثير في غير الأحكام الفرعية[٣].

ومثال هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٥] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[٦] ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٧] فالعموم هنا لا يمكن تخصيصه.

٢ - العام الذي يدخله التخصيص:

وهو الذي يمكن تخصيصه، ولعل هذا النوع هو أشهر أنواع العموم، والذي ينصرف إليه الذهن عند إطلاق العموم، وهو ميدان الخلاف بين العلماء في تخصيصه أو بقائه على عمومه.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٢١٧.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١.

(٤) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٦) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

وأمثلته في القرآن كثيرة؛ منها: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1] فلفظ (الناس) عام خصص بقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2] فلفظ (أحدكم) يفيد العموم وخصص بقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[3]، فلفظ (المطلقات) عام يشمل الحامل وغير الحامل، وخصص بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[4] وغير ذلك من الأمثلة.

٣ ـ العام المراد به الخصوص:

وهو ما دل لفظه على العموم ودلت القرينة على الخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾[5]، والمراد بالناس عبد الله بن سلام فالآية دعوة لليهود إلى أن يؤمنوا كما آمن عبد الله بن سلام[6] رضي الله عنه، وقد كان يهودياً، ثم إن الناس لم يؤمنوا كلهم، فدلت القرينة على وجوب حمله على فئة منهم.

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[7] قال الزركشي: «وعمومه يقتضي دخول جميع الناس في

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٣.

(٦) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٢٢١.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

اللفظين جميعاً، والمراد بعضُهم؛ لأن القائلين غير المقول لهم، والمراد بالأول: نعيم بن مسعود[١] والثاني: أبو سفيان وأصحابه» قال الفارسي: «ومما يقوي أن المراد بالناس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ واحد، قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾[٢] فوقعت الإشارة بقوله: «ذلكم» إلى واحد بعينه، ولو كان المعني به جمعاً لكان إنما أولئكم الشياطين[٣]، فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ»[٤]، وإنما وصف نعيم بأنه الناس؛ لقيامه مقام كثير في تثبيط المؤمنين عن ملاقاة أبي سفيان[٥].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٦] والمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ.

ومن أمثلته: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[٧] والمراد إبراهيم عليه السلام. أو العرب من غير قريش.

ومنها: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾[٨] والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام.

---

(١) في البرهان: نعيم بن سعيد الثقفي والصواب ابن مسعود.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٣) في البرهان إنما الشياطين الشياطين، وما أثبت من «الإتقان».

(٤) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٢٢٠.

(٥) أصول التفسير وقواعده: خالد العك، ص٣٨٧.

(٦) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٨) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

ونستطيع بعد هذا أن نذكر تعريفاً آخر لأقسام العام الثلاثة فنقول:

١ ـ عام مقيد بالعموم بحيث لا ينفك عن العموم مثل: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

٢ ـ عام مطلَق يمكن أن يبقى على عمومه ويمكن تخصيصه مثل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٢] فلو لم يقل: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ لبقي عاماً فهو قابل للعموم والخصوص.

٣ ـ عام مقيد بالخصوص، لا يمكن أن يراد به العموم، ولا ينفك عن الخصوص مثل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[٣].

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام الذي يدخله التخصيص[٤]:

وبين العام المراد به الخصوص والعام الذي يمكن أن يدخله التخصيص فروق منها:

١ ـ أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد، ويدرك ذلك من أول وهلة[٥]، وأما العام الذي يدخله التخصيص. فأريد به العموم في أول الأمر وشموله لجميع أفراده، فلفظ (الناس) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ الآية[٦] يدرك السامع لأول وهلة خصوصها،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٤) انظر الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢١-٢٢.

(٥) قال في لسان العرب، جـ١١، ص٧٣٧: «ولقيته أول وَهْلةٍ ووهَلة وواهِلة؛ أي: أول شيء، وقيل: هو أول ما تراه، وفي الحديث فلقيته أول وهلة. أي أول شيء».

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

وأنه لا يمكن أن يراد بها العموم لامتناع ذلك، أما لفظة (الناس) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ يدرك السامع أن المراد بها جميع الناس، ولا يحوله عن هذا العموم إلا قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

٢ ـ الأول مجاز قطعاً؛ لنقل اللفظ عن موضعه الأصلي وهو العموم، واستعماله في بعض أفراده، بخلاف الثاني فاستعمل اللفظ بمعناه الحقيقي، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية، وجميع الحنابلة، ونقله الجويني عن جميع الفقهاء.

٣ ـ أن قرينة الأول عقلية لا تنفك عنه، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك عنه.

٤ ـ أن الأول يصح أن يراد به واحد اتفاقاً، مثل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[1] يعني إبراهيم عليه السلام، أما الثاني ففي تخصيص عمومه بحيث لا يراد به إلا واحد بعد العموم خلاف[2].

الخاص

الخاص لغة:

يقال: خَصَّه بالشيء يَخُصُّه خَصّاً. أفرده به دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد[3].

وفي الاصطلاح:

الخاص هو اللفظ الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٢) انظر تفصيل ذلك في إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، جـ٦، ص١٧٩-١٨٢.

(٣) لسان العرب: ابن منظور، جـ٧، ص٢٤.

أما التخصيص فهو: قصر العام على بعض أفراده[١].

وقيل: إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه[٢].

والمراد من قولنا: «قصر العام» قصر حكمه، وإن بقي لفظه على عمومه، فيكون العموم باللفظ لا بالحكم، وبذلك يخرج العام الذي يراد به الخصوص، فإن ذلك قصر إرادة لفظ العام لا قصر حكمه[٣].

ومثال التخصيص قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[٤] فلفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة، لكن حكمه مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٥].

حكم تخصيص العموم:

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «اتفق أهل العلم سلفاً وخلفاً على أن التخصيص للعمومات جائز، ولم يخالف في ذلك أحد ممن يعتد به، وهو معلوم من هذه الشريعة المطهرة، لا يخفى على من له أدنى تمسك بها»[٦].

وهو جائز مطلقاً، سواء كان أمراً مثل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[٧]، أو نهياً مثل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ

---

(١) إتحاف ذوي البصائر، جـ٦، ص٢١١.

(٢) المحصول: الرازي، جـ١، ق٣، ص٧.

(٣) إتحاف ذوي البصائر، جـ٦، ص٢١١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٥) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٦) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٤٣.

(٧) سورة النور: الآية ٣٣.

﴿يَطْهُرْنَ﴾[1]، أو خبراً مثل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2].

الفروق بين التخصيص والنسخ:

بين التخصيص والنسخ فروق منها[3]:

١ ـ أن التخصيص يدل على أن ما خرج عن العموم لم يكن مراداً، والنسخ يدل على أن المنسوخ كان مراداً.

٢ ـ أن النسخ يشترط تراخيه عن المنسوخ، والتخصيص يجوز اقترانه كالتخصيص بالصفة والشرط والاستثناء.

٣ ـ أن النسخ رفع الحكم بعد ثبوته، والتخصيص بيان للمحل الذي لم يثبت الحكم فيه؛ بمعنى أن النسخ يثبت فيه الحكم ثم يرفع، أما التخصيص فإن الحكم في المخصوص لم يثبت فيه أصلاً، فلا يحتاج إلى رفع.

٤ ـ أن التخصيص قد يقع بخبر الواحد وبالقياس، والنسخ لا يقع بهما.

٥ ـ أن التخصيص يكون في الأخبار، والنسخ لا يقع فيها.

٦ ـ أن النسخ لا تبقى معه دلالة اللفظ على ما تحته، والتخصيص لا يمتنع معه ذلك. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «التخصيص ترك بعض الأعيان والنسخ ترك الأعيان»[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٣٠-٣١.

(٣) انظر المحصول: الرازي، جـ١، ق٣، ص٩-١١ والعقد المنظوم في الخصوص والعموم: القرافي، جـ٢، ص١٧٧-١٧٨.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٤٢ ونسبه إلى الإسفرائيني.

٧ ـ أنه لا يجوز تخصيص شريعة بشريعة، أما النسخ فيجوز؛ كما نُسخت النصرانية بالإسلام.

٨ ـ أن التخصيص لا يرد إلا على العام، أما النسخ فيرد على العام والخاص.

وبهذا يظهر أن النسخ ليس بتخصيص.

أقسام المخصص:

والمخصص ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المخصص المتصل:

وهو خمسة أنواع هي:

١ ـ الاستثناء:

كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] وكقوله سبحانه: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[2].

٢ ـ الصفة:

والمراد بها الصفة المعنوية على ما حققه علماء البيان، لا مجرد النعت المذكور في علم النحو، قال الجويني: الوصف عند أهل اللغة معناه التخصيص، وقال المازري: «ولا خلاف في اتصال التوابع، وهي النعت والتوكيد والعطف والبدل»[3].

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٣) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٥٣ (بتصرف).

وعلى هذا فالمراد بالصفة هنا كل ما أشعر بمعنى يتصف به أفراد العام؛ سواء كان الوصف نعتاً، أو عطف بيان، أو حالاً؛ وسواء كان مفرداً، أو جملة، أو شبه جملة[1].

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[2] فلفظ «فتياتكم» عام يشمل المؤمنات والكافرات، لكنه خصص بوصف «المؤمنات».

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[3] فلفظ «نسائكم» يشمل جميع الزوجات المدخول بهن، وغير المدخول بهن ولكن خصص العموم بوصف «اللاتي دخلتم بهن».

٣ ـ الشرط:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾[4] فلفظ «أزواجكم» عام يشمل ذات الولد وغيرها، وخصص بالشرط ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ فالزوجة التي يرث الزوج نصف مالها هي غير ذات الولد.

---

(١) انظر إتحاف ذوي البصائر: النملة، جـ٦، ص٣٣٩، والعقد المنظوم: القرافي، جـ٢، ص٣٧٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٤) سورة النساء: الآية ١٢.

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] فقوله: «أحدكم» عام يوجب الوصية على من ترك مالاً وغيره، وخصص بالشرط ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ فأصبحت الوصية واجبة على من ترك مالاً دون الآخر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾[2] فالاسم الموصول «الذين» يفيد العموم وخصص بشرط ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾.

٤ ـ الغاية:

والمراد بها: نهاية الشيء المقتضية لثبوت الحكم قبلها، وانتفائه بعدها ولها لفظان: (حتى) و(إلى).

ومثال الأول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾[3].

ومثال الثاني: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾[4].

٥ ـ بدل البعض من الكل:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾[5] فقوله: ﴿ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ﴾ يفيد العموم وخصص ببدل البعض ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[6] فلفظ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٢) سورة النور: الآية ٣٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

(٥) سورة المائدة: الآية ٧١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

﴿ٱلنَّاسِ﴾ يفيد العموم وخص بالبدل ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل بعض من كل، هذه أنواع المخصص المتصل.

القسم الثاني: القسم المنفصل:

وهو أن يكون المخصص في موضع آخر غير متصل باللفظ العام اتصالاً لفظياً.

وهو أنواع منها:

١ ـ التخصيص بآية:

فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1] عام يشمل كل مطلقة، إلا أنه خَصَّ الحوامل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[2] كما خص الآيسات من الحيض ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾[3] وخص غير المدخول بها قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾[5] يشمل كل مشركة كتابية كانت أو غير كتابية، وجاء التخصيص في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾[6] فخص الكتابية من المشركات بجواز الزواج منها.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢١.

(٦) سورة المائدة: الآية ٥.

٢ ـ التخصيص بالسنة قولاً كان أو فعلاً:

فقوله تعالى بعد أن عدد المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾[١] مخصوص بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»[٢] حيث خص أربع نساء وهن عمة الزوجة وخالتها، وابنة أخيها، وابنة أختها.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٣] عام يدل على أن جميع الأولاد يرثون من آبائهم، لكنه مخصوص بقول الرسول ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم»[٤] وبقوله ﷺ: «لا يرث القاتل شيئاً»[٥]، وبما رواه أبو بكر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه صدقة»[٦] فخرج أولاد الأنبياء فإنهم لا يرثون.

وقوله تعالى في المطلقة البائن: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[٧] وهذا عام في العقد والوطء، وخصه قول الرسول ﷺ لامرأة رفاعة: «لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»[٨].

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٤.

(٢) رواه مسلم كتاب النكاح باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح جـ٢، ص١٠٢٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

(٤) رواه البخاري، كتاب الفرائض، جـ٨، ص١١، ومسلم، كتاب الفرائض، جـ٣، ص١٢٣٣.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الديات، باب ديات الأعضاء، ص٦٩٢.

(٦) رواه البخاري، كتاب الفرائض، جـ٨، ص٣، ورواه مسلم، جـ٣، ص١٣٨١.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.

(٨) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب ٣٧، جـ٦، ص١٨٢.

وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[1] عام يشمل المحصن وغير المحصن وتواتر عنه ﷺ أنه رجم المحصن، وهو فعل.

٣ ـ التخصيص بالإجماع:

ومذهب جمهور العلماء أن الإجماع من مخصصات العموم المنفصلة، وهناك من يرى أن المخصص هو دليل الإجماع وليس الإجماع نفسه، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2] وهو عام يشمل الحر والعبد، والذكر والأنثى، وأجمعوا على أنه لا جمعة على عبد ولا امرأة[3].

وكقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾[4] فهو عام يشمل كل الأولاد الأحرار والأرقاء، وخص الرقيق بالإجماع؛ لأن الرق مانع من الإرث.

٤ ـ التخصيص بالقياس:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[5] فهو عام يشمل كل زان؛ حراً أو عبداً، وكل زانية حرة أو أَمَة، لكن الأَمَة خصصت بآية أخرى هي قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ﴾[6] ولم يرد في العبد نص، فقاسه العلماء على الأَمَة بجامع الرق في كُلٍّ، فيكون حكمه نصف ما على الأحرار من الرجال.

---

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٣) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٦٠.

(٤) سورة النساء: الآية ١١.

(٥) سورة النور: الآية ٢.

(٦) سورة النساء: الآية ٢٥.

وهناك أيضاً أنواع من المخصصات المنفصلة، كالتخصيص بالعقل، وبالحس، وبالعادة، وقرائن الأحوال، وبالمفهوم، وقول الصحابي، وبالسياق، وبقضايا الأعيان[1].

حكم تخصيص السنة بالقرآن:

إذا كان القرآن الكريم يخصص بالسنة، فهل تخصص السنة بالقرآن؟

الجواب: اختلف العلماء في ذلك وجمهور أهل العلم على جوازه[2]، وعد السيوطي أمثلة ذلك من العزيز يعني القليل أو النادر، ثم ذكر أمثلة ذلك[3]:

كقول الرسول ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله»[4] فإنه مخصوص بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾[5].

ونهي الرسول ﷺ عن الصلاة في الأوقات المكروهة عام يشمل النوافل وقضاء الفرائض وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[6] والمحافظة على الصلوات تقتضي قضاء الفوائت في كل وقت حتى أوقات النهي.

وقول الرسول ﷺ: «ما أُبين من حيّ فهو ميت»[7] عام في تحريم كل ما

---

(١) انظر إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٥٥-١٦٢، وإتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص٢١٦-٢٧٨.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٥٧.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢٣.

(٤) رواه البخاري كتاب الزكاة، جـ٢، ص١١٠، ومسلم كتاب الإيمان، جـ١، ص٥١.

(٥) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

(٧) إتحاف السادة المتقين: الزبيدي المرتضى، جـ٢، ص٥٠٣، ورواه بلفظ «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة»، أحمد في مسنده ٥/٢١٨، والدارمي ٢/٩٣، وأبو داود=

يقطع من البهيمة وهي حية وخصصه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»[2] عام يشمل الأغنياء والأقوياء، وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾؛[3] حيث يحل لهم الأخذ من الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء وأقوياء.

وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[4] عام مخصوص بقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾[5].

عموم الخطاب وخصوصه:

وتحته مسائل:

الأولى: الخطاب الخاص بالرسول ﷺ هل يشمل الأمة أم لا؟

كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[6] وقوله سبحانه: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[7].

= ٣/ ٢٧٧ (٢٨٥٨) والترمذي ٤/ ٧٤، والبيهقي ٩/ ٢٤٥، والحاكم، جـ٤، ص٢٣٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وقال الألباني في غاية المرام ص٤٣: الإسناد صحيح.

(١) سورة النحل: الآية ٨٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٢، ص١٩٢، ٣٨٩، جـ٥، ص٣٧٥، والنسائي في سننه، ص٣٦٠، حديث (٢٥٩٨).

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، جـ١، ص١٣، ومسلم، كتاب الفتن، جـ٤، ص٢٢١٤.

(٥) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ١.

(٧) سورة المائدة: الآية ٤١.

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه يشمل الأمة، لأن أمر القدوة أمر لأتباعه معه عُرفاً[1] إلا ما دلَّ الدليل على أنه من خواصه؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾[2] فلو كان الخطاب الخاص بالرسول ﷺ لا يشمل الأمة لما احتاج إلى التخصيص بقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾.

الثاني: قول الأصوليين: أنه لا يشمل الأمة، وذلك لخصوص اللفظ وإن شملهم فبدليل آخر، لا بمجرد النص المذكور[3].

المسألة الثانية: الخطاب العام بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هل يشمل الرسول ﷺ أم لا؟

الجواب: للعلماء في ذلك أقوال:

الأول: أنه يشمل الرسول ﷺ لعموم الصيغة، وعليه الأكثرون، واختاره الغزالي والآمدي وابن الحاجب، والرازي، وابن قدامة، وأبو يعلى وأبو الخطاب الحنبلي.

الثاني: أنه لا يشمله؛ لما له من الخصائص دون الأمة، وهو قول الشيرازي.

الثالث: فيه تفصيل: إن كان الخطاب موجهاً لأمته، مثل ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ الآية[4] فلا يدخل. قال بعضهم بلا خلاف[5]، وإن كان

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٣) المحصول: الرازي، جـ١، ق٢، ص٦٢٠-٦٢١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٥) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٢٩.

الخطاب بلفظ يشمل الرسول ﷺ نحو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿يَٰعِبَادِ﴾ فإنه يشمله.

الرابع: إن سبق الخطاب بلفظ «قل» لم يشمله؛ كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1] وإلا شمله وهو قول الصيرفي والحليمي.

المسألة الثالثة: الخطاب العام بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هل يشمل الكفار أم لا؟

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[2].

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه يشملهم لعموم الصيغة وهم من الناس. وهو قول الجمهور[3].

الثاني: أنه لا يشملهم لعدم تكليفهم بالفروع.

المسألة الرابعة: الخطاب العام بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[5] هل يشمل الكافر أم لا؟

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه لا يشمل الكفار؛ لأنهم غير مخاطبين بالفروع.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٢) سورة الحج: الآية ١.

(٣) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٢٨.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٧٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ٩٠.

الثاني: أنه يشملهم لعموم التكليف بهذه الأمور واختصاص المؤمنين بالخطاب للتشريف. وقد ثبت تحريم الربا في حق أهل الذمة. قال الزركشي: وفيه نظر، والخلاف يرجع إلى أن الكفار هل هم مخاطبون بالفروع أم لا؟

المسألة الخامسة: صيغة الجمع المذكر التي تفيد العموم هل تشمل النساء أم لا؟

الجواب: في ذلك تفصيل:

١ ـ إن كان الجمع يتناول الذكور والإناث لغة ووصفاً مثل «الناس» فهذا يشمل الإناث بالاتفاق.

٢ ـ إن كان الجمع بلفظ لا يتبين فيه التذكير والتأنيث؛ مثل أدوات الشرط؛ كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1] فإنه يشمل النساء باتفاق.

٣ ـ إذا كان الجمع خاص بالذكور مثل لفظ «الرجال»، فلا يشمل النساء باتفاق.

٤ ـ إذا كان الجمع خاص بالإناث مثل «النساء» و«بنات» فلا يشمل الرجال باتفاق.

٥ ـ إذا كان الجمع بلفظ ظهرت فيه علامة التذكير مثل: «المؤمنون» «الصابرون» «المسلمون» أو ضمير الجمع المذكر مثل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[2] ففيه خلاف:

فقيل: يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الحنفية والحنابلة وبعض المالكية والشافعية، واستدلوا بأنه متى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير، ولذلك لو قال لمن بحضرته من الرجال والنساء: قوموا واقعدوا تناول جميعهم،

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

ولو قال: قوموا وقمن واقعدوا واقعدن لعد تطويلاً ولَكْنَةً. وبيَّنه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[1]، وكان ذلك خطاباً لآدم وحواء وإبليس، فلو كانت النساء لا يدخلن لقيل لآدم وإبليس: اهبطا، ولحواء: اهبطي، وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، مثل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2] و﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[3] وغير ذلك، والنساء يدخلن في جملته بالإجماع[4].

وقيل: لا يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الشافعية وأكثر الفقهاء والمتكلمين واستدلوا بأنه ذكر المسلمات بلفظ متميز، فما يذكر بلفظ المسلمين لا يدخلن فيه إلا بدليل.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

للألفاظ مع أسباب النزول أحوال هي[5]:

أولاً: عموم اللفظ والسبب:

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ الآية[6]، فلفظها عام لكل النساء وسبب نزولها أيضاً عام؛ فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٤) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص١٥٩-١٦١ (بتصرف يسير).

(٥) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٨٢-٨٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح»[1]. وهذا عموم في اللفظ وعموم في السبب.

ثانياً: خصوص اللفظ والسبب:

وذلك؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[2] فإنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، و(أل) في (الأتقى) للعهد وتفيد الخصوص، وليست (أل) الاستغراق التي تفيد العموم؛ لأن (أل) تفيد العموم إذا كانت موصولة، أو معرفة في جمع على الراجح.

وهي هنا ليست موصولة؛ لأنها لا توصل بأفعل التفضيل، والأتقى ليس جمعاً بل مفرد، والعهد موجود، فدل ذلك على أنها للعهد، وليست للاستغراق.

ولذلك قال الواحدي: الأتقى: أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين، عن عروة: أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله؛ بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة[3] وهذا خصوص في اللفظ وخصوص في السبب.

ثالثاً: عموم اللفظ وخصوص السبب:

واختلف العلماء في هذه الصورة، هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب:

---

(١) رواه مسلم جـ١، ص٢٤٦؛ وأبو داود كتاب الطهارة، ص٤٦ ح (٢٥٨).

(٢) سورة الليل: الآيات ١٧-٢١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: جـ١٠، ص٣٤٤١.

١ ـ ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١] فقال الرجل: يا رسول الله: أَلي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»[٢].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «فهذا الذي أصاب القبلة من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ، فقال للنبي ﷺ: أَلي هذه؟ ومعنى ذلك: هل النص خاص بي لأني سبب وروده؟ أو هو على عموم لفظه؟ وقول النبي ﷺ له: «لجميع أمتي» معناه أن العبرة بعموم لفظ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لا بخصوص السبب، والعلم عند الله تعالى»[٣]. ولو كان المراد تخصيصه بالحكم، لكان النص: إن حسناتك تذهب سيئاتك، فدل عمومها على عموم حكمها وعدم اعتبار سببها.

واعتمد هذه القاعدة أكثر علماء الأمة من مفسرين وغيرهم، والمحققون من أهل الأصول، بل حكى الزركشي الإجماع[٤] على ذلك وطبقها السلف في تفسيرهم[٥].

---

(١) سورة هود: الآية ١١٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، جـ١، ص١٣٣-١٣٤، ورواه مسلم، كتاب التوبة حديث ٣٩-٤٢، جـ٤، ص٢١١٦.

(٣) أضواء البيان: الشنقيطي، جـ٣، ص٢٥٠.

(٤) البحر المحيط: الزركشي، جـ٣، ص١٩٨.

(٥) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين: حسين الحربي، جـ٢، ص٥٤٥-٥٤٩، باختصار.

ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم[2].

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن معقل بن مقرن، قال: جلست إلى كعب بن عجرة فسألته عن الفدية فقال: نزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة[3].

وأخرج الطبري عن محمد بن كعب القرظي قوله: «إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد»[4].

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك، وقد علم أن شيئاً منها لم يقتصر على سببه»[5].

٢ ـ وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ:

وأن اللفظ دليل على صورة السبب الخاص، ولا بد من دليل كالقياس لدخول غير صورة السبب في الحكم.

قلت: ولعل خلافهم لفظي فهم يعممون الحكم على غير من نزلت فيه بالقياس فيصبح الحكم عاماً، فالقول الأول أخذ العموم من اللفظ، والقول الثاني أخذه بالقياس[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨.

(٢) جامع البيان: الطبري، جـ١، ص١١٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، جـ١، ص١٥٨؛ ومسلم، كتاب الحج، جـ٢، ص٨٦٢، ح (٨٥).

(٤) جامع البيان: الطبري، جـ٢، ص٣١٣.

(٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٥، ص٣٦٤.

(٦) انظر إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص١٤١.

الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه:

والمراد به: الاحتجاج بالعام المخصوص فيما عدا المخصوص ولا يخلو من حالتين:

١ ـ أن يكون المُخَصَّصُ مبهماً:

كأن يقول: اقتلوا المشركين إلا بعضهم. فهذا لا يحتج به لأمرين:

أ ـ لأنه ما من فرد إلا ويجوز أن يكون هو المستثنى.

ب ـ إخراج المجهول من المعلوم يصيره مجهولاً.

وحكَى الإجماع على عدم الاحتجاج به جماعة منهم القاضي أبو بكر، وابن السمعاني والأصفهاني.

ونقل الزركشي مخالفة ابن برهان لذلك وقوله بالإضراب عن المخصص والعمل بالعام في جميع أفراده لأنه الأصل.

٢ ـ أن يكون المخصص مبيناً:

ولنضرب للتوضيح مثالاً قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1] فلفظ المطلقات هنا عام يشمل ستاً: المدخول بها، وغير المدخول بها، والحامل، وغير الحامل، والتي تحيض، والآيسة من المحيض، وجاء تخصيص ثلاث منهن: الحامل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[2] والآيسة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾[3] وغير المدخول بها في

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٤.

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾[1] فبقي من الست ثلاث: المدخول بها، وغير الحامل، والتي تحيض فهل يبقى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ حجة في بيان عدتهن بعد أن خصص منه بعضهن أم لا؟

الجواب: أن للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال هي:

الأول: أنه حجة فيما بقي:

وهو قول الجمهور من الفقهاء والأصوليين وقال الشوكاني: «وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة»[2].

واستدلوا بأدلة منها:

١ ـ إجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم على الاحتجاج بالعمومات وأكثرها قد خصص، ومن ذلك:

احتجاج فاطمة رضي الله عنها بعموم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[3] على طلب حقها من ميراث أبيها ﷺ، ولم ينكر عليها أبو بكر ولا غيره من الصحابة احتجاجها بالآية مع أنها مخصصة بالكافر، والقاتل، والعبد وإنما بيّن لها أبو بكر رضي الله عنه ما سمعه من الرسول ﷺ أنه قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»[4].

٢ ـ أن العام قبل التخصيص حجة في كل أفراده إجماعاً، وإخراج بعضها بمخصص لا يقتضي إلغاء دلالة اللفظ على ما بقي، والأصل بقاء ما

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٩.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٣٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

(٤) رواه البخاري، كتاب الفرائض، جـ٨، ص٣٠، ومسلم، جـ٣، ١٣٨١.

كان قبل التخصيص على ما كان عليه إلا أن يوجد له معارض، ولا معارض فوجب ثبوت الحكم وبقاؤه.

٣ ـ أنه ما من عام إلا وقد خص إلا النادر، ولو قلنا: إنه غير حجة فيما بقي للزم إبطال كل عموم، وغالب أحكام الشريعة إنما يثبت بالعموم إذ يتعذر النص على كل فرد من أفراده بالحكم، بل يستحيل، ولا تدركه مدارك البشر وقواهم.

الثاني: أنه ليس بحجة فيما بقي:

وذهب إليه عيسى بن أبان وأبو ثور الشافعي. واستدلوا بأن العام قد وضع حقيقة لجميع أفراده، فإذا أخرج بعضها فإن إطلاق العام على ما بقي، وهو بعض أفراده، يكون مجازاً، فلم يبق للفهم إلا القرينة، ولا قرينة فيصير مجملاً، ولا يحمل على شيء منها، فلا يصلح للاحتجاج.

الثالث: أنه إن خص بمتصل كالشرط والصفة فهو حجة فيما بقي، وإن خص بمنفصل فليس بحجة، بل يصير مجملاً، وهو قول الكرخي، والبلخي والباقلاني[١].

* * *

(١) انظر إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص١٦٤-١٧٨، وإرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٣٧-١٣٨، وقد ذكر في المسألة ثمانية أقوال، وانظر المحصول: للرازي، جـ١، ق٣، ص٢٢-٢٩، والعقد المنظوم: القرافي، جـ٢، ص٢٣٧-٢٤٠.

المطلق والمقيد

جاءت بعض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقة غير مقيدة بشرط أو وصف أو غير ذلك، وجاء بعضها مقيداً بوصف أو شرط أو غيرهما.

والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه، إلا إذا صح الدليل على تقييده؛ لأن الإطلاق لحكمة كما أن التقييد لحكمة، وفي كل منها رعاية لمصلحة العباد في الدنيا والآخرة.

والدليل على تقييد المطلق أحياناً يكون بالنص، وهذا ظاهر لا خلاف فيه، وأحياناً لا يصرح بالقيد، وإنما تدل عليه الأحوال والقرائن من نصوص أخرى جاءت مقيدة، ومن العلماء من يحمل المطلق منها على المقيد، ومنهم من لا يحمله، وعلى هذا قول الشافعي رحمه الله تعالى: «اللفظ بيِّنٌ في مقصوده ويحتمل في غير مقصوده»[1] وهو ما يدرسه العلماء في باب المطلق والمقيد في كتب الأصول وعلوم القرآن والحديث.

تعريف المطلق:

المطلق في اللغة هو المنفك من كل قيد حسياً كان أو معنوياً، تقول: أطلقت الدابة إذا فككت قيدها وسرحتها، وهذا إطلاق حسي، ويقال: طلق الرجل زوجته إذا فك قيدها من الارتباط به، وهذا إطلاق معنوي.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٨.

المطلق في الاصطلاح:

ذكر العلماء تعريفات كثيرة منها:

المطلق هو: ما دل على الماهية بلا قيد من حيث هي هي[1].

وقال ابن قدامة هو: «المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه»[2].

وقال ابن فارس: «أما الإطلاق: فأن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة، ولا شرط، ولا شيء يشبه ذلك»[3].

وعند الآمدي: المطق هو «النكرة في سياق الإثبات»[4].

قال القرافي: «كل شيء يقول الأصوليـون: إنه مطلـق، يقول النحاة: إنه نكرة.. وكل شيء يقول النحاة: إنه نكرة، يقول الأصوليون: إنه مطلق.. فكل نكرة في سياق الإثبات مطلق عند الأصوليين، فما أعلم موضعاً ولا لفظاً من ألفاظ النكرات يختلف فيها النحاة والأصوليون، بل أسماء الأجناس كلها في سياق الثبوت هي نكرات عند النحاة، ومطلقات عند الأصوليين»[5].

ومن المعلوم أن النكرة عند النحاة: هي كل اسم شائع في جنسه، لا يختص به واحد دون آخر، مثل رجل، كتاب، فرس[6].

---

(١) البحر المحيط: الزركشي، جـ٥، ص٥، وانظر إرشاد الفحول: للشوكاني، ص١٦٤.

(٢) روضة الناظر: ابن قدامة، ص١٣٦.

(٣) الصاحبي: ابن فارس، ص١٦٤.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي، جـ٣، ص٣.

(٥) العقد المنظوم: القرافي، تحقيق محمد علوي بنصر، جـ١، ص٣٠٤.

(٦) المرجع السابق: القرافي، تحقيق د. أحمد الختم، جـ١، ص١٨٩ (الهامش).

ولهذا قال الآمدي بعد ذلك: وإن شئت قلت: «هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه»[١].

وعرف ابن الحاجب وغيره من الأصوليين المطلق بأنه: «ما دل على شائع في جنسه»[٢].

وبهذا يتبين أنه لا فرق بين المطلق والنكرة غير المستغرقة في سياق الإثبات بل هما بمعنى واحد في عرف النحاة والأصوليين[٣].

ومثال المطلق الرقبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[٤].

المقيد لغة:

هو ما يقابل المطلق في اللغة، فالقيد هو الربط حسياً كان أو معنوياً تقول: قيدت الدابة إذا ربطتها بحبل ونحوه، وهذا قيد حسي، وفي الحديث: «الإيمان قيدُ الفتك، لا يفتكُ مؤمن»[٥] قال ابن منظور: «معناه أن الإيمان يمنع عن الفتك بالمؤمن»[٦] ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قيّدوا العلم بالكتاب»[٧]. قلت: وهذا وذاك قيد معنوي.

---

(١) الإحكام: الآمدي، جـ٣، ص٣.

(٢) بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب): لأبي الثناء الأصفهاني، جـ٢، ص٣٤٩.

(٣) العقد المنظوم: القرافي، جـ١، ص١٨٩ (الهامش).

(٤) سورة المجادلة: الآية ٣.

(٥) مسند الإمام أحمد جـ١، ص١٦٦، وسنن أبي داود، جـ٣، ص٨٧، مجمع الزوائد: جـ١، ص٩٦، والمستدرك، جـ٣، ص٣٥٢، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة جـ١، ص٥٤١ حديث (٢٨٠٢).

(٦) لسان العرب: ابن منظور، جـ٣، ص٣٧٢.

(٧) سنن الدارمي، جـ١، ص١٣٨.

والمقيد اصطلاحاً:

ذكر العلماء له تعريفات كثيرة وهو ما يقابل المطلق على اختلاف التعريفات:

فقيل: هو ما دل على الماهية بقيد[1].

وقيل: هو المتناول لمعين، أو لغير معين موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه[2]

ومثال المقيد الرقبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[3] فاشترط في الرقبة أن تكون مؤمنة، وهذا قيد لها، ولو لم يشترط لكانت الرقبة مطلقة.

الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد:

يبحث الأصوليون المطلق والمقيد في كتاب العام والخاص. قال القرافي: «وإنما وضع الأصوليون حمل المطلق على المقيد في كتاب الخصوص والعموم بسبب أن المطلق هو (قسيم) العام، والتقييد (قسيم) الخاص. وهذه الأقسام تلتبس جداً على كثير من الفضلاء، وربما اعتقدوا المطلق عاماً.. والتبس التقييد بالتخصيص..»[4] وقال في موضع آخر: «إن مدلول المطلق فائت ومتعذر ولم أرَ أحداً تعرض لذلك، بل يسوون في الأصول والفروع بين هذه المثل ويجعلون البحث واحداً، وليس كذلك»[5]

---

(١) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٦٤.

(٢) روضة الناظر: ابن قدامة، ص١٣٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٤) العقد المنظوم: القرافي، جـ٢، ص٤٧٠.

(٥) المرجع السابق: جـ٢، ص٤٨٨.

وقال عن العموم: «اعلم أن مسمى العموم في غاية الغموض والخفاء، ولقد طالبتُ بتحقيقه جماعة من الفضلاء فعجزوا عن ذلك»[1].

ومع هذا فقد عقد في كتابه «العقد المنظوم في الخصوص والعموم» باباً خاصاً في الفرق بين العام والمطلق[2] إضافة إلى ذكره الفروق بينهما في تعريفه للعام ومن أظهر الفروق:

أن المطلق يقتصر بحكمه على فرد من أفراده دون الجميع، كإعتاق الرقبة، فإنه إذا أعتق رقبة لا يلزمه إعتاق الباقي، أما العموم فإن حكمه يعم جميع أفراده بالتساوي، فإذا قتلنا مشركاً ثم وجدنا آخر وجب قتله أيضاً[3].

بمعنى أن الحكم في العام يثبت لكل أفراده، أما المطلق فيثبت لأحد أفراده بلا تخصيص، فإذا قام في أحدها انقطع عن الباقي.

فإن قلت: هذا هو التخصيص.

قلت: لا، فإن التخصيص قبله عموم، ثم خرج بعض أفراده، وأما المطلق فالمراد به بعض أفراد العام من أول الأمر.

فإذا قال رجل: كل زوجة لي فهي طالق، فهذا اللفظ عام يوجب طلاق زوجاته جميعاً.

وإذا قال: كل زوجة لي فهي طالق إلا فلانة، فهذا تخصيص يوجب استثناءها من الطلاق بعد أن كان الحكم يشملها.

وإذا قال: إحدى زوجاتي طالق، فهذا لفظ مطلق يوجب طلاق إحدى زوجاته دون البقية، فإذا طلقت واحدة سلمت الأخريات.

---

(١) المرجع السابق: جـ١، ص٢٧٥.

(٢) انظر هذا الباب في جـ١، ص٢٩٣-٣١٨.

(٣) المرجع السابق: جـ١، ص٢٨٢.

وإذا قال: زوجتي الوسطى أو الكبيرة أو الصغيرة طالق، فهذا تقييد يوجب طلاقها بعينها من أول الأمر ومن غير أن يشمل غيرها. والله أعلم.

صور حمل المطلق على المقيد:

إذا ورد الخطاب مطلقاً لا مقيد له، وجب حمله على إطلاقه، وإذا ورد الخطاب مقيداً لا مطلق له، وجب حمله على تقييده[1].

وإذا ورد الخطاب مطلقاً في موضع ومقيداً في آخر فله أربع صور:

الصورة الأولى: أن يتحد السبب والحكم:

فقد ورد تحريم (الدم) مطلقاً في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[2] وورد تحريمه مقيداً بكونه مسفوحاً في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[3].

والحكم في الآيتين واحد وهو (التحريم)، والسبب واحد، فاتحد الحكم والسبب، فيحمل المطلق على المقيد باتفاق؛ لأن العمل بالمقيد عمل بالآيتين، والعمل بالمطلق عمل بإحدى الآيتين دون الأخرى، والعمل بهما أولى من العمل بإحداهما، وبالعمل بالآيتين يخرج المكلف من العهدة بيقين[4].

وكقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[5] فإنه مطلق وورد القيد في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ

---

(١) البحر المحيط: الزركشي، جـ٥، ص٨، وإرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٦٤.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، جـ٢، ص٦، من تعليق المحقق.

(٥) سورة النساء: الآية ١١.

﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾[1]
فنصيبه هنا مقيد بأن يكون بعد الوصية والدين، فيحمل المطلق على المقيد في جميع المواريث، فلا يوزع شيء من التركة على الورثة إلا بعد الوصية والدين.

الصورة الثانية: أن يختلف السبب والحكم:

فإذا اختلف السبب والحكم، فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق، فقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾[2] مطلق في الأيدي من غير تقييد لأي اليدين، أو إلى أي حد يكون القطع، أما غسل الأيدي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[3] فمقيد إلى المرافق، ولا يصح هنا حمل المطلق على المقيد لاختلاف السبب (سرقة في المطلق) و(وضوء في المقيد) ولاختلاف الحكم (قطع في المطلق) و(غسل في المقيد) فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق كما قال الشوكاني وحكاه الباقلاني والجويني وإلكيا الهراس وابن برهان والآمدي وغيرهم[4].

الصورة الثالثة: أن يتحد السبب ويختلف الحكم:

فغسل الأيدي في الوضوء مقيد إلى المرافق في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[5].

---

(١) سورة النساء: الآية ١١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٣) سورة المائد: الآية ٦.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، جـ٢، ص٩.

(٥) سورة المائدة: الآية ٦.

ومسح الأيدي في التيمم مطلق في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[1].

ولو نظرنا في الآيتين لوجدنا سبب الوضوء والتيمم واحد، وهو (الحدث)، ولكن الحكم مختلف، ففي الآية الأولى الحكم (الغسل)، وفي الثانية (المسح).

وفي هذه الصورة لا يحمل المطلق على المقيد، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «لا خلاف في أنه لا يحمل أحدهما على الآخر بوجه من الوجوه سواء كانا مثبتين أو منفيين أو مختلفين، اتحد سببهما أو اختلف، وقد حكى الإجماع جماعة من المحققين آخرهم ابن الحاجب»[2].

الصورة الرابعة: أن يختلف السبب ويتحد الحكم:

وإذا كان العلماء في الصور الثلاث السابقة اتفقوا أو كادوا على حكم كل صورة، فإنهم في هذه الصورة قد اختلفوا.

ولهذه الصورة حالتان:

الأولى: أن يكون القيد واحداً:

فالرقبة (مطلقة) في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[3].

ومطلقة في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، جـ٢، ص١٢.

(٣) سورة المجادلة: الآية: ٣.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨٩.

ومقيدة بالإيمان في كفارة القتل الخطأ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[1].

وإذا نظرنا إلى أسباب الكفارة في الآيات الثلاث وجدناها مختلفة، فالسبب في الآية الأولى (الظهار)، وفي الثانية (الحنث باليمين)، وفي الثالثة (قتل المؤمن خطأ).

وإذا نظرنا إلى الحكم وجدناه واحداً وهو عتق الرقبة، لكنه في الظهار واليمين مطلق، وفي القتل مقيد، فهل يحمل المطلق في هذه الصورة على المقيد فنوجب في كفارة الظهار واليمين أن تكون الرقبة مؤمنة أيضاً. هذا ما وقع الخلاف فيه بين العلماء.

فذهب الأحناف وأكثر المالكية وروي عن الإمام أحمد إلى أنه لا يحمل المطلق على المقيد، فيجوز في كفارة الظهار واليمين عتق الرقبة الكافرة. ولا يجوز في كفارة القتل إلا الرقبة المؤمنة.

وذهب أكثر الشافعية والحنابلة إلى حمل المطلق على المقيد فيجب أن تكون الرقبة مؤمنة في جميع الكفارات.

الثانية: أن يكون القيد متعدداً:

فالصوم (مطلق) في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[2] وفي قضاء رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٤.

ومقيد بالتتابع في كفارة القتل في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] وكذلك في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[2].

ومقيد بالتفريق في صوم المتمتع بالحج في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾[3].

واتفق العلماء على أنه لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف القيد وعدم وجود مرجح لأحد القيود. وحمله على أحدهما دون الآخر بلا دليل: تَحَكُّمٌ، فليس أحدهما بأولى من الآخر[4].

* * *

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

(٤) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص٣٦٣.

المنطوق والمفهوم

حين تريد نقل معنى من ذهن إلى ذهن، فإن الوسيلة لذلك هي الكلمات والألفاظ، فالألفاظ هي قوالب المعاني، أو الظروف الحاملة للمعاني، فكل لفظ ينقل جزءاً من المعنى حتى يتم نقل المعنى كاملاً.

ودلالة الألفاظ على المعاني، إما أن تستفاد من جهة النطق والتصريح، أو من جهة التعريض والتلويح، ومن التصريح ما يخفى حتى يكاد أن يكون تلويحاً، ومن التلويح ما يظهر حتى يكاد أن يكون تصريحاً، وتحت هذه الحالات يدرس العلماء المنطوق والمفهوم.

المنطوق

وهو ما دل عليه اللفظ في محل النطق[1]، أو دلالة اللفظ على حكم نُطِقَ به مطابقة أو تضمناً أو التزاماً[2].

وينقسم المنطوق إلى قسمين:

الأول: منطوق صريح:

ويراد به دلالة اللفظ على الحكم مطابقة أو تضمناً، وقيل هو ما وضع له اللفظ[3] وهو ثلاثة أنواع:

---

(١) بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: أبو الثناء الأصفهاني، جـ٢، ص٤٣٢، وإرشاد الفحول: الشوكاني، جـ٢، ص٥٤.

(٢) بيان المختصر: جـ٢، ص٤٣٣.

(٣) بيان المختصر: جـ٢، ص٤٣٣.

الأول: النص:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره، وقيل: «ما لا يحتمل التأويل»[1] وقيل: ما أفاد معنى لا يحتمل غيره[2]، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[3] فإن قوله: (عشرة) دفع توهم دخول الثلاثة في السبعة، وقوله: (كاملة) تأكيد لهذا المعنى ودفع لأي احتمال آخر غير العشرة.

وقال قوم بندرة هذا النـوع في الكتاب والسنة، ويجاب: بأن هذا إن عزَّ حصوله بوضع الصيغ رداً إلى اللغة فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية[4].

الثاني: الظاهر:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحاً واحتمل غيره احتمالاً مرجوحاً وقيل: «ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً»[5].

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[6] فإنه يقال لانقطاع الدم: طهر، وللاغتسال منه: طهر، والثاني أظهر، وهو الراجح.

الثالث: المؤوَّل:

وهو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل.

---

(١) إرشاد الفحول، جـ٢، ص٥٤.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[1]. فالظاهر من كلمة جناح هو جناح الريش، ويستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة، فيحمل على الخضوع وحسن الخلق[2]، وبهذا صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل وهو هنا الاستحالة.

الثاني: منطوق غير صريح:

ويراد به دلالة اللفظ على الحكم التزاماً، وهو نوعان:

الأول: دلالة الاقتضاء:

وهو ما توقفت دلالة اللفظ فيه على إضمار.

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3] فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة (فأفطر) والمعنى فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر؛ لأن قضاء الصوم إنما يجب إذا أفطر وليس لمجرد السفر أو المرض.

وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[4] فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة (وطء) أو (نكاح)؛ لأن التحريم ليس لأعيان الأمهات، فلزم إضمار فعل يتعلق به التحريم.

وكقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾[5] أي: فحلق ففدية، لأن الفدية إنما تجب إذا حلق، وليس لمجرد المرض أو الأذى.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٤.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

وهذا النوع من باب إيجاز القصر في علوم البلاغة. وسمي دلالة اقتضاء لاقتضاء الكلام لفظاً زائداً على المنطوق[1].

الثاني: دلالة الإشارة:

وهو: ما دل لفظه على ما لم يقصد به قصداً أولياً بل من لازمه.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾[2] فإنه يلزم من جواز الأكل والشرب والجماع حتى الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل من الجنابة أن يصبح الصائم على جنابة، فتكون دلالة اللفظ أشارت إلى جواز إصباح الصائم على جنابة، وهو معنى لم يقصد باللفظ قصداً أولياً بل من لوازمه. قال السيوطي: وحُكِي هذا الاستنباط عن محمد بن كعب القرظي[3].

وكقوله تعالى في بيان مصارف الغنيمة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾[4] ففي وصفهم بأنهم فقراء مع أن لهم أموالاً ودوراً في مكة إشارة إلى تملك الكفار أموالهم بالاستيلاء عليها. وهي دلالة غير مقصودة بالنص؛ لأنها إنما سيقت لبيان مصارف الفيء والغنيمة واستحقاقهم لسَهْم فيها، لا لبيان أن الكفار يملكون أموال المسلمين بالاستيلاء، لكن

---

(١) مباحث في علوم القرآن: الشيخ مناع القطان، ص٢٥٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

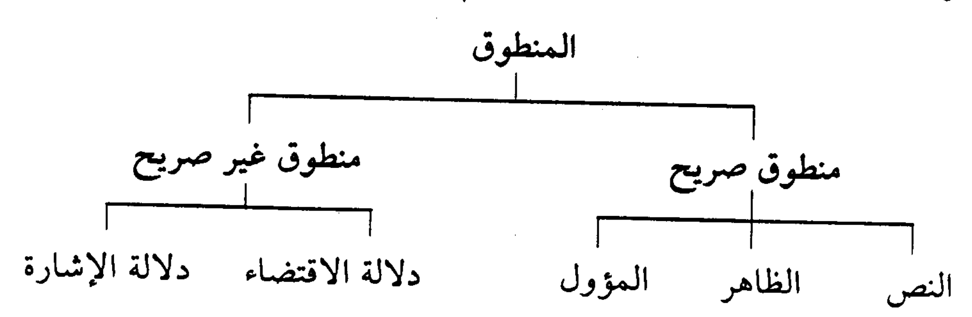
(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤٢.

(٤) سورة الحشر: ٨.

وقعت الإشارة إليه من حيث إن الله سماهم فقراء مع إضافة الأموال إليهم، فلو كانت أموالهم باقية على ملكهم لما صحت تسميتهم بالفقراء إلا مجازاً، وهو خلاف الأصل[١].

وقد وقع خلاف بين العلماء في اعتبار دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة من المنطوق أو المفهوم، فجعلهما الآمدي وابن الحاجب والسيوطي وغيرهم من المنطوق، وجعلهما الغزالي في «المستصفى» والبيضاوي والزركشي من المفهوم[٢].

والخلاصة أن المنطوق خمسة أقسام:



المفهوم

وهو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق[٣].

وينقسم إلى قسمين:

١ ـ مفهوم موافقة.

٢ ـ مفهوم مخالفة.

---

(١) البحر المحيط: الزركشي، جـ٥، ص١٢٣-١٢٤ (بتصرف).

(٢) انظر المرجع السابق: جـ٥، ص١٢٣، والإتقان: للسيوطي، جـ٢، ص٤١-٤٢.

(٣) بيان المختصر: الأصفهاني، جـ٢، ص٤٣٢-٤٣٣، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤٢، وإرشاد الفحول: الشوكاني، جـ٢، ص٥٤.

١ ـ مفهوم الموافقة:

هو ما وافق حكمه حكم المنطوق. وهو نوعان:

النوع الأول: فحوى الخطاب:

وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق.

كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[١] فإن تحريم التأفيف منطوق، والمفهوم تحريم الضرب وهو أولى بالحكم، فالضرب أشد حرمة من التأفيف مع أن تحريم التأفيف منطوق وتحريم الضرب مفهوم، وهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

وكقوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾[٢] فالمنطوق أنه أمين على المبلغ الكثير، والمفهوم من باب أولى أنه لا يخون في المبلغ القليل، وهو تنبيه بالأعلى على الأدنى.

النوع الثاني: لحن الخطاب:

وهو ما كان المفهوم فيه مساوياً لحكم المنطوق.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٣] فالمنطوق تحريم أكل مال اليتيم ظلماً، والمفهوم تحريم إحراقه أو أي استهلاك له بغير حق، لأن ذلك مساوٍ للأكل في الإتلاف[٤].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤٢.

٢ ـ مفهوم المخالفة:

هو ما خالف حكمه حكم المنطوق. أو «دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه مخالف لما دَلَّ عليه المنطوق، لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم»[١].

والمخالفة بين المنطوق والمفهوم تتنوع بتنوع القيد في الحكم المنطوق، فقد تكون المخالفة بسبب الشرط في المنطوق دون المفهوم، أو الصفة أو غير ذلك، وعلى هذا فمفهوم المخالفة أنواع منها:

١ ـ مفهوم الصفة:

والمراد بها الصفة المعنوية، وذلك بأن يكون في المنطوق صفة لا توجد في المفهوم فيختلف الحكم، سواء كانت هذه الصفة:

نعتاً: كقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٢] فالمنطوق أن شهادة الفاسق لا تقبل، والمفهوم أن شهادة العدل تقبل، فيجب قبول خبر الواحد الثقة.

حالاً: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[٣] فالمنطوق أن الجزاء يجب على من كان متعمداً، والمفهوم أن غير المتعمد لا يجب عليه شيء.

ظرفاً: زمنياً كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ﴾[٤] ومفهومه أن الحج في غير هذه الأشهر لا يصح. أو ظرفاً مكانياً كقوله سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُواْ

(١) تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٠٩.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٩٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[1] ومفهومه أن ذكر الله عند غير المشعر الحرام لا يدخل في هذه الآية.

عدداً: كقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾[2] فالمنطوق ثمانين جلدة والمفهوم أن لا يجلدوا أقل من الثمانين ولا أكثر منها.

٢ ـ مفهوم شرط:

وذلك بأن يكون في المنطوق شرط، لا يوجد في المفهوم فيختلف الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[3] والمفهوم أن غير الحامل لا تجب لها النفقة لعدم وجود الشرط وهو الحمل.

٣ ـ مفهوم غاية:

وهو أن يكون الحكم في المنطوق مقيداً بغاية، والمفهوم أن الحكم يزول بعدها كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[4] فالمنطوق إباحة الأكل والشرب حتى طلوع الفجر، والمفهوم تحريم الأكل والشرب بعد طلوع الفجر.

وكقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[5] فالمنطوق تحريم جماع الحائض قبل الطهر، والمفهوم إباحته بعد الطهر.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٨.

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

٤ ـ مفهوم حصر:

وهو أن يكون الحكم محصوراً في صورة المنطوق، والمفهوم أن لا يتحقق الحكم في غير هذه الصورة، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١] فالمنطوق أن العبادة لله والاستعانة بالله، والمفهوم أن لا يعبد غير الله، ولا يستعان بغيره.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢] فالمنطوق أن الإلـه هو الله، والمفهوم أن الألوهية لا تكون لغيره سبحانه.

حكم الاحتجاج بالمفهوم:

أما مفهوم الموافقة فاحتج به الجمهور ولم يخالف في الاحتجاج به إلا الظاهرية.

وأما مفهوم المخالفة فاحتج به الجمهور، وخالفهم في ذلك الحنفية والظاهرية.

واستدل الجمهور على صحة الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلة منها:

أولاً: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٣] قال الرسول ﷺ: «إني خيرت فاخترت، وقد قيل لي: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» فلو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت»[٤]. وفي

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٢) سورة طـه: الآية ٩٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٤) تفسير الطبري، جـ١٤، ص٤٠٨.

رواية «قد خيرني ربي، فوالله لأزيدن على السبعين»[1] ففهم الرسول ﷺ أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين[2].

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾[3] فمنطوق الآية أنه يباح لمن لم يستطع الزواج من الحرة أن يتزوج أمة، والمفهوم أن من يستطيع أن يتزوج حرة فلا يجوز له أن يتزوج أمة. وقد أجمع العلماء على ذلك واشترطوا لإباحة الزواج من أمة عدم القدرة على الزواج من حرة احتجاجاً بمفهوم المخالفة في هذه الآية[4].

ثالثاً: استدلوا بما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من عدم توريث الأخت مع البنت احتجاجاً بمفهوم المخالفة من قوله تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾[5][6] فالمفهوم أنه إذا كان له ولد (ابن أو بنت) فإن الأخت لا ترث.

رابعاً: استدلوا بما روي أن يعلى بن أمية قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما بالنا نقصر وقد أمِنّا، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ .. ﴾[7]. فقال عمر: لقد عجبتُ مما عجبتَ منه

---

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٥٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٥.

(٤) المهذب: الشيرازي، جـ٢، ص٤٤-٤٥، وتبيين الحقائق: الزيلعي، جـ٢، ص١١١، وتفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٧١.

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٦) تفسير الطبري، جـ٩، ص٤٤٣.

(٧) سورة النساء: الآية ١٠١.

فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك فقال لي: «هي صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» فمنطوق الآية أن الصلاة تقصر في حالة الخوف والمفهوم أن لا تقصر في حالة الأمن، وهذا ما فهمه يعلى وفهمه عمر رضي الله عنه قبله.

خامساً: ومن الأدلة العقلية[1]:

أنه لو كانت الصلاة تقصر في حالة الأمن وحالة الخوف لما كان في ذكر الخوف في الآية فائدة لأنها تقصر بدونه، فدل ذكره على أن عدمه يؤثر في الحكم تأثيراً مخالفاً، وهكذا في بقية الأمثلة.

واستدل الحنفية ومن وافقهم على عدم الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلة منها[2]:

١ ـ أن فوائد القيود التي يقيد بها اللفظ كثيرة، ولا يلزم أن تكون محصورة بتقييد الحكم، فلا نستطيع أن نحكم أن الفائدة لذلك القيد هي تخصيص الحكم بالمنطوق، ونفيه عما لا قيد فيه.

٢ ـ لم يعمل بمفهوم المخالفة في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إذ لو عمل به لأدت هذه النصوص إلى معانٍ فاسدة، أو أحكام تنافي المقرر شرعاً.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ﴾[3] لم يكن تخصيص الأربعة بالحرم دليلاً على إباحة الظلم في غيرها من الأشهر.

---

(١) انظر تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٧١-٦٧٢.

(٢) أصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، جـ١، ص٣٦٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٦.

٣ ـ لو كان مفهوم المخالفة معتبراً لما احتيج إلى النص عليه صراحة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[2].

ففي الآيتين نص الله سبحانه على حكم المسكوت عنه، ولم يكف مفهوم المخالفة لمعرفة حكم المسكوت عنه.

والرد على هذا القول ظاهر ببيان الشروط التي ذكرها الجمهور للاحتجاج بمفهوم المخالفة.

شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة:

وقد اشترط العلماء للاحتجاج بمفهوم المخالفة شروطاً منها:

أولاً: أن لا يكون للمسكوت عنه المراد إعطاؤه حكماً مخالفاً لحكم المنطوق دليلٌ خاصٌ يدل على حكمه:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾[3] فمفهوم الآية أنه في حالة الأمن لا تقصر الصلاة، والصواب أنه لا يصح الاحتجاج بهذا المفهوم؛ لأن قصر الصلاة في حالة الأمن ورد بنص آخر صريح ومنطوق، وهو أقوى من المفهوم في هذه الآية.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠١.

ثانياً: ألا يكون القيد خرج مخرج الغالب:

وذلك كالقيد بالحجور في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾[1] فالربيبة وهي بنت الزوجة تحرم على زوج الأم، ومفهوم المخالفة أنها إذا لم تكن في حجر الزوج لا تحرم عليه، والصحيح أنها تحرم سواء كانت في حجره أم لم تكن، وإنما ذكر القيد لأن الغالب أن بنت الزوجة تعيش عند أمها مع الزوج الجديد، ولا أثر لذلك في الحكم.

ثالثاً: أن لا يكون القيد المذكور لبيان فائدة أخرى غير تقييد الحكم:

كالترغيب، أو الامتنان، أو التنفير، أو التفخيم، أو لبيان الواقع، فإن كان القيد لفائدة أخرى غير تقييد الحكم لم يكن له أثر في تقييد الحكم[2].

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[3] لا يدل على أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة، فهو يحرم ولو كان قليلاً، وإنما وصف بالأضعاف المضاعفة للتنفير مما كانوا عليه في الجاهلية من الظلم.

وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[4] فالقيد بالطري للامتنان وليس لتحريم غير الطري.

* * *

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٢) تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٠

(٤) سورة النحل: الآية ١٤.

الجدل في القرآن الكريم

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي الناس من يطلب الحقيقة ويبحث عن النور فيقتنع بالحجة، ويقبل الأدلة والبراهين. ومنهم مكابر معاند لا تنفع معه حجة، ولا يقنعه برهان، فيثير الشكوك، ويموه الحقائق، ويبث الشبهات، وهذا بحاجة إلى مَن ينقض شبهاته، ويكشف حقيقته، ويقارعه الحجة بالحجة حتى لا يلبس على الناس أمور دينهم، آمن هو أم لم يؤمن، لتبقى الحقيقة ناصعة، بلا تمويه وجلية بلا لبس.

لذا جاءت الأدلة والحجج والبراهين في آيات كثيرة وسور عديدة تجادل بالحق وتذب عنه.

وقد أولى علماؤنا عنايتهم لهذا العلم (الجدل في القرآن الكريم) وأفردوه بمؤلفات مستقلة منها:

١ ـ أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الحنبلي نجم الدين الطوفي (ت٧١٦)، وكتابه «نشوة الجذل في علم الجدل» مطبوع[١].

٢ ـ استخراج الجدال من القرآن الكريم تأليف عبد الرحمٰن بن نجم المعروف بابن الحنبلي (ت ٦٣٤) تحقيق د. زاهر الألمعي.

٣ ـ مناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر عواض الألمعي.

٤ ـ أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم: محمد علي نوح قوجيل.

---

(١) انظر: أخبار التراث العربي، عدد ٣٤، ص٧، سنة ١٩٨٧م.

٥ ـ الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية: د. يوسف عيد.

تعريف الجدل:

لغة: جَدَله يجدله: أحكم فتله، والجَدَلَ: اللدد في الخصومة والقدرة عليها.

والجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة. وجادل مجادلة وجدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم[1].

واصطلاحاً: «الجدل هو احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أهل الكلام.

وقيل هو: المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم.

وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله، كأن كل واحد من المتجادلين يفتل الآخر عن رأيه»[2].

والغرض منه: إلزام الخصم وإفهام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان.

أنواع الجدال:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[3] فالجدل من طبيعة الإنسان، وهو كثير الجدال، أي: الخصومة والمنازعة.

---

(١) انظر تاج العروس: الزبيدي، والقاموس المحيط: الفيروزآبادي، والمصباح المنير: للفيومي. مادة (جدل).

(٢) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص٨٩-٩٠.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٤.

والجدال ثلاثة أنواع:

الأول: جدال محمود:

كالجدال في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2].

الثاني: جدال مباح:

كالجدل في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[3] وقوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5].

الثالث: جدال مذموم:

كالجدال في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾[6] وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[7] وقوله سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[8] وغير ذلك.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١.

(٤) سورة هود: الآية ٧٤.

(٥) سورة النحل: الآية ١١١.

(٦) سورة الحج: الآية ٣.

(٧) سورة الحج: الآية ٨، وسورة لقمان: الآية ٢٠.

(٨) سورة غافر: الآية ٤.

قواعد وآداب الحوار والجدال:

للجدل آداب وقواعد ينبغي على المسلم أن يلتزم بها مستنبطة من توجيهات القرآن ومنها:

١ ـ البعد عن التعصب:

ينبغي للمجادل أن يكون غرضه طلب الحق، وأن يسمع وجهة النظر الأخرى، ويجتنب التخطئة المباشرة للرأي الآخر مهما ظهر بطلانه، وقد أرشدنا القرآن إلى ذلك حين أمر الرسول ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] مع وضوح الحق وظهوره، وهذا غاية الابتعاد عن التعصب.

٢ ـ القول اللين والبعد عن الطعن والسب والشتم، أو الهزء والسخرية:

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[3]. والاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، وذلك أن لا نجادلهم إلا بهذا الأسلوب دون سواه إلا مع الذين ظلموا منهم.

حتى مع المشركين وقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5].

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

(٤) سورة طه: الآية ٤٤.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

٣ ـ اعتبار الدليل والإقرار بالصحيح من الأدلة:

فالقرآن يسوق الحجج والبراهين، ويطالب الخصم بمثلها قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] فانظر كيف ساق براهينه ثم طلب براهين الخصم.

٤ ـ قبول الدليل الصحيح وترك المكابرة:

فقد ذم القرآن الكريم الكفار حين طلبوا آية فأراهم إياها، وكان عليهم الإيمان لكنهم كابروا وأعرضوا ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2] مع أنهم هم الذين طلبوا من الرسول ﷺ أن يشق القمر آية له لتعجيزه بزعمهم، فطلب رسول الله ﷺ من ربه شق القمر فانشق نصفين نصفه شرق جبل أبي قبيس ونصفه الآخر في غربيه، فلما رأوه قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وهكذا فرعون طلب من موسى عليه السلام آية وحين ألقى عصاه قال: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[3].

طريقة القرآن في الجدل:

امتاز الجدل في القرآن الكريم بأنه لم يجر على منهج الفلاسفة وطرائقهم في الجدل بأن تذكر فيه المقدمات بطريقتهم الخاصة ثم النتائج، إذ إن القرآن الكريم لم ينزل للمناطقة والفلاسفة وأمثالهم بل نزل لهداية الناس جميعاً، وما به من أدلة اعتمد فيها على المحسوسات أو البدهيات التي لا تمتري فيها العقول، ولا تلتبس على الأذهان، وتلقى في النفس القبول وفي القلب اليقين، سواء في ذلك العامة والخاصة[4].

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٤.

(٢) سورة القمر: الآيتان ١-٢.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٣٩.

(٤) انظر الجدل القرآني: د. يوسف عيد، ص١٧٢-١٨٣.

ولذا جاء الجدل القرآني بأسلوب سلس، وكلمات يسيرة، وقضايا واضحة، وأمثلة ظاهرة، وأدلة قاطعة يفهمها العامة كما يفهمها الخاصة، بخلاف منهج الفلاسفة الذي يكون بكلمات غامضة، وأسلوب مستعص على أذهان العامة، وقضايا معقدة، ودلائل غير حاصرة. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله تعالى عن المنطق: «إنه لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه الغبي»[1] وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما عُلِمَ بالحس[2].

بل إن حجج الفلاسفة وبراهينهم لم يقنعوا بها أنفسهم حقيقة، فكثر فيهم الملاحدة، وهم أكثر الناس شكاً واضطراباً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون[3]، وقد أقر من تاب منهم بعد ذلك بهذا فابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم يقول: «لم يقل أحد من الناس في العلوم الإلهية قولاً يعتد به»[4].

والغزالي انتهى أمره إلى الوقف والحيرة في الكلام فأعرض عنه، وأقبل على الحديث، ومات وصحيح البخاري على صدره[5].

وقال الرازي من أبيات:

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) الرد على المنطقيين: ابن تيمية، ص٣٧٣-٣٧٤.

(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، ص٢٤٢.

(٣) ابن تيمية: محمد أبو زهرة، ص٣٤٨-٣٤٩.

(٤) تهافت التهافت: ابن رشد الحفيد، ص٨٨.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٤٣-٢٤٤.

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1]. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[2] وأقرأ في النفي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[3] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[4]. ثم قال: «ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[5].

وقال أبو المعالي الجويني: «لو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به» وقال عند موته «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور»[6] وندم الفخر الرازي على الاشتغال بعلم الكلام، وكان يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ثم يبكي[7].

وإذا كان هذا ما توصل إليه أرباب الفلسفة وأعلامها، فكيف يرجى أن تكون وسيلة مقنعة، وحجة ظاهرة.

والخلاصة أن القرآن الكريم لم يسلك مسلك الفلاسفة لأمور منها:

١ ـ أن القرآن جاء بلسان العرب وخاطبهم بما يعرفون.

---

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة طه: الآية ١١٠.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٤٤.

(٦) المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٧) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص٢١٥.

وذلك أن الرسول ﷺ رجل أمي، وبعث في أمة أمية، لم يكن للمنطق اليوناني عندهم وزن، ولا يعرفون طرقه وأشكاله، ومع ذلك فقد أتى القرآن بأروع الأدلة، وأحكم البراهين التي تقنع العقل البشري[١].

٢ ـ أن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي يعد عجزاً، فإن الإلغاز لا يعد من صور البيان، فلو سلك القرآن الطرق المنطقية والمذاهب الفلسفية في حججه لكان غامضاً في دلائله، ملغزاً في براهينه، لكنه سلك منهجاً فريداً لا تصل إليه مسالكهم، فجاء بنسق بياني بأسلوب عربي مبين، فكان إعجازاً في إعجاز معجزاً في حججه معجزاً في أسلوبه.

٣ ـ أن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً، وأبلغ حجة، وقد اشتملت أدلة القرآن الكريم وبراهينه على ما فطرت عليه النفوس، وشهدت بصحته العقول، دون إخلال بأحكام الحجة، وروعة البيان، وسلامة المنطق، فهو في تناول الخاصة والعامة يأتي من الحقيقة البرهانية بما يرضي العقول، ومن المتعة الوجدانية ما يهز القلوب ويحرك المشاعر[٢].

طرق الاستدلال في القرآن الكريم:

للاستدلال في القرآن الكريم طريقان:

الأول: ما يسوقه الله من الأدلة ابتداء:

وهو كثير، ومنه ما يذكره الله تعالى من الآيات الكونية المشتملة على الأمر بالتفكر والتدبر لمعرفة الخالق ووحدانيته.

---

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر الألمعي، ص٩٤.
(٢) مناهج الجدل في القرآن: د. زاهر الألمعي، ص٩٩، وانظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٩٩-٣٠٠.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2] وغير ذلك.

الثاني: ما يردّ به على الخصوم والمعاندين:

وهذا النوع هو ما يسمى بالجدل، وللجدل في القرآن الكريم طرق كثيرة منها:

١ ـ الاستفهام التقريري:

وهو تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم، وتسلم بها العقول، حتى يعترف بما ينكره، وهذا من أحسن الطرق، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات[3].

ومن الأمثلة: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن: القطان، ص٣٠٣، ومناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر الألمعي، ص٦٩.

(٤) سورة يسۤ: الآية ٨١.

(٥) سورة البلد: الآيات ٨-١٠.

هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

٢ ـ قياس الخَلْف:

«وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه» وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان، ولا يخلو المحل من أحدهما، ويسمى هذا الدليل دليل التمانع.

ومثاله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] فثبت أنه لا إلـه إلا الله لعدم وقوع الفساد فيهما. لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحق بهما أو بأحدهما، وذلك أنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما، وهذا لا يمكن لاستحالة اجتماع الحياة والموت في جسم واحد في آن واحد، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإلـه لا يكون عاجزاً[3].

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[4]. فثبت أنه من الله لعدم وجود الاختلاف.

٣ ـ قياس التمثيل:

وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند المخاطب، أو أمر بدهي لا تنكره العقول، وذلك كالاستدلال بالمبدأ على المعاد.

---

(١) سورة الطور: الآيات ٣٥-٤٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٢.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2] وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾[3].

٤ ـ السبر والتقسيم:

وذلك بحصر الأوصاف في المحكوم عليه، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم، كما قال ابن الأنباري: «السير يرجع إلى اختبار أوصاف المحل»[4].

ومثاله: أن الكفار كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى، فرد الله عليهم بقوله سبحانه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والآية بعدها[5].

فحصر الأوصاف في الأنعام وهي الذكورة والأنوثة واشتمال الأرحام عليهما، أو لا يُدرَىٰ له علة، بل هو تعبدي بأن أخذتم ذلك عن الله إما عن طريق الوحي أو الرسول، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

---

(١) سورة يسٓ: الآيات ٧٨-٨١.

(٢) سورة قٓ: الآية ١٥.

(٣) سورة الطارق: الآيات ٥-٨.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص٢١٤.

(٥) سورة الأنعام: الآيتان ١٤٣-١٤٤.

﴿وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾[1] فهذه وجوه التحريم لا يخرج عن واحد منها. (والأول) يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً. (والثاني) يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً. (والثالث) يلزم عليه تحريم الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم بعضٍ في حالة، وبعضٍ في حالة، لأن العلة تقتضي إطلاق التحريم. (والرابع) وهو أخذهم ذلك عن الله فإن كان بلا واسطة فباطل ولم يدعوه، وإن كان بواسطة الرسول فباطل كذلك لعدم مجيء رسول إليهم قبل محمد ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت أن تحريمهم لهذه الأنعام باطل وإفتراء على الله تعالى.

ولذلك قال بعد هذا مباشرة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

٥ ـ التسليم الجدلي:

وهو أن يسلم وقوع ما ادعوه جدلاً ثم يبطله على تقدير وقوعه.

ومثاله قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3]. فنفى أن يكون معه إله ثم سلم جدلاً أنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق، وعلا بعضهم على بعض فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه من المحال»[4].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٤) بدائع القرآن: لابن أبي الأصبع، ص٢٩٥.

٦ ـ الانتقال في الاستدلال:

وهو أن ينتقل المستدل من دليل لم يفهمه الخصم أو غالط فيه إلى دليل آخر يؤدي إلى انقطاع الخصم، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1].

فلما غالط في الدليل الأول انتقل به إبراهيم عليه السلام إلى دليل آخر لا يستطيع أن يغالط فيه فانقطعت حجته وبهت.

* * *

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

الأمثال في القرآن الكريم

جرى الناس على اختلاف مشاربهم على ضرب المثل في أحاديثهم لما يرمز إليه من معان كثيرة وإشارات دقيقة، حتى صارت الأمثال جارية على ألسنة الناس كالحِكَم، وذلك أن المثل نتيجة تجربة أو تجارب كثيرة وخلاصة فكر عبر العصور وهو في عرفهم صادق في مدلوله[1].

والقرآن يخاطب الناس بما يعرفون، وبالأساليب التي يدركون، فجاءت الأمثال في القرآن الكريم لغايات وأهداف سامية، ولتكشف للناس العبر بسهولة ويسر، ولتربط الحاضر بالماضي لأخذ العظة والعبرة.

وأقبل العلماء والباحثون يدرسون الأمثال في القرآن ويتدبرونها، ويظهرون للناس معانيها ومراميها.

ومن أشهر المؤلفات في أمثال القرآن:

١ ـ الأمثال القرآنية: على بن محمد الماوردي.

٢ ـ الأمثال في القرآن الكريم: لابن قيم الجوزية وهو جزء من كتابه (إعلام الموقعين) طبع بتحقيق د. ناصر بن سعد الرشيد.

٣ ـ أمثال القرآن: للجنيد القواريري ت ٢٩٨هـ.

٤ ـ أمثال القرآن: لمحمد بن الحسين السُّلَمى ت ٤١٢هـ.

٥ ـ أمثال القرآن: نفطويه.

---

(١) انظر الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، ص٧.

٦ ـ الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزبن.

٧ ـ موسوعة الأمثال القرآنية: د. محمد عبد الوهاب عبد اللطيف في جزءين.

٨ ـ الأمثال القرآنية: عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني.

٩ ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره: عبد المجيد البيانوني. وغير ذلك.

تعريف المثل:

لغة: المَثل والمِثل والمَثِيل كالشَّبَه والشِّبْه والشبيه لفظاً ومعنى. قال الراغب الأصفهاني: «(مثل) أصل المثول الانتصاب، والمُمثَّل المُصَوَّر على مثال غيره يقال: مثل الشيء، أي: انتصب وتصور، ومنه قوله ﷺ: «من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار»[1]، والتمثال: الشيء المصور، وتمثل كذا: تصور، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2].

والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: «الصيفَ ضيعتِ اللبن» فإن هذا القول يشبه «أهملتَ وقتَ الإمكان أمْركَ. . .»[3].

والمثل عند الأدباء: القول السائر المشبه مضربه بمورده. وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في القرآن قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٩٧٧)، وأبو داود في سننه برقم (٥٢٢٩) واللفظ له وصححه الألباني في الصحيحه.

(٢) سورة مريم: الآية ١٧.

(٣) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص٤٦٢ مادة (مثل).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1] وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل إذ أطلق»[2].

قال النَّظّام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة»[3].

أما المثل في القرآن الكريم: فهو إبراز المعنى في صورة حسية موجزة تكسبه روعة وجمالاً، ولها وقعها في النفس سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلاً.

والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً[4].

أنواع الأمثال في القرآن الكريم:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع[5]:

١ ـ الأمثال المصرحة:

وهي التي يصرح فيها بلفظ المثل أو بما يدل عليه من تشبيه أو نظير أو سياق أو آية أو غير ذلك. وهذا النوع كثير في القرآن الكريم.

ومن أمثلة ما صرح فيه بلفظ (المثل) قوله تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[6].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم: الحسن اليوسي، ص٢٠.

(٣) مجمع الأمثال: الميداني، جـ١، ص٦.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٨٣.

(٥) انظر الإتقان، السيوطي، جـ٢، ص١٦٧-١٦٩.

(٦) سورة البقرة: الآيتان ١٧-١٨.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

ومن أمثلة التشبيه بحرف الكاف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾[3].

ومن أمثلة ما جاء بلفظ الآية قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجلٍ غنيٍّ يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله[5].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٥.

(٢) سورة النور: الآية ٣٩.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦٦.

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، جـ١، (٤٥٣٨).

٢ ـ الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها دلت على معان رائعة موجزة، ولها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها.

وآيات هذا النوع قريبة الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة فهي أمثال بمعانيها لا بألفاظها، ومن هنا سميت ألفاظاً كامنة.

ومن أمثلة ذلك ما رواه الماوردي أن مضارب بن إبراهيم سأل الحسين ابن الفضل: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن. فهل تجد في كتاب الله (خير الأمور أوساطها)؟ قال: نعم. في أربعة مواضع:

أ ـ قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[1].

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2].

جـ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[3].

د ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[4].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (من جهل شيئاً عاداه)؟

قال: نعم في موضعين:

أ ـ قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٨.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٥) سورة يونس: الآية ٣٩.

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1].

قلنا: فهل تجد في كتاب الله (احذر شر من أحسنت إليه)؟

قال: نعم قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: ﴿ليس الخبر كالعيان﴾؟

قال: في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[3].

وذكر أمثلة أخرى[4] وهذه كلها آيات قرآنية لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها موافقة لمعاني أمثال معروفة سائرة.

٣ ـ الأمثال المرسلة:

وهي آيات من القرآن جرت مجرى المثل.

ومن أمثلة ذلك ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[5]، ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[6]، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[7]، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾[8]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[9]، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[10]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[11]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[12]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ١١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٦٨-١٦٩.

(٥) سورة النجم: الآية ٥٨.

(٦) سورة يوسف: الآية ٥١.

(٧) سورة هود: الآية ٨١.

(٨) سورة الأنعام: الآية ٦٧.

(٩) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(١٠) سورة الحشر: الآية ١٤.

(١١) سورة الإسراء: الآية ٨٤.

(١٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

﴿رَهِينَةٌ﴾[1]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾[2]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[3] وغير ذلك كثير.

حكم استعمال الأمثال المرسلة:

جرت عادة بعض الناس على ضرب المثل بالآيات القرآنية في بعض الأحوال، وقد اختلف العلماء في ذلك:

فمنهم من منعه كالرازي وغيره، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[4]: «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم»[5].

وقال الزركشي: «يكره ضرب الأمثال بالقرآن. وفي كتاب «فضائل القرآن» لأبي عُبيد، عن النخعي قال: كانوا يكرهون أن يتلوا الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا. قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يَهمّ بحاجته فيأتيه من غير طلب فيقول كالمازح ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾[6] فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ، قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لها نظيراً من القول ولا الفعل»[7].

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩١.

(٤) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٥) تفسير الرازي، جـ٣٢، ص١٤٨.

(٦) سورة طه: الآية ٤٠.

(٧) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٨٣.

وأجازه آخرون قال محمد الخضر حسين: «ولا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[1]. أو يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2] والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح»[3] وهذا الرأي بهذا التفصيل هو الراجح عندي، والله أعلم.

خصائص ومزايا الأمثال القرآنية:

للأمثال في القرآن الكريم خصائص كثيرة منها[4]:

١ ـ دقة التصريح مع إبراز العناصر المهمة من الصور التمثيلية كقوله تعالى في الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الرسول ﷺ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5].

٢ ـ التصوير المتحرك الحي الناطق كقوله تعالى في أعمال الكفار: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[6].

---

(١) سورة النجم: الآية ٥٨.

(٢) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٣) بلاغة القرآن: محمد الخضر حسين، ص٣٣.

(٤) من كتاب الأمثال القرآنية: عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، ٨١-١٠٠ (بتصرف واختصار). ولمزيد من التوسع انظر: ضرب الأمثال في القرآن: عبد المجيد البيانوني، ص٥١-٥٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧١.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

٣ ـ صدق المماثلة بين الممثل والممثل له. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

٤ ـ كثيراً ما يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على فهم المخاطب. وقد تحذف من الممثل له مقاطع أيضاً، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[2]. ففي المثل أبرزت صورة السراب ثم صورة الظامئ الذين ظنه ماءً، ثم خيبته عند وصوله إليه، وحذف ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له.

وفي الممثل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا وطوى ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له. وهذا من بلاغه القرآن.

فوائد الأمثال في القرآن الكريم وأغراضها:

للأمثال في القرآن الكريم أغراض ومقاصد ولها فوائد كثيرة منها:

١ ـ إظهار المعنى المعقول المجرد في صورة حية ملموسة متحركة.

كالمثل الذي يضرب الله تعالى لمن ينفق ما له رئاء الناس بقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١١٦-١١٧.

(٢) سورة النور: الآية ٣٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

وكقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[2].

٢ ـ قوة الإقناع والحجة:

ففي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

فالحجة في هذا المثل تثبت أن انفراد المالك الذي تجب طاعته أفضل وأكرم للمملوك من تعدد المالكين، فالأمران ليسا بمتساويين ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[4].

٣ ـ الترغيب:

كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

٤ ـ الترهيب:

كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٢٢-٢٣.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١٩.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٩.

(٤) الأمثال القرآنية: عبد الرحمن حبنكه الميداني، ص٥٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

(٦) سورة النحل: الآية ١١٢.

٥ ـ المدح:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

٦ ـ التنفير:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[2].

قال الزركشي: «وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾[3] فامتن علينا بذلك لمَّا تضمنت هذه الفوائد»[4].

وقد عد الشافعي رحمه الله تعالى معرفة الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٤-٢٥.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٥.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٨٦-٤٨٧.

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام[1].

أثر الأمثال في التربية والتعليم[2]:

تختلف أمثال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة اختلافاً جذرياً عما يضرب الناس من الأمثال، فهي أمثال حق وصدق، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يدخلها نقص في أي جانب من جوانبها[3]، وحق على رجال التربية والتعليم أن يتخذوها نموذجاً تربوياً فريداً، ويستلهموا منها العبر والأساليب التربوية، وليس من السهل في هذه العجالة استيفاء هذه الآثار ولنذكر منها[4]:

١ ـ شد انتباه السامع وحمله على التفاعل مع الموضوع.

٢ ـ التنويع في أسلوب المتكلم مما يدفع الملل والسآمة، ويجدد النشاط الذهني للطلاب.

٣ ـ تثبيت الفكرة في الأذهان، وسرعة انتشارها وسريانها بين الناس، وذلك أن كلمات المثل قليلة يسهل حفظها وفهمها واستيعابها.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٦٧.

(٢) هناك مؤلفات خاصة بهذا الموضوع منها: ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره للأستاذ عبد المجيد البيانوني، وكتاب بعض الأبعاد التربوية لعدد من الأمثال في القرآن الكريم للدكتوره آمال حمزة المرزوقي.

(٣) ضرب الأمثال في القرآن: عبد المجيد البيانوني، ص١٠-١١.

(٤) انظر: ضرب الأمثال في القرآن: عبد المجيد البيانوني، ص٧٣-١٠٠.

٤ ـ توسيع آفاق الطالب الفكرية والنفسية بتدريبه على ربط المعقولات بالمحسوسات، وقياس الغائب على الشاهد.

٥ ـ استثمار الانفعالات النفسية عند الطالب الدافعة (كالفرح، والحب، والرغبة في التملك) أو الرادعة (كالرهبة، والخوف، والخشية) وعلى المربي الناجح أن يتعامل مع مزيج متكافئ متوازن من هذه الانفعالات.

فتعامل المربي مع تلميذه بعصا الرهبة وحدَها سبب ظاهر لهلاكه، ودفعه بعامل الفرح أو الرغبة وحدَها سبب خطير لإفساده. وإنما يصلح سبيل التربية إذا نهض على مزيج معتدل من هذه الأساليب.

❊ ❊ ❊

قصص القرآن الكريم

لا شك أن القصة من أفضل أساليب التربية والتعليم وهي عامل رئيس من عوامل جذب انتباه المستمعين فهي أسلوب تربوي تعليمي ناجح سلكه المربون والمصلحون والأدباء والمعلمون في كل مكان وزمان.

ولتأثير القصة ومكانتها فإن القرآن يعرض لنا كثيراً من قضايا العقيدة والصراع بين الحق والباطل بأسلوب قصصي مميز للعظة والاعتبار.

تعريف القصة:

لغة: القصُّ: هو تتبع الأثر مادياً كان أو معنوياً.

فالمادي يقال: قصصت أثره، أي: تتبعته، قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾[1]، أي: رجعا يتتبعان أثرهما، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾[2]، أي: اتبعي أثره، ومنه القصاص، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾[3] لما فيه من تتبع أثر الجاني ومجازاته بمثل فعله، من قتل أو قطع أو جرح، ومنه المقص الذي يقطع به القماش، والقصيصة الزاملة الضعيفة كأنها سميت بذلك لأنها تكون منقطعة عن القافلة وتسير على أثر النوق النجيبة، والقصيصة شجرة تنبت في أصل الكمأة سميت بذلك لدلالتها على الكمأة كما يقتص الأثر وغير ذلك[4].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦٤.

(٢) سورة القصص: الآية ١١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٤) انظر: لسان العرب: لابن منظور، جـ٧، ص٧٣-٧٥ مادة (قصص).

والمعنوي كتتبع أخبار الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2] أي: أخبارهم.

والقصة: الخبر والأمر والحديث[3].

وقصص القرآن اصطلاحاً:

أخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة[4].

أنواع القصص في القرآن الكريم[5]:

ومن التعريف نستطيع أن نعرف أن أنواع القصص في القرآن الكريم ثلاثة:

النوع الأول: قصص الأنبياء السابقين:

كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، التي تضمنت أخبار دعوتهم لقومهم إلى الإسلام، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف أقوامهم منهم، والعقوبات الإلهية التي نزلت بهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٣) لسان العرب: جـ٧، ص٧٤.

(٤) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٦.

(٥) انظر: المرجع السابق: ص٣٠٦.

النوع الثاني: قصص يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم: كقصة أهل الكهف، وذي القرنين، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود وغيرهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بأحداث وقعت في عصر الرسول ﷺ.

كغزوة بدر وأحد في (سورة آل عمران)، وحنين وتبوك في (سورة التوبة) والأحزاب في سورتها، والإسراء في سورتها. وغير ذلك.

فوائد القصة في القرآن الكريم:

من أهم فوائد القصة في القرآن الكريم:

١ ـ تثبيت فؤاد الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وذلك أن الرسول ﷺ حين يخبره الله بما جرى للأنبياء عليهم السلام من قبله مع أقوامهم يسلو قلبه ويتجدد عزمه. فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

٢ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله تعالى واشتراك كل الأنبياء فيها:

فإن الرسل كلهم عليهم السلام يدعون إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] فليس هناك دين غير الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[3].

---

(١) سورة هود: الآية ١٢٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.

٣ ـ تأكيد صدق الأنبياء السابقين عليهم السلام:

فالقرآن يصرح برسالتهم ونبوتهم وصدقهم، ويصرح بأسمائهم، ويشهد لهم بالصدق وتبليغ الدعوة، فليس لأحد أن يشك في نبوتهم، ولذا كان الإيمان بالرسل من أركان الإيمان لمجيئه عن طريق القرآن المتواتر.

٤ ـ إظهار صدق الرسول ﷺ:

فالرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف عنه مجالسة لأحبار اليهود والنصارى، وورود هذه القصص من مثله عليه الصلاة والسلام دليل على رسالته وتلقيه للوحي.

٥ ـ التهديد والوعيد للكفار والعظة والاعتبار للمؤمنين بأن ما جرى لعصاة الأمم السابقة قد يجري لعصاة هذه الأمة، ولهذا لما أرسلت قريش عتبة بن ربيعة إلى الرسول ﷺ ليطلب منه ترك الدعوة قرأ عليه عليه الصلاة والسلام سورة فصلت حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[١] أمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولما جاءته قريش أخبرهم الخبر وفيه.. فأمسكت بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب[٢].

٦ ـ والقصة ضرب من ضروب الأدب يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس[٣]، وتثبت معانيه، وتدرك مراميه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٤].

---

(١) سورة فصلت: الآية ١٣.

(٢) تفسير البغوي، جـ٤، ص١١٠.

(٣) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٧.

(٤) سورة يوسف: الآية ١١١.

مزايا القصة القرآنية:

تمتاز القصة في القرآن بمزايا عديدة منها:

١ ـ ربانية المصدر:

فالقصة تبعاً للقرآن الكريم كله من الله تعالى لها من الخصائص ما للقرآن الكريم نفسه، وليس للرسول ﷺ فيها إلا البلاغ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1].

٢ ـ مطابقة الواقع والصدق وأنها حقيقة لا خيال:

وبيان ذلك أن كل ما جاء في القرآن من قصص وأحداث وأخبار واقع حقيقه كما أخبر الله تعالى، وليس نسج خيال.

وإنما يلجأ البشر إلى الخيال حين تعجز قدراتهم العلمية عن الإحاطة بأحداث التاريخ، واستخراج الحدث الذي يحتوي على ما يريدون إظهاره من أفكار وآراء، وهذا شأنهم، وتلك قدرتهم، فيعوضون ذلك العجز بالخيال، وكثيراً ما يتمنى الإنسان بلوغ شيء فيعجز عنه حقيقة، فيلجأ إلى الخيال يصور ماذا سيفعل لو كان، وهذا شأن الأدباء البشر في قصصهم أحياناً.

أما الله سبحانه وتعالى فلا يعجزه شيء وهو العليم الخبير بما كان وما سيكون، فيحكي من أحداث الأمم الماضية الواقعة ما يناسب موضوع السورة.

وقد وصف الله تعالى قصص القرآن بذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[2] و﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾[3] ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٢.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.

بِٱلْحَقِّ﴾[1] ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وهكذا قصص القرآن حق وحقيقة.

٣ ـ الاختيار للعظة والعبرة:

يختار الله سبحانه وتعالى من القصة أو الحدث أجزاء تناسب أهداف الموضوع أو السورة ومقاصدها للعظة والاعتبار، يستوي في ذلك قصر المقطع أو طوله، ولا شك أن ما اختاره منها فيه الوفاء كل الوفاء بالغرض المراد.

٤ ـ الإعجاز:

وهذا الإعجاز تبع لإعجاز القرآن الكريم كله، لكن إعجاز القصص يظهر في أن العرض البشري يكون متأثراً بشخصية الراوي التي غالباً ما تكون متأثرة بأفكاره وآرائه وتصوراته القاصرة، ويحكي منها ما أدركته طاقته البشرية، وهي محدودة في علمها وقصورها عن الإحاطة بكل الأمور.

أما قصص القرآن فمن الله الذي أحاط بالأحداث كلها، ويعلم ما تخفي الصدور، وشتان بين صورة واضحة كاملة صادقة، وصورة لا تخلو من نقص أو قصور أو خطأ في التصور.

٥ ـ التكرار:

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعرض من القصة ما يلائم موضوع السورة، فإن هذا يقتضي تكرار عرض القصة في أكثر من سورة، سواء كان عرضاً كاملاً مختلفاً عن العرض الأول أو عرضاً جزئياً.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٣.

فوائد تكرار القصة في القرآن الكريم:

ولتكرار القصة في القرآن الكريم فوائد وحكم عديدة منها:

١ ـ قوة الإعجاز:

كما قال الباقلاني: «وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي معناها.. وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به، كيف وقد قال لهم: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[١] فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقين»[٢].

وقال الزركشي: «كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاؤوا، وبأي عبارة عبروا»[٣].

ولا شك أن القصة الواحدة حين تكون معجزة بوجه ثم معجزة بوجه آخر فإن هذا يعني قوة في الإعجاز، وزيادة في التحدي.

٢ ـ بيان بلاغة القرآن الكريم في أعلى مراتبها:

يقول الباقلاني: «إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة»[٤].

---

(١) سورة الطور: الآية ٣٤.

(٢) إعجاز القرآن: الباقلاني، جـ١، ص٩٤.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ٣، ص٢٧.

(٤) إعجاز القرآن: الباقلاني، جـ١، ص٩٤.

من خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صوره مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى[1].

٣ ـ أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ ـ لما فيها من التغيير ـ ميلاً إلى سماعها؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة[2].

٤ ـ أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً لم يذكره في المرة الأولى. فقد يوجد في ألفاظها زيادة أو نقصان، وتقديم أو تأخير[3]، ويذكر في كل منها ما لم يذكر في الأخرى لتنويع الفوائد وتوزيعها.

٥ ـ الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وإمارات الاهتمام، بل التكرار أبلغ من التأكيد، فالتكرار تأسيس، والتأكيد فرع، وتكرار التأسيس أقوى من التأكيد.

٦ ـ اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في مقام آخر حسب أهداف السورة وأغراضها[4].

---

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٨.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ٣، ص٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦-٢٧.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٨.

كيفية الاستفادة من القصة في مجال التربية والتعليم:

يدرك رجال التربية أن أقوى أساليب التربية نفاذاً إلى القلوب، وتأثيراً في النفوس ما عرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث، والتفاعل مع المواقف.

ومن هنا كان الترابط الوثيق بين الوسائل والأهداف في مناهج التربية فبحيوية العرض في القصة الموجهة، وقوة التخييل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار، يحصل من التأثر بالتوجيه التربوي ما لا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النفس وهي في راحتها واسترخائها[١].

ويفيد التحليل النفسي للعادات الفاسدة أنها تبطل وتزول بمجرد اقتلاع العقدة مثل ما يزول المفعول الكهربائي بانقطاع التيار[٢]. فلم يبدأ الرسول ﷺ بنهيهم عن عادة شرب الخمر أو الزنا مثلاً، بل اقتلع من قلوبهم عقدة الشرك فانقادوا لترك تلك العادات السيئة وغيرها[٣].

لذلك أقام القصص القرآني منهجه على العقيدة بنبذ عقيدة الشرك وغرس عقيدة الإيمان بالله وحدَه، وبذلك وحدَه يقتلع الإنسان من نفسه عاداته الفاسدة وينقاد لمبادئ الإسلام الصحيحة.

---

(١) سيكولوجية القصة في القرآن: د. التهامي نفره، ص٥٤٤.

(٢) علم النفس والأخلاق: هادفيلد، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم، ص٦٤.

(٣) وهذا الأسلوب هو ما سلكه بعض الزعماء في محاربة الدعوة الإسلامية بما وصفوه بـ«تجفيف المنابع» ويعنون به قطع التعليم الديني عن الشباب حتى ينشأ جيل لا يعرف عن الإسلام شيئاً ويسهل توجيهه إلى ما يريدون. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ويذكر الإيمان في القرآن متبوعاً في الغالب بعمل الصالحات كنتيجة حتمية له، لأن الإيمان ليس في الحقيقة مجرد شعور عن علم ومعرفة، ولكنه تكييف للإنسان في صلته بربه، وتدبيره لنفسه، وعلاقته بغيره[1].

فالإيمان سمو بالنفس، واتصال بالله، وتكوين للشخصية المتزنة التي تعمل جميع طاقاتها الجسمية والفكرية والروحية في اعتدالٍ وتوازن، لأن لصاحبها قوة منظمة لاندفاعاته الفطرية، ومُهَذِّبة لغرائزه الحيوانية، وموجهة إياه نحو المثل العليا.

وتلك هي الشخصية المتكاملة كما يسميها علماء التربية «وهي التي يتسم سلوكها وتصرفاتها ودوافعها بالاتزان الانفعالي»[2].

والقصص بهذا من أهم وسائل التربية القرآنية توجيهاً وتعليماً وترسيخاً للعقيدة الصحيحة، وقد جاءت التربية في القرآن الكريم ملائمة لعناصر القصة الثلاثة (الأحداث) (الشخصيات) (الحوار) فجاءت التربية بالقصة القرآنية على ثلاثة محاور[3].

التربية بالأحداث:

وتعرف هذه التربية بقوة تأثيرها، وشدة سيطرتها على النفس؛ لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما عن طريق الحس وطريق التأمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[4].

---

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥٤٨.

(٢) الصحة النفسية: مصطفى فهمي، ص٢٨١.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥٧٢-٥٨٥ (باختصار وتصرف). وقد كتب المؤلف فصلاً عن الجانب التربوي في قصص القرآن، فأجاد، وحري بك الرجوع إليه.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٤٠.

كما تثير الخوف من وقوع العقاب المماثل كما مَرَّ بنا أن عتبة بن ربيعة وضع يده على فم الرسول ﷺ حين قرأ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1] لعلمه أنه وعيد صادق، فإذا كانت هذه صورة من وقع الإنذار بالأحداث على قلب لم يؤمن، فكيف بوقعه على قلوب المؤمنين؟!.

التربية بالشخصية:

والقصص القرآني يجسد شخصيات مثالية، فالأنبياء جعل منهم القرآن نماذج إنسانية عالية، ومع ذلك كان يشير إلى ما يُلِمُّ ببعضهم عليهم السلام من لحظات الضعف البشري دون مدارة حتى لا يغلو بهم أحد إلى مرتبة الألوهية ـ صنيع بعضهم في عيسى عليه السلام ـ رغم كمالاتهم، ليعرض النفس البشرية كما هي في قوتها وضعفها.

التربية بالحوار:

وأكثر ما يكون ذلك في القصص الطويلة التي تتسع للجدل، والقرآن يختار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية فيصوغها في عبارات موجـزة بليغة، تفيض حكمة ورشداً فيما يجري على ألسنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء، أو ضلالاً وزيفاً فيما تنضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة، كحوارات إبراهيم عليه السلام مع قومه ومع أبيه ومع الملك، وحوار موسى عليه السلام مع فرعون وغير ذلك.

وقد خَرَّجَ القرآن بهذه التربية منهجاً فريداً لا يزال قدوة الأمة كلها حتى تقوم الساعة.

---

(١) سورة فصلت: الآية ١٣.

ولذا حرص المربون والحكماء، والأدباء، والمصلحون. . . والمفسدون كذلك على سلوك أسلوب القصة؛ لتحقيق أغراضهم وأهدافهم، فحملوها كل ما يعتقدونه من آراء، وما يريدون بثه من أخلاق.

فصاغوها على ألسنة الحيوانات والطيور، أو الصور المتحركة، بل وجسدوها بممثلين وممثلات، ولكل منهم أغراضه وأهدافه، ولا شك أن القصة أسلوب تربوي وتعليمي ناجح، فالقصة تأخذ بمجامع القلوب، وتشد الأذهان، وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر، فلا تمل ولا تكل.

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ويشق على الناشئة متابعتها، ولا تستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة وإلى أمد قصير، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً وأكثر فائدة[١].

فعلى المربين أن يوظفوا القصة في مجال التربية والتعليم، لاسيما التهذيب الديني، وفي قصص القرآن الكريم، وسيرة الأنبياء والصالحين، وأخبار الأمم الماضية، والحوادث الواقعة، والقصص الهادفة مجال رحب للإصلاح والتوجيه.

* * *

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣١٠-٣١١.

ترجمة القرآن الكريم[1]

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[3] وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[4] وغير ذلك من الآيات.

والرسول ﷺ بعث إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[5] وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[6] وقال عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[7].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجب تبليغ القرآن إلى العجم كل حسب قدرته وطاقته، كما قال الرسول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[8] وذلك بترجمته أو ترجمة معانيه.

---

(١) اقتبست أغلب ما كتبته هنا من كتابي (منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير) وكتابي (نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير).

(٢) سورة يوسف: الآية ٢.

(٣) سورة طه: الآية ١١٣.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٦) سورة يوسف: الآية ١٠٤.

(٧) سورة الفرقان: الآية ١.

(٨) رواه البخاري، ٥٨٢ حديث (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم، وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به، وما نهاه عنه بأي عبارة كانت، هذا ممكن لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس، والترك، والهند، والصقالبة، والبربر، ومن هؤلاء من يعلم اللسان ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه بالترجمة، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير. كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين»[١].

معاني الترجمة لغة:

جاءت كلمة (ترجمة) في العربية لتدل على معان أربعة[٢]:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يسمعه. ومنه قول الشاعر[٣]:

إن الثمانيـــــــن وبلغتهـــــــا قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثانيها: تفسير الكلام بلغته نفسها، ومنه سمي ابن عباس رضي الله عنهما (ترجمان القرآن).

ثالثها: تفسير الكلام بغير لغته، قال الجوهري: «وقد ترجمه، وترجم عنه: إذا فسر كلامه بلسان آخر»[٤].

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى، قال الزبيدي: «وقيل: نقله من لغة إلى أخرى»[٥].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، جـ١، ص١٩٤-١٩٥.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ٢/ ٥-٦ (بتصرف).

(٣) هو: عوف بن المُحَلِّم الشيباني.

(٤) تاج العروس: الزبيدي، ٨/ ٢١١.

(٥) المرجع السابق: نفس الموضع.

ولأن هذه المعاني الأربعة تشترك في أن معناها (البيان) أطلقت الترجمة على كل ما فيه بيان، فقيل: ترجم لهذا الباب بكذا، أي: جعل له عنواناً يُبَيِّن ما تحته. وترجم لفلان، أي: بَيَّن تاريخه، وترجمة هذا الباب، أي: بيان المقصود منه ونحو ذلك.

والذي يعنينا من هذه المعاني الثالث والرابع. ويكون المراد بالترجمة هنا أمرين[1]:

الأول: الترجمة الحرفية.

وهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

ولا بد في الترجمة الحرفية من شرطين:

الأول: وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات في لغة الأصل. حتى يمكن للمترجم أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة والروابط التي تربط الكلمات بعضها ببعض وتطابُق في مواقع أحوال الكلمات كالفاعل والمفعول به، والصفات ونحو ذلك[2].

وبهذين الشرطين يكون من المتعذر ـ بل من المستحيل ـ ترجمة نص ترجمة حرفية فضلاً عن ترجمة القرآن الكريم، لأن معناه الإتيان بمثل هذا القرآن بلغة أخرى.

---

(١) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٣-٢٤.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢ (بتصرف).

حُكْمُ الترجمة الحرفية:

وإذا كانت الترجمة الحرفية غير ممكنة ومستحيلة، فإن ادعاء القيام بترجمة حرفية للقرآن تؤدي معانيه الأصلية ادعاء باطل. فتحرم، وهذا مما لا خلاف فيه بين علماء المسلمين الثقات.

الثاني: الترجمة المعنوية أو التفسيرية:

وهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

حكم الترجمة المعنوية أو التفسيرية:

اختلف العلماء في حكمها بين مؤيد ومعارض:

ومن أدلة المؤيدين:

١ ـ أن الدعوة الإسلامية دعوة عامة لا تختص بجيل دون جيل، أو أمة دون أخرى أو العرب دون العجم، وتحقيق ذلك يقتضي بيان القرآن لتلك الأمم وتوضيح معانيه باللغة التي يفهمونها.

٢ ـ أن العجمي إذا كان لا يستطيع تذوق نظم القرآن بسبب اختلاف اللغة، فإنه قادر على التفكر في معانيه، والتدبر في أحكامه ودلالاته إذا ترجم القرآن له.

٣ ـ إذا كان العربي بحاجة إلى من يفسر له القرآن، فإن العجمي أكثر حاجة إلى بيان القرآن له بلغته التي يفهمها.

ومن أدلة المعارضين:

١ ـ أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية متعذرة، والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من

المفسرين، وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ في فهمه ويصيب[1].

٢ ـ أن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة.

٣ ـ أن القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ الكبرى بل هو الآية الباقية من معجزات الأنبياء والمحافظة عليه تقتضي عدم التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف، والترجمة ليست كذلك.

الترجيح:

عند التأمل نجد أن في أصحاب كل قول معتدلين ومغالين، وأنه لا خلاف بين المعتدلين من الفريقين. وإنما الخلاف الشديد بين المغالين من الفريقين.

فمن غلاة أنصار الترجمة من دعا إلى الترجمة بنوعيها حرفية ومعنوية، وأجاز الصلاة بالترجمة الحرفية واستنباط الأحكام منها، وأنها تحمل معاني كلام الله[2].

ومن غلاة معارضي الترجمة من حرَمَّ أي نوع من أنواع الترجمة، وسَدَّ كل باب للعجم لفهم القرآن إلا باب التعلم للغة العربية.

أما المعتدلون من الفريقين فليس بينهما خلاف يذكر، إلا ما دار حول مسمى الترجمة، فسماها أنصار الترجمة «ترجمة القرآن» أو «ترجمة معاني القرآن» وسماها المعارضون للترجمة «تفسير القرآن» أو «ترجمة تفسير القرآن» وجمع آخرون الاسمين معاً «ترجمة معاني تفسير القرآن الكريم».

---

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، جـ٩، ص٣١٢-٣١٦.

(٢) بحث في ترجمة القرآن الكريم: محمد مصطفى المراغي، ص٢٢.

والخلاصة أنه كما يباح بالإجماع تفسير القرآن الكريم، فإنه لا ضير أن يفسر القرآن عربي أو يفسره غير عربي متمكن من العربية ومن لغته ما دام أن ما يقوله لا يتجاوز وصفه بـ«التفسير» فكما يصح أن يقال: هذا تفسير القرآن باللغة العربية، فإنه يجوز أن يقال: هذا تفسيره بالفارسية أو الانجليزية أو الفرنسية أو غير ذلك.

وكما يقال هذا تفسير الطبري، وهذا تفسير الرازي، وهذا تفسير ابن كثير فإنه يجوز أن يقال: وهذا تفسير فلان بالأردية، وهذا تفسير فلان بالفارسية، وهذا تفسير فلان بالانجليزية.

لكن ينبغي مراعاة أمور[1]:

١ ـ أن يكتب النص القرآني باللغة العربية برسم المصحف ومضبوطاً بالشكل في أعلى كل صفحة، ويتلوه باللغة الأجنبية كلمة (التفسير) ثم يكتب تحتها بتلك اللغة ذلك التفسير.

٢ ـ لا بد من النص على أن هذا ليس هو نص القرآن وليست فيه خصائصه ولا تنطبق عليه أحكامه.

٣ ـ عدم كتابة كلمات القرآن بحروف غير عربية وقد أفتى علماء المسلمين بتحريم ذلك.

٤ ـ الاقتصار في الترجمة على معاني النص مباشرة، فينبغي خلوه من المصطلحات العلمية والمباحث الفلسفية والنظريات العلمية.

---

(١) انظر كتابي: نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير: ص٢٩.

جهود المملكة العربية السعودية في ترجمة القرآن الكريم:

وقد قامت حكومة المملكة العربية السعودية وفقها الله تعالى بإنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف وخدمة القرآن الكريم، ومن ضمن جهودها ترجمة القرآن الكريم إلى لغات العالم، وقد صدر حتى الآن ٤٥ ترجمة.

كما أنه تم تسجيل معاني سورة الفاتحة وجزء عم بهذه اللغات على الوسائط الصوتية ـ أشرطة وغيرها ـ ويجري الآن التسجيل الصوتي لمعاني القرآن الكريم كاملاً بهذه اللغات الواسعة الانتشار. فبارك الله في هذه الجهود والقائمين عليها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

❋ ❋ ❋



المصادر

١ ـ الإبانة عن معاني القراءات: مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر (بدون تاريخ).

٢ ـ ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى.

٣ ـ اتجاهات التفسير في العصر الراهن: د. عبد المجيد المحتسب، مكتبة النهضة الإسلامية ـ عمان، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

٤ ـ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ مكتبة الرشد ـ الرياض.

٥ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: السيد محمد الحسيني الزبيدي المرتضى، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٦ ـ إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ دار العاصمة ـ الرياض.

٧ ـ إتحاف فضلاء البشر: أحمد بن محمد البنا، دار الندوة الجديدة، بيروت.

٨ ـ الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، الطبعة الثانية، ١٣٤٣هـ المطبعة الأزهرية بمصر والطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ، مصطفى البابي الحلبي. وطبعة مؤسسة النداء، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، تحقيق د. القيسية، والأتاسي الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٩ ـ إجمال البيان في مباحث من علوم القرآن: د. عبد الله أحمد عثمان احميد، جامعة قاريونس، ١٣٩٨هـ.

١٠ـ الأحرف السبعة: د. حسن عتر، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

١١ـ الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم الظاهري ـ دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ وطبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ.

١٢ـ الإحكام في أصول الأحكام: سيف الدين أبو الحسن علي الآمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، مؤسسة النور ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.
١٣ـ أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي. تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.
١٤ـ أخلاق أهل القرآن: أبو بكر الآجري: تحقيق محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار الباز ـ مكة المكرمة.
١٥ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ـ شهاب الدين القسطلاني ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت مصورة عن الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية ـ ببولاق مصر ١٣٠٤هـ.
١٦ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ وطبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت تحقيق محمد حسن الشافعي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
١٧ـ أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٨هـ. وطبعة دار الإصلاح ـ الدمام ط١ سنة ١٤١١هـ.
١٨ـ أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، د. سامي عطا حسن، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الكويت، العدد ٥٣ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ.
١٩ـ أسماء القرآن الكريم في القرآن: د. خمساوي أحمد الخمساوي، دار التحرير ـ القاهرة.
٢٠ـ الأسماء والصفات: أبو بكر البيهقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢١ـ أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمٰن العك، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.
٢٢ـ أصول الفقه الإسلامي: د. وهبه الزحيلي، دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٦هـ.
٢٣ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
٢٤ـ إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٢٥ـ إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان، منشأة المعارف ـ الإسكندرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.
=

٢٦ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثامنة ١٣٨٩هـ.

٢٧ـ إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالويه، المكتبة الثقافية، بيروت ١٤٠٧هـ.

٢٨ـ الأعلام: خير الدين الزركلي دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

٢٩ـ الإعلان بتكميل مورد الظمآن: ابن عاشر (ضمن كتاب دليل الحيران شرح مورد الظمآن للمارغني التونسي) تحقيق محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٠ـ الأمثال القرآنية: عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني، دار القلم ـ دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٣١ـ الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٣٢ـ الإمعان في أقسام القرآن: عبد الحميد الفراهي، دار القرآن الكريم ـ الكويت ١٤٠٠هـ.

٣٣ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين البيضاوي، مؤسسة شعبان ـ بيروت.

٣٤ـ آيات الجهاد في القرآن الكريم: د. كامل سلامة الدقس، دار البيان ـ الكويت ١٣٩٢هـ.

٣٥ـ الآيات المنسوخة في القرآن الكريم: د. عبد الله بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ومكتبة العلم بجدة.

٣٦ـ إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام: محمد حبيب الله الشنقيطي، مكتبة المعرفة ـ سوريا، حمص، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٣٧ـ بحث في ترجمة القرآن الكريم: محمد مصطفى المراغي، مطبعة الرغائب، ربيع الثاني ١٣٥٥هـ.

٣٨ـ البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٣٩ـ البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين الزركشي، تحقيق وتقديم د. محمد بن عبد الرزاق الدويش (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٤٠٦) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأيضاً طبعة دار الكتبي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ تحقيق لجنة من علماء الأزهر.

٤٠ـ البداية والنهاية: ابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٤١ـ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي، مصطفى البابي الحلبي ـ مصر.
٤٢ـ بديع القرآن: ابن أبي الأصبع، تحقيق حفني محمد شرف ـ نهضة مصر.
٤٣ـ البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.
٤٤ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.
٤٥ـ بلاغة القرآن: محمد الخضر حسين، الناشر علي الرضا التونسي ـ دمشق ١٣٩١هـ.
٤٦ـ بيان إعجاز القرآن: أبو سليمان الخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف ـ بمصر.
٤٧ـ بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات: أبو العباس أحمد ابن عمار المهدوي ضمن مجموع بعنوان (أربعة كتب في علوم القرآن: تحقيق د. حاتم الضامن، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٤٨ـ البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي، دار عمار ـ الأردن، عمان، الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٤٩ـ بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب): أبو الثناء الأصفهاني تحقيق د. محمد مظهر بقا، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ـ جامعة أم القرى مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٥٠ـ تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي، منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت (بدون تاريخ وسنة النشر).
٥١ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
٥٢ـ تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.
٥٣ـ تاريخ المصحف الشريف: عبد الفتاح القاضي، مكتبة الجندي ـ القاهرة (بدون تاريخ).
٥٤ـ تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث ـ القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٥٥ـ التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، تحقيق: عبده الكوشك، مكتبة الإحسان - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ. وأيضاً الطبعة الأولى دار البيان دمشق ١٤٠٥هـ بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، والطبعة الأولى لدار النفائس بيروت ١٤٠٤هـ بتحقيق عبد العزيز السيروان.
٥٦ـ التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض ١٣٨٨هـ وطبعة دار إحياء العلوم - بيروت تحقيق محمد شريف سكر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٥٧ـ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، المطبعة الأميرية ـ ببولاق، الطبعة الأولى ١٣١٣هـ.
٥٨ـ التحبير في علم التفسير: جلال الدين السيوطي تحقيق د. فتحي عبد القادر، دار المنار، القاهرة ١٤٠٦هـ.
٥٩ـ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، عيسى الحلبي ـ بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ والنشرة الثانية الدار التونسية للنشر ١٩٧٣م.
٦٠ـ تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية: صالح علي العود، مركز التربية الإسلامية ـ باريس ودار الكتاب النفيس ـ حلب، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.
٦١ـ تخريج أحاديث مشكلة الفقر: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي دمشق - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٦٢ـ تدريب الراوي: جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف (دون ذكر اسم الناشر وتاريخ النشر).
٦٣ـ التذكار في أفضل الأذكار: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق ثروت محمد نافع، دار التوحيد ـ مصر.
٦٤ـ تذكرة السامع والمتكلم: بدر الدين ابن جماعة، دار الكتب العلمية.
٦٥ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) مكتبة النهضة الحديثة بمصر، الطبعة الأولى ١٩٨٤هـ.
٦٦ـ التفسير العلمي بمكتشفات العلم التجريبي: د. محمد بن عبد الرحمٰن الشايع بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض، العدد الرابع ١٤١١هـ.

٦٧ـ التفسير العلمي للقرآن الكريم: عبد الله الأهدل. رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٢هـ مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٦٨ـ التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الرابعة.

٦٩ـ تفسير مجاهد: تحقيق عبد الرحمٰن السورتي، المنشورات العلمية - بيروت (بدون تاريخ).

٧٠ـ التفسير معالم حياته: أمين الخولي، جماعة الكتاب ١٩٤٤م وطبعة دار الكتاب اللبناني الأولى ١٩٨٢م.

٧١ـ تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المنار - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ.

٧٢ـ تفسير النصوص في الفقه الإسلامي: د. محمد أديب الصالح المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٧٣ـ التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.

٧٤ـ التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٠٦هـ.

٧٥ـ التمهيد: ابن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مطبعة فضالة المحمدية - المغرب، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

٧٦ـ التمهيد في معرفة التجويد: أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمداني تحقيق د. غانم قدوري الحمد، عمان، دار عمار، ١٤٢٠هـ.

٧٧ـ التوحيد وإثبات صفة الرب: محمد بن إسحاق بن خزيمة، راجعه محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣هـ.

٧٨ـ توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، المكتبة السلفية - المدينة المنورة.

٧٩ـ تهافت التهافت: ابن رشد الحفيد، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧١م.

٨٠ـ تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تحقيق عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٨١ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق وتخريج محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر. وطبعة المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣٢٨هـ.
٨٢ـ جامع البيان في معرفة رسم القرآن: علي إسماعيل هنداوي ـ دار الفرقان ـ الرياض.
٨٣ـ الجامع الصحيح: أبو عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٨٤ـ جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي، الناشر مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٢هـ.
٨٥ـ الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله القرطبي أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٦٥م.
٨٦ـ الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي، تحقيق د. غانم قدوري الحمد، دار الأنبار، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٨٧ـ الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية: د. يوسف عيد، دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٨٨ـ جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي، تحقيق د. علي البواب مكتبة التراث ـ مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٨٩ـ جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير: أحمد ياسوف، دار المكتبي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دمشق.
٩٠ـ الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم: لبيب السعيد، دار الكتاب العربي ـ القاهرة، ١٣٨٧هـ.
٩١ـ جمهرة اللغة: ابن دريد، دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ.
٩٢ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، مطابع المجد (دون تاريخ ومكان النشر).
٩٣ـ الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، مطبعة الحكومة ـ بمكة المكرمة ١٣٦٩هـ.
٩٤ـ جوامع السيرة: ابن حزم، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر.

٩٥ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية: أبو محمد بن أبي الوفاء، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٨هـ.

٩٦ـ حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، دار النشر الدولي ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٩٧ـ حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩٨ـ خصائص القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، دار طيبة، الرياض، الطبعة السابعة ١٤١١هـ.

٩٩ـ خطط الشام: محمد كرد علي، مكتبة النوري ـ دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

١٠٠ـ درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٠١ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

١٠٢ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، الناشر: محمد أمين دمج بيروت ـ مؤسسة الرسالة.

١٠٣ـ دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.

١٠٤ـ دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تخريج وتعليق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٠٥ـ دليل الحيران شرح مورد الظمآن: إبراهيم بن أحمد المارغني، راجعه محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة.

١٠٦ـ ديوان جرير: دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ.

١٠٧ـ الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، دار المعرفة ـ بيروت.

١٠٨ـ رحلة ابن بطوطة: المكتبة التجارية الكبرى ـ بمصر، ١٣٨٦هـ.

١٠٩ـ رحلة ابن جبير: دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، ١٩٨١م.

١١٠ـ الرد على المنطقيين: ابن تيمية، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ.

١١١ـ رسم المصحف: د. غانم قدوري الحمد، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
١١٢ـ الروح: ابن القيم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ.
١١٣ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٨هـ، وطبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة.
١١٤ـ روضة الناظر وجنة المناظر: ابن قدامة المقدسي، مطابع الجزيرة ـ الرياض، ١٣٨٩هـ.
١١٥ـ زاد المعاد: ابن قيم الجوزية، المطبعة المصرية ومكتبتها.
١١٦ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم: أبو علي الحسن اليوسي.
١١٧ـ سنن الدارمي: دار الفكر ـ القاهرة، ١٣٩٨هـ.
١١٨ـ سنن ابن ماجه: دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية.
١١٩ـ سنن أبي داود: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.
١٢٠ـ السنن الكبرى: أبو بكر البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.
١٢١ـ السنة: ابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
١٢٢ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت (دون تاريخ).
١٢٣ـ سلسلة رسائل ١-٥: للعلامة عبد الرحمٰن المعلمي، أعدها للنشر ماجد الزيادي، المكتبة المكية ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
١٢٤ـ السياسة الشرعية: ابن تيمية (ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
١٢٥ـ سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي. أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١٢٦ـ سيرة ابن هشام: تحقيق السقا، الأبياري، شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي ـ مصر ١٣٥٥هـ.

١٢٧ـ سيكولوجية القصة في القرآن: د. التهامي نقره، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م.
١٢٨ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (بدون تاريخ).
١٢٩ـ شرح السنة: أبو محمد الفراء البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
١٣٠ـ شرح صحيح مسلم: النووي، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
١٣١ـ شرح العقيدة الطحاوية: علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض، وطبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.
١٣٢ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: الحسن العسكري، تحقيق عبد العزيز أحمد، الناشر ـ مصطفى الحلبي ـ مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.
١٣٣ـ شرح المفصل: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية ـ بمصر (دون تاريخ).
١٣٤ـ شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، المطبعة العزيزية ـ حيدر آباد ـ الهند، ١٩٨٣م.
١٣٥ـ الشوارد: عبد الله بن خميس دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض ١٣٩٤هـ.
١٣٦ـ الصاحبي: ابن فارس، المكتبة السلفية ـ مصر ١٩١٠م.
١٣٧ـ الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
١٣٨ـ الصحة النفسية: مصطفى فهمي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٥م.
١٣٩ـ صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية ـ استنبول ـ تركيا ١٩٧٩م.
١٤٠ـ صحيح الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١٤١ـ صحيح مسلم: تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض ١٤٠٠هـ.
١٤٢ـ صفحات في علوم القراءات: عبد القيوم السندي، المكتبة الإمدادية ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٤٣ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره: عبد المجيد البيانوني، دار القلم - دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٤٤ـ طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) وأيضاً طبعة عيسى البابي الحلبي، بتحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.

١٤٥ـ طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة الطبعة الأولى.

٦٤٦ـ طبقات المفسرين: شمس الدين الداودي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى.

١٤٧ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن قيم الجوزية مطبعة الاتحاد الشرقي - دمشق.

١٤٨ـ طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ضبط وتصحيح محمد تميم الزعبي، دار الهدى ـ جدة ١٤١٤هـ.

١٤٩ـ العقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين القرافي، تحقيق محمد علوي بنصر، وزارة الأوقاف المغربية ١٤١٨هـ، وطبعة أخرى بتحقيق د. أحمد الختم عبد الله، المكتبة المكية، دار الكتبي ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

١٥٠ـ علم المناسبات في القرآن الكريم: د. محمد عبد العزيز الخضيري (بحث منشور في مجلة البيان ـ لندن العدد ١٤٦).

١٥١ـ علم النفس والأخلاق: هادفيلد ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم.

١٥٢ـ علوم القرآن الكريم: د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

١٥٣ـ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، تحقيق عبد السلام التونجي الحلبي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١٥٤ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري: البدر العيني، دار الفكر ـ بيروت.

١٥٥ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، دار ثقيف ـ الرياض.

١٥٦ـ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

١٥٧ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري تحقيق: إبراهيم عطوه عوض ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.

١٥٨ـ غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلّام، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٥٩ـ الفتاوى الكبرى: ابن تيمية. قدم له حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة ـ بيروت (دون تاريخ).

١٦٠ـ فتح الباري: ابن حجر العسقلاني ـ تصحيح عبد العزيز بن باز، ترقيم محمد عبد الباقي، دار الفكر ـ تصوير عن الطبعة السلفية.

١٦١ـ الفتح الرباني في علاقة القراءات بالرسم العثماني: د. محمد محمد سالم محيسن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٥هـ.

١٦٢ـ فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ.

١٦٣ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٦٤ـ الفرائد الحسان في بيان رسم القرآن: محمد بن يوسف التونسي الشهير بالكافي، مطبعة العلوم والآداب ـ دمشق ١٣٧٥هـ.

١٦٥ـ فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب، دار التراث ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

١٦٦ـ فضائل القرآن: ابن كثير الدمشقي، دار الأندلس.

١٦٧ـ فضائل القرآن ومعالمه وآدابه: أبو عبيد القاسم بن سلام تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، ١٤١٥هـ. وأيضاً طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت تحقيق وهبي سليمان غاوجي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٦٨ـ فضائل القرآن: ابن الضُّريس البجلي، تحقيق غزوة بدير، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٦٩ـ فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

١٧٠- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي، تحقيق حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
١٧١- الفهرست: ابن النديم، دار الباز - مكة المكرمة.
١٧٢- في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك - المكتب المصري الحديث - القاهرة.
١٧٣- القاموس المحيط: الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
١٧٤- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح القاضي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (بدون تاريخ).
١٧٥- القراءات القرآنية: عبد الحليم قابه، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
١٧٦- قراءة عبد الله بن مسعود: د. محمد أحمد خاطر، دار الاعتصام - القاهرة (دون تاريخ).
١٧٧- القرآن الكريم تاريخه وعلومه: د. محمد البدري، دار القلم - دبي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
١٧٨- قصة عقيدة: د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، مكتبة التوبة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٧٩- القطع والائتناف: أبو جعفر النحاس تحقيق د. أحمد خطاب العمر، الطبعة الأولى وزارة الأوقاف العراقية، إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٨هـ.
١٨٠- قواعد الترجيح عند المفسرين: د. حسين بن علي الحربي، دار القاسم - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
١٨١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ.
١٨٢- الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - مصر، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
١٨٣- كتاب الإبريز: أحمد بن المبارك، المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الأولى ١٣٠٦هـ.
١٨٤- كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم: د. خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان السعودية - الخبر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١٨٥- كُتّاب النبي ﷺ: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.

١٨٦ـ كُتّاب الوحي: د. أحمد عبد الرحمٰن عيسى، دار اللواء ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
١٨٧ـ الكتابة العربية: د. غانم قدوري الحمد (بحث في مجلة الحكمة ـ لندن العدد العاشر).
١٨٨ـ كتابة المصحف الشريف وطباعته: د. محمد سالم شديد العوفي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.
١٨٩ـ الكشاف: الزمخشري، طبعة انتشارات آفتات ـ تهران، وطبعة دار المعرفة ـ بيروت.
١٩٠ـ كشف الأستار عن زوائد البزار: نور الدين علي الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
١٩١ـ كشف الظنون: حاجي خليفة، دار العلوم الحديثة ـ بيروت.
١٩٢ـ الكشف والبيان في علوم القرآن: د. سمير عبد العزيز شيلوه، مطبعة دار البيان ـ مصر.
١٩٣ـ لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
١٩٤ـ لسان العرب: ابن منظور، دار صادر ـ بيروت (دون تاريخ).
١٩٥ـ لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ.
١٩٦ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات: شهاب الدين القسطلاني تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ود. عبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ١٣٩٢هـ.
١٩٧ـ لغة القرآن الكريم: عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة ـ الأردن ـ عمان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
١٩٨ـ لمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٣٩٤هـ.
١٩٩ـ مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، دار المنارة ـ جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٠٠ـ مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الثامنة ١٤٠١هـ.
٢٠١ـ مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة ١٩٧٤م.

٢٠٢ـ مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ.
٢٠٣ـ مجمع الزوائد: علي الهيثمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.
٢٠٤ـ مجموع الفتاوى ابن تيمية: جمع عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
٢٠٥ـ المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرين، طبع على نفقة أمير دولة قطر، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ الدوحة ـ قطر.
٢٠٦ـ المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدين الرازي، تحقيق طه العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
٢٠٧ـ المحكم في نقط المصاحف: أبو عمرو الداني، تحقيق د: عزة حسن، مديريه إحياء التراث القديم وزارة الثقافة والإرشاد ـ دمشق ١٩٦٠م.
٢٠٨ـ المحكم والمتشابه في القرآن العظيم: د. عبد الرحمٰن المطرودي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٢٠٩ـ مخلفات الرسول ﷺ في المسجد الحسيني: د. سعاد ماهر، دار النشر لجامعة القاهرة ١٩٨٩م.
٢١٠ـ مدخل إلى القرآن الكريم: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم ـ الكويت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
٢١١ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد محمد أبو شهبة، الطبعة الثانية.
٢١٢ـ مذاهب التفسير الإسلامي: اجنتس جولد تسيهر، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار اقرأ ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٢١٣ـ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز: أبو شامة المقدسي، تحقيق طيار قولاج، دار صادر - بيروت ١٣٩٥هـ. وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٢٤هـ.
٢١٤ـ المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات: أبو علي الفارسي، تحقيق ودراسة صلاح الدين عبد الله الشيكاوي، مطبعة العاني ـ بغداد.
٢١٥ـ المستدرك: الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.

٢١٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، دار صادر - بيروت، مصورة عن طبعة المطبعة الميمنية ١٣١٣هـ، وطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٣هـ، الطبعة الرابعة بتحقيق وتخريج أحمد محمد شاكر. وطبعة مؤسسة الرسالة - بيروت تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٢١٧- مسند الشهاب: أبو عبد الله القضاعي، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٥م.

٢١٨- مشاهير علماء نجد وغيرهم: عبد الرحمٰن بن عبد اللطيف آل الشيخ، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

٢١٩- مشكاة المصابيح: الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

٢٢٠- المصاحف: أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، دار الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. وطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر تحقيق د. محب الدين واعظ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٢١- المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، تصحيح مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - بمصر، ١٣٦٩هـ.

٢٢٢- معالم التنزيل: أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٢٣- معالم الشريعة الإسلامية: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٢٢٤- معاني القرآن: أبو زكريا الفراء، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٢٢٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي، تصحيح أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢٢٦- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأخيرة.

٢٢٧- المعجم الأوسط: الطبراني، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٢٨- المعجم الكبير: الطبراني، حققه وخرج أحاديثه حمدي السلفي مطبعة الزهراء - العراق، وطبعة الدار العربية للطباعة - بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

٢٢٩ـ معجم المفسرين: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٣٠ـ معجم المقاييس في اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٢٣١ـ معرفة القراء الكبار: شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى (بدون تاريخ).
٢٣٢ـ مع القرآن الكريم: د. شعبان إسماعيل، دار الاتحاد العربي ـ القاهرة ١٣٩٨هـ.
٢٣٣ـ مع القرآن الكريم دراسات وأحكام: حيدر قفه، دار الضياء ـ عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
٢٣٤ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق مجموعة من الباحثين ١٩٦٦م.
٢٣٥ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الباز (بدون تاريخ).
٢٣٦ـ مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده، مراجعة وتحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.
٢٣٧ـ مفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦هـ.
٢٣٨ـ المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، الطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٤هـ.
٢٣٩ـ مقدمة ابن خلدون: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).
٢٤٠ـ مقدمة جامع التفاسير: الراغب الأصفهاني، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة ـ الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٢٤١ـ مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم ـ الكويت، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.
٢٤٢ـ المقنع: أبو عمرو الداني، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر ـ دمشق، ١٤٠٣هـ.
٢٤٣ـ من أسرار البلاغة في القرآن: د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
٢٤٤ـ مناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية ـ الرياض (بدون تاريخ).

٢٤٥ـ مناهج المفسرين: د. مساعد مسلم آل جعفر، ود. محيي هلال السرحان، وزارة التعليم العالي ـ العراق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
٢٤٦ـ مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة. وطبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٢٤٧ـ منجد المقرئين: ابن الجزري، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٠هـ.
٢٤٨ـ من قضايا القرآن: د. إسماعيل الطحان، مكتبة الأقصى ـ قطر، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.
٢٤٩ـ منهج الفرقان في علوم القرآن: محمد علي سلامة، تحقيق د. محمد سيد أحمد المسير نهضة مصر الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
٢٥٠ـ منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: مصطفى الباجقني، المنشأة العامة للنشر والتوزيع ـ طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
٢٥١ـ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٣هـ.
٢٥٢ـ الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، بشرح عبد الله دراز وترقيم محمد عبد الله دراز، دار المعرفة ـ بيروت.
٢٥٣ـ المهذب في فقه الإمام الشافعي: أبو إسحاق الفيروزآبادي الشيرازي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ.
٢٥٤ـ ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي وفتحية البجاوي، دار الفكر العربي.
٢٥٥ـ النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم ـ الكويت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.
٢٥٦ـ نزول القرآن الكريم: د. محمد بن عبد الرحمٰن الشايع، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ (بدون ذكر اسم الناشر).
٢٥٧ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات ابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار ـ الزرقاء، الأردن، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.
٢٥٨ـ النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٢٥٩ـ نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عياض: أحمد بن محمد الخفاجي، المطبعة الأزهرية ـ القاهرة ١٣٢٥هـ.
٢٦٠ـ النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٦١ـ نظرات في مدرسة التفسير الحديثة: د. مصطفى مسلم. (بحث منشور في مجلة كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الثاني).
٢٦٢ـ نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير: د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي. الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
٢٦٣ـ النكت والعيون: الماوردي، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة المؤيد ـ الرياض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ[1].
٢٦٤ـ نور الثقلين: (عبد علي) الحويزي، دار الكتب العلمية ـ قم ـ إيران.
٢٦٥ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية.
٢٦٦ـ والله يعصمك من الناس: أحمد الجدع، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
٢٦٧ـ وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور: د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، مكتبة التوبة ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٢٦٨ـ الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٥٤هـ.
٢٦٩ـ الوحي والقرآن الكريم: د. محمد حسين الذهبي مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٢٧٠ـ الوسيط: علي بن أحمد الواحدي، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، مكتبة دار الباز، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٢٧١ـ وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.
٢٧٢ـ الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح بن إبراهيم البليهي، المطابع الأهلية للأوفست ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

---

(١) هذه الطبعة لهذا التفسير ينبغي أن لا يعتمد عليها بدون كتيب التصحيحات الذي أصدرته مكتبة المؤيد بالرياض حيث إن القائم على الطباعة في بيروت قام بتحريف وتزوير تعليقات المحقق كما جاء في الكتيب المذكور. وأضاف زيادات وتعليقات باطلة وتأويلات منحرفة.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

تفسير

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة





للمؤلف

* تأليف:

١ ـ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (في مجلدين) .... الطبعة الخامسة

٢ ـ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (ثلاثة مجلدات).......... الطبعة الرابعة

٣ ـ خصائص القرآن الكريم .... الطبعة الحادية عشر

٤ ـ الصلاة في القرآن الكريم .... الطبعة السابعة

٥ ـ قصة عقيدة .... الطبعة الأولى

٦ ـ دراسات في علوم القرآن الكريم .... الطبعة الثالثة عشر

٧ ـ بحوث في أصول التفسير ومناهجه .... الطبعة السابعة

٨ ـ البدهيات في القرآن الكريم .... الطبعة الثانية

٩ ـ البدهيات في الحزب الأول من القرآن الكريم .... الطبعة الثانية

١٠ـ التفسير الفقهي في القيروان .... الطبعة الثانية

١١ـ منهج المدرسة الأندلسية في التفسير .... الطبعة الثانية

١٢ـ وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف الهجائية المقطعة.......... الطبعة الثانية

١٣ـ مسألة خلق القرآن وموقف علماء القيروان منها .... الطبعة الثانية

١٤ـ قول الصحابي في التفسير الأندلسي .... الطبعة الأولى

١٥ـ تطبيق الحدود الشرعية وأثره على الأمن .... الطبعة الأولى

١٦ـ نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير .... الطبعة الأولى

١٧ـ جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين .... الطبعة الأولى

١٨ـ تحريف المصطلحات القرآنية .... الطبعة الأولى

*** تحقيق :**

١ ـ تفسير الفاتحة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . . . . **الطبعة الخامسة**

٢ ـ تفسير الفاتحة (مختصر) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . . . . . . **الطبعة الرابعة**

٣ ـ تفسير سورة الفلق لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . . . . **الطبعة الرابعة**

٤ ـ تفسير سورة الناس لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . . . . **الطبعة الثانية**

٥ ـ فضائل القرآن الكريم لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . . . . **الطبعة الثانية**

٦ ـ قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . . **الطبعة الأولى**

*** بالاشتراك :**

١ ـ طرق تدريس التجويد وأحكام تعلمه وتعليمه . . . . **الطبعة الخامسة**

